سلسلة أجمل الروايات العالمية

غوستاف فلوبير

سالامبو

رائعة فلوبير الملحمية

علي مولا

دار الحرف العربي

منة كتاب وكتاب هدية ثورة الشباب..مشروع "ثورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

اسم الكتاب :
سلامبو (Salambo)
المؤلف :
غوستاف فلوبير

اعداد وتقديم و تحليل :
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :
دار الحرف العربي
للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط -بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون و فاكس : 009611/361045
بيروت – لبنان

E-mail:
Dar_al_haref_alarabi@yahoo.com
Harefal3arabi@hotmail.com

الطبعة :
الاولى 2010

تصميم الغلاف :
فؤاد سليمان وهبي

الحقوق :
© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الترقيم الدولي :
ISBN:978-9953-542-16-4

سلسلة أجمل الروايات العالمية

غوستاف فلوبير

سالامبو

رائعة فلوبير الملحمية

إعداد وتقديم وتحليل:
الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

طبع في لبنان Printed In Lebanon

غوستاف فلوبير

١٨٢١ ـ ١٨٨٠

ولد غوستاف في مدينة روان شمالي فرنسا في الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٢١، وهو ابن أشيل كليوڤاس فلوبير الذي كان كبير جراحي مستشفى المدينة، وكان هو نفسه ابن طبيب بيطري، وكانت والدته آن جاستين كارولين فليريو تنتسب، من ناحية أمها، إلى أقدم الأسر في نورماندیا السفلى، وكانت شديدة الاعتداد بنسبها، وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل إلى احتقار الناس العاديين. ومهما يكن من الأمر فإنها كانت شديدة التوفر على العناية بابنها، وكان هذا من أسباب إعراضه عن الزواج.

كان فلوبير طويل القامة، قوي البنية، وقد مال في شيخوخته إلى البدانة، وكان كبير الأنف، عالي الجبين، بارز العينين، كث الشاربين. ولد في مستشفى أوتيل ديو ونشأ فيها، وبقي هناك إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره، وأرسل من بعد إلى باريس لدراسة القانون، ودرس في الليسيه طالباً منتسباً، ولم يبذل في دراسته جهداً، وظهر تعلّقه بالأدب مبكراً، ففي الحادية عشرة من عمره اشترك مع بعض زملائه في تمثيل رواية من تأليفه.

غوستاف فلوبير

لم يكن في طفولته وشبابه كثير الأصدقاء، وقد وصفته سيدة عرفته في مطلع صباه فقالت: «كان غوستاف فلوبير في ذلك الوقت يبدو كأنه يوناني في مقتبل العمر، وكان مديد القامة، نحيف الجسم، رشيق الحركة كالرياضي المصارع، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية، وغير

حافل بتقاليد المجتمع، وحينما قلت له إن النفوذ والشهرة من الأمور المرغوبة والتي لها قيمتها، أصغى إلى حديثي في غير اكتراث، وقد علا وجهه الابتسام، وكان يعجب بما هو جميل في الطبيعة والفن، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر في مصلحته الشخصية، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة، وكان الذي يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو له أنه جدير بالإعجاب، والمتعة التي يجدها الإنسان في الاجتماع به والقرب منه باعثها حماسته لكل ما هو نبيل، وتفوقه العقلي يبدو في فرديّته القوية، والذي ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية المفيدة، فإذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة، أو الشؤون العملية، شائقة مثل الأدب والفن، فإنه يفتح عينيه من التعجّب والرثاء لحالة القائلين بذلك».

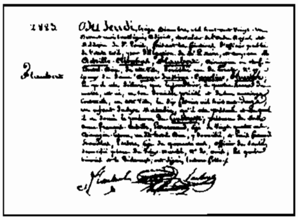
شهادة ميلاد فلوبير سنة ١٨٢١

هكذا كان حال غوستاف عندما جاء باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون، وقد سئم الحياة فيها، وكره ما يسمّى «حياة الطلبة»، ولم يكن قد وضع خطة لحياته الأدبية بعد. وكان يقضي معظم أيامه وحيداً في شقته الصغيرة ولا يكاد يفتح كتاباً من كتب القانون حتى يطوي صفحاته ويستلقي ساعات في فراشه مدخّناً حالماً، فقد صار ممّن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار والغوص في التأمّل.

وفي باريس كان يتردّد بين الحين والحين إلى مرسم براديه حيث لقي في أحد الأيام ڤيكتور هوغو، وعرف السيدة لويز كوليه، وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات في ذلك العصر. وفي أيلول/ سپتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحلة في جبال البرناس وجزيرة كورسيكا، وكان لهذا التغيير في أسلوب حياته أثره الطيب في حالته النفسية، ووصفه لجزيرة كورسيكا في الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف والتي تجلّت بعد ذلك في مؤلفاته.

في سنة ١٨٤٥ توفي والده، كما توفيت شقيقته كارولين في السنة التالية، وأصبحت والدته تعيش في عزلة، فصمّم على مبارحة پاريس التي كان لا يستريح إلى الإقامة فيها، وترك دراسة القانون التي كان يمقتها، وآثر أن يعيش في كرواسيه القريبة من روان في منزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعّدات فيه ومنحدرات، وعلى الضفة الأخرى التلال المتوّجة بالخضرة.

في ذلك المكان الخلاب قضى أربعاً وثلاثين سنة حتى وافته المنيّة، وعاش عيشة دراسة وانكباب على العمل لم يتخلّلها سوى رحلة إلى بريتانيا مع صديقه مكسيم دوكامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه أيضاً إلى الشرق سنة ١٨٤٩، وزيارات لپاريس في فترات غير منتظمة. ولم يقبل على الأدب إقبالاً جدّياً إلاّ في سنة ١٨٤٦، وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع، ويكتب مذكراته ويسجّل تعليقاته على ما يقرأ في رسائله إلى أصدقائه، ويضع خططاً لحياته المقبلة، وشرع في كتابة أصول روايته «إغراء القديس أنطونيوس». وفي هذه السنة نفسها بدأت علاقته المعروفة بالسيدة لويز كوليه، واستمرت حتى سنة ١٨٥٤، وكانت العلاقة العاطفية الوحيدة في حياته.

وفي سنة ١٨٤٩ قام بالرحلة إلى الشرق ـ كما ذكرنا ـ مع صديقه مكسيم دو كامب، وزار جزيرة مالطا ومصر، وأصعد في النيل إلى قنا، وزار سورية وفلسطين وأثينا والقسطنطينية وجزءاً من بلاد اليونان، وفُتن بما شاهد من مناظر طبيعية، وعاش بقية أيام حياته يحلم بالعودة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال المندرسة والآثار التاريخية، وأعجب كل العجب بأهرامات الجيزة وأبي الهول، وكتب في ذلك يقول: «بلغنا سفح التل الذي تقوم فوقه الأهرامات في مساء الساعة الرابعة يوم الجمعة الموافق اليوم السابع من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٤٩، وأطلقت العنان للجواد الذي كنت أمتطيه، وكذلك فعل مكسيم، ووقفنا عند قدمي أبي الهول، وتلقاء منظره الذي لا يمكن وصفه طافت بذهني خواطر شتى،

وحال لون وجه صاحبي حتى صار في بياض صفحة الورقة التي أكتب عليها، وحينما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو الهول والأهرامات الثلاثة جميعاً وردية اللون كأنها غارقة في الضوء، ونظر إلينا هذا الوحش الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة، ولن أنسى ما عشت الانطباع الغريب الذي خلّفه ذلك المنظر في نفسي، وقضينا ثلاث ليال عند أقدام هذه الأهرامات القديمة. والقول الصريح إنها رائعة، وكلما أطلت إليها النظر كلما بدت لك أكبر وأضخم، وأحجارها التي تبدو على مسافة عشرين خطوة مثل أحجار رصف الطرق تقرب في الحقيقة من حجم الإنسان، وحينما تتسلّقها تزداد علوّاً مثلما يتسلق الإنسان جبلاً».

أصبحت حياة غوستاف فلوبير بعد سنة ١٨٥٠ مقصورة على أحداث حياته الأدبية، وصار تاريخه تاريخ كتبه التي شغل بتأليفها، وكان يقضي معظم السنة في كرواسيه منكبّاً على التأليف، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلاّ مدة أيام قليلة، وكان لا يذهب إلى روان إلاّ إذا كان هناك بعض أعمال تستوجب الذهاب إليها، وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بـ«شارل سانت بوڤ» الكاتب والناقد الفرنسي و«تيوفيل غوتيه» الشاعر البرناسي وغيرهما من الشعراء والأدباء. وفي أواخر أيامه كان يلتقي «ألفونس دودِه وإميل زولا والأخوين إدمون وجول جونكور» وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن. وفي بعض هذه الزيارات كان يجتمع بـ«إرنست رينان وجورج ساند وهيپوليت تين».

وفي الفترة بين سنة ١٨٥٠ و١٨٥٦ شغل فلوبير بكتابة روايته الشهيرة «مدام بوڤاري»، وقد ظهرت في مجلة «ريڤو دو پاري» من أول تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر من السنة نفسها. وفي كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير سنة ١٨٥٧ شغل بالقضية التي اتهمته فيها السلطات بالخروج على الآداب في «مدام بوڤاري» وقد برأته المحكمة، ولكن بعد أن أبدى القاضي ملاحظات شديدة حول قيمة الرواية من الناحية الأخلاقية.

فيما بين سنتي ١٨٥٧ و١٨٦١ شغل فلوبير بكتابة رواية «سلامبو» وإكمال رواية «إغراء القديس أنطونيوس». وقد ظهرت «سلامبو» سنة ١٨٦٢ بعد أن بذل في كتابتها جهوداً أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية وأركيولوجية (علم الأثريات). وبين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله، وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية «التربية العاطفية» التي ظهرت في سنة ١٨٦٩.

بعد سنة ١٨٧٠ تكالبت عليه الهموم والشجون، وكان بطبيعته ميّالاً إلى الحزن والتشاؤم، وقد قوى هذا الميل في نفسه تقدّم سنه والأحداث السياسية وما لقيته روايتاه «سلامبو» و»التربية العاطفية» من قلّة الرواج وسوء التقويم، يضاف إلى كل ذلك تعرّضه لمرض عصبي حاد أصابه، فكانت نوبات هجماته تشكل خطراً دائماً على حياته، وكان فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم «لي بوتيڤان» كما فقد صداقة «مكسيم دو كامب»، وفقد والدته سنة ١٨٧٢، وتقدم في الشيخوخة، وأحاقت به العزلة الموحشة، ولم تسعده هذه الفترة سوى رعاية نسيبته مدام كومنڤيل وصداقة جورج ساند (واسمها الحقيقي أورور دوپين) التي ساندته وكتبت إليه رسائل تشجيعية تتضمن الكثير من التقدير والإعجاب، كما راقه تفتّح ملكات تلميذه غي دو موپاسان، وكان علّمه العناية الشديدة بالأسلوب والتحرّج من المبادرة إلى سرعة الإخراج، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقدر في الكتابة الفنية لطريقته وخطته.

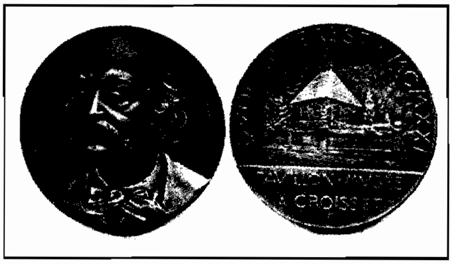

ميدالية تحمل صورة فلوبير وجناح المتحف في كرواسيه

وفي سنة ١٨٧٧ وضع مؤلَّفاً يتضمّن ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر، وراح يستعد بعد ذلك لكتابة رواية «بوڤار ويكوشيه» وكان يؤثرها على سائر مؤلفاته، وقد بذل فيها جهداً جباراً، وعلى الرغم من ذلك مات قبل

أن يتمها، وكان ينوي أن يصدرها في مجلدين، ولكن المواد المخطوطة التي خلّفها لم تكن تكفي إلاّ مجلداً واحداً.

مات غوستاف فلوبير عقب نوبة «سكتة قلبية» في صباح اليوم الثامن من شهر أيار/ مايو سنة ١٨٨٠ وهو في الثامنة والخمسين من عمره، وكانت جنازته في اليوم الحادي عشر، ولم يكن عضواً في الأكاديمية الفرنسية، ولم تلق خطب على قبره سوى كلمة وداع من «لابيير» أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر في روان.

فلوبير الأديب

غلبت على فلوبير خِلّتان هما الحياء والكبرياء، والحياء بطبيعته يغري بالكبرياء، كما أن الكبرياء تزيد الحياء قوة وغلبة على النفس، وكان فلوبير حييّاً ومتكبّراً إلى حد بعيد، فكان لا يتحمّل المعارضة في المناقشة، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التي تتملكه وتهدّد حياته حينما يعارضه أحد في آرائه ومذاهبه. وكان إلى ذلك شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر، كما يرى أن كل ما لا يعنيه ليس له قيمة. وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً على أن يتحدث عن نفسه، ولكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالارتياح في ذلك ويسرّه أن يسمع الحديث عن نفسه ولو أنّه يسبب له إزعاجاً وقلقاً، وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه مكسيم دو كامب، وبطبيعة الحال كان يضيق بالنقد، فحينما كتب «سانت بوف» عن «مدام بوفاري» مقدّراً ومطرياً، كتب فلوبير يقول: «إن مقال سانت بوف صالح كل الصلاحية للبورجوازية، وقد بلغني أنه أحدث تأثيراً عظيماً في روان».

هذه الكبرياء المقرونة بالحياء وفرط الحساسية جعلت فلوبير يعيش في عزلة وتذمر دائم، فكان يحبس نفسه في صومعته في كرواسيه مضمراً الاحتقار للبشر، منطوياً على أشجانه في إباء وصمت، ولا يسمح إلاّ لعدد قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه، ولم يسمح لأي امرأة أن تقتحم عليه عزلته لتؤنس وحشته برغم التوسّل إليه للسماح بذلك، وقد عاش على هذا

النحو طيلة حياته، وهو أدرك منذ مطلع صباه أنه سيظل يعيش على هذا النمط، ففي الثامنة عشرة من عمره كان يقول: «لا تحسبني متردداً في اختيار وظيفة، فأنا في الواقع لن أختار أية واحدة، لأنني شديد الاحتقار للناس إلى حد أنني لا أريد أن أسدي لهم خيراً أو أن أسبّب لهم ضرّاً»، وفي الخامسة والعشرين كتب يقول: «الجو أكدر، والنهر أصفر اللون، والأعشاب خضراء، ولا تكاد تظهر أوراق الشجر، إنها آخذة في الظهور، إنه الربيع أوان الحب والسرور، ولكن قلبي ليس فيه ربيع.. ومن عجيب الأمور أنني قد ولدت بمثل هذا الإيمان القليل بالسعادة، وحينما كنت في أولى مراحل الشباب طالعتني صورة ما سألقى في الحياة من متاعب وهموم، لقد كانت تشبه رائحة المطعم الكريهة التي تنتشر من خلال النافذة، فقبل أن تمس الطعام بيدك تدرك أنه يسبّب لك المرض». وفي الثلاثين من عمره كتب يقول: «من يوم إلى يوم أشعر بأن نفوري من زملائي البشر يزداد وهذا ما يسرّني» ويقول أيضاً: «أحب أن أرى الإنسانية وكل ما يحترمه الإنسان وقد هان شأنه واستخفّ به وسخر منه وكره وانتقص، وهذا سبب ما عندي من الاحترام القليل للإنسان».

حساسيته هذه كانت تجعله سريع الغضب، وسرعة الغضب بدورها كانت تجعل الحزن غالباً على طباعه، كما كان حزنه يحيله كارهاً لبني البشر، وكراهيته للبشر كانت تثير حقده عليهم، ولذلك كان يمقت السذاجة والغباء ويحبهما في الوقت عينه، لأنه يجد فيهما مجالاً لإشباع هوايته في ازدراء البشر واستصغارهم، وهكذا كان فلوبير الكاتب الروائي الفنان ينظر إلى الإنسانية نظرة خوف واشمئزاز وسخرية واستخفاف. وقد قضى حياته وهو يقول لنفسه ويعيد القول ويكرره إن الإنسان صغير والفن عظيم، فهو يحتقر الإنسان، ولكنه في الوقت نفسه يخدم الفن في حماسة وإخلاص وتفان.

وفلوبير كان رومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه، وقد بدأ ظهوره في دنيا الأدب في منتصف القرن التاسع عشر، فاجتمعت في كيانه مؤثرات السنين

الأربعين السابقة والسنين الأربعين اللاحقة، وهو منذ طفولته كان يؤثر المشاعر الفياضة، وقد ولد ونشأ في مستشفى، وفي طفولته كان يتسلق مع صغار الأطفال الجدران ليروا الجثث في قاعة العمليات، وكان يحلم كثيراً بالعودة إلى الشرق، ويحزنه أنه لا يستطيع أن يعيش في ربوعه، وكان كتب إلى صديق يقول: «أيها الرفيق القديم العزيز متى نعود إلى الاستلقاء فوق رمال الإسكندرية أو إلى النوم في ظلال أشجار الدلب على شاطئ الدردنيل؟».

وكان ميّالاً إلى الحزن يستطيبه ويجد فيه متعة تبعثه على تحليله تحليلاً وافياً ليزداد به تشبّعاً له وتقديراً، ومن جيد أقواله: «لم أر قط طفلاً دون أن أذكر أنه سيصير رجلاً عجوزاً وشيخاً همّاً، ولا رأيت مهداً إلاّ ذكرت القبر، وكلما نظرت إلى امرأة بدت لخاطري صورة هيكلها العظمي، ولهذا تحزنني المناظر المسرّة المفرحة والمشاهد المحزنة لا تؤثر في نفسي كثيراً». وهذا الميل إلى تذوق الحزن واستشكاف الخفايا الغامضة واستطلاعها والنزوع إلى الشرق وأنواره الساحرة هي العناصر التي تتشكل منها النزعة الرومانسية، ولكنها ليست الأساس الذي تنهض عليه.

إنّ أساس الرومانسية هو النفور من الواقع والرغبة الملحّة في الفرار منه، ولذا تضيق الرومانسية بدقة الملاحظة، لأن الملاحظة تستدعي الخضوع للواقع، والاستعانة بالعقل في دراسته، وجعله نقطة البداية، ومحور التركيز والاهتمام، وهي تحرر نفسها من الواقع بوساطة التخيّل والتعويل على الحساسية الفردية. وبرغم العناصر الرومانسية التي كانت في نفس غوستاف فلوبير فإنه كان يميل إلى مواجهة الواقع والتأمل فيه ودرسه. ففي السابعة عشرة من سني حياته كان يدوّن ملحوظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم، وعن مدرسيه وزملائه الطلبة، وقد نشأ قوي الملاحظة، نافذ البصر، قادراً على وصف الواقع، وكان معجباً بكبار الشعراء الذين مثّلوا النزعتين الرومانسية والواقعية مثل هوميروس وأسخيلوس وشكسبير وبايرون وهوغو وشاتوبريان ورابليه وغوته وڤولتير ولابروبير ولوساج، أي

أنه كان من جهة يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المحلّق والذين وهبوا حسّ الملاحظة الدقيقة الحاسمة، وكان يحب أن يرى الأشياء بدقة ووضوح بحيث لا تخفى عليه فيها خافية.

وكان في الوقت نفسه ميّالاً إلى أن يتخيّل المشاهد الفخمة، والمناظر الخلابة الضخمة، أي أن عقله كان موزعاً بين حب الاستطلاع للواقع والحاجة إلى انطلاق الخيال وخصوبته في آن معاً، وقد كانت مؤلفاته نتاج اجتماع هاتين النزعتين في نفسه، فبعد إصدار «مدام بوڤاري» الواقعية النزعة أخرج رواية «سلامبو» الرومانسية النزعة، وبعد «سلامبو» كتب رواية «التربية العاطفية»، وبعد الفراغ من هذه شرع في تأليف «إغراء القديس أنطونيوس»، وبعدها كتب رواية «بوڤار وپكوشيه» ويمكن «الخلوص من ذلك كله إلى أنه كان في توالي مؤلفاته يرضي النزعتين الكامنتين في نفسه، وحين كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلى تأليف ما يقنع نزعته الواقعية.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه كانت هناك فكرة غالبة على تفكير فلوبير، وهي أن الأدب يجب أن يكون «غير شخصي» أي أنه يجب أن لا يظهر المؤلف في مؤلفاته، ويجب ألاّ يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته، وألاّ يجعل كتاباته تنم على أفكاره وآرائه وحالاته النفسية، وقد أكّد هذه الفكرة مئات المرات في الرسائل التي كان يبعث بها إلى الأديبة جورج ساند، قال عن روايته «مدام بوڤاري«: «موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك من خارج نفسي، وأعتقد أن هذا ما يجب أن يكون، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك، وإنما تكتبه للآخرين، والفن لا شأن له بالفنان، فإذا كان لا يحب اللون الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فإن هذا ممّا يضرّ به، والألوان جميلة، ولا بدّ من رسمها». ويقول في رسالة أخرى «ليس في إمكاننا أن نعرف هل كان شكسپير حزيناً أو مسروراً؟ وعلى الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم يعش قط، وكلما قلّت قدرتي على تكوين فكرة عنه كلما بدا لي أنه أعظم شأناً، ولا أستطيع أن

أتخيّل شيئاً عن شخصية هوميروس أو رابليه، وحينما أفكر في مايكل أنجيلو لا أرى سوى ظهر رجل مسن ضخم الجثة يعمل في نحت تماثيله في الليل على ضوء المشعل».

هذه الفكرة في حد ذاتها تؤكد الجانب الواقعي في غوستاف فلوبير، لأن الفن الواقعي قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه في وضوح ودقة، والمشاعر التي تهيج في نفس الإنسان في مواجهة الأشياء قد تجعله يعمى عن حقيقتها وإنما يراها كما يودّ أن يراها، فالتجرّد وعدم التأثّر من مستلزمات الواقعية، ونحن بطبيعة الحال لا بدّ أن نشعر، ولكن علينا ألاّ نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا، لأن التدخل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يغير الصورة التي نحاول تصويرها، والفنان الواقعي حقّاً لا تسيطر عليه نزعته الشخصية - كما ذكر الأستاذ علي أدهم في تقديمه لرواية «مدام بوڤاري» - وفنه نفسه يرغمه على أن يكبح جماح شخصيته.

«إني لا أحبّذ أن يهتم الجمهور بشخصيتي»، هذه عبارة من رسالة بعثها إلى «تورغنيف» تظهر تناقضاً جوهريّاً، فالكتابة بالنسبة إلى فلوبير وسيلة لكي يسمعه القارئ دون أن يراه. ولكن إذا كان يؤلف للناس أو الهروب من نفسه فهذه نقطة محض خاصة. لا يوجد كاتب أسير ذاته ووحدته كفلوبير. لقد حاول عبثاً أن يكون سامياً، غير مبال، لكن جميع مؤلفاته تخون أمانيه ورغباته. وهذا لا يعبّر، في تلك الحال، عن تقلّبات تافهة، بل عن إيحاءات من خلال مواضيعه المفضلة. هو نفسه يدعونا إلى أن نميز بين «شخصيته» (.. لقد ابتدعت لعملي جزءين: أحدهما في العالم الخارجي، والآخر في أعماقي) والأهم هو الناحية العملية، أمّا ذاتي الباطنية، فتتدفق من خلالها أنقى شعاعات النفس. وليس فهم فلوبير بالمهمة اليسيرة، إذ على الكاتب ألاّ يترك من بعده سوى مؤلفاته.

إن فكرة وجود شخصيتين متناقضتين لفلوبير هي فكرة خاطئة، فتارة يبدو بمظهر الرومانسي الذي ألّف «إغراء القديس أنطونيوس» وطوراً يبدو

كأنه الطبيب الذي يعالج نفسه بتأليف «مدام بوفاري». ولا شك أن نظرة عابرة على رسائله تبيّن مدى غباء هذا الانفصام. ليس هناك حواجز ثابتة، ففي فترة تأليفه «مدام بوفاري» كان يشرح للويز كوليه أنه يتوق إلى المجاز والاستعارة، وهو نفسه يشخص حالته وحبه للاستعارات «خلقتُ فناناً غنائيّاً، وكل ما هو طبيعي بالنسبة إليّ هو غير طبيعي بالنسبة إلى الآخرين».

فلوبير يعتقد أن جوهر الأدب يكمن في الشعر، وهو مقتنع تماماً أن من واجب الكاتب أن يغوص في أعماق أسرار اللغة. وتعني الموهبة الأدبية صراعاً قائماً مع الكلمات، وشغفاً بالقافية الرنانة، وسعياً لخلق عبارات وإيقاعات محسوسة، تربطه المضادات العنيفة وولعه بالألوان ارتباطاً وثيقاً بالرومانسية التي لم ينكرها مطلقاً، مشابهاً في ذلك بودلير الذي يفتخر بحمله جذور الرومانسية. وقد رغب فلوبير في أن يعتبر نفسه آخر الكتّاب الغنائيين، تلك السلالة المبادة، والغنائية تعني في مفرداته الميل إلى الأوهام، والحنين إلى المحظور، وقدرة فائقة للحماسة. إنه يعشق التأمل، فبعد قراءة «المهملة» لتورغينيف قال: «كنت أهتف من شدة الفرح»، ووصف هوغو بالرجل العظيم. ولا يتوقف إعجابه عند هذا الحد فقط، بل يتعداه إلى شعور مقدس بالخشوع، فحينما يذكر «فرجيل» يقول: «عندما ننظر إلى العظماء، وإلى الكمال، كم نحتقر أنفسنا»، ويقول: «يُخيّل إلي أني إذا شاهدت شكسبير سأرتعد خوفاً».

مؤلفاته

* ثلاث صفحات من دفتر تلميذ (١٨٣١).
* قصص ومقالات (١٨٣٥)
* عشق وفضيلة (قصة فلسفية) (١٨٣٧)
* مذكرات مجنون ولويس ١١ (دراما) (١٨٣٨)
* سمار، لغز قديم (١٨٣٩)
* مذكرات، ملاحظات، وأفكار حميمة (١٨٤٠)
* تشرين الثاني (١٨٤٢).

* التربية العاطفية (١٨٤٥) ـ النسخة الأولى ـ
* من خلال الحقول والرمال (وصف رحلة إلى بريتانيا) (١٨٤٨)
* إغراء القديس أنطونيوس ـ النسخة الأولى ـ (١٨٤٩)
* مدام بوفاري (١٨٥٧)
* سلامبو (١٨٦٢)
* التربية العاطفية (١٨٦٩) ـ النسخة الثانية ـ
* إغراء القديس أنطونيوس (١٨٧٤) ـ النسخة الثانية ـ
* المرشّح (١٨٧٤)
* ثلاث قصص (١٨٧٧)
* بوڤار وپكوشيه ـ نشرت بعد وفاته ـ (١٨٨١)
* رسائل ـ جُمعت ونشرت بعد وفاته ـ (١٨٨٧)

سلامبو

غوستاف فلوبير يعتقد أنه ولد في عالم آخر، يمثّل حبه للشواطئ العطرة والبلاد الحارة حياةً سابقة، ويرتبط حنينه وذكرياته الوهمية ارتباطاً وثيقاً. فمن ناحية يصف بلدته كرواسيه، ومن ناحية ثانية يصوّر البلاد التي يحلم بها. فبالرغم من تطلعاته يجد نفسه في النهاية والملل يسيطر عليه ويحول دون تحقيق مبتغاه. فمن خلال مؤلفاته تبرز صور العنف والدمار دوماً. إنه يشعر بكآبة البربر الذين إذا غادروا بلادهم أحسّوا أنهم يبتعدون عن ذواتهم، فالسفر عمل جدّي، إذ إنه ليس مجرد تنقّل زمني فقط بل هو بحث عن الذات والهوية. وهو يدعي ـ فلوبير ـ أن ذكرياته تعود إلى زمن الفراعنة، يتخيّل نفسه ملاحاً في نهر النيل، ثم ينتقل إلى شواطئ سورية ويرى نفسه قرصاناً وكاهناً.. فالسفر أجمل متع الحياة لأنه يحرر النفس ويحلّق بها في آفاق جديدة بعيدة.

إن هذه الحرية المتبادلة بين الأحداث المؤقتة والرؤى البعيدة هي عنصر أساسي في الأدب الرومانسي، وقد كان الاستشراق سائداً في ذلك العصر، لذا نلاحظ كثيراً من الصور الشرقية تلوّن صفحات فلوبير، فغالباً ما

يتصوّر الولائم والعبيد يئنون من التعذيب. لقد تأثّر لا شك بـ«المركيز ساد» الذي عُرف بتصويره الانحراف الجنسي، وكان يحاول إخفاء هذا التأثير، غير أن «سلامبو» و«إغراء القديس أنطونيوس» تزخران بصور التعذيب والاغتصاب والأمراض الرهيبة وبتر الأعضاء، كما تحتل صورة الغانية مرتبة هامة في مؤلفاته، ذلك أن فتاة الهوى لها مكانتها في الأدب الرومانسي، فهي تمثّل وجهين هامين من الحياة: اللذة والاشمئزاز في آن معاً.

في «سلامبو» نتعرّف على فن فلوبير الأخاذ المؤثر، المصطنع، البربري وسماته الضاربة وألوانه المترفة، ويرى البعض هذا العمل جهداً معتوهاً متعلّقاً بعلم الأثريات الروائي القديم، وفيه نفحة من ذات الكاتب.

«سلامبو» قصة شخصيته، ويبدو هذا التعبير في بادئ الأمر غريباً. أليست الرواية رغم ذلك نوعاً من السفر إلى الشرق؟ إنها الرغبة نفسها في تبديل المشهد والإنكار ذاته للعالم، «إني أشعر بحاجة ماسة إلى الخروج من العالم العصري، حيث انغمس يراعي كثيراً، والذي يرهقني ويثير اشمئزازي. غير أن هذه الغربة هي عمل فني بحدّ ذاته. سأرحل من إيونقيل. لقد سئمت كل شيء. أبحث الآن عن قيثار آخر أعزف عليه أنغاماً جديدة. فلنشرح بالصرخات، والصرخات المدوّية: إنها فيض من الشاعرية الغنائية الغريبة يندفع معها الأديب في إحياء عالم زائل. وهي أيضاً شغفه بالتبحّر في العلم، وخصوصاً إجلاله للتاريخ الذي يستطيع أن يروي غليله بوساطته».

حين وصف فلوبير معركة ماكار قال: «إني مولع بالتاريخ، فالأموات يروقون لي أكثر من الأحياء! فمن أين تنبع هذه الاستمالة إلى الماضي؟». لا يستهوي التاريخ فلوبير إلاّ بقدر يستلزم غياباً، غربة، أو انكماشاً على النفس. إنه شعر محكم للتاريخ الذي يقلقه أحياناً. «يخيفني موضوع قرطاجة في بعض الأحيان بحيث أني على وشك العدول عنه».

في «سلامبو» يتصدر الموت هكذا عمل فلوبير ويطغى عليه. تحمل إفريقية على عاتقها قيمة الاستعارة. إنه مسرح أسرار الحياة الشاسع، حيث

يتطلع إيروس إلى ما بعد النهاية ويلجأ إلى الإبادة والدمار، وحيث يتقارب الإخصاب المستمر إلى العدم. تعلن ولادة الأديان غروب الآلهة. كل شيء يثير الإطراء واللهو معاً في هذا الشرق الخاص، ويؤدي إلى تثاؤب نهم، كأننا نسمع بودلير. يلتهم الملل العظيم اللامتناهي كل شيء. هذا ما قاله فلوبير للويز كوليه قبل سنين عديدة من تمخضه في «سلامبو«: «عندما سأخط شعراً شرقيّاً سأعمل جاهداً على إظهاره».

تحمل هذه الرواية الطابع الشخصي حتى في العنف أيضاً. وكان باستطاعة «سانت بوف» أن يمتنع عن الإشارة إلى هذا المظهر من الرواية القابل لجلب خلافات جديدة على فلوبير مع العدالة. غير أنه ليس مخطئاً، ففي «سلامبو» بالفعل أكثر من ظاهرة سادية، وفلوبير لا يكتم، إلاّ في الخفاء، السرور الذي يناله من القسوة والأهوال المذكورة في روايته. أعلن لإرنست فايدو: «لقد توصلت إلى الألوان القاتمة. بدأنا نسير بين الأموات ونحرق الصبية. سيكون بودلير سعيداً بذلك! أهي رغبة التصادم؟ نعم، هناك شيء من هذا. لنكن شرسين.. فلنسكب عرقاً على هذا العصر الرقيق، ولنغرق البورجوازي في الكحول حتى يلتهب فمه ويزمجر من شدة الألم».

ولكن من الواضح أن رواية «سلامبو» لا تكفي على تعزيم الشيطان العنف. ففي سنة ١٨٦٢، حين كان فلوبير يصحح أوراقه، كانت فكرة الكتب القاتمة الرهيبة تراوده. لم يكن يرغب في إثارة القراء فقط. تنبع قسوة الرواية من حاجة جدّ عميقة.

«سلامبو» تُقرأ ككتاب منتخبات أدبية تتناول الشراسة. بتر الأعضاء صور طبيعية فيها. ترمز فيلة المقاتلين القرطاجيين المتوحشة، وأشلاء اللحم المتدلية من أنيابها، إلى الشراسة المسيطرة. وتمثل الأسود المتثائبة بعد اكتفائها بما التهمته من اللحم البشري خمول الضمير. وتتجلى الضراوة الشهوانية بكل بشاعتها في نهاية الرواية عندما يُسلخ جلد «ماتو» حيّاً، من قبل سكان مجانين ثائرين. وحتى النساء يتركن القيد لقساوتهن الشهوانية.

«سلامبو» تزخر بمشاهد القتل والذبح والتعذيب المفصّلة. لا يكفي الدم المهراق والصراخ الخارق وروائح الأجساد التي تشتعل أو تتلف لملء الفراغ. لا يبتعد الضجر والجمود كثيراً عن الإفراط في الأهوال. يتمنى البرابرة المحجوزون الموت جوعاً على أن يقتاتوا من لحوم رفاقهم الذين ماتوا. وفي الفصل الذي يصف فيه فلوبير نزاع الجيش استطاع أن يترك العنان لميله إلى علم الأمراض وطبائعها. «إنني أقرأ الآن العلوم الفيزيولوجية والملاحظات الطبية على أناس يعانون من المجاعة.. تقابل صور الدمار والتوق إلى العدم هواجس الداء.. إنه لشيء غريب كم أنا ميّال إلى العلوم الطبية.. إني أتوق إلى التشريح».

في المشهد الأول من «سلامبو» الذي يظهر فيه الإفراط في كل شيء والعالم في نور خيالي، يثبت عنصر مألوف يقترن فيه الحرص والطمع والشراسة الحيوانية إلى رغبة جنسية مفترسة خفيّة، وتكاثر مذهل للأحداث (تعدّد التقاليد وأنواع الطعام)، لكي يؤدي أخيراً إلى محاولة خرق المقدسات. إنه حلم المستحيل دائماً! يقضي المرتزقة على أسماك عائلة باركا المقدسة، فحب الدمار هو أمنية عجز. ويلاحظ فلوبير هنا أنه لإيضاح العلاقات الحميمة القائمة بين شبكة صوره، الجنود يرتوون ويشبعون، وهم مستندين على مرافقهم في جلسة الأسود الهادئة بعد تمزيق فرائسها.. وكانوا يقلّدون أصوات الحيوانات الضارية... يا له من مزيج نادر وغريب للقسوة واللامبالاة بالجسد، وللأعمال العنيفة والسلوك المقدس! يتنافس النسبي والمطلق منذ البداية: إنه منطق لا يقبل حلاً. ومن هنا ينشأ الشعور، ولنقل الموافق، من خلال الرواية بأكملها. إننا نشهد حركات ضخمة وتنقّلات عظيمة، ولا شيء يحدث رغم ذلك. يدرك فلوبير بكل تأكيد هذه الأحلام حيث نريد أن نركض ونعدو، لكننا مرغمون على الصمود في مكاننا.

في «سلامبو» لا يخفق العمل والحركة. كان بودلير متأثراً بالعظمة الملحمية للرواية، ويدّعي «غوته» أنه من الواجب مطالعة هذا العمل لا

كرواية بل كقصيدة ملحمية. وقد تكلم فلوبير بنفسه بعد إتمام «مدام بوڤاري» عن هواجسه الملحمية. استهوته الملحمة كصنف ولون، وما انفكت تعمل على استمالته. كانت أمنيته الكبيرة أن يقرأ إلياذة هوميروس الأصلية. تتجلى المواقف التقليدية للملحمة في «سلامبو«: إحصاءات وتنقلات هائلة للجيوش، أو لأمة بأجمعها، مآثر عسكرية، صداقات حماسية، أعمال فردية تندرج في عمل جماعي شامل، دسائس ومكائد، وكل حركة تمسي مأثرة.

وهذه المآثر تستوجب العمل وتستند إليه، لكنها لا تتحرك. هنا تكمن قيمة أسلوب فلوبير وعلم النحو عنده. يبتدع الاستعمال المكثّف لحروف العطف بينما، حينما، والظروف بعد، ثم، عندئذ، ويمنحها طابعاً من التوسع والتراكم. يبدو العمل في تقدم مطرد لكنه جزء متمّم للمشهد نفسه. ومن أهم الصور الملحمية في «سلامبو» وأكثرها إيحاء لفن فلوبير هي تلك التي تمزج بين الحركة والوصف، وتحوّل الحادث إلى صورة. وفلوبير يؤدي هذا المزيج بين الحركة والسكون بإعجاب من طريق استخدامه الفعل الماضي بطريقة غريبة لوصف حركة معيّنة: «... جذب هاميلكار خنجرين كبيرين، ونصف منحن، قدمه اليسرى إلى الأمام، عيناه متأجّجتان، كان يتحدّاهما، ثابتاً تحت الشمعدان الذهبي»، وقد أحدثت الحركة، بخلاف عادات علم النحو، لا بالفعل الماضي بل باستعمال الفعل الناقص للوصف. إنه تبديل حرفي يشل تأثيره العظيم الحركة ويجمّدها كتمثال أو نصب.

يتضمّن استعمال الفعل الماضي العادي عند فلوبير قيمة ثابتة. تبدو الحقيقة بأكملها أسيرة في الحاضر الأزلي. «حدث ذلك في ميجارا، ضاحية من ضواحي قرطاجة، في حدائق هاميلكار». تفرض هذه الجملة الأولى في الرواية ثقلها وتبدو، مسبقاً، تسدّ جميع المنافذ. تشارك الحفر المخصّصة للحيوانات الضارية، وسجن الرقيق الذي تنبعث منه أنّات الألم وصوت الحديد، في هذا الجو الخانق. المدينة نفسها شبيهة بأمواج

محيط قاتم متحجّر، وحتى البحر الحقيقي يبدو جامداً لا حراك فيه.

سلامبو تخضع أولاً لسيطرة التماثيل والأعمدة. تتحول جذوع الأشجار إلى أعمدة دامية. يبدو البرابرة الذين لطخوا أنفسهم بالزنجفر كأنصاب من المرجان، واليوناني الأمرد أنصع بياضاً من المرمر. ينتصب القدماء الواقفون على السطوح كالحجارة، ووجه هنون شاحب كأن برادة الرخام قد رشّت عليه. هذا ما يلخص مبدأ الجمود، وكل شيء في الفصلين الأولين يوحي بعالم النحّات، المهندس، والصائغ.

لقد ذُهل فلوبير بطبيعة المنظر المرنة خلال رحلته إلى الشرق: بدت له الجبال منحوتة، وأينما حطّ كان يكتشف خطوطاً هندسية في الطبيعة. تخلص الطبيعة في «سلامبو» إلى مشابهة العمل الفني. فالآس ساكن كصفائح نحاسية. إنها رسم حقيقي للأشكال الهندسية يقترحها فلوبير: أعمدة، مخاريط، مكعبات، كرويات، مربعات. يقودنا كل هذا إلى نظام يهذي. وليس هيكل «مولوخ» وحده كومة هندسية، إن المدينة بأكملها عبارة عن جبل من الكتل. ونظرة الصائغ هي أشد تأثيراً.. إنه عرض حقيقي للمتاحف، إذ يتجاوب لمعان الحليّ البراقة منذ الصفحات الأولى مع جلبة الأواني المتحطمة وسحق الفكوك. تلتقي صور التصنّع الثمين مع صور الدمار والتحطيم، وتتجسد سيطرة المعدن والصناعة في عالم الأحلام كما في الأماكن المقدسة، فسقف معبد «تانيت» مرصع بالأحجار الكريمة، ومرقى الحوض من العقيق، والبلاط مرصع بالذهب واللؤلؤ، حتى المنازل الخاصة حزينة، تتلألأ سراديب قصر هاميلكار من شعاع الياقوت والجواهر، وتختلط الجواهر بالموت هنا أيضاً.

لقد تمخّض فلوبير بسلامبو تحت تأثير الاضطراب التصويري، واستسلم في ملاحظات أسفاره، وآخرها في قرطاجة، إلى ابتهال واقعي: «أنجديني يا قوى التأثر التصويري! خلصيني يا بعث الماضي ونشوره، خلصيني!». واختيار موضوع عن قرطاجة هو دليل على حبه لآلهة الشعر الإغريقي، وليست رغبته في بعث الماضي الباطل، رغم عدم صلته بأوروبة

المتمدينة، سوى وسيلة أخرى لكي ينعم بالعزلة القاحلة. وقد كان جورج لوكاس على حق حين اعتقد أن «سلامبو» تصور زوال القصة التاريخية: تأثر بعيد عن الإنسانية، اهتمام مفرط منوط بالأشياء والفن، خلوّ المضمون الاجتماعي والتاريخي بشخص فلوبير في شروعه هذا عنصر الهرب وتحليله.

إن التصوّر المجازي والنظري أهم من النظرة الاجتماعية والسياسية. تصلّبت الطبيعة والطبيعي وتحجّرا هنا. هيئات الحياة هي التي تأمر، في ظهورها أو في خفائها، لكي تصبح حياة الأشكال والهيئات. وإذا كانت للأشياء حياة خاصة فالحياة نفسها تُمسي جامدة ثابتة، وتختلط الحيوانية والتصويرية. إنه حقّاً تصوير وتحنيط خيالي. ويتجلى هذا المبدأ ـ أي مبدأ الموت ـ في أنشودة سلامبو التي تصف رأس ماسيسبال المقطوع والمعلق في مقدمة السفينة، والذي تحنطه حركة الماء والشمس، وتجعله أكثر صلابة من الذهب، وكأننا بفلوبير يبحث عن جمع مستحيل بين الواقع والمصير، بين الحاضر والمستقبل.

*

1

وليمة القصر

جرى ذلك في ضاحية «ميجارا» من ضواحي قرطاجة وفي حدائق هاميلكار. وكان الجنود، الذين قادهم هذا الزعيم القائد إلى النصر في صقلية، قد أولموا لأنفسهم وليمة دسمة ليحتفلوا بذكرى يوم انتصارهم في معركة «إيريكس»(*). ولمّا كان قائدهم غائباً، وكانوا كثيري العدد، فقد خلا لهم الجو وأقبلوا يأكلون ويشربون بحريّة.

كان الضباط ذوو الأحذية المصنوعة من النحاس قد اختاروا لهم مكاناً في الطريق الأوسط تحت ستار من الأرجوان أهدابه من ذهب يمتد من جدار الإصطبل المعدّ للخيل حتى أول سطح من سطوح القصر.

وتحت ظلال الأشجار انتشر الجند صفوفاً حيث كانت تنتصب المباني الكثيرة ذات السقوف المستوية المنبسطة، من معاصر للزيوت، وأقبية للخمور، ومخابز ومخازن ومصانع للأسلحة المختلفة، وإلى جانب ذلك كله حظائر للفيلة وحفائر للوحوش الضارية وسجون للعبيد الأرقاء.

أمّا المطابخ فكانت تحيط بها أشجار التين ثم يليها غابة من شجر الجميز تمتد حتى تتصل ببساط كثيف من الخضرة إلى حيث الجلّنار يزهى بحمرته بين القطن المعتز ببياض غدائره، وحيث دوالي الكرمة المثقلة بعناقيدها تتسلق أغصان الصنوبر، وحقول الورد تتفتح أزاهيرها تحت أشجار الدلب، وحيث هنا وهناك، ما بين العشب الأخضر، تتمايل الزنابق، وأما السبل والمعابر فقد كانت مكسوّة بالرمل الأسود الممزوج برشاش من المرجان المسحوق، وبين هاتيك المعابر يمتد شارع السرو وكأنه ـ والسرو على جانبيه ـ مجموعة من عمد المسلات الخضراء.

علي مولا

(*) إيريكس مدينة قديمة من مدن صقلية اشتهرت بهذه المعركة التي انتصر فيها هاميلكار والد هنيبعل، وبالمعبد المقام فيها لڤينوس إلهة الحب عند الفينيقيين والقرطاجيين.

وأمّا القصر، المبني بالرخام المستخرج من مقالع «نوميديا»(*) المرقش باللون الأصفر، فكان ينتصب بعيداً على قواعد عريضة تحمل فوقها أربعة طوابق منضدة ذات سطوح متساوية. وكان هذا القصر يبدو للجند، بعظمته وأبهته ومكنوناته، كأنه وجه هاميلكار البادي الجلال الغامض، وكان السلم الذي يتدرج به إليه مصنوعاً من خشب الأبنوس الأسود يحمل في كل زاوية من زوايا درجاته قطعة من مقدم كل سفينة من سفن عدو مهزوم، وأبواب القصر حمراء بلون الدم يتخللها رسم صليب. كسواد الليل، ولها شبكات حديدية تمنع تسلل العقارب من أسفل، وللنوافذ قضبان من الحديد المذهب متشابكة مثبتة فيها تسد فتحاتها من الأعلى.

اختار «مجلس القدماء»، وهو مجلس الأمة، لهم ذلك القصر مكاناً لمأدبتهم، فأخذوا يفدون إليه زرافات ووحداناً من كل حدب وصوب، حتى الجرحى منهم النُّقَّه، الذين كانوا يتداوون في معبد أشمون(**)، بدأوا يتوافدون منذ طلوع الفجر، يجرّون أنفسهم جرّاً معتمدين على عكازاتهم مغتبطين، وهكذا امتلأت المعابر والسبل بالوافدين وكأنهم سيول تجري مندفعة إلى بحيرات الماء، وكان الأرقاء الموجون بالمطابخ يتخبطون بين الأشجار جيئة وذهاباً، أنصاب عراة مذعورين، في حين نفرت الغزلان وهي ترسل ثغاءها خائفة، ودنت الشمس من المغيب، وامتزج عرف أزهار أشجار الليمون ببخار العرق المتصاعد من هذا الجمع فزاده ثقلاً.

تحلّقت هناك جماعات وأخلاط من جميع أمم الأرض من «ليغوريين» و«لوزيتانيين» و«باليار» إلى زنوج ورومان فارين من بلادهم، يسمع منهم مختلف اللغات، فمن لغة عامية ثقيلة لسكان مقاطعة «الدوريد» (من أعمال اليونان) إلى مقاطع من لغة «السلتيك» الصاخبة كضجيج مركبات القتال، إلى أصوات نهايات حروف لغة الأيونيين، تصطدم بحروف أهل

(*) بلاد في إفريقية الشمالية بين قرطاجة والمغرب جعلها الرومان منطقة عسكرية في عام ٢٥ق.م.

(**) أحد آلهة الفينيقيين اشتهرت عبادته في صيدا وقرطاجة في الألف الأول ق.م

الصحراء الساكنة ذات النبرات الجشاء الشبيهة بعواء بنات آوى. وكان المُشاهد يستدل على الإغريقي بقامته النحيفة، وعلى المصري بعلو منكبيه، وعلى «الكنتبري» باتساع ربلتيه، وهناك «كاريون» يلاعبون الهواء بريش خوذهم تيهاً وفخراً، ورماة سهام من «كابادوس» قد رسموا مختلف رسوم الأزهار على أجسادهم بمزيج من عصير الأعشاب، وبعض «الليديين» بملابس النساء يتحلون بأقراط في آذانهم، فيتناولون عشاءهم وهم ينتعلون الشباشب، وآخرون دعاهم حب الظهور فصبغوا أجسامهم بلون القرمز فأشبهوا تماثيل نُحتت من المرجان.

كانوا يتكئون على الوسائد، ويأكلون وهم يجلسون القرفصاء حول صحاف كبيرة أو وهم على بطونهم منبطحون، ينتزعون قطع اللحم ويبدأون بمضغها وازدرادها وهم على مرافقهم معتمدون، كما يربض الأسد الهادئ ليمزق فريسته بأنيابه، وكان المتأخرون في الحضور يقفون صفوفاً مستندين إلى الأشجار ينتظرون دورهم وهم يتلمظون ويرمقون موائد الطعام الوطيئة التي كانت تختفي أنصافها تحت بسط حمر.

ولمّا كانت مطابخ هاميلكار لا تكفي لإطعام هذا الجمع اللجب، فإن مجلس القدماء أمدّهم بالعبيد والأواني والصحاف والأسرّة، وكانت النيران المتأججة ترتفع بلهبها ودخانها وسط تلك الحديقة لشيّ الأبقار، كتلك النيران التي تتأجّج بعد المعارك لحرق جثث القتلى، وكان الخبز معطراً باليانسون، والجبن المقدّم يوزن بالقناطير، والخمر تُسقى بالدنان، والمياه العذبة بالأباريق، والأزهار تقدّم بسلال مزركشة بالخيوط المذهبة، وعلت فرحة الجند لما نالهم بعد طول زمان من شبع وريّ، وبدا فرحهم في عيونهم وسرى هو والخمر في رؤوسهم فارتفعت أصوات شتى بالغناء من هنا وهناك.

أول ما قُدّم لهم كانت العصافير المغموسة بالمرق الأخضر في صحاف من الفخار الأحمر المخططة الرسوم باللون الأسود، ثم جميع أنواع الأصداف التي تزخر بها شواطئ بلاد القرطاجيين، ثم حساء القمح

والفول والشعير والجعلان المطيب بالكمون، وكل هذا في صحون من العنبر الأصفر.

وما لبثت أن اختفت الموائد تحت أكوام من اللحوم المتنوعة: فهنا أبقار وحشية بقرونها، وطواويس بريشها، وهناك أكباش بتمامها، مطهوّة بالنبيذ الحلو، وأفخاذ نياق، وجواميس، وقنافذ متبّلة، وجنادب مقلية، ونموس محلاة بالسكر، وكل هذه الأطعمة طافحة بالكمأة والمُريّ (الكامخ)، وأنواع التوابل المشهية، وكان الشحم يقدم في جفان من الخشب النفيس مغموساً بالزعفران، وتلت ذلك جميعه أكداس من الثمار المتنوعة الأجناس والأصناف، نثرت على أقراص من العسل، ولم ينس الطهاة أن يقدموا، في ما قدموه، بعض تلك الكلاب الصغيرة المسمّنة ذات البطون المنتفخة والوبر الوردي التي كانوا يغذونها بثفل الزيتون، والتي كانت من أشهى طعام القرطاجيين ومما يعافه غيرهم من الأمم، وكان «الغوليون» يتخاطفون البطيخ والليمون فيقضمونه مع قشره، وكان الزنوج، وقد رأوا سمك السرطان لأول مرة، يمزقون وجوههم بحمّته، وكان الإغريق،و حليقو اللحى ذوو البشر الرخامية البيض، يرمون القشور وراءهم ، وينظفون صحونهم، بينما كان رعاة «بريتيوم»، لابسو جلود الذئاب، يزدردون ما يقدم إليهم ولا يحوّلون وجوههم عن صحافهم.

وأسدل الليل سجفه فرفعوا الستر الذي كان ممدوداً فوق شارع السرو وجاؤوا بالمشاعل، وبدأ وميض سراج الزيت المصنوع من البرفير(*) يتلألأ في الظلام فأرعب القردة المكرسة للقمر وهي تأوي إلى مضاجعها في أعالي شجر الأرز، فأخذت تعوِل وتولول، فزاد ذلك في فرح الجنود ولهوهم، بينما تتلألأ خوذهم بانعكاس الأضواء، والصواني والصحاف المرصعة بالحجارة الكريمة تتوهج بمختلف الألوان، والأكواب الملبّسة بالمرايا المحدبة تكبّر صور الأشياء وتعدّدها، فيزدحم الجنود حواليها ناظرين فيها مبهورين، عابسين بوجوههم، مكشرين عن أنيابهم ليثيروا

(*) البِرْفير هو اللون المركّب من الأحمر والأزرق، يُصبغ به الثوب ويُعرف بالأرجوان.

الضحك ويرسلوا القهقهات، وكانوا يقفزون فوق الموائد والمواطئ المصنوعة من العاج، ما بين أكداس من الملاعق المذهبة، ويحتسون ما طاب لهم أن يحتسوه من الخمور الإغريقية التي كانت تقدم إليهم بالقرب، أو من «أنبذة كانباني» في أكواب كبيرة أو من خمور «كنتبري» المعتقة في الدنان، أو من عصير العناب أو الدارصيني، أو نبق السدر، والخمر تسيل على الأرض سيل المياه، وروائح الشواء والدخان تتصاعد إلى الجو ممتزجة بأنفاس الشاربين. وبين هذا وذاك يصل إلى أذني المستمع صوت صريف أسنان الآكلين وصراخ المتكلّمين وصدى أصوات المغنين ورنين الأواني الفضية المتلامسة وتكسّر الأكواب والأقداح وتطاير شظاياها. وكلما زاد سكرهم كلما زاد إحساسهم بظلم قرطاجنة(*) إياهم، فقد كانت الحروب المتوالية قد أنهكت قوى الدولة واستنفدتها، وأصبحت الجمهورية تترك أبواب قرطاجنة مفتوحة لمن يفد إليها من العصابات، وكان القائد «جيسكون» قد فطن إلى الخطر فأخذ يخرج من المدينة العصابة تلو العصابة من المرتزقة، ليتمكّن من دفع أُعطياتهم شيئاً فشيئاً، كما كان يدور في خلد مجلس القدماء أنه بالإمكان حمل الجند على التجاوز عن جزء مما استحق لهم من الرواتب، وكان هذا في الواقع مدعاة إلى التباغض والتنافر، وقرطاجنة عاجزة عن أن تدفع لروما الدين المطلوب منها، كمثل عجزها عن دفع أجور الجند المرتزقة، فأضمروا لها عداء كعدائهم لروما، سواء بسواء، وأخذوا يتوعّدون ويتهدّدون ويحملون قرطاجنة أثقالهم وعبء إقامتهم بها، وبعد مساومات غلبت فكرة التصافي والسلام على عاطفة العداء والخصام، واستجابت قرطاجة لرغبتهم بأن يجتمعوا فيها للاحتفال بذكرى يوم من أيام انتصاراتهم، وأن يكون ذلك في حدائق هاميلكار وقصره تشفّياً منه وانتقاماً، لأنه أطال الحروب وكان من دعاتها، ولأنه ـ يوم تداركه اليأس من قرطاجة الجاحدة ـ ألقى مقاليد

(*) قرطاجنة هي أنقاض مدينة قرطاجة الفينيقية التي ينسب تأسيسها إلى ديدون (أليسا) أخت بغماليون ملك صور القرن ٩ ق.م.

الأمر وقيادة الجنود المرتزقة إلى «جيسكون» وغادرها غاضباً. ولذلك رأى مجلس القدماء أن تقام تلك الوليمة في قصره ليصرفوا عنهم وإليه شيئاً من البغضاء التي كان يكنّها المرتزقة لشعب قرطاجنة ومجلسها، ولكي يحمّلوا هاميلكار وحده عبء النفقات الباهظة.

وزاد في عنت المرتزقة وصلفهم أن نزلت قرطاجة على إرادتهم، فازدادوا يقيناً بأنه قد أصبح بإمكانهم أن يعودوا إلى ديارهم حاملين في طراطير معاطفهم أجوراً استحقوها بسفك دمائهم. على أنهم، وقد لعبت الخمر برؤوسهم، قارنوا تلك الأجور بما بذلوه وسفكوه فعدوها بخسة جائرة، وكان بعضهم يكشف للآخرين عن جراحه، والبعض الآخر يقص على سامعيه أنباء المواقع التي شهدها واستبسل فيها، أو أنباء الأسفار والصيد والطرد في بلاده مقلّداً أصوات الوحوش الضارية ووثباتها.

وجاء دور المهرجين والحواة فأدخلوا رؤوسهم في فوهات جرار الخمور وأخذوا يعبّون منها كأنهم جمال عطشى، ووقف منهم رجل «لويزيتاني» يحمل رجلين على ذراعيه الممدودتين، وأخذ يطوف بين الموائد وهو ينفث لهب النار من منخريه، ومشى بعض «اللاسديمونيين»، وهم بأذرعهم مثقلون، متباطئين في مشيتهم يقلدون النساء بمشاهد خلاعية يأباها الحياء، ووقف البعض عراة بين الكؤوس يقلدون المصارعين، وكان فريق من الإغريق يرقص أمام إناء كبير يحمل رسم حورية على دقات يخرجها زنجي بضربه، بقطعة من عظام البقر، على خوذة فولاذية.

وإذا غناء عذب رغم قوته يخفت رخيماً ثم يرتفع أخاذاً إلى الأجواء شبيهاً بصفق جناحي طائر جريح، وكان مصدر ذلك الغناء أصوات العبيد الأرقاء نزلاء السجن المظلم، فهبّ بعض الجنود مسرعين لتحريرهم، وعادوا بعد حين يسوقون أمامهم قطيعاً من الآدميين تدل صفرة وجوههم عليهم وعلى شقائهم، تعلو رؤوسهم أغطية مخروطية الشكل من أطمار أسود بالية، وبأرجلهم نعال خشبية، وكانوا في مشيهم يحدثون قعقعة من

تلامس أغلالهم أشبه بقعقعة مركبات النقل الجادة في المسير. ووصلوا إلى شارع السرو واختلطوا بالزحام، وأخذ الجند يسألون مستفسرين. وانتحى أحدهم مكاناً قصيّاً وأطماره المهلهلة تشف عن آثار تمزق في لحم الكتفين وعن جروح وقروح، ووقف محنيّ الرأس، وآثار الخوف بادية عليه، وعيناه مطبقتان اجتناباً منه لوهج نور بَعُد عهده به، حتى إذا رأى أن أحداً من الجند لا يريد به أذًى، صعّد زفرة فرّج بها عن صدره وأخذ لسانه المتلعثم يردّد ألفاظاً لا تكاد تفهم، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه، ثم تناول كوباً مليئاً بالخمر ورفعه بين يديه المثقلتين بالأغلال، ونظر إلى السماء والكوب بين يديه وصاح بملء شدقيه: «سلام عليك قبل كل سلام أنت يا بعل أشمون المخلص، أنت يا من يدعوه أهل وطني «أسكيلاب»(*)، وسلام عليكم أنتم يا آلهة الينابيع والنور والغاب، وأنتم أيها الأرباب المختبئون تحت الجبال وفي ثنايا الكهوف، وسلام لكم أنتم أيها الرجال الأشداء الغائصون في حلق الحديد اللامعة، أنتم الذين أنقذتموني وفككتم إساري».

وما لبث أن رمى الكوب جانباً وأخذ يحدّث بسيرته: فاسمه «سبنديوس» والقرطاجيون قد أسروه في معركة «أغنيوز» وهو يجيد اللغات الإغريقية والليغورية والقرطاجية، فأخذ يكرر شكره بهذه اللغات لمنقذيه ويقبّل يدي هذا وذاك ويهنئهم بالذكرى المجيدة، ثم صاح بهم مستغرباً قائلاً: «أين أكواب الكتيبة المقدسة؟» وكانت هذه الأكواب مسدسة الزوايا تحمل على كل منها رسم دالية من العنب منقوشة بالزمرد خُصّت بها فرقة من الجنود طِوال القامات ليس فيهم سوى فتيان مثقفين من أبناء قرطاجة ومواطنيها، وهي مقدسة لديهم كأثواب الكهنوت يشرف بها مالكوها، ولذلك كان المرتزقة يتطلعون إلى امتلاكها وحيازتها كثر من تطلعهم إلى أي كنز آخر من كنوز الجمهورية، وكانوا يكرهون الكتيبة

(*) أشمون إله الفينيقيين يقابله أسكليبيوس في العهدين الإغريقي والروماني. كانت الحية حيوانه الرمزي. له هيكل مشهور في صيدا.

الوطنية ويحسدونها لحيازتها هذه الأكواب ويعدون الشرب فيها شرفاً، حتى إن البعض منهم خاطر بحياته في سبيل الوصول إلى تعاطي الراح بهذه الأقداح.

وأثار كلام سبنديوس حفيظتهم وشهوتهم فأمروا بإحضار الأكواب المودعة لدى جماعة التجار، الذي كانوا يتناولون الطعام مجتمعين في دار «السيسيت»، وعاد الرسل ليقولوا: «إنهم نائمون».

ضجّ الجند إذذاك وأهابوا بالرسل أن يوقظوهم، فرجع الرسل مرة ثانية يقولون: «إن الأكواب مودعة في صناديق مقفلة في المعبد».

فصاح الجند «افتحوا المعبد والصناديق» ولكن العبيد المذعورين اعترفوا بأن تلك الأكواب مودعة لدى الزعيم القائد جيسكون.

ألحّ الجند على طلب الأكواب وصاحوا: «قولوا لـ«جيسكون» أن يحضرها بنفسه». وأطل جيسكون فجأة من باب الحديقة يحيط به حرس من الكتيبة المقدسة، وكان مرتدياً وشاحه الأسود الذي يعلو رأسه، يمسك به تاج ذهبي، مرصّع بالجواهر النفيسة، وهذا الوشاح الفضفاض يتدلى حتى حوافر جواده، كأنه قد امتزج بالليل فلا يبدو منه للناظرين إلاّ لمعان تاجه ولحيته البيضاء والقلادة الزرقاء المثلثة اللفات التي كانت تتدلى حتى صدره.

لم يكد جيسكون يبلغ صفوف المرتزقة حتى حيوه بأصوات شقت عنان السماء هاتفين:

ـ الأكواب! أين الأكواب؟

فابتدرهم بقوله: «إذا كانت الشجاعة تؤهل صاحبها امتلاك هذه الأكواب فأنتم أحق الناس بها».

فصفق الجند وهلّلوا فرحاً واعتزازاً.

والحق، كان جيسكون يعرفهم حق المعرفة، كيف لا وهو الذي قادهم في أيام الشدائد، وهو الذي رجع مع آخر كتيبة منهم على آخر سفينة.

وأضاف جيسكون فقال: «إن الجمهورية قد احترمت فرقكم على

اختلاف شعوبكم وعاداتكم وعباداتكم، وتركتكم أحراراً في قرطاجة. وأمّا الأكواب المقدسة فإنها ملك خاص». قال هذا وإذا بجندي غولي كان قريباً من سبنديوس أقبل يقفز فوق الموائد حتى اقترب من جيسكون مهدداً إياه بسيفين مصلتين، فعالجه القائد بضربة على رأسه من صولجان عاجي كان في يده فسقط على الحضيض، وضج مواطنوه الغوليون وزمجروا وأزبدوا، وأوشكوا أن يوقعوا بالحرس القرطاجي، والتفت جيسكون فإذا بوجوههم قد علتها الصفرة، وقدّر أن شجاعته ستكون تهوراً منه، وستذهب عبثاً بين هؤلاء الوحوش الهائجين المتحمسين، وأنه إذا كظم الغيظ وصبر فسيتمكّن من الانتقام منهم يوماً ما بسعة حيلته وكيده، فأوعز إلى حرسه بالعودة، وسار على رأسهم متباطئاً في سيره، حتى إذا بلغ باب الحديقة التفت إلى المرتزقة وصاح بهم: «ستندمون ولن ينفعكم ساعتئذ الندم».

واستأنف الجند الوليمة وعادوا إلى المضغ والسكر والعربدة، ولكنهم في قرارة أنفسهم أصبحوا يخشون احتمال عودة جيسكون إليهم وضربه الحصار عليهم، وهم بين الأسوار المحصنة، ثم سحقهم حتى آخر رجل منهم، فأحسوا بوحدتهم على كثرة عددهم، ونظروا إلى المدينة المستغرقة بنومها في ظلام الليل، فتسرّب الخوف إلى قلوبهم، وزادهم خوفاً مرأى تلك المعابر الضيقة والسلالم المتزاحمة والأبنية السود العالية، ولا سيما إذ مر بخواطرهم ذكر تلك الآلهة الغامضة التي هي أشد قسوة وضراوة من شعب قرطاجة الذي يمجدها ويعبد هياكلها.

ولاحت لهم من بعيد أضواء قناديل السفن في الميناء وأنوار معبد «خامون»، وساقتهم الذكرى إلى هاميلكار فتساءلوا أين هو الآن ولم ابتعد عنهم وخذلهم بعد توقيع معاهدة الصلح؟ لا، إن شائعة خلافه مع مجلس الجمهورية كاذبة قد انتحلها هو ليعجل في ضياعهم. وهكذا فقد أخذوا يلعنونه وأخذ غضبهم يؤجّج حقدهم وضغينتهم عليه.

وإنهم لفي هذه الحال وإذا بنفر منهم يتجمّعون تحت شجرة من شجر

الدلب حول زنجي يتلوّى ويشكو مرتمياً على الحضيض ممسكاً بمراق بطنه، وحدقتا عينيه جامدتان وعنقه ملتوية، والزبد يخرج من فمه، فصاح صائحهم: لقد سُقي السم. وصدقه الآخرون، فثار ثائرهم، وأوقعوا بالعبيد، وسرت في نفوس القوم موجة غضب وشهوة تدمير وتقتيل وتخريب زادها السكر عنفاً وحدة واحتداماً، فأقبلوا يضربون على غير هدى، وأخذوا يحطمون ويقتلون: هذا نفر منهم يلقي بالمشاعل بين الأوراق، وهذا يحيط بحظيرة الأسود فيرميها بالنبال حتى يميتها، وذاك نفر آخر دفعته الجرأة نحو الفيلة فقطع خراطيمها، وشد بأضراسه على عاجها كأنه يريد قضمه.

دفعت شهوة السلب والنهب فريقاً من جند الباليار المسلحين بالمقاليع فداروا وراء القصر وقطعوا بخناجرهم حواجز الخشب وكسروا الأقفال، وإذا بهم في حديقة أخرى مليئة بالنباتات المشذبة: فهناك صفوف من الزهر الأبيض متناسقة متتابعة تخط على بساط أزرق من الأرض خطوطاً عدسية وكأنها أذناب شهب في السماء، وكانت أشواك العوسج والعليق تنشر عرفاً زكيّاً يملأ النفوس حرارة، وجذوع الأشجار المرقشة بالزنجفر تشبه الأعمدة الملطخة بالدماء. وكانت هناك اثنتا عشرة قاعدة نحاسية يعلو كلاًّ منها كرة من الزجاج تشف عن أشعة محمرة وكأنها حدقات عيون قد احمرت وزادت رجفاناً ورفّاً.

راح الجنود يستنيرون سبيلهم بالمشاعل فأبصروا بحيرة صغيرة مقسمة إلى برك عديدة، بجدران مصفوفة من الحجارة الزرق المنحوتة، وكان الماء فيها زلالاً صافياً حتى أن اضطراب نور المشاعل كان مرئيّاً في قاعها المفروش بالحصى البيض والذهب، وفار الماء فطفت على سطحه شذرات متوهجة، وبدت على صفحاته أسماك كبيرة حليت خراشيمها بالحجارة الكريمة، فالتقط الجند هذه الأسماك وحملوها إلى موائد الطعام وهم يضحكون ويمرحون. وكانت هذه الأسماك جزءاً لا يتجزأ من أسرة «بركا» وكلها ينحدر من نوع اللوط الأصلي الذي تفتحت منه البيضة السرية التي

كانت إلهة النسل مختبئة فيها.

انتشى المرتزقة لفكرة ارتكاب إثم انتهاك قدسية السمك الإلهي، وزادتهم هذه الفكرة نهماً فنهلوا مقداراً من الماء في إناء حديدي وطرحوا فيه الأسماك حية، وأخذوا يستمتعون برؤيتها تتخبط وتتقلّى في الماء الساخن.

وارتفع ضوضاء الجند وهياجهم، وزايلهم الخوف فعادوا إلى معاقرة الخمر، وكانت روائح العطور التي أغرقوا بها جباههم تبلل أرديتهم الرثة، وكان يخيل إليهم، وهم يستندون بمرافقهم إلى الموائد، أنها تميل بهم وتتهادى تهادي السفن في البحار، وكانوا يجيلون عيونهم، التي اتسعت بالسكر حدقاتها، ذات اليمن وذات اليسار ليزدردوا بأبصارهم ما لم يعد بإمكانهم أن يزدردوه بأفواههم. وكان بعضهم يمشي متثاقلاً على الأسمطة الأرجوانية المنبسطة على الأرض فيكسر المواطئ العاجية والصحاف المصنوعة من زجاج صور. والأغاني تمتزج بحشرجة نزع العبيد المطروحين بين شظايا الزجاج المنكسر، وكلهم يطلبون المزيد من الخمر، ويلحون بطلب الذهب والنساء. وملكتهم سورة الخمر فأخذوا يهذون، فظن البعض منهم أنهم في أتون من نار، وظن الآخرون أنهم في صيد وطرد، لما يرونه حولهم من الأشجار والأوراق، فهجم الواحد منهم على الآخر هجوم الضواري المفترسة، وانتقل الحريق من شجرة إلى شجرة ومن نبات إلى نبات فملأ الجو دخاناً أبيض أشبه شيء بدخان البركان في بدء ثورانه، وساد الضجيج والصخب، وعلا زئير الأسود الجريحة في حفائرها.

فجأة أُضيء القصر من أعلى سطوحه، وفتح الباب الأوسط، وبدت على عتبته فتاة، هي ابنة «هاميلكار» متشحة بالأثواب السود، وصعدت سلم الطابق الأعلى ثم الثاني ثم الثالث واستقرت على الشرفة التي تعلو سجن العبيد، ووقفت محنية الرأس، لا حراك بها، تنظر إلى الجنود. وكان يقف وراءها وعلى جنبيها أشباه رجال مديدي القامة شاحبي اللون يرتدون ملابس بيض ذات أخمال حمر، تنحدر حتى تمس الأقدام، لا لحى لهم ولا

شعر ولا حواجب، والخواتم تتلألأ في أصابعهم، وبين أيديهم أعواد كبيرة يوقعون على موسيقاها أناشيد التسبيح لإلهة قرطاجة، وكانوا من كهنة معبد «تانيت» ومن الخصيان الذين طالما كانت «سلامبو» تدعوهم إلى منزلها لرفع الصلاة فيه.

وبعد جهد، نزلت سلم السجن، وتبعها الكهنة، فمشت متباطئة سالكة شارع السرو ما بين موائد الضباط الذين كانوا يوسعون لها في مرورها وهم يرمقونها واجمين.

بدت أكبر سنّاً مما هي عليه، لأن فرع رأسها، المرشوش بنوع من الرمل البنفسجي، بدا مصفّفاً بشكل برج، تبعاً لزي عذارى الكنعانيين، وغدائر اللؤلؤ اللاصقة بصدغيها تنحدر حتى زاويتي شفتيها الورديتين الشبيهتين بالرمانة المتفتحة، وعلى صدرها مجموعة من الحجارة المتوهجة اللامعة، وذراعاها المغطيتان بالماس تمتدان عاريتين من ثوبها العاطل من الأكمام، المتألق الجمال بأزهار حمر زُيّن بها الثوب الأسود. وتمتد بين كعبيها سلسلة ذهبية صغيرة تربطهما فتضبط خطاها، ومعطفها بلون الأرجوان القاتم ومن نسيج نادر مجهول، يتماوج فضفاضاً وهي تجرّه وراءها كأنه المد من موج البحر يتتبع خطاها. وكان الكهنة من وقت إلى آخر يضربون على أعوادهم أنغاماً خافتة، فإذا توقفوا عن الضرب سمع رنين السلسلة الذهبية خفيفاً متناسقاً مع وقع خُفّيها المصنوعين من ورق البردى.

لم يكن أحد قد شهدها من قبل، وكل ما كان يعرف عنها أنها منقطعة إلى الصلاة والعبادة، وكثيراً ما رآها الجنود في الليل من بعيد جاثية على ركبتيها في أعلى قصرها، ضارعة إلى الكواكب، إلى جانب مجامر يحرق فيها الطيب، وكأن القمر هو الذي خلع عليها شحوب اللون، وألبستها الآلهة غلالة رقيقة من السحب، وكانت حدقتاها تبدوان وكأنهما تنظران إلى ما وراء الفضاء. وأخذت تمشي الهوينا محنية الرأس ممسكة بيسراها بعود صغير من خشب الأبنوس، وكانوا يسمعون منها ما تردده همساً: «أموات! كلكن أموات! لن تعدن فتسمعن صوتي كما كنتن تسمعنه فتطعن لي في

الأمس الغابر، يوم كنت أجلس على شاطئ البحيرة فألقمكن بذور البطيخ! يوم كانت أسرار «تانيت» تترقرق في عيونكن الصافية صفاء حُباب مياه الأنهار». ثم بدأت تناديهن بأسمائهن التي كانت أسماء الشهور: «يا سيف، يا سيفان، يا تموز، وأيلول، وتشرين، وشباط! آه ثم آه! رحمة بي أيتها الآلهة الرحيمة!».

تجمّع الجنود من حولها وهم لا يفهمون ما تقول، ولكنهم كانوا معجبين بجمال حليّها، فألقت عليهم واحداً بعد واحد نظرات ملؤها الرعب، وحنت رأسها بين كتفيها ومدت ذراعيها وصاحت بهم مراراً: «ما هذا الذي فعلتموه؟ ما الذي فعلتموه؟ كان لديكم ما يكفي لتوفير أسباب سروركم ومتعتكم: الخبز والزيت واللحوم وما حوت الأهراء من الحبوب والأقبية من الخمور، وقد أحضرت لكم الأبقار المسمنة من أقاصي البلاد، وأرسلت الصيادين إلى القفر». وخشن صوتها واحمر خداها ثم صاحت: «أين أنتم هنا؟ أفي مدينة مغزوة مغلوبة على أمرها أم أنتم في قصر سيدكم الآمر المطاع؟ هو سيد وأي سيد، هو الزعيم هاميلكار والدي خادم الآلهة البعول، هذه أسلحتكم مخضبة بدم عبيده، هل عرفتم قائداً في أوطانكم يساويه حنكة في تسيير الجيوش وكسب المعارك؟ انظروا إلى سلالم قصرنا هذا تروها مليئة بآثار انتصاراتنا. هيا أتموا ما بدأتم به! أحرقوا هذا القصر! سأحمل معي طلسم بيتي وعبقريته، حيتي السوداء الراقدة على أوراق السدر! سأخرج صفيراً من شفتي فتلتحق بي، وإذا صعدت إلى سفينتي تسير وراءها منسابة على زبد الأمواج».

نطقت هذه العبارات وأرنبة أنفها ترتعش وهي تكسر أظفارها على الجواهر المتلألئة على صدرها وقد بدا الذبول في عينيها.

ثم أضافت قائلة: «آه لك يا قرطاجة المسكينة! أيتها المدينة الجديرة بالنياح والبكاء، لم يبق لك ليدافع عنك رجال كرجال الأمس الأشداء الأقوياء الذين كانوا يقتحمون البحار المحيطة فيبنون ما وراءها وعلى شطوطها المعابد والهياكل! آه يا قرطاجة لقد كانت جميع أمم الأرض تعمل

لأجلك وتدور في فلكك، وكانت سهول البحار التي تحرثها مجاذيف سفنك تحمل إليك الحصاد!».

ثم إنَّها راحت تحدثهم متغنية بمغامرات «مالكاريت»(*) إله الصيدونيين ومنجب أسرتها، وكيف تغلب على «ماسيزبال» وعلّق رأسه على مقدم السفينة، وكيف كان الرأس تغطيه الأمواج كلما ثارت الأنواء، وكيف حنطته الشمس بأشعتها حتى أصبح أقسى من الذهب، وكيف أن عينيه ظلتا تذرفان الدمع مدراراً، تتغنى بهذا وغيره من أمجاد «مالكاريت» بلغة كنعانية قديمة لا يفهمها البربر، الذين أخذوا يتساءلون عمّا تقوله لهم هذه الفتاة، وما الذي تعنيه تلك الحركات التي كانت ترافق غناءها، وكانوا قد أحدقوا بها من كل حدب وصوب، وصعدوا على الموائد والأسرة أو تسلقوا الأشجار ومدوا الرؤوس وفتحوا العيون والأشداق، لعلهم يلتقطون شيئاً من تلك التواريخ أو الأساطير التي كانت تمر شعاعاً في مخيلاتهم، من خلال ظلمات طقوس دينية تبدو أشباحاً بين غيوم متكاثفة.

والواقع أن الكهنة الذين يصحبون سلامبو هم وحدهم الذين يفهمون معاني أغانيها ومراميها، إذ كانت أيديهم الهزيلة المليئة بالغضون ترتجف من وقت إلى وقت وهي ترافق بضربها على الأعواد تلك الأغاني الحزينة التي كانت تبعث فيهم الذكريات المقدسة، كما يملأ مرأى أولئك الجنود نفوسهم هيبة ورعباً.

لم يكن البربر ليلتفتوا إلى أولئك المخنثين من حملة الأعواد، بل إن اهتمامهم كان منصرفاً إلى الفتاة لسماع أقوالها والنظر إليها. وكان أكثرهم تحديقاً بها والتفاتاً إليها فتى من الضباط النوميديين، يجلس إلى مائدة من الموائد المخصصة للضباط بين جنود من أبناء وطنه، ويحمل، مشكوكاً في منطقته، عدداً كبيراً من الحراب يغطيها رداؤه، فيبدو وكأن في ظهره حدبة كسنام الجمل، والرداء يكاد يخفي وجهه فلا يبدو منه إلاّ بريق عينيه المحدقتين بوجه الفتاة، وقد اشترك في الوليمة عرضاً واتفاقاً، لأنه لم يكن من

(*) هو ملقارت Melqart، الاسم الذي أطلق في صور على البعل إله المدينة ومعناه ملك المدينة. دعاه الإغريق هيراكليس.

قدماء المحاربين، بل كان والده قد بعث به ضيفاً يحل على أسرة «بركا» عملاً بالعادات المرعية لدى ملوك إفريقية أن يرسلوا أبناءهم ليختلطوا بفتيات الأسر الكبيرة تمهيداً لارتباط بزواج، ولكن الفتى واسمه «نارهافاس»(*) لم يكن قد رأى سلامبو قبل هذه المأدبة، وكان يجلس على عقبيه، وعيناه متجهتان إلى كنانة حرابه لا يحولهما إلاّ للتحديق بالفتاة وهو منتفخ المنخرين حديد البصر، كأنه الببر مختبئاً مقعياً بين سيقان الخيزران.

وغير بعيد من نارهافاس، وفي صف آخر من الموائد، يجلس ليبي مديد القامة ضخم الهيكل مجعد شعر الرأس قصيره، لا يرتدي إلاّ سترته الحربية التي كانت النصال الحديدية المثبتة فيها تمزق أرجوان السرير المتكئ إليه، ويتدلى من رقبته إلى صدره الأشعر قلادة في طرفيها قمر من الفضة يضيع في شعر صدره، وفي وجهه بقع من الدم تنقطه هنا وهنك وهو متكئ على مرفقه فاغر الفم يبتسم من حين إلى حين.

وتوقفت سلامبو عن ترديد الأنغام المقدسة، وأخذت تتحدث إلى البربر بلغاتهم لتهدئ ثائرتهم وتسكن غضبهم، وكان صوتها عذباً رقيقاً، والبربر، وهم يصغون إليها، يذكرون عذوبة العيش في أوطانهم، ثم هاجتها ذكريات قرطاجة فعادت تتغنى ولكن بأمجاد معاركها القديمة وانتصاراتها على روما، فصفق لها الجند، فزادت حماسة لرؤية السيوف المسلولة، وأخذت ترجّع في صوتها وترفعه في الغناء، وهي مبسوطة الذراعين. ثم سقط عود الأبنوس من يدها ولزمت الصمت، وضمت يديها إلى صدرها وظلت بضع دقائق مطبقة الجفون تتلذذ بهياج أولئك الرجال واضطرابهم.

وكان الليبي «ماتو» مقبلاً عليها منعطفاً إليها، فتقدّمت نحوه بحركة لاإرادية، مدفوعة بعاطفة من الكبرياء ممزوجة بعرفان الجميل، وتناولت كأساً ذهبية وسكبت فيها كثيراً من الخمر، ظنّاً منها أنها تتصافى بذلك مع الجنود، وقدمته لليبي وقالت: «خذ واشرب» فتناول الكأس من يدها ورفعها إلى شفتيه وهمّ بشربها، وإذا بالغولي - ذلك الذي ضربه جيسكون - يربت على كتفيه ويخاطبه وهو يضحك بلغة لم يفهمها الليبي، فيتطوّع العبد

(*) اسمه الإفريقي «نارهوى» كما يشير المؤلف إلى ذلك في ذيل روايته.

السابق سبنديوس بالترجمة فقال: «إن الآلهة تحميك وترعاك وستصبح غنياً. متى يكون الزواج؟» فقال الليبي «أي زواج تعني؟». فقال الغولي: زواجك أنت، فنحن الغوليين نعتقد أن المرأة التي تقدم للرجل كأساً من الخمر تقدم له فراشها في الوقت نفسه».

ولم يكد الغولي ينتهي من كلامه حتى انتصب نارهافاس واقفاً، وأخرج من منطقته حربة، واستند بقدمه اليمنى على حافة الطاولة، ورمى بها «ماتو» فمرت وهي تصفر ما بين الأكواب، ونفذت من ذراع الليبي إلى السماط، فسمرتها فيه تسميراً أليماً حتى أن قبضة «ماتو» أخذت تهتز في الهواء.

أسرع «ماتو» بانتزاع الحربة، ولم يكن لديه سلاح، بل كان أعزل عارياً، فحمل المائدة المثقلة بالصحاف والأكواب بكلتا يديه وقذف بها نارهافاس، وهو بين حشد الجموع التي ارتمت ما بينهما، وكان الجند والنوميديون متراصين، حتى كان الواحد منهم لا يستطيع سل خنجره لشدة الزحام، ورغم هذا كان «ماتو» يتقدم شاقّاً طريقه بضربات من رأسه، ثم نظر ذات اليمين وذات اليسار وإذا بنارهافاس قد اختفى عن العيان، واختفت كذلك سلامبو.

وتلفّت نحو القصر فرأى في أعلاه الباب الأحمر المرقش بالصليب الأسود يغلق، فجرى مسرعاً يتدرج على السلم المصنوعة زواياه من مقدمات السفن، المنصوبة على جانبيه، فاجتازه وبدا أمام الباب يدافعه بهيكله الضخم لاهثاً مستنداً إلى الجدار خشية أن يسقط، وكان قد لحق به رجل عرفه رغم حلوكة الظلام وتبيّن أنه سبنديوس فصاح به: «عد من حيث أتيت» فلم يجب العبد، بل أخذ يمزق ثوبه بأسنانه، وجثا على ركبتيه قريباً من «ماتو» وأمسك بذراعه الجريح يجسها في الظلام ليستبين موضع الجرح، وبدا ضياء القمر من خلال الغيوم، فرأى سبنديوس جرحاً في الذراع بليغاً فلفه بقطعة القماش التي انتزعها من ثوبه، ولكن هياج «ماتو» كان يشتد وهو يصيح به: «دعني وشأني واذهب» فأجابه العبد قائلاً: لا، لا، لن أذهب، إنك قد فككت أسري، وأنقذتني من غيابة السجون، فأنا لك عبد وأنت سيد لي فمر بما تشاء».

راح «ماتو» وهو يتحسس الجدار، يدور على السطح وينصت إلى وقع الخطى وينظر من كوى النوافذ المذهبة إلى داخل الحجرات الصامتة، ثم توقف أخيراً واليأس يعلو وجهه. فقال له العبد: «أصغ إليّ ولا تحتقرني لضعفي، لقد عشت في هذا القصر، وبإمكاني أن أنسل ما بين الجدران كالأفعى. تعال معي فإن هناك في حجرة الأجداد سبيكة ذهبية تحت كل بلاطة، وهناك أعرف سرداباً يوصل إلى قبورهم».

فقال له «ماتو»: «وأية أهمية لهذا؟» وسكت سبنديوس. وكانا ـ وهما على السطح ـ يريان ما دونهما سجافاً كثيفاً من الظلام يمتد وكأنه محيط أسود تتوالى أمواجه، وامتد لسان من النور من جهة الشرق، وبدت تحتهما، من اليسار، أقنية الماء التي تسقي حي «ميجارا» تضيء بلونها الفضي خضرة الحدائق، وكانت السقوف الصنوبرية الشكل، التي تعلو المعابد المسبعة الزوايا والسلالم والحصون والسطوح، قد أخذت تنجلي معالمها بطلوع الفجر الشاحب اللون، وبدت شبه جزيرة قرطاجنة متمنطقة من كل صوب بمنطقة متموجة من الزبد الأبيض، بينما كان البحر الزمرّدي تحتها ساكناً وكأن لفحة برد الصباح قد مسته فجمد في مكانه، ولمّا بدأت الشمس تتشح رويداً رويداً بوشاحها الوردي، أخذت المباني العالية المنحنية على منحدرات الأرض تبدو متراصة متتابعة، متدرجة الواحد منها أسفل الآخر، كقطيع من الماعز الأسود ينحدر من الجبال. وكانت الشوارع المقفرة تتطاول، وأشجار النخل هنا وهناك تبرز وراء الجدران جامدة لا حراك بها، وخرزات الآبار التي حفلتها المياه تبدو كأنها خوذ من الفضة مفقودة ضائعة في دور المنازل، ومنارة السفن المرفوعة فوق مشرق «هرمايوم» قد أخذ نورها الوهاج بالشحوب، وهناك في أعلى ملعب «الأكروپول» وفي غابة السرو أحست خيل أشمون بإقبال الضياء، فأخذت تضرب بحوافرها ثم ترفعها فوق الحواجز الرخامية، آخذة في الصهيل، موجهة أبصارها نحو الشمس، وبزغت الغزالة، فرفع سبنديوس ذراعيه وأخرج صيحة من فمه.

بدا كل شيء يتحرك في حمرة منتشرة، لأن الإله مزق حجابه، فأمطر قرطاجنة بكامل أشعته فيضاً من الذهب المتساقط من عروقه، وأخذ الشرر

يتطاير من مهاميز السفن، وبدا سطح معبد خامون مليئاً باللهب، ولُمح قبس من نور في صدور المعابد التي أخذت تفتح أبوابها، وأقبلت مركبات النقل من الحقول تترنح عجلاتها على بلاط الشوارع، والجمال المثقلة بالأحمال تتدرك متهادية على درجها. وأخذ الصيارفة يرفعون واجهات حوانيتهم، وارتفعت طيور البجع إلى السماء بأجنحتها، وخفقت أشرعة بيض، وسمعت في غابة الإلهة «تانيت» أصوات طبول المحظيات المقدسات. وفي مرتفعات «مابال» ارتفع دخان الأفران المعدة لطبخ توابيت الخزف.

كان سبنديوس منحنياً على الشرفة وأسنانه تصرف وهو يدمدم: لا، أجل، أيها السيد، لقد بدأت أفهم السبب الذي من أجله استنكرت منذ هنيهة نهب هذا المنزل... آه لهم ما أوفر ثروتهم وغناهم! وهؤلاء الناس الذين يملكون هذه الثروات ليس لديهم من الحديد ما يحمون به هذه النفائس! ثم أشار بيده الممدودة إلى أفراد من أبناء الشعب كانوا يزحفون على بطونهم على الأرض إلى جانب البحر بحثاً عن شذات الذهب، وقال «إن الجمهورية أشبه شيء بهؤلاء! إنها تنحني على شواطئ محيطات البحور وتغمس ذراعيها الجشعتين في جميع الشواطئ، ولكن هدير الأمواج يملأ أذنيها وقراً بحيث لا تسمع وراءها وقع أقدام السيد الذي سيسودها يوماً». ثم أخذ بيد «ماتو» وجره إلى الجهة الأخرى من الشرفة وأراه بإشارة من يده الحديقة التي كانت تلمع فيها سيوف الجند المعلقة على الأشجار، وقال له: «وأما هنا فرجال أقوياء أشداء بلغ بهم البغض الذي يحملونه لقرطاجنة حدّاً بعيداً،وأوشك مرجل هذا الحقد أن ينفجر!! لا شيء يربطهم بها، لا الأسرة ولا الآلهة، ولا الأيمان المغلظة».

لم يحر «ماتو» جواباً، بل ظل مستنداً إلى الجدار، فاقترب منه سبنديوس وهمس في أذنه: «أتعي ما أقول أيها الجندي؟ إننا سوف نروح ونغدو مرتدين ثياب الأرجوان كأننا حكام الأقاليم، إننا لو أردت سنغتسل بالعطور ونوافج المسك، وسيكون لي أنا عبيد أرقاء، أما آن لك أن تمل النوم على الأرض، وشرب خل المعسكرات وسماع أصوات النفخ بالأبواق صباح مساء؟ هل تحسب أنك ستخلد يوماً إلى الراحة؟ أجل قد يكون ذلك

يوم ينزعون عنك درعك ليلقوا بجثتك طعاماً لجوارح الطير، أو يوم تتكئ على عكاز وأنت أعمى أعرج عاجز، تقرع الأبواب متسولاً وتقص أحاديث شبابك على الصغار وعلى بائعي الأسماك. اذكر، اذكر مظالم رؤسائك وقيامك ومنامك على الثلوج، وسيرك في الأرض اللاهبة تحت وهج الشمس، اذكر مساوئ النظام وصرامته واستبداده، وما يتعرض له كل جندي من التعذيب والصلب! وبماذا جزوك عما قاسيت وتحملت؟ إنهم أدلوا في عنقك «قلادة الشرف» كما يعلق في رقبة الحمار حبل من الأجراس، ليجدّ في السير وينسى التعب. إن رجلاً مثلك أشجع من بيرهيس(*) لو أراد! أجل لو أردت لأصبحت سعيداً تجلس في القاعات الفسيحة الرطبة الهواء تستمع إلى ألحان الأعواد المطربة والأنغام الشجية، وأنت مستلق على الوسائد الوثيرة بين الأزهار المتضوعة وحولك الحسان والمضحكون!.. لا تقل لي إن المغامرة فاشلة. ألم يستول الجنود المرتزقة مثلنا على مدينة «ريجيوم» وغيرها من حصون روما!؟ وما الذي يقف في وجهك؟ إن هاميلكار بعيد متغيب، وإن الشعب يمقت الأغنياء، وجيسكون لا يملك أية حيلة بمن حوله من الجبناء! أما أنت فشجاع باسل، فانطلق على رأسهم وكن لهم نعم القائد، فإنهم ليأتمرون بأمرك! إن قرطاجنة لنا، فهيا بنا ننقض عليها!».

فقال له «ماتو»: لا، إن لعنة «مولوخ»(**) قد حلّت عليّ، لقد تبيّنت ذلك في عينيه. ولقد رأيت منذ هنيهة في معبده كبشاً أسود يمشي القهقرى إلى الوراء. ثم إنه تلفّت ذات اليمين وذات اليسار وقال «أين هي؟».

فأحس سبنديوس أن نفس «ماتو» قلقة مضطربة فلم يعد يجرؤ على الكلام.

في تلك اللحظة كانت الأشجار لا تزال تحترق، وبقايا جثث القردة المحترقة تتساقط من وقت إلى آخر من خلال الأغصان السود فتقع على

(*) ملك إيبيروس، اشتهر بشجاعته، هزم الرومان في هيراقلي، وقتل بيد امرأة في حصاره سنة ٢٧٢ق.م.

(**) هو مولُك تحريف مَلَك، لقب إله الوثنيين من أمونيين وفينيقيين. كانوا يقدمون له أولادهم ذبائح يطرحونها عنده في النار.

الموائد وسط الصحاف والجفان، والجنود السكارى يغطون في نومهم وأفواههم مفتوحة، والصاحون منهم يغضون بأبصارهم اجتناباً لوهج أشعة الشمس، والأرض مغطاة ببقع الدم القانية، والفيلة تمسح بقايا خراطيمها المقطوعة الدامية على أوتاد حظائرها، وهنا وهناك على أبواب الأهراء أكياس من الحنطة مبعثرة وقد تبعثر ما فيها من دقيق، وعلى باب الحديقة مركبات نقل لا عداد لها قد كدسها البربر، ومن أعالي أشجار الأرز تخرج أصوات الطواويس التي كانت تنشر أجنحتها وتبسط ذيولها. وزادت دهشة سبنديوس إذ التفت فرأى ماتو جامد الحركة شاحب اللون ساكن الحدقتين يمدهما إلى شيء في الأفق وهو يشد بقبضتيه على حاجز الشرفة، فتتبّع سبنديوس مرمى نظر ماتو وإذا به يرى من بعيد مركبة مذهبة تسير في اتجاه أوتيك(*)، وقد ارتفع فوقها غبار الطريق، وجلست فيها امرأتان، وأمامهما عبد يجري على رأس مجرها، وناصيتا الجوادين مضفرتان بين آذانهما على الزي الفارسي، وقد زينتا بالخرز الأزرق. وعرف سبنديوس من هما المرأتان، وأوشك أن يرسل صرخة لولا أنه تمالك نفسه وصمت.

وكان يبدو في مؤخرة المركبة ستار كبير يخفق مع الأرياح.

(*) مدينة قرطاجية قتل فيها كاتون الأكبر الروماني بعد هزيمته في «تابسيس» وكان يدعو إلى القضاء على قرطاجة في خطبه.

2
معسكر سيكا

بعد يومين من الوليمة خرج الجند المرتزقة من قرطاجنة.

كانت الجمهورية قد نقدت كلاً منهم قطعة ذهبية واشترطت عليهم أن يرتحلوا عن المدينة ويعسكروا في «سيكا»، وكان أولو الأمر قد منّوهم بالآمال، وقالوا لهم متملّقين:

«أنتم منقذو قرطاجنة وحماتها، ولكن المجاعة تحل فيها لو ظللتم بها تقيمون فيصيبها الإفلاس فابتعدوا عنها، وستقدّر لكم الجمهورية هذا العمل حقّ قدره، فها نحن أولاء سنجمع الخراج وندفع لكم أعطياتكم كاملة، وسنجنّد لكم السفن الكافية لنعيدكم إلى أوطانكم سالمين».

فانطلت عليهم الحيلة ولم يجدوا ردّاً على تلك الوعود الخلابة، فضلاً عن أنهم كانوا رجالاً قد اعتادوا الحروب في فضاء الأرض، وكان الملل قد استحوذ عليهم لطول إقامتهم في المدينة، وهكذا بدأت مواكبهم تغادر قرطاجنة وأقبل الشعب على الأسوار يتابع رحيلهم بنواظره.

اندفعوا صفوفاً من شارع «خامون» ومن باب «سيرتا»، ولكنها كانت صفوفاً غير منتظمة فاختلط حابلهم بنابلهم: الفرسان مع المشاة، والضباط مع الجنود، و«اللوزيتانيون»(*) مع الإغريق، ولكنهم كانوا يسيرون بخطى ثابتة ويضربون بأحذيتهم النحاسية على بلاط الشوارع، وكان بأسلحتهم فلول من مقارعة الكتائب وحجارة «المنجنيق»، ووجوههم مسودّة من غبار المعارك، وكانت الصيحات الجشاء تخرج من بين اللحى الكثة، ودروعهم الممزقة تتلاقى بمقابض خناجرهم فتحدث صليلاً، وأجسامهم العارية تبدو من وراء ذلك مخيفة مرعبة كمثل أدوات الحرب المبيدة، وكانت عصي الفؤوس وطوال الرماح وقصارها وقبعات اللبد وخوذ النحاس تتقدم كلها وتتذبذب بحركة واحدة. ملأوا الشوارع حتى ضاقت

(*) نسبة إلى لوزيتانيا وهو الاسم الذي عُرفت به البرتغال قديماً.

بهم وحتى كادت جدرانها تتقوض، ومرّوا كتلاً متراصة أمام البيوت العالية ذات الطوابق الستة المطلية بالقار، وكانت النساء الواقفات خلف الأسوار الحديدية يشهدن رحيل البربر وهنّ صوامت مغطيات الرؤوس.

ملأت جماهير القرطاجيين، الذين كانوا يرتدون الثياب السوداء، السطوح والتحصينات والجدران، فأثواب البحارة الحمراء تبدو بقعاً من الدماء في وسط ذلك الجمع المحتشد القاتم الملابس، وحتى الأطفال والفتيان اشتركوا في هذا الزحام وأكثرهم أنصاف عرايا، وقد وضعوا في أيديهم الأساور النحاسية اللماعة وتسلقوا الأعمدة أو اختبأوا بين أغصان الأشجار.

وكان بعض رجال مجلس القدماء قد انتصبوا على مصاطب الأبراج يشهدون هذا الجلاء، وبينهم رجل طويل اللحية انتحى مكاناً بعيداً عنهم ووقف كالحالم بلا حراك كالحجر الأصم ولاح للناس من بعيد وكأنه شبح من الأشباح.

وقد كان الشعب برمّته قلقاً يخشى أن يمتنع البربر عن الخروج من المدينة، ولكنه حين وثق من رحيلهم أخذ الكثير من أفراده يمتزجون بالجيش ويرددون أمامه الأيمان، ويعانقون الجند، حتى إن البعض منهم، مدفوعاً بعامل الكبرياء، كان يحثهم على البقاء في المدينة مبالغة في إظهار الأسف والعطف.

وكان القرطاجيون يلقون عليهم مياه العطور وقطع النقود الفضية، ويعطونهم تمائم تقي من الأمراض، ولكنهم كانوا قد بصقوا عليها ثلاث مرات لتجلب على حاملها الموت أو أودعوها وبراً من وبر بنات آوى لاعتقادهم أنه يحيل الشجاع إلى جبان، وكانوا يزوّدونهم علانية ببركات «مالكاريت» وفي السرّ شر لعناته.

تبع الجيش حملة الأمتعة وحيوانات النقل والمتباطئون: فهناك المرضى المحمولون على الجمال يئنون، والمشاة منهم يعرجون وعلى عصيهم يتكئون، وهناك السكيرون يحملون قرب الخمر، والشرهون

النهمون المثقلون بقطع اللحم وأقراص الحلوى وبالثمار وبالزبدة ملفوفة بورق التين وبالثلج محفوظاً بالأكياس.

كان الكثيرون منهم يحملون المظلات في أيديهم أو طيور الببغاء على أكتافهم، وآخرون يجرون وراءهم كلاباً أو غزلاناً أو نموراً، وبعض النسوة الليبيات يركبن الحمر ويشتمن الزنجيات، والبعض الآخر منهن يرضعن أطفالهنّ المعلّقين على صدورهن بسير من جلد البغال تنوء تحت أثقال من الخيام فيخزها سائقوها بالإبر، والعبيد يحملون قِرب الماء وهم صفر الوجوه هزيلو الأجسام قذرون، وأخيراً تجيء حثالة القرطاجيين الملتصقين بالبربر وعلى أجسادهم تسرح الهوام وصغار الحشرات.

عندما تم خروجهم أُقفلت الأبواب وراءهم، وظل الشعب على الأسوار، وانتشر جيش البربر في عرض البرزخ وانقسم إلى جماعات غير متساوية العدد، وأعرضت عنهم قرطاجة، ولاحت رماحهم من بعيد كأنها سيقان الأعشاب، واختفى كل شيء تحت ستر كثيف من الغبار.

فجأة سمع البربر صيحة عظيمة وراءهم فظنوها صراخ جماعة من المتأخرين منهم ينهبون هيكلاً من الهياكل فسرّوا لهذه الفكرة ولم ينتبهوا إلى سبب آخر. واصلوا طريقهم وهم يضحكون فرحين لعودتهم كسابق عهدهم إلى السير مجتمعين في فجاج الأرض، وأخذ الإغريق ينشدون أغنيتهم القديمة المفضلة:

«برمحي وسيفي أحرث وأحصد
وأنا رب بيتي
والأعزل من السلاح يجثو أمام ركبتي ويناديني
أيها السيد أيها الملك الكبير».

الجميع فرح يتبادلون النكات ورواية الأساطير لاعتقادهم بزوال زمان بؤسهم. ولما بلغوا تونس لحظوا أن كتيبة من رجال «الباليار» من حملة المقاليع لم تكن بين صفوفهم، فظنوا أنها قد تأخرت في سيرها فترقبوا قرب وصولها.

وتفرّقوا في تونس فِرَقاً، فهؤلاء أووا إلى البيوت، وأولئك ضربوا الخيام حول الأسوار، وأقبل أهل المدينة يتحدثون إلى الجند.

استمر الجند طوال الليل يرون النيران من بعيد ترتفع إلى الفضاء من مدينة قرطاجة فتمتد كأنوار المشاعل إلى البحيرة الراكدة، ولم يتأت لأحد منهم أن يعلل أسباب تلك النيران، ولا الاهتداء لاسم العيد الذي كان القرطاجيون يحتفلون به.

وفي الصباح الباكر اجتاز البربر حقولاً فيها مختلف المزروعات، لأن مزارع المواطنين كانت تمتد متتابعة على جانبي الطريق: فالسواقي تخصب بمائها غابات النخل، وشجر الزيتون يؤلف صفوفاً طويلة خضراء، وكان يرتفع إلى الجو بخار وردي اللون يتماوج بين ثنايا الآكام. ووراء ذلك كله تبدو الجبال الزرقاء، والريح تهب حارة، وأسراب الحرابيّ تلجأ إلى أوراق الصبار.

وأبطأ البربر من سيرهم، وأخذوا يتقدّمون زرافات متقطعة، يأكلون العنب من أطراف الكروم، ويضطجعون على الأعشاب، ويعجبون لمرأى الثيران ذات القرون الكبيرة المعوجّة والأغنام المكسوّة بالجلود للمحافظة على صوفها، والأثلام المشقوقة في الأرض، والمحاريث الشبيهة بحراس السفن، وأشجار الرمان التي كان المزارعون يرشونها بمادة «السيلفيوم»، وكان مرأى هذا الخصب وخيرات هذه الأرض يدهشهم وتلك الاختراعات الحكيمة تملأهم إعجاباً.

حطّوا رحالهم في منتصف الليل التالي ليستريحوا على ضفاف نهر بين أغراس الدفلى المتشابكة، فألقوا برماحهم ودروعهم ومجنّاتهم وخوذهم ومناطقهم جانباً، وأخذوا يغتسلون في النهر وهم يضجّون ويشربون الماء بخوذهم، أو ينبطحون أرضاً على بطونهم ليعبوه عبّاً وهم بين حيوانات النقل ومعها يتزاحمون.

بدا سبنديوس يركب فصيلاً سرقه من حدائق هاميلكار في زحمة الفتنة، فلمح غير بعيد «ماتو» يسقي بغله وهو حاسر الرأس كئيب، وذراعه

الجريحة مشدودة بالرباط إلى صدره، فترجّل عن قعوده وجرى نحوه وهو يناديه: «مولاي، مولاي!».

لم يلتفت ماتو إليه، بل اكتفى بأن ردّ عليه بكلمة شكر لما كان العبد يردده من الدعاء له، وما يكيله من المديح والثناء عليه، ولم يأبه سبنديوس لهذا الإعراض والجفاء، بل ظل يسير وراءه وهو يوجه النظرات القلقة نحو قرطاجة. وكان سبنديوس هذا قد وُلد لمعلّم إغريقي، ومن جارية مومس «كامبانية»، وأحرز بادئ ذي بدء ثروة من الاتجار بالرقيق، ثم ذهبت ثروته وضاع ماله لغرق سفينة له، فتطوّع في جيش «رعاة السمنيوم» لمحاربة الرومانيين، فأُخذ أسيراً واستُعبد رقيقاً يعمل في المقالع وفي الأفران، وذاق التعذيب ألواناً وصنوفاً، وبيع من سيد إلى سيد، ودفعه اليأس يوماً، وهو يجدف في سفينة رومانية، فرمى بنفسه إلى البحر فالتقطه بعض بحارة هاميلكار وحملوه إلى قرطاجة فأُلقي في سجن العبيد في «ميجارا» على أن يعاد إلى عبوديته لدى الرومان بصفته آبقاً، وقد أنقذه جند البربر من ذل الإسار كما تقدّم، فانتهزها فرصة ليفرّ معهم متسلّلاً بين جموعهم.

استمر سبنديوس طوال الوقت على مقربة من ماتو، يأتيه بالطعام ويساعده على النزول عن ظهر بغله، ويفرش له البساط عند النوم، وظل هذا دأبه حتى اكتسب عطف ماتو وخفّف من انقباضه.

وُلد ماتو هذا في خليج سيرتس(*)، وقد حج مع أبيه إلى معبد آمون، وعمل بصيد الفيلة في غابات «غارامانتس»، ثم تطوع في جيش قرطاجة وترقّى إلى رتبة زعيم بعد فتح حصون «دريسبانوم». وكانت الجمهورية مدينة له بأربعة أفراس وثلاث وعشرين كيلة من الطحين وبأجره النقدي عن أشهر الشتاء، وكان يخاف الآلهة، ويتمنى أن يموت ويدفن في وطنه.

راح سبنديوس يحدث ماتو عن أسفاره وعن الشعوب التي تعرف إليها والمعابد التي زارها، وعمّا يحذق صنعه من النعال وأدوات الحرب وشباك

(*) هو خليج سِرت في أقصى شمالي إفريقية، يقسم إلى قسمين: سِرت الكبرى أو سدرة في الشرق (ليبيا) وسِرت الصغرى أو قابس في الغرب (تونس).

الأسماك وطهو الطعام. وظل القلق بادياً على وجه سبنديوس حتى مساء اليوم الرابع، وكانت أحلام الانتقام من قرطاجة قد عادت تراوده ليل نهار، فكان يكتم أنفاسه بيده كي لا تُسمع زفراته، وكان ماتو يسير إلى جانبه وقد عاودته كآبته وساقاه تتدليان على بغله حتى تكادا تمسان الأرض.

بدت الطريق طويلة فكأنّما ليس لها نهاية، فكلّما انطوى سهل بدت أكمة يليها واد حواليه جبال تبدو كأنها تحاول حجب الأفق، ومن وقت إلى وقت تقع العين على نهر يسيل بين أشجار الأثل، ثم يغيب متوارياً في ثنايا الآكام أو على جلمود صخر شبيه بمقدم السفن، أو بقاعدة لشيء ضخم كان يعلوه ثم توارى مع الزمن، وهناك هياكل مربعة الشكل بنيت كمحطات لاستراحة الحجاج الذين يُيمّمون شطر سيكا، وكان الليبيون يقرعون أبواب هذه المعابد ليفتح لهم فلا يجيبهم مجيب.

غابت المزارع شيئاً فشيئاً، وبدأ الجيش يسير بين كثبان بلاقع من الرمال نبت فيها الشوك، على أن قطعاناً من الغنم كانت ترعى بين تلك الأشواك تحرس كل قطيع منها امرأة متمنطقة بمنطقة زرقاء تسارع في الهرب مولولة إذا بدت لها رماح ذلك الجيش.

وحين بلغوا في سيرهم إلى مضيق عريض واقع بين أكمتين حمراوين علقت بأنوفهم رائحة كريهة، وإذا بهم يرون على ذروة شجرة خروب رأس أسد معلق بين أوراقها على صليب، وقوائمه الأربع مشدودة إلى ذلك الصليب كما يشدّ المجرم، وقد تدلّى شدقاه على صدره، واختفت قائمتاه الخلفيتان وراء لبده الكثيف وتباعدتا مبسوطتين كجناحي الطائر في طيرانه، وبدت أضلاعه ناتئة تحت جلده، وقد جمد الدم الأسود بين لبده وعلى أسفل ذيله الذي كان يتدلى على الصليب، فأخذ الجند يتلهون بهذا المشهد المخيف وينادون الأسد: «يا قنصل روما! أيها المواطن الروماني» ويرمونه بالحصى بين عينيه ليبعدوا عنه الذباب الحائم المتجمّع.

ثم شاهدوا غير بعيد أسدين آخرين على تلك الصورة، ثم صفّاً طويلاً من الصلبان تحمل أسوداً مصلوبة، فمنها ما أصبح جثثاً بالية لم يبق منها إلاّ

هياكل العظم، ومنها ما لا يزال طعاماً للهوام والجوارح، وكان بينها أسود ضخمة الجثث قد أمال ثقلها الأشجار التي صلبت عليها فأخذت تتهاوى مع الريح، وفوقها أسراب الغربان والعقبان تحوّم في الجو دون هوادة.

بمثل هذا العمل الوحشي كان مزارعو قرطاجة ينتقمون لقطعانهم من الوحوش الضارية ليجعلوا هذه الأسود المصلوبة عبرة لغيرها ويوقعوا في قلوبها الرعب فيأمنوا شرّها.

فجأة عقدت الدهشة ألسنة البربر، واستحالت ضحكاتهم إلى وجوم، وأخذوا يردّدون لأنفسهم: «أي شيء هو هذا الشعب الذي يلهو بصلب الأسود!؟».

وكانوا ـ ولا سيما أهل البلاد الواقعة في الشمال ـ قلقين مضطربين لأسباب خفية لا يتبيّنونها، وأصبح الكثيرون مرضى، فإن مرض الزحار كان انتشر بينهم وتخدشت أيديهم من شوك الصبار، وأنهكهم التعب ولسع البعوض، وأوشكوا أن ييأسوا من الوصول إلى سيكا، وخشوا أن يضلوا الطريق فيرتموا في أحضان الصحراء الرهيبة، وتمنّع البعض عن متابعة السير، وسلك البعض الآخر طريق قرطاجة عائدين إليها.

في نهاية المطاف، وبعد مسيرة سبعة أيام في ثنايا الجبال، داروا جهة اليمن وإذا هم بصفّ من الأسوار قائم على صخور بيض ووراءه مدينة سيكا تخفق على جدرانها براقع زرق وصفر وبيض، تلك هي براقع محظيات «تانيت» اللائي خففن لاستقبال الرجال، وقد وقفن بانتظام على طول الأسوار، ينقرن على الدفوف، ويضربن على الأعواد والصنوج، ويرقصن بالصاجات والجلاجل. وكانت أشعة الشمس الغاربة وراء جبال نوميديا تنسلّ بين أوتار المزاهر والمثالث والقيثارات التي تلعب بين الأذرع العارية. وكانت آلات الموسيقى تكف عن الضرب من وقت إلى وقت فيخرج من أفواههن صراخ حاد سريع متتابع عنيف يبعثه كالعواء بتحريك ألسنتهن في زوايا شفاههن، وكان البعض منهن يقفن متكئات على السور وظهور أكفهن على خدودهن وهن صامتات ساكنات كأبي الهول يرمين

الجيش المقبل بسهام من عيونهن السود.

لم تكن سيكا المدينة المقدسة معدة لاستقبال الجماهير الغفيرة ولا سيما هذا الجيش اللجب، لأن المعبد وحده كان يستغرق نصفها،فاستقر البربر خارجها في السهل المحيط بها، وتفرقوا جماعات جماعات، فالجيش النظامي استقر في جانب، وأبناء الوطن الواحد في جانب آخر، ونصب الإغريق خيامهم المصنوعة من الجلد في صفين متوازيين، ورفع «الإيباريون» قبابهم المحاكة من النسيج بشكل دائرة، وأقام الغوليون مظلات من ألواح الخشب، وبنى الليبيون أكواخاً من الحجر، أما الزنوج فحفروا بأصابعهم حفراً أووا إليها، وظل الكثيرون بلا مأوى فناموا بمعاطفهم الرثة يلتحفون السماء.

بدا السهل منبسطاً أمامهم تعلو أطرافه الجبال، وهنا وهناك على كثبان الرمال ترتفع بعض أشجار الشربين والبلوط، وكان الصفاء والسكون يخيّمان على الحقول رغم هبوب الزوابع وسقوط الأمطار في بعض الأحيان، والرياح تهب دافئة فتثير الغبار.

ومن أعالي سيكا حيث يرتفع معبد ڤينوس سيدة الإقليم، بأعمدته الحديدية وسطوحه الذهبية، ينحدر شلال ماء. وكان هذا المعبد الذي ملأته تانيت بروحها يبعث الحياة في المكان والسكان. أجل، إن اضطراب طبيعة الأرض وتبدل مناخها وتقلباته وتنوع النور وأشكاله كانت كلها مظاهر قوتها وجمالها الساحر، حتى أن قمم الجبال بدا بعضها بشكل أهلّة، والبعض الآخر بصور صدور نساء برزت أثداؤهن الناهدة ما ملأ نفوس البربر فيضاً من المتعة واللذة رغم ما نالهم من تعب ووصب.

ابتاع سبنديوس عبداً بثمن الجمل الذي باعه، وكان ينام طوال النهار مستلقياً أمام خيمة ماتو، وكثيراً ما كان يصحو من نومه مذعوراً لتخيله سماع صفير سوط يمزق لحمه، ثم يعود فينام مبتسماً بعد أن يتحسس ندوب جراحه القديمة المندملة.

قَبِل ماتو بأن يصحبه، فكان سبنديوس يسير خلفه كحارسه الشخصي،

وفي منطقته خنجر يتدلى حتى فخذيه، وكثيراً ما يتكئ ماتو على كتفه لأن سبنديوس كان قصير القامة.

وذات يوم حدث أنهما كانا يجتازان المعسكر فأبصرا رجالاً يرتدون المعاطف البيضاء وبينهم نارهافاس أمير ليبيا، فتجهم وجه ماتو غضباً وصاح به: «استلّ سيفك بيدك فإني أريد أن أقتلك»، فاندفع سبنديوس قائلاً: «لما يحن الأوان بعد». وأسرع نارهافاس فتقدم من ماتو وقبّل إبهامي يديه إشارة إلى رغبته بعقد حلف بينهما، واعتذر عما بدر منه بأنه كان سكران يوم الوليمة، ثم أخذ يقذف قرطاجة بأشنع التهم والسباب دون أن يشير إلى السبب الذي دعاه إلى القدوم على البربر.

والواقع أن سبنديوس كان يسأل نفسه عن هذا السبب: أهو لخيانتهم (البربر) أم لخيانة قرطاجة؟ ولكنه، وهو يضمر الحقد وينوي الاستفادة من كل فتنة قد تقع، أحس بالرضا لانقلاب نارهافاس على قرطاجة، وعقد العزم على الاستفادة من خيانته هذه.

عاش أمير نوميديا بين المرتزقة، وكأنه كان يود أن يكتسب صداقة ماتو، فأخذ يرسل إليه العنز المسمنة والذهب وريش النعام، ودهش الليبي لهذه الهدايا وحار في أمره: أيبادل هذا النوميدي ودّاً بود أم يصرفه عنه؟ ولكن سبنديوس كان يهدئ روعه ويوحي إليه أن يأمن جانب نارهافاس. وأصبح ماتو يلقي مقاليد أموره إلى سبنديوس وهو فاقد العزيمة متردّد مخدر الجسم، كمن اعتاد تناول المسكنات وهو يعلم أنها ستقوده حتماً إلى القبر.

وحدث في يوم من الأيام أن ذهب الثلاثة لقنص الأسود، فرأى سبنديوس نارهافاس يخبئ خنجراً في معطفه، فأخذ يتتبع خطاه ويراقبه ولكن الخنجر ظل في مكانه.

وفي يوم آخر حدث أن نارهافاس استدرجهما بعيداً عن حدود مملكته، ولمّا بلغوا مضيقاً ما بين جبلين ادّعى أنه ضل الطريق، ولكن سبنديوس عرف أن يهتدي إليها.

كان ماتو طوال الوقت كئيباً، يهيم في الحقول على غير هدى فيفترش الرمل حتى المساء وهو جامد ساكن.

بعد ذلك راح يستشير عرّافي الجيش الواحد تلو الآخر: أولئك الذين يرقبون زحف الحيات، والذين يقرأون ما هو مسطر على الكواكب، والذين ينفخون رماد الأموات. وشرب من كل سقية يصفها العرّافون حتى من سموم الأفاعي، ورضي أن تنخزه الزنجيات بروؤس المدى المذهبة في جبينه وهن يتغنين على ضوء القمر بأناشيد البربر، وملأ عنقه بالتمائم والقلائد والخرز، ورفع الأكفّ ضراعة لبعل خامون ومولوخ وللسبعة الكبار ولتانيت الكنعانيين وڤينوس الإغريق، وحفر اسمه على لوح نحاسي غمره بالرمال على باب خيمته. وكان سبنديوس يسمع أنينه وهو يخاطب نفسه بنفسه، فدخل عليه ذات ليلة وإذا به يراه أشبه بالجثة منبطحاً على بطنه على جلد أسد، ووجهه بين يديه، فقال له: «إنك تتعذب وتتألم، فقل لي ما الذي تريده». وأخذ يهز كتفيه ويناديه «مولاي!».

رفع ماتو رأسه أخيراً ومال نحوه بعينين زائغتين، وقال له بصوت هامس أجش وقد وضع سبابته على شفتيه: «إن ما بي هو من غضب الآلهة. إن ابنة هاميلكار تتقفّى خطاي فأنا منها خائف وَجِل يا سبنديوس». وكان يشد على نفسه ويضم يديه إلى صدره كطفل أرعبه حلم مزعج - «بحقك يا سبنديوس خاطبني، تكلم، فإني مريض وأريد أن أشفى، لقد حاولت وجربت كل شيء، ولكنك أنت قد تعرف آلهة أعتى وأقوى، أو تحفظ أدعية مستجابة». فقال له سبنديوس: «ولم كل هذا؟».

فضرب ماتو رأسه بقبضتيه وأجاب: «لكي أتخلص منها». ثم أخذ يتمتم: «لا شك في أني ضحية محرقات وعدت بها الآلهة. إنها تكبّلني بقيد خفي غير منظور. إذا مشيت مشت وإن وقفت وقفت. إن عينيها تحرقاني، إنها تحدق بي، إنها قد حلت بي وملكتني، لقد أصبحت هي ذات نفسي، ومع ذلك فإن بيني وبينها أمواج بحر محيط لا حد له ولا قرار، إن سنا جمالها يحوطها بلهب شعاع من نوع.. لتتلاشى من

الوجود... ولكن كل هذا حلم من الأحلام». وأخذ ماتو يبكي هكذا شجوه في ظلام الليل والبربر نيام حوله. وتذكر سبنديوس وهو ينظر إليه أولئك الفتيان الذين كانوا يجرون وراءه وبأيديهم الأواني الذهبية يوم كان نخاساً يسوق أمامه في المدن قطيعاً من المحظيات الحسان المعروضات للبيع، تذكر هذا فأخذته الشفقة بـ«ماتو» وقال له: «كن رجلاً قويّاً يا مولاي، واستعن بإرادتك وتسلح بعزيمتك، ولا تعودنَّ إلى استصراخ الآلهة لأنها لا تلتفت إلى صراخ الناس، يعز علي أن أراك تبكي كما تبكي النساء والجبناء، أولم يحقرك أمام عينيك أن تتعذب وتتلوى في سبيل امرأة؟».

أتحسبني غِرّاً يا سبنديوس؟ أتظن أن طلعة الحسان تسبيني وأن غناءهن يستهويني؟ لقد كان لي في «دريبانوم» عشرات يكنسن إصطبلات خيلي، ولقد عاشرت منهن الكثيرات وسط المعارك المحتدمة، وتحت البيوت التي كانت سقوفها تنهار، وعلى أصوات مناجيق الحصار، ولكن هذه المرأة.. آه من هذه المرأة يا سبنديوس...».

فابتدره سبنديوس قائلاً: «لو لم تكن ابنة هاميلكار!».

وصاح به ماتو: «لا، لا، ليس فيها ما بغيرها من بنات الإنس. أرأيت عينيها الكبيرتين تشعان تحت حاجبيها المقوسين كتلك الشموس تحت أقواس النصر؟». «ألا تذكر أنها ساعة طلعت تضاءلت أنوار المشاعل وتلاشت؟ ألا تذكر كيف كانت تلمع مواضع من صدرها العاري بين ماسات عقدها المنضود، وكيف كان شذا المعابد يتضوّع وراء أذيالها المجرورة، وكيف كان ينبعث من كلها وكل ما فيها شيء ألذ من الخمر وأشد هولاً من الموت؟ ومع ذلك فقد كانت تسعى على قدمين كما كانت تتوقف عن السير».

وظل واجماً مطرق الرأس جامد الحدقتين، ثم صاح: «أجل، أريدها وأتوق إليها، ولا بد لي منها، لأني أكاد أموت شوقاً وحنيناً إليها، وإذا تخيلتُ أني ضام لها بين ذراعي تملّكتني سورة الفرح وهزة الطرب، ومع

ذلك أنا أمقتها. أجل يا سبنديوس، إني أود أن أشبعها ضرباً. ما العمل يا سبنديوس؟ إني أود أن أبيع نفسي لأصبح عبداً لها رقيقاً. لقد كنت أنت عبداً لها وكان بإمكانك أن تلمحها، فحدثني عنها. إنها تصعد كل ليلة على سطح قصرها، أليس كذلك؟ إن الحجارة تهتز شوقاً تحت قدميها، والكواكب تنحط لتنظر إليها». وعاد فاستلقى على الأرض، وأخذ يعج عجيج الثور الجريح. ثم أخذ يتغنى بقول الشاعر الليبي:

«كان يتتبع في الغابة خطى الأنثى

التي كان ذيلها يترقرق على الأوراق المتألقة

ترقرق جدول من فضة».

وأخذ وهو يرجّع في صوته يقلّد صوت سلامبو، بينما كانت يداه المبسوطتان تتكلّفان الخفة كأنهما تمرّان على أوتار مزهر.

وكان كلما حاول سبنديوس أن يعزيه ويواسيه كلما عاد هو فردّد الأقوال والشكوى ذاتها، وهكذا فقد كانت لياليهما تنقضي طويلة بين التنهدات وبين عبارات المؤاساة.

ارتأى ماتو أن يتداوى بمعاقرة الخمرة، فكان إذا أفاق من سكره عاد حزيناً أكثر من ذي قبل، وجرب أن يلهو بلعب الأقداح فخسر جميع صفائح قلادته الذهبية الواحدة بعد الأخرى، ورضي بأن يتابع قائديه ليلتمس السلوى لدى البنات المكرسات لـ«ڤينوس» إلهة العشق، فكان يعود من الأكمة وهو ينفث الزفرات كمثل أولئك الذين يتبعون سير المآتم والجنازات.

وعلى خلاف ماتو أصبح سبنديوس ، فزاد مرحه وفرحه وجرأته، وكان يُرى في الحوانيت والمواخير محدّثاً متحدثاً بين الجنود، وكان يصلح من الخوذ القديمة ويمارس رياضة لعب الخناجر ويرتاد الحقول بحثاً عن الأعشاب الطبية ليداوي بها المرضى، وكان فكهاً لبقاً حاضر النكتة سريع الخاطر، وهكذا راقت خدماته للبربر وعرف أن يحملهم على محبته وإيثاره.

في ذلك الوقت كان البربر ينتظرون رسولاً من قرطاجة يحمل إليهم على ظهور البغال سلالاً ملؤها الذهب، وهم يعيدون حساب ما لهم عندها من الأجور على صفحات الرمال أو عدّاً على أصابع اليد. فكل منهم ينظّم بمخيلته حياته في غده، ويمني النفس بأن يقتني العبيد والجواري والأملاك، وبأن يكتنز المال ويطمره أو يجازف به على متون سفن البحار، وكان يتخلل هذا وذاك مشاجرات بين الفرسان والمشاة أو بين الإغريق والبربر، لأنهم أصبحوا شديدي الانفعال سريعي الغضب بتأثير البطالة وطول الانتظار وسماع أصوات النساء المريرة المزعجة. وكان عدد هذا الجيش يتكاثر بما يقدم إليه من مديني أغنياء قرطاجة، الذين فرضت عليهم زراعة أرض أولئك الأغنياء فلجأوا إلى الفرار. فمنهم الليبي والأفاق والمجرم والمزارع الذي جرته الضرائب الفادحة إلى الخراب، ومنهم أفواج التجار وباعة الخمر والزيت، الذين لم يستوفوا ثمن بضاعتهم من البربر، فثارت ثائرتهم على الجمهورية وامتلأت نفوسهم بالحقد عليها، لأنهم عدّوها مسؤولة عن ذلك لحبسها الأجور عن الجند، وكان سبنديوس يستغل ذلك جميعه. ثم نقصت المؤن وقل الزاد، فأخذ الجند يحدثون أنفسهم بالزحف على قرطاجة والاستنجاد على ذلك بالرومان.

*

وحدث ذات ليلة أن سُمعت جلبة تقترب من المعسكر، ورأى الجند من بعيد كتلة حمراء تقترب في ثنايا الطريق، وإذا هم بمحفّة كبيرة مكسوة بالأرجوان ومزدانة الجوانب بريش النعام، وعلى الأستار المدلاة فوق فتحاتها سلاسل من البلور وأكاليل من اللآلئ، ووراء هذه المحفة جمال يرن صدى أصوات أجراسها المتدلية من رقابها، وعلى جوانبها فرسان، شكك سلاحهم كلها من الأصداف الذهبية من المناكب حتى أخمص القدم، ولما شارفوا المعسكر وقفوا وأخرجوا، من أخراج كانوا يردفونها وراءهم، مجناتهم المستديرة وحرابهم العريضة وخوذهم الثقيلة، ثم ظهرت وراءهم شارات الجمهورية القرطاجية، وهي عبارة عن قضبان

خشبية زرق في أعلاها رؤوس أفراس أو شبه ثمار شجر الصنوبر.

انتصب البربر كلهم وقوفاً يصفقون، وارتمت النساء على فصيلة الحرس يقبّلن أقدام الجنود.

كانت المحفة محمولة على مناكب اثني عشر زنجياً رقيقاً، يسيرون متوافقين بخطى سريعة، وينحرفون بسيرهم ذات اليمين وذات اليسار لما كان يعترضهم في طريقهم من الخيام أو من الحيوانات السارحة أو من الأثافي ومواقد النار التي كانت تطهى عليها اللحوم، وكان يحدث، من وقت إلى آخر، أن تبدو يد سمينة مثقلة بالخواتم من وراء سجاف المحفة تزيح السجاف، ثم يسمع صوت أجش يكيل السباب، فيقف حملة المحفة ثم يسلكون سبيلاً آخر في ممرات المعسكر.

وارتفعت السجف الأرجوانية وبدا خلفها رأس آدمي منتفخ الأوداج جامد الحركة ملقيّ على وسادة، وكان حاجباه شبيهين بقوسين من الأبنوس يلتقيان عند طرفيهما، وشذرات من ذهب تلمع خلال شعره المجعد، ووجهه بالغاً من الشحوب مبلغاً يدعو إلى الظن بأنه مرشوش بمسحوق المرمر، وما تبقى من ذلك الجسم البالي مختفٍ وراء شارات وأوسمة تملأ المحفة.

عرف الجند بذلك الرجل الزعيم القائد «هنون»، الذي كان جموده وبطوءه سبباً في خسارة معركة جزر «أغات»، والذي نسب إليه الحلم بعد انتصاره في معركة «هيكاتومبيل» عن خطإ وجهل، لأنه تصرف تصرف الجشع لا تصرف الحليم، فباع لحسابه جميع الأسرى ثم ادعى أنهم لقوا حتفهم.

حين اهتدى «هنون» إلى مرتفع من الأرض ملائم للخطابة أشار إلى رجال المحفة فوقفوا، ونزل منها يحمله عبدان، ثم وقف وهو لا يكاد يحتمل الوقوف.

كان ينتعل حذاء من اللبد الأسود مرصعاً بأقمار فضية، وساقاه ملفوفتان بأربطة كتلك التي تلف بها المومياء، واللحم يبدو هنا وهناك من خلال

هذه الأربطة، وكان منتفخ البطن، وطيات عنقه المترهلة ترهل رقاب الثيران تهبط حتى تمس صدره، وكان مرتدياً رداء أسود ومرسلاً على كتفيه وشاحاً ومتمنطقاً حزاماً، وكانت كثرة ملابسه، وما يتقلّده من عقود زرق الحجارة ومن أقراط ضخمة ومن مشابك ذهبية، تزيد جسده المشوه بشاعة وقبحاً، فيبدو وكأنه ملامح صنم بدأ في نحته نحات غير ماهر في جلمود من صخر، ذلك أن مرض الجذام، الذي كان متفشياً في كل جسمه، يظهر بمظهر الحجر لا بمظهر البشر، على أن أنفه الأقنى كأنف العقاب يتمدد ويتسع بعنف ليتمكن من استنشاق الهواء، وعيناه الصغيرتان الملتصقتا الأهداب ترسلان بريقاً قاسياً صلباً كبريق المعادن، وفي يده محكة يحك بها جلده.

وبعد جهدٍ نفخ جنديان ببوقيهما فسكنت الجلبة وأخذ «هنون» يتكلم:

ابتدأ حديثه برفع آي التسبيح والحمد إلى آلهة قرطاجة، وقال إنه لمن حسن طالع البربر أنهم مشوا في خدمة هذه الآلهة، ثم أشار عليهم بأن يحكموا العقل والرضا، ومما قاله: «إذا لم يكن للسيد إلاّ ثلاث ثمرات من الزيتون، أليس من العدل أن يحتفظ لنفسه باثنتين منها؟».

واستشهد في خطابه بالأمثال والأقوال المأثورة، وهو يشير برأسه ويديه لعله يلقى موافقة بعض السامعين، وكان يخطب بلغة قرطاجة التي لم تكن مفهومة لدى معظم أفراد الجيش. وأنس هنون ذلك فرأى أن يتحدث إلى ضباط الجيش منفردين، فأوعز بذلك إلى المنادين فنادوا بلغة الإغريق لأنها هي لغة الحرب عند القرطاجيين منذ أيام «كسانتيب».

راح الحرس ينحي الجند بقوة السياط، واجتمع ضباط الكتائب ورؤساء عشائر البربر يحملون شارات رتبهم وأسلحة بلادهم. وأقبل الليل وسرت الإشاعات وكثر تساؤل المتسائلين: «لم لا يشرع القائد هنون بتوزيع النقود؟».

انفرد هنون من بعد بالضباط وأخذ يعدّد لهم المسؤوليات والأعباء الملقاة على عاتق الجمهورية، وكيف أن خزائنها خاوية لأن الجزية التي

تدفع لروما قد أفقرتها، وكيف أنهم حائرون لا يدرون ما يصنعون. وكان وهو يخاطبهم يحك أجزاء جسده بمحكة من الصبار أو يشرب بكوب من الفضة ماء ساخناً ممزوجاً برماد ابن عرس أو مستخرجاً من الهليون الممزوج بالخل، ثم يمسح شفتيه بمنديل قرمزي، ويعود إلى الكلام فيقول: «إن ما كان يساوي بالأمس درهماً من الفضة أصبح اليوم يساوي ثلاثة دنانير من الذهب، ولم تعد الأرض تأتي نتاجها لهجر المزارعين إياها كنتيجة حتمية لتتابع الحروب، ولم يعد صيد أصداف الأرجوان مجدياً، وقلّ عدد العبيد لأن بلاد صقلية أقفلت بوجوهنا أبوابها، وهي البلاد التي كانت تمدنا بأكبر عدد من الأرقاء، ثم نشر ورقة كبيرة من البردى وأخذ يقرأ ما يؤيد بالأرقام أقواله، ويبيّن النفقات التي تنفقها الحكومة على إصلاح المعابد والطرقات وبناء السفن ومصايد الأسماك، وعلى شراء الأدوات اللازمة لمناجم بلاد «كنتبري».

في الحقيقة لم يكن الضباط ليفهموا اللغة القرطاجية ـ شأنهم في ذلك شأن الجنود ـ ولو أن التحية تؤدى في هذه اللغة، وكان بعض الضباط القرطاجيين يُنتدبون عادة في صفوف البربر ليقوموا بوظائف المترجمين، ولكن هؤلاء الضباط تواروا عن العيان بعد الحرب خشية الانتقام، كما أن هنون لم يفطن إلى اصطحاب بعضهم معه، وعلى كل حال فإن صوته الخافت كان يذهب مع الريح.

كان الإغريق المتمنطقون بمناطق الحديد يمدون آذانهم وهم يحاولون مجتهدين أن يحلّوا لغز ما يقول، وكان الجبليون المغطون باللبد كالدببة ينظرون إليه شذراً غير واثقين أو يتثاءبون، والغوليون الساهون يحركون شعور رؤوسهم وهم يتأففون، ورجال الصحراء يصغون جامدين وهم ملتحفون بثيابهم الصوفية الرمادية اللون، وآخرون غيرهم يقبلون من الوراء، والحرس على جيادهم يتمايلون لشدة ضغط الزحام، والزنوج يحملون بأيديهم أغصاناً مشتعلة من الشربين، بينما كان القرطاجي الجسيم الضخم يتابع خطابه وهو واقف على مرتفع من الأرض مفروش بالخضرة.

نفد صبر البربر، وارتفعت أصوات التذمر بينهم، وأخذ كل منهم يوجه الخطاب العنيف، وهنون يتابع على غير هدى حركاته وإشاراته ومحكته بيده، وضج البعض يريد إسكات البعض الآخر فزاد الضوضاء وعلت الجلبة. وإذا برجل قصير القامة نحيلها يخرج من صفوف الجند ويتقدّم نحو حرس هنون فينتزع البوق من يد أحد المنادين، وينفخ فيه داعياً إلى الصمت والاستماع، وكان ذلك الرجل العبد السابق سبنديوس الذي أخذ يخاطب الجند بمختلف لغاتهم طالباً منهم أن يستمعوا إليه، فارتفعت أصوات تقول: «تكلم، تكلم».

تردّد قليلاً ثم اتجه بكلامه إلى مقر الليبيين الذين كانوا على مقربة منه وقال: «أسمعتم كلكم ما يهدد به هذا الرجل من عظائم الأمور؟».

وكان هنون يجهل اللغة الليبية فلم يعترض على أقوال سبنديوس، فتشجع هذا وردد ما قاله بلغات البربر جميعاً، وأردف قائلاً: «لقد قال لكم إن جميع أرباب شعوب الأرض كلها ليست إلاّ أحلاماً إذا قيست بأرباب قرطاجة، وقد دعاكم أنذالاً ولصوصاً وكذابين وكلاباً وأبناء كلاب، وذكر أنه لولاكم لما اضطرت الجمهورية إلى أن تدفع الجزية لروما، وأنه بسببكم نفدت العطور والروائح والعبيد، وأنكم تتآمرون مع البدو الرحل على حدود القيروان، وأقسم أنه سينتقم من المذنبين، وقرأ عليكم بيان أنواع التعذيب التي ستلحق بهم، فيرغمون على رصف الشوارع وتجهيز المراكب وتجميل المدينة، وسيرسل البعض لاستخراج المعادن من مناجم «كنتبري»».

ثم ردّد سبنديوس ما قاله هنون لليبيين بلغات الغوليين والإغريق والكابانيين والباليار، فصدق أكثرهم أقواله لتوافق أسماء الأعلام مع ما ذكره هنون في خطابه، وكذبه القليلون من الجند، ولكن أصواتهم ضاعت بين ضجيج الآخرين، واستطرد سبنديوس فقال: «ألا ترون أنه قد ترك خارج المعسكر القسم الكبير من الفرسان حتى إذا أصدر إشارة كرّوا عليكم فذبحوكم ذبح النعاج». فتطلع البربر جهة الحرس، وإذا برجل يشق

الجموع ويتقدم بينهم كأنه شبح من الأشباح لتقوس ظهره وهزاله وشحوب لونه وطول شعره، وكان الغبار يعلو أطماره وعلى رأسه الشوك وأوراق الأشجار الجافة، وكان جلده رخواً بلون التراب، وقد زال اللحم عن أعضائه فبدا هيكلاً عظمياً مرتجف اليدين دائم الاهتزاز يسير متكئاً على عود من الزيتون، واقترب من الزنوج حملة المشاعل، وأخذ يهذي هذيان البلهاء، فتبدو من وراء شفتيه لثة أسنانه الضامرة المصفرة، وأخذت عيناه المليئتان رعباً تنظران إلى جموع البربر، ثم صرخ صرخة ملؤها الرعب وهو يتمتم: «هؤلاء هم: هم هؤلاء» ويشير بأصبعه إلى حرس القائد هنون المسربلين بحلل الزرد تحت أسلحتهم اللماعة، على ظهور جيادهم التي كانت تضرب الأرض بحوافرها مبهورة من أضواء المشاعل، بينما كان الجند يلوحون كالأشباح وهم يتشاورون ويخرجون من أفواههم أصواتاً مرعبة شبيهة بالعواء.

وأتمَّ الرجل حديثه فقال: «لقد قتلوهم. نعم لقد قتلوهم عن بكرة أبيهم. لقد عصروهم عصر العنب! لهف نفسي على أولئك الشبان الحسان الوجوه حملة المقاليع رفقائي ومواطنيكم!» وكان يتكلم بلغة الباليار موجهاً خطابه إلى بعض منهم تجمّعوا حوله. فسقوه خمراً وهو يبكي ويصف الواقعة.

خفق قلب سبنديوس فرحاً، وكأن الأقدار هبت لنجدته ومساعدته على تحقيق ما كان يرمي إليه، فأخذ يترجم أقوال الرجل واسمه «زركساس» إلى الإغريق والليبيين، وامتلأت نفوس الباليار غضباً وحنقاً.

حقيقة الخبر أنه عند جلاء البربر عن قرطاجة كان هناك ثلاثمائة من حملة المقاليع قد تخلّفوا عن رفاقهم في المدينة، وكانت حجارة مقاليعهم قد حملت على الجمال استعداداً للرحيل، فاستدرجهم الشعب إلى شارع «سطحب»، حتى إذا بلغوا بابه المصنوع من خشب البلوط، والمصفّح بالحديد، هجموا عليهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم، ذلك هو سر الصراخ الذي سمعه البربر عند مغادرتهم قرطاجة، ثم ألقوا بالجثث بين يدي

آلهتهم وصبوا عليهم جام الغضب الذي أثاره فيهم البربر، فحمّلوهم وزر سرقاتهم ونهبهم وقتل السمك المقدس في حديقة سلامبو، ومثّلوا بأجسامهم أشنع تمثيل، فجعل الكهنة يحرقون شعورهم لكي يعذبوا نفوسهم ويعلقون أشلاء جثثهم عند الجزارين، حتى إذا جاء الليل أشعلوا النار وأحرقوا ما تبقى منهم، وكانت هذه هي النار التي رآها جيش البربر من بعيد، ثم خشوا أن تتصل النار بالمنازل فألقوا بما تبقى من الجثث خلف الأسوار.

وقد تمكن «زركساس» من الهرب مختبئاً وراء نبات القصب، حتى إذا طلع الصباح تمكّن من الخروج من المدينة ومشى وراء جيش البربر دامياً جائعاً مرتعداً حتى بلغ المعسكر.

ثارت ثائرة الجيش ثورة العاصفة، وأوشكوا أن يوقعوا بالقائد وحرسه، ولكن بعضهم نصحوا بالتريّث ريثما يقبضون أجورهم، فعلت إذ ذاك صيحاتهم بطلب تلك الأجور. فقال لهم هنون: «لقد أحضرت المال معي».

هُرع بعض الجند للتوّ إلى حيث ترك القائد حقائبه في مقدمة الجيش، وجاؤوا بها محمولة على أكتاف العبيد، وفتحوا السلال فوجدوا بها ثياباً مرصعة بالياقوت الزعفراني وقطعاً من الإسفنج ومقاشط وفرشاً وعطوراً وكحلاً ممّا يملكه ويزدان به الحرس، وكلهم من الأغنياء، ثم وجدوا طستاً كبيراً من النحاس الأصفر ليستحم فيه القائد في أثناء سفره، كما وجدوا أقفاصاً فيها بنات عرس ليحرقها ويتداوى برمادها، فضلاً عن مختلف المأكولات والخمور. وأمّا أجور الجنود فكانت في سلتين اثنتين فقط، وأكثر ما فيها قطع من الجلد مستديرة كانت قرطاجة تفرض تبادلها كالنقود لتوفر الذهب والفضة في خزائنها. وفسر ذلك هنون بقوله: «إن حساب الأجور يتطلب وقتاً طويلاً، ولذلك أرسلت إليكم الجمهورية هذه الدفعات ريثما يتم ضبط الحساب».

بلغ السيل الزبى، واشتدت ثائرة الغضب، وعلت صيحات الاستنكار،

فأقبل الجند يعبثون بكل شيء ويستولون على كل شيء، وأخذوا النقود من الأكياس ليرجموا بها هنون الذي أسرع فتعلق بحمار دفعه إليه حراسه وسار لا يلوي على شيء عاوياً باكياً ممزق الجسم، تكال له اللكمات وهو يستنزل لعنات الأرباب على الجيش، والبربر يصيحون به: «اذهب أيها النذل الخنزير! يا مرحاض مولوخ! توار سريعاً وامضغ ذهبك ومت بعلّتك. هيا أسرع أيها الخنزير..!».

وكان الحرس المنهزم يحوطه حاملاً معه عار انهزامه.

لم ينفثئ غضب البربر بهزيمة هنون ومن معه، بل أخذوا يذكرون أن الكثيرين منهم كانوا قد ذهبوا إلى قرطاجة ولم يعودوا، وأنهم لا محالة قد هلكوا فيها، ونفرت نفوسهم، وغلت مراجل البغضاء في صدورهم لما لقوه من ظلم وعنت وحيف، فأخذوا ينتزعون عمد الخيام ويشدون أمتعتهم ويسرجون خيلهم، ولبس كل منهم خوذته وتقلّد سيفه، وهكذا أصبحوا في لحظة على أهبة الزحف.

استيقظ أهل سيكا ورأوا ما يفعله الجند فقال قائلهم: إنهم يزحفون على قرطاجة. ولمّا تحرك الجيش وأقفر السهل منه امتطى سبنديوس متن جواد قرطاجة وتبعه عبد له يجر جواداً آخر، حتى إذا بلغ خيمة من الخيام، كانت وحدها لا تزال منصوبة، ترجّل عن جواده ودخل الخيمة وصاح بمن فيها:

- هيا بنا يا مولاي، إننا لمزمعون السفر.

- وإلى أين نذهب؟

فصاح به سبنديوس:

- إلى قرطاجة! إلى قرطاجة!

اندفع ماتو من مكانه وقفز إلى حيث كان العبد ممسكاً بجواده فامتطاه وانطلق به ينهب الأرض نهباً.

*

3
الزحف على قرطاجة

كان القمر يصعّد في السماء وضياؤه يمسح ذرى الأمواج، وقبس من أنوار وبقع بيض تبدو هنا وهناك: من عجلة مركبة في دار، أو أطمار من أثواب معلقة، أو في زاوية شارع، أو من قلادة ذهب على صدر إله، والمدينة لا تزال مستترة بالظلمات، وكرات الزجاج على سطوح المعابد ترسل لألاءها إلى هنا وهناك كحجارة ماس كبيرة. ولكن إلى جانب هذا تبدو كتل أشد حلكة في الظلام كمثل الخرب الغامضة وأكوام التراب السود والحدائق، وكمثل شِباك الصيادين المنشورة من بيت إلى بيت كخفافيش ضخمة باسطة أجنحتها في أسفل حي «مالكا»، وانقطع أنين دواليب السواقي، التي ترفع المياه إلى أعلى طوابق القصور، ورقدت الجمال هادئة على المصاطب، منبطحة على بطونها كما ينبطح النعام، ونام العسس في الشوارع إلى جانب عتبات البيوت، وامتدت ظلال الأصنام على الميادين المقفرة، وبدا من بعيد دخان أضحية تحرق، متصاعدة من خلال لبنات النحاس، وحمل النسيم المثقل، مع عرف العطور، روائح البحر وأبخرة الأسوار التي أسخنتها الشمس. وحول قرطاجة تتلألأ الأمواج الساكنة، لأن القمر كان يبسط ضياءه في وقت واحد على الخليج المحاط بالجبال وعلى بحيرة تونس حيث طيور البط البحري الهابطة على كثبان الرمال تشكل خطوطاً طويلة وردية، بينما كان المستنقع الكبير الملح، الواقع غير بعيد، تحت الحُفر، يتلألأ كسبيكة من فضة، وقبة السماء الزرقاء تغوص في الأفق، في اغبرار السهول من جهة وفي ضباب البحر من جهة أخرى، وعلى قمة الأكروپول تتمايل أشجار السرو الهرمية الشكل على حوافي معبد أشمون فتخرج حفيفاً شبيهاً بالهدير المتواتر الذي تبعث به الأمواج وهي تلاطم ببطء رصيف الميناء الممتد في أسفل الحصون.

صعدت سلامبو إلى سطح قصرها مستندة إلى جارية من جواريها

تحمل في صحفة حديدية جماراً من نار. وفي وسط السطح سرير عاجي صغير مغطى بجلود الفهود، وفوقه وسائد محشوة بريش الببغاء المكرس للآلهة والملهم علم الغيب، وفي الزوايا الأربع حِقاق مليئة بالناردين والبخور وسنابل الطيب والدارصيني والآس.

أحرقت الجارية العطور، ونظرت سلامبو إلى كوكب القطب فحسبت ببطء جهات السماء الأربع، وجثت على ركبتيها على تراب مذرور ذي لون أزرق سماوي، تتخلله كواكب من ذهب كصفحة السماء، ثم استندت بمرفقيها إلى خصريها، ومدّت ذراعيها مستقيمتين إلى الأمام، وفتحت كفيها، وأمالت برأسها إلى الوراء تستقبل به أضواء القمر وأخذت تردّد:

«يا ربتنا بعلة تانيت، ثم تهدّج صوتها وهي تنادي شخصاً مايا أنايستيس! عشتروت. يا درسيتو! مالسيتا الطاهرة! يا ألسيسا! تيراتا! أستحلفك بالرموز الخفية، وبالصنوج الرنانة، وبأخاديد الأرض، وبالصمت الأبدي، وبالإخصاب الأزلي.. أنت يا سلطانة البحار المظلمة والشواطئ الزرق، أنت يا ملكة الأشياء الرطيبة الندية، السلام عليك».

ثم تمايلت بجسمها مرتين أو ثلاثاً وارتمت على الأرض فعفرت جبينها بالتراب، وذراعاها مبسوطتان.

خفّت إليها الجارية فرفعتها عن الأرض بخفة، لأن طقوس العبادة تفرض بأن يتولى واحد من الناس إنهاض المصلّي من سجوده، ومعنى هذا أن الأرباب قد قبلوا دعاءه، وكانت مرضع سلامبو لا تنسى القيام بهذا الواجب الديني في كل مرة تقوم فيها سلامبو للصلاة.

كانت هذه الجارية المرضع قد جلبها إلى قرطاجة نخاسون من بلاد «غيتولي» وهي لا تزال طفلة، فلمّا حرّرها أسيادها لم ترد أن تفارقهم كما كان يدل على ذلك ثقب عريض في أذنها اليمنى، وكانت تلبس غلالة مخططة متعددة الألوان، تشدّ وركيها ثم تنحدر إلى كعبي قدميها حيث يتلاطم خلخالان من القصدير، وكان وجهها المسطح بعض الشيء أخضر كلون قميصها، والأسلاك الفضية التي شبكتها بشعرها من الخلف تبدو

بشكل الشمس، وفي أنفها حلقة من المرجان.

ظلت واقفة بقرب السرير وقد غضت جفنيها وبدت في انتصابها ثابتة جامدة كأنها تمثال من تماثيل الإله «هرمس».

خطت سلامبو نحو حافة السطح، وأخذت تجيل باصرتيها في الأفق بعض الوقت، ثم غضت بصرها متلفتة نحو المدينة النائمة، وصعّدت أنفاساً اهتز منها ثدياها فتموّج فوقهما الوشاح الأبيض الذي كان متدلياً حولهما مرسلاً دون أبزيم ولا حزام، ونعلاها المعقوفتين تختفيان تحت حجارة الزمرد، وشعرها المرسل يملأ شبكة من خيوط أرجوانية.

ثم رفعت رأسها لتتأمل القمر، وأخذت تردد بمزيج من النغم والغناء:

«كم أنت تدور بخفة يساندك الأثير فيدور من حولك، وتوزع حركة دورانك الرياح والندى المخصّب، ففي إبدارك تتمدد عيون القطط ونقط جلود النمور، وفي نقصانك تنقص. تنادي باسمك الحبالى، إذا جاءتهن آلام الولادة والمخاض. أنت تملأ الأصداف وتخمر الخمور، وتطهر الجثث وتنتج اللآلئ في أعماق البحار! وجميع جراثيم الحياة - أيها الرب - تنمو في أعماق ظلمات رطوبتك، إذا برزت انتشرت على الأرض الطمأنينة، فتطبق الأزهار جفونها، وتهدأ ثائرة الأنواء، ويستريح الرجال المتعبون وصدورهم متجهة إليك، والعالم بأسره، بجباله وبحاره، يتطلع إلى صفحة وجهك كما يجتلي المرآة. أنت أبيض ناعم، صافٍ منير، مطهر بغير عيب ولا دنس، سريع إلى نجدة من دعاك».

كان القمر هلالاً يبدو فوق جبل «المياه الساخنة»، وبين قمتيه وتحته كوكب صغير الحجم تحيط به هالة شاحبة اللون.

«إلى أين أنت صائر ولم تبدل دائماً في أشكالك؟ فتكون تارة رفيعاً مقوّساً تنسل في الفضاء كما ينسل الزورق فوق الماء، وتكون طوراً بين الكواكب كأنك راع يرعى قطيعه، وإذا استدرت لامعاً دست ذرى الجبال كما يدوس دولاب العربة الأرض. يا تانيت لقد أطلت النظر إليك، أنت تجيبينني أليس كذلك؟ أنت تدورين في فلكك الأزرق وأنا أظل على

الأرض دون حراك».

ثم التفتت إلى جاريتها وقالت:

- «تناولي القيثارة يا «طناش» وغني لحناً خفيفاً على وتر الفضة لأن نفسي لاغبة».

تناولت «طناش» قيثارة من خشب الأبنوس، وبدأت تضرب عليها أنغاماً صمّاء متتابعة الصوت كأنها دنين النحل، ثم أخذت تلك الأنغام تعلو وترتفع إلى الأجواء في ذلك الليل، ممتزجة بهدير الأمواج وشكواها، واهتزاز دوح الأشجار النامية على قمة الأكروپول.

وإذا بسلامبو تصرخ بها «اسكتي اسكتي!» لقد حززت القلب بغنائك!».

- ما بك يا مولاتي؟ عجباً! لقد أصبح القلق ينتابك لأقل شيء حتى لمرور الغيم وهب النسيم.

- لا أدري.

- أنت تجهدين نفسك بصلوات لا نهاية لها.

- آه يا طناش! إني أود أن أذوب فيها كما يذوب الزهر في الخمر!

- ألعل ما بك سببه دخان العطور؟

- لا يا طناش، فإن أرواح الآلهة تستقر في الروائح العطرة.

اندفعت الجارية تحدّثها بحديث أبيها: «يظن الناس أنه قد سافر إلى البلاد التي تنتج العنبر وراء أعمدة «مالكاريت» فإذا لم يعد وجب عليك، وقد أمر هو بذلك، أن تختاري لك بعلاً من أبناء رجال مجلس القدماء، وهكذا فإن حزنك يتلاشى بين ذراعي رجل».

تمتمت سلامبو: «ولِمَ وكيف؟» ذلك لأن نفسها كانت قد عافت جميع الرجال الذين عرفتهم بضحكاتهم كضحكات الوحوش الضارية، وبأعضاء أجسامهم البشعة الغليظة. ثم استطردت فقالت:

«كثيراً ما تهب، يا طناش، من كوامن جسدي أنفاس حارة أثقل من بخار البركان، وأسمع أصواتاً خفية تناديني، وأحس ألسنة من نار تتلوّى وتتصاعد من صدري فتضيق أنفاسي حتى لأتمنى الموت! وإذا بشيء

عذب مستحب يسري في عروقي، فيملك عليَّ حواسي، ويسيل في جسدي من الرأس إلى القدم، فيلامسني ويداعبني، ويغمرني، ثم يتلو ذلك شعور من نفسي بأني قد سُحقت كما لو أن إلهاً من الآلهة قد سقط عليّ وتمدّد فوقي.

آه يا طناش! كم أود أن أتلاشى مع ضباب الليل وتدفق الينبوع وماء حياة الأشجار، وأن أخرج من جسدي، وأن لا أكون إلاّ نسمة أو شعاعاً بحيث أنسل انسلالاً وأصعد حتى أصل إليك، يا أماه!».

ثم رفعت ذراعيها إلى أعلى ما أمكنها رفعهما، وانعطفت بقامتها شاحبة اللون رشيقة، وكأنها القمر بثوبها الطويل، ثم ارتمت على سرير العاج لاهثة، ولكن طناش أسرعت فقلّدتها قلادة من العنبر أُثبتت فيها أسنان «الدلفين» لتقيها شر الرعب، فقالت لها سلامبو بصوت خافت:

ـ اذهبي، ونادي لي شاهبريم.

لم يرض أبوها هاميلكار أن تنتظم في سلك الكاهنات، ولا أن يطلعوها على أي شيء من خصائص «تانيت» الشعبية، لأنه كان يعدها للزواج من إحدى الشخصيات السياسية التي له منفعة منها، وهكذا، فـ«سلامبو» تعيش وحيدة في ذلك القصر، وأمها ماتت منذ زمن طويل.

وقد شبّت وترعرعت عزوفاً عن الدنيا، ممسكة عن الملذات، صوامة عفيفة، تنعم بلذائذ الحياة المحلّلة، ينضح جسدها بالطيب والعطور، وتغذي نفسها بالصلوات، لم تذق قط خمراً، ولا أكلت لحماً، ولا لمست حيواناً نجساً، ولا وطئت قدماها بيت ميت.

كانت تجهل طقوس العبادة الخليعة، لأن كل رب من الأرباب كان يتجلى للناس بصور شتى، وكانت الطقوس، وإن تناقضت، تستند إلى مبدإ ديني واحد. وهكذا فإن سلامبو تعبد الآلهة بصفتها كوكباً فحسب، وكان تأثير القمر قد تملّك هذه العذراء، فإذا أخذ في النقصان أخذت سلامبو بالضعف والذبول، تذبل في النهار وتستعيد نضارتها في المساء، وقد حل مرة خسوف بالقمر فأوشكت أن تموت.

غير أنَّ تانيت كانت تنتقم من نقاء هذه البكارة التي كانت تتمنّع عن التضحية لها، فهي تملأ نفسها ضيقاً بما توحيه إليها من الأحلام الملحة الملازمة كنتيجة لعقيدتها الدينية. وابنة هاميلكار دائمة التفكير بالإلهة تانيت، وهكذا عرفت مغامراتها الغرامية وأسفارها، ومتعدد أسمائها التي كانت تدعوها بها دون أن يكون لهذه الأسماء مغزى خاص في عرفها، وتوصلاً إلى فهم كنه عقيدتها كانت تتوق إلى التعرف إلى ذلك الصنم القديم الذي تحوطه في معبده الأسرار، والذي كان محجّباً بذلك الحجاب البديع الجميل الذي تتعلق به وتتوقف عليه مقدرات قرطاجة ومصايرها، وإنما كانوا يحجبون هذا الصنم ويغطونه لأنهم يعتقدون بأن التمثال لا يمكن أن يعطي فكرة واضحة عن المعبود، وبأن لمسه أو مجرد النظر إليه ينتزع منه جزءاً من فضيلته، بل يجعل لامسه أو الناظر إليه متسلّطاً عليه.

سمعت سلامبو صوت الجرس الذهبي الذي كان يعلّقه شاهبريم في ذيل ثوبه، فمدت بصرها نحوه، وكان يتدرّج السلم، فلمّا وصل إلى عتبة السطح توقف عن المسير، وضم يديه إلى صدره على شكل صليب، وكانت عيناه تلمعان كسراجين معلقين على قبر، وجسمه الهزيل يسبح في ثوبه الكتّاني الفضفاض، وقد أثقلته تلك الجلاجل المثبتة في قدميه، إلى جانب حجارة من الزمرد. وكانت أعضاء جسمه نحيلة نحيفة، وجمجمة رأسه معوجة ملتوية، وذقنه ذا حد واستواء، وجلده بارد اللمس، ووجهه أصفر مغضّن، كئيب لانطواء نفسه على شهوة مكبوتة، أو على حزن أبدي.

ذلك هو كبير كهنة تانيت ومربي سلامبو.

قال لها: «تكلمي، ماذا تريدين»؟

قالت: «كنت آمل... لقد كنت وعدتني..». وكانت تتلعثم بالنطق ثم اضطربت. وإذا بها تتشجع فتضيف: «لماذا تحتقرني؟ ما الذي نسيته من الطقوس؟ إنك معلمي، وقد قلت لي إنني أكثر الناس علماً بأمور الآلهة. ولكن هناك أمور لا تريد أن تطلعني عليها. أصحيح ذلك أيها الأب؟»».

تذكّر شاهبريم أوامر هاميلكار وأجاب: «لا لم يعد لدي من شيء أطلعك عليه».

فقالت: «ن هناك حافزاً من الجن يدفعني إلى هذا الحب. لقد تسلقت سلالم معبد أشمون إله الكواكب السيارة ورب الفهم والمعرفة، ورقدت تحت الزيتونة الذهبية شجرة مالكاريت شفيع المستعمرات الصورية، وضربت على أبواب بعل خامون المنير المخصب، وقدمت الأضاحي للكبراء وساكني الكهوف وإلى آلهة الغابات والرياح والأنهار والجبال، ولكنهم كلهم متسامون في العلو لا إحساس لهم، ولكنها هي ممتزجة بحياتي تملأ نفسي، وأنا أشعر بحنين داخلي وبنزوات منها، كأنها تريد أن تقفز لتفر مني، ويبدو لي أحياناً أني سأسمع صوتها وأرى وجهها، وإذا ببروق تبهر بصري فأعود فأسرع في الظلام».

التزم شاهبريم الصمت وهي ترنو إليه بنظرة استعطاف والتماس، فنحّى الجارية بعيداً، لأنها لم تكن من أصل كنعاني، ثم رفع أحد ذراعيه في الهواء وأخذ يقول:

«في البدء، وقبل الآلهة، كانت الظلمات وحدها، وكانت هناك نسمة تسبح في الفضاء لا يمكن الإلمام بها كضمير الإنسان في الحلم. فهذه النسمة انقبضت وتكتّلت فخلقت الشهوة والعري، ومن الشهوة والعري خلقت المادة الأصلية فكانت ماء وحل أسود جامداً عميقاً، وكان هذا الماء يحتوي على مسوخ لا إحساس لها هي أجزاء غير متماسكة من الأشكال التي ستولد والتي هي مرسومة على جوانب الهياكل المقدسة.

«ثم تجمّعت هذه المادة وتخثّرت فأصبحت بيضة، وانقسمت هذه البيضة فتكون من نصفها الأرض، ومن النصف الآخر جلد الفلك. وظهرت الشمس والقمر والرياح والغيوم. واستيقظ الحيوان العاقل على صوت الرعد. وعند ذاك التف أشمون بالفلك المليء بالكواكب، وتلألأ خامون في الشمس فدفعه ميلكارت إلى ما وراء غادس، وانحدر «ألكابيريم» تحت البراكين. وأما ربتنا فقد حنت على العالم حنو المرضع تفيض نورها كاللبن وتبسط الليل كأنه رداء».

فقالت سلامبو: «وبعد هذا؟».

وكان شاهبريم قد تعمّد أن يسمو بها إلى عالم الروحانيات ليلهيها عمّا سواه، ولكن شهوة البتول الحالمة زادت اشتعالاً لسماعها كلمات شاهبريم الخاصة بتانيت.

وأحبّ شاهبريم أن يتنازل عن موقفه بعض التنازل فأردف قائلاً: «إنها تلهم الحب للرجال وتتحكم به».

فرددت سلامبو حالمة: «حب الرجال!!».

- «وهي حياة قرطاجة وروحها، ومع أنها منتشرة الظل في كل مكان فإنها مقيمة نازلة هنا في المعبد تحت حجابها المقدس».

- «رعاك الإله يا أبتاه، سأراها. أجل ستقودني إليها. لقد كنت أرجو وأتردد منذ أمد طويل وكان الفضول يلح بي لأراها، فأشفق عليّ رحماك وهيّا بنا إليها».

صدّها شاهبريم بإشارة عنيفة ملؤها الكبرياء وقال: «لن يكون ذلك أبداً! ألا تعلمين أن رؤيتها تميت رأيها، لأن خناث البعول لا يبرزن ولا ينكشفن إلاّ أمامنا نحن الرجال بعقولنا النساء بضعفنا؟ إن متمناك كفر وضلال فارتضي بما لديك من علم ومعرفة». فجثت على ركبتيها وإبهاما يديها على أذنيها علامة الندم. وأخذت تصعّد الزفرات منكسرة النفس لسماعها أقوال الكاهن، مليئة خوفاً وضعة وغضباً عليه. وظل شاهبريم واقفاً جامداً كالصنم وأقل إحساساً من حجارة ذلك السطح، يجيل فيها عينيه من أعلى إلى أسفل، وهي جاثية ترتجف أمام قدميه. وقد أخذته نشوة طرب لشعوره بأنها تتألم حنيناً إلى رؤية ربّته التي لم يكن هو أيضاً ليقوى على ضمها إلى صدره.

وحان وقت يقظة الطيور فأخذت تردّد تغريدها، وهبت ريح باردة، وبرزت بعض الغيوم تسبح في سماء أشد اصفراراً من ذي قبل، وإذا بشاهبريم يرى في الفضاء، من وراء تونس، ما يشبه الضباب الخفيف يزحف جرّاً على الأرض، ثم يستحيل إلى ستر من التراب الأغبر ينتشر أفقياً، ومن خلال هذا الإعصار الكثيف بدت رؤوس جمال وأسنة رماح وخوذ برّاقة.

كان ذلك بريق خوذ جيش البربر الزاحف على قرطاجة.

4

عند أسوار قرطاجة

ريفيّون يركبون الحمير أو يسيرون جرياً على أقدامهم، صفر الوجوه وقد أنهكهم التعب وحلّ بهم الإعياء وبلغ منهم الخوف مبلغ الجنون. كل هؤلاء لجأوا إلى المدينة هاربين أمام الجيش الزاحف الذي قطع في ثلاثة أيام المسافة بين «سيكا» وقرطاجة ليبيد ويفني كل شيء.

وما كادت أبواب المدينة توصد حتى ظهر البربر ولكنهم توقفوا في وسط البرزخ على ضفاف البحيرة.

لم يبد منهم بادئ ذي بدء ما يخيف من مظاهر العداء، بل إن كثيرين منهم اقتربوا من الأسوار يحملون سعف النخل بأيديهم، ولكنهم صُدّوا بسيل السهام، لأن الرعب كان مستولياً على أهل قرطاجة. وفي الصباح وعند زوال النهار كان يطوف حول أسوار المدينة على غير هدى بعض أولئك البربر، ولا سيما رجل قصير القامة يلتف كل الالتفاف بردائه ويخفي وجهه وراء حافة خوذة غائصة في رأسه. كان يقف ساعات طويلة ينظر إلى قناة الماء الحجرية ويحدق فيها كما لو كان يريد أن يصرف أذهان القرطاجيين عن نواياه الحقيقية. وكان يصحبه رجل آخر بجسم الجبابرة يمشي حاسر الرأس. ومعدات الدفاع عن قرطاجة تمتد على طول البرزخ. فهناك خندق ثم حاجز من العشب ثم سور علوه ثلاثون ذراعاً مبني بالحجر المنحوت من طابقين، فيه إصطبلات تتسع لثلاثمائة فيل ومخازن لسرجها وعقالها وعلفها، إلى جانب إصطبلات أخرى للخيل معدة لأربعة آلاف فرس ولما تحتاج إليه من الشعير والتبن والسروج. وفي هذا الطابق أيضاً ثكنات للجنود تتسع لعشرين ألفاً منهم ولأسلحتهم ولجميع مواد الحروب، وعلى الطابق الثاني ترتفع أبراج ذات شرفات تحمل في خارجها تروس برونزية معلقة بكلاليب.

هذا الصف الأول من الأسوار كان يحمي حي «مالكا» المأهول برجال

البحر والصباغين، وهناك يرى الناظر الصواري منشورة عليها أشرعة السفن الأرجوانية، كما يرى على آخر السطوح أفران خزف لتحضير المدى والتوابل.

وخلف هذا الصف تبسط المدينة بيوتها المكعبة الأشكال متدرجة مدارج مدارج، وهذه البيوت منها ما هو مبني بالحجر أو الألواح الخشبية، ومنها ما رفع بالحصى أو بالصدف أو بأعواد القصب. وخشب المعابد الأخضر يكون ما يشبه بحيرات من الخضرة وسط ذلك الجبل المقام من الأبنية المختلفة الألوان، والميادين العمومية تمهد هذا الجبل على مسافات غير متساوية، والشوارع الصغيرة العديدة تلتقي فيه وتتقاطع من أعلى إلى أسفل. وكان يمكن التمييز بين حدود الأحياء القديمة الثلاثة التي امتزجت اليوم ببعضها والتي كانت ترتفع هنا وهناك كأنها صخور كبيرة أو جدران ضخمة لطخت بالسواد وظهرت فيها خطوط كثيرة هي آثار ما هي عليه من الأقذار، ومرت من فوهاتها شوارع كأنها أنهار تحت جسور.

وفي وسط حي «برسا» تختفي مرتفعات الأوكروبول تحت المباني الأثرية الفخمة: معابد قائمة على أعمدة حلزونية ذات تيجان من البرونز وسلاسل من المعدن وحجارة صلب مخروطية الشكل ممنطقة بأربطة زرقاء بلون السماء، وقباب نحاسية، وعوارض من المرمر، ومساند بابلية، ومسلات مرفوعة على رؤوسها كأنها مشاعل مقلوبة، وكان صف الأعمدة يمتد حتى يتصل بمقدم البناء، وبين هذه الأعمدة نقوش حلزونية تزينها. وهناك جدران من الصوان تحمل حواجز من الآجر، وكل هذا يعلو الواحد منه الآخر مغطياً نصفه بصورة هندسية رائعة لا تدرك تعيد إلى الذهن وتوحي إلى الإحساس بتوالي العصور وذكريات الأوطان التي طواها النسيان.

خلف الأكروپول، وعلى التربة الحمراء، تمتد طريق «مابال» مستقيمة تحف بها الثغور من الشاطئ إلى الحُفَر، وهناك تقوم منازل واسعة تفصل

بينها البساتين. ذلك هو حي قرطاجة (الثالث) أو المدينة الجديدة التي تمتد حتى الشاطئ الصخري العالي، حيث المنارة الجبارة المضاءة طوال الليل.

على هذا الوجه كانت قرطاجة تبدو للجنود المعسكرين في السهل، وكانوا يتبيّنون من بعيد الأسواق والميادين، ويختلفون على تحديد مواقع المعابد، فمعبد خامون الواقع أمام «السيسيت» مسقوف بآجر من ذهب، ومعبد «مالكاريت» الواقع على يسار أشمون تعلو سطحه أغصان من المرجان، ومعبد تانيت تبدو قبته ما بين أشجار النخل مصنوعة من النحاس، ومعبد مولوخ الأسود واقع بالقرب من الآبار بجوار المنارة، وعلى زاوية مقدمة كل بناء، وفي أعلى الجدران وعلى جوانب الميادين، وفي كل بقعة أو مكان، ترتفع تماثيل آلهة ذات رؤوس دميمة جسيمة، أو مكتلة ذات بطون ضخمة أو ضامرة، فاغرة أفواهها باسطة أذرعها حاملة المذاري، أو السلاسل أو الحراب. وكانت زرقة البحر تنعكس في الشوارع فيخالها الناظر من بعيد أكثر انحداراً.

كانت الحشود الصاخبة تملأ هذه الشوارع من الصباح إلى المساء: فهناك فتيان يحركون الجلاجل ويضجون أمام أبواب الحمامات، ودخان الحوانيت التي تبيع المشروبات الساخنة يرتفع إلى الجو، وأصوات الضرب على السنادين تملأ الفضاء، والديوك البيض المكرسة لعبادة الشمس تصيح فوق السطوح، والأبقار التي تذبح تخرج خوارها في الهياكل، وهناك عبيد يجرون على رؤوسهم السلال، وفي زوايا أبواب المعابد بعض الكهان يطلون وهم يرتدون معاطف قاتمة اللون حفاة تغطي رؤوسهم قلانس مقرنة مستدقّة.

منظر قرطاجة بصورته هذه كان يهيج البربر. كانوا يعجبون بها ويكرهونها، وكانوا يتمنون أن يلاشوها وأن يسكنوها في وقت معاً، ولكن ما هذا الذي كان يلوح في الميناء الحربي المحصن بأسوار ثلاثة؟ ثم ما هو ذلك الذي يبدو وراء المدينة، في نهاية «ميجارا» في مرتفع أعلى من

الأكروبول؟ ذلك هو قصر هاميلكار.

كانت عينا «ماتو» تتجهان إلى ذلك القصر فيتسلق شجرة الزيتون ويده فوق حاجبيه، ينظر ويحدق، ولكن الحدائق خالية، والباب الأحمر ذو الصليب الأسود موصد.

دار «ماتو» حول الأسوار أكثر من عشرين مرة ليبحث عن منفذ ينفذ منه إلى الداخل، وألقى مرة بنفسه إلى الخليج تحت ستار الليل وظل يسبح مدة ثلاث ساعات بلا انقطاع حتى وصل إلى أسفل «مابال»، وحاول أن يتسلق الشاطئ الصخري فأدمى ركبتيه وكسر أظفاره ثم سقط بين الأمواج فعاد أدراجه.

شعوره بعجزه كان يملأ نفسه يأساً وغيظاً. كان يغار من هذه المدينة قرطاجة التي تخص سلامبو كما لو كانت تلك المدينة رجلاً قضى منها وطره، ثم هدأت ثورة أعصابه لتحل محلها رغبة ملحة حارة مستديمة بأن يعمل ويسعى. وكان خداه مستعرين ناراً، وعيناه هائجتين، وصوته أجش، يخبط على غير هدى بخطى سريعة يذرع المعسكر جيئة وذهاباً، أو يجلس على الشاطئ يجلو بالرمال سيفه الكبير، أو يرمي بالنبال العقبان المحلقة في الجو، وقلبه يفيض أسى، فينطلق لسانه بالكلام المر فيقول له سبنديوس: «أطلق لغضبك العنان كما تنطلق مركبة قتال جُمح جيادُها، أرسل الصيحات والعن وخرب واقتل، فإن الألم يسكن بالدم، وبما أنك لا تملك أن تشفي غليل حبك فانحر البغضاء فهي التي تغيثك وتنجدك».

وعاد «ماتو» يقود جنده، وأخذ يلزمهم بأشد المناورات وأدق التمارين، وكانوا يحترمونه لشجاعته ولا سيما لقوته، ويستشعرون بخوف منه أشبه بخوف العابد من معبوده، فقد خيل إليهم أنه يخاطب الأشباح في ليله. واقتدى الضباط الآخرون به، لأنه أثار حماستهم بمثلها، فما عتم جيش البربر أن انتظم، وكان القرطاجيون يسمعون من بيوتهم أصوات الأبواق التي كانت موسيقاها تنظم تمرينهم على القتال، واقترب البربر من المدينة.

كان لا بد للوصول إلى سحقهم في البرزخ أن يكون هناك جيشان يهاجمانهم معاً من المؤخرة، الواحد منهما ينزل من البحر في آخر خليج أويتيك، والثاني في جبل المياه الساخنة. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وليس لدى قرطاجة من الجند إلاّ الكتيبة المقدسة التي لا يتجاوز عدد أفرادها ستة آلاف على أكبر تقدير، وجيش البربر إذا انحرف إلى الشرق تم اتصاله بالرحّل فقطع طريق القيروان وهي سبيل الاتجار مع الصحراء، وإذا ارتد إلى الغرب اشتعلت نار الثورة في نوميديا. فضلاً عن أن نقص الأقوات سيدفع ذلك الجيش إلى تدمير الريف وتخريبه كما يفعل الجراد، وهكذا فقد كان الأغنياء يرتعدون فرقاً لما سيحل بقصورهم وكرومهم ومزروعاتهم من الدمار والخراب.

في هذه الأثناء كان القائد هنون قد اقترح اتخاذ إجراءات شديدة قاسية ولكن لا سبيل إليها كأن تقرّر مكافأة مالية مغرية لكل من يجيء برأس رجل من البربر، أو كأن يحرق معسكرهم بوساطة مراكب وأدوات دمار. وعلى نقيض ذلك كان زميله جيسكون يريد أن تدفع لهم أجورهم، ولكن رجال مجلس القدماء يكرهونه لشعبيته، لأنهم يخشون أن يسيطر عليهم سيد، وهكذا فإن خوفهم من وضع السلطة في يد واحد كان يدعوهم إلى إضعاف ما تبقى من سلطة الفرد وإلى غل يد من يخشون قدرته على إعادة تلك السلطة.

كان يقيم خارج منطقة الأسوار أقوام من أصل مجهول ومن غير القرطاجيين، هم صيادو القنافذ وآكلو الحشرات والحيوانات الرخوة، وكانوا ينسلون إلى الكهوف فيمسكون بالضباع حية ثم يلهون بها بأن يدفعوها أمامهم جرياً على رمال ميجارا عند المساء بين قباب القبور وأكواخهم المصنوعة من الوحل المجفف، أو من الأعشاب البحرية، معلقة على منحنيات الشاطئ الصخري كأنها أعشاش طيور السنونو. وهؤلاء القوم لا دين لهم ولا سلطة، يعيشون كالوحوش فوضى مختلطين عراة الأجسام، وكان الشعب ـ منذ القدم ـ يمقتهم أشد المقت لما يأكلون

من الطعام النجس.

وفي صباح يوم تبيّن الحرس رحيلهم عن محيط قرطاجة.

وأخيراً قرر رجال المجلس الأعلى أن يتوجّهوا إلى معسكر البربر بلا قلائد ولا أقراط، ينتعلون الأخفاف المفتوحة وكأنهم جيران يزورون جيراناً، وكانوا يسيرون بخطى ثابتة يلقون التحية على الضباط، أو يقفون ليتحدثوا إلى الجنود، معلنين انتهاء كل خلاف واعدين باستجابة مطالبهم إحقاقاً للحق.

وكان بعض هؤلاء يرى لأول مرة معسكراً للمرتزقة، فلمسوا فيه دقة النظام والصمت الشامل وقد توقعوا أن تكون الفوضى سائدة فيه، فالجيش محاط بحاجز من العشب الأخضر يقيه صدمات المناجيق، والأرض مرشوشة بالماء الرطب، وعيون المتخفّين يبدو لمعانها من وراء أسجاف الخيام، ومجموعات الأسلحة ترسل بريقاً كبريق المرايا، وجميعهم يتحدثون بأصوات خافتة.

طلب الجنود أطعمة وتعهدوا بأن يدفعوا أثمانها خصماً مما يستحق لهم من الأجور، فأُرسلت إليهم الأبقار والأغنام والدجاج البرّي والثمر المجفف وحبوب الترمس والأسماك المدخنة مما كانت قرطاجة تصدره إلى جميع الموانئ، ولكن البربر كانوا يظهرون ازدراءهم لما أرسل إليهم من الحيوانات ولو أنهم كانوا يشتهون لحومها، فأخذوا يعرضون لشراء كبش ثمن حمامة، ولشراء ثلاث عنزات ثمن رمانة، وأكلة الطعام النجس يقيمون أنفسهم محكمين بين الجانبين، فيقررون أن القرطاجيين يخادعونهم ويغشونهم، وكثيراً ما يستلون خناجرهم ويهددون بالقتل.

انبرى مندوبو المجلس الأعلى يحسبون ويكتبون عدد السنوات التي استحقت أجورها لكل جندي فاستحال عليهم الحساب، وقد طال الخوض في إحصاء عدد الجنود الذين تطوعوا، وهال مجلس القدماء ضخامة المبالغ الواجبة الأداء، ووجدوا أن لا سبيل إلى الوفاء بها إلاّ ببيع مواد السيلفيوم المدخرة وبفرض الضرائب على المدن التجارية. وبدأ

صبر المرتزقة ينفد، ووقفت تونس إلى جانبهم، وطار صواب الأغنياء لما كانوا يلقونه من تعنيف هنون وتأنيب زميله جيسكون، فأشاروا على المواطنين، الذين كانت لهم معرفة ببعض البربر، بأن يجددوا صلات الود معهم بالكلام الطيب المعسول، لعل في إظهار الثقة بهم ما يهدئ من ثائرتهم. فذهب الكثيرون لمقابلة البربر من كتبة وعمال في دار الأسلحة، بل أن أُسراً كثيرة اتصلت بهم.

كان الجنود المرتزقة يدخلون القرطاجيين من ممر ضيق يصطدم فيه أربعة من المتقابلين، ويقف سبنديوس وراء الحاجز ليسهر على تفتيشهم بدقة وبقربه ماتو يحدق بالوافدين لعله يهتدي إلى واحد قد يكون رآه عند سلامبو.

بدا المعسكر شبيهاً بمدينة لكثرة ما احتشد فيه من الناس وما ارتفع فيه من الضوضاء. والحشدان اللذان يملآنه مختلفان ولا يمتزجان، فالجماعة الأولى تلبس القماش أو الصوف وتغطي الرؤوس بطاقيات من اللبد بشكل أكواز الصنوبر، والأخرى مغطاة بزرد الحديد وعلى رؤوسها الخوذ، وبين الخدم والبائعين المتجولين تسير نساء من مختلف أمم الأرض: سمراوات كالتمر، وخضراوات كثمر الزيتون، أو صفراوات بلون البرتقال، نساء باعهن تجار السفن أو انتقين من المواخير أو سرقن من القوافل أو سبين من المدن عند فتحها، يعاطيهن الجند الحب حتى يستنزفوا قواهن وهن لا يزلن فتيات، فإذا هرمن أشبعوهن ضرباً وركلاً، فإذا انهزم الجيش هلكن على قارعات الطرق ملقيات بين الأمتعة والبهائم المهملة. وكان منهن زوجات الرحل يتهادين على كعوب أرجلهن بغلالات منسوجة من وبر الجمال مربعة ذات لون مشقر، ومنهن موسيقيات من القيروان مغطيات بشفافات بنفسجية، مزجّجات الحواجب، يغنين وهنّ يجلسن القرفصاء على الحصر. وهناك عجائز من الزنوج مرخيات الأثداء يلتقطن لإشعال النار بعر البهائم ليجففنه تحت الشمس، ونساء «سيراكوز» اللائي يشبكن في شعورهن قطعاً ذهبية، ونساء لوزيتانيا يتقلدن عقوداً من الأصداف،

وتضع الغوليات جلود ذئاب على صدورهن البيض، وهناك صبية أقوياء يسرح عليهم القمل والبق والصئبان عراة غير مطهرين، يلطمون المارين في بطونهم، أو يتسللون وراءهم فيعضونهم في أيديهم.

سار القرطاجيون يتنقلون في ممرات المعسكر مأخوذين بما رأوه فيه من كميات الأمتعة المكدسة، وكان أكثرهم بؤساً يبدو عليه الحزن كما يبدو القلق في وجوه الآخرين. والجنود يربتون على أكتافهم ويدعونهم إلى مشاركتهم المرح والفرح واللعب، فإذا لعبوا برمي الطباق حرصوا على الدوس على قدمي اللاعب، وإذا تلاكموا حرصوا على كسر فكيه منذ الجولة الأولى، وكان حملة المقاليع يخيفون أهل قرطاجة بمقاليعهم، والحواة يرهبونهم بأفاعيهم، والفرسان بخيولهم، والقرطاجيون المسالمون يردون على أنواع الإهانات بالابتسام وطأطأة الرؤوس، وكان بعضهم، إظهاراً لشجاعته، يشير إليهم بما يفهم منه أنه يود الانخراط في سلك الجندية، فكان الجند يكلفونه بتقطيع الحطب وسرج البغال، أو يغطونه بدرع ثم يدحرجونه كالبرميل في الممرات، فإذا ما أزفت ساعة الفراق أخذ المرتزقة يشدون بشعور رؤوسهم بتشنجات سمجة مضحكة.

وكان الكثيرون من البربر يعتقدون ـ عن جهل أو عن سماع ـ أن جميع أهل قرطاجة أثرياء فيمشون وراء زائريهم يلتمسون منهم عطاء، أو يطلبون منهم ما يبدو جميلاً في أعينهم، كمثل خاتم أو حزام أو خف أو ذيل ثوب، حتى إذا جُرّد القرطاجي من جميع ما يملك صاح «لم أعد أملك شيئاً فما الذي تريدونه مني؟» فيجيبه الجنود: «نريد امرأتك» أو يقول قائلهم: «نريد حياتك».

سُلّمت بعد ذلك حسابات الجيش إلى الضباط، وقرئت تفاصيلها على الجنود بعد الموافقة عليها نهائياً، فأخذ المرتزقة يطالبون حينذاك بخيام فأعطوهم خياماً، وطلب بعض القادة الإغريق بعض شِكك الأسلحة الجميلة التي تصنع في قرطاجة فصوت المجلس الأعلى على رصيد المبالغ اللازمة لمشترى تلك الشِكك، وزعم الفرسان أنه من العدل أن تعوّضهم

الجمهورية ما فقدوه من الخيل، فادعى هذا أنه قد فقد ثلاث أفراس في حصار كذا، وذهب الثاني إلى أن أفراسه الخمس قد نفقت في أثناء زحف الجيش يوم كذا، وقال آخر إن أربعة عشر جواداً من جياده قد سقطت في الحفر، فعرضوا عليهم جياداً من هيكاتومبيل، ولكنهم فضلوا عليها النقود في نهاية المطاف.

ثم إنهم طلبوا أن تدفع لهم بالعملة الفضية لا الجلدية أثمان القمح الذي استحقوه، وأن يكون الثمن أعلى ما بلغه القمح في أيام الحرب، وغالوا في الطلب ففرضوا أن يكون ثمن كيلة الطحين أربعمائة مرة أكثر مما كان قد دفعوه ثمناً لكيس من القمح. وأثار هذا التعنت حفيظة القرطاجيين ولكنهم رضوا مكرهين.

على هذا الأساس عُقد الصلح بين المندوبين عن الجنود وبين المجلس الأعلى، وأقسموا على احترام الصلح بربة قرطاجة وبآلهة البربر، واعتذر كل منهم للآخر بمظاهر الشرقيين وبلاغة تعبيرهم وتلطفهم وملاطفتهم، وطلب الجند للتدليل على صداقتهم إنزال العقاب بالخونة الذين أثاروا حفيظتهم على الجمهورية، فتعامى القرطاجيون عن هذا الطلب وكأنهم لم يفهموه، فأعاد المرتزقة الكرة وصرحوا بأنهم يطلبون رأس هنون. وكانوا يخرجون كل يوم من خيامهم مرات كثيرة ويقفون في أسفل الأسوار وهم يصيحون «ألقوا إلينا برأس القائد هنون» ثم يبسطون أذيال جلابيبهم ليتلقّوا فيها ذلك الرأس.

كان من الممكن أن يجبن أعضاء المجلس الأعلى فيسلمون بهذا الطلب لو أن المرتزقة لم يتقدموا بطلب آخر ملح وأشد إيلاماً وامتهاناً من جميع طلباتهم. طلبوا من المجلس أن يُزوّج قادتهم من عذارى قرطاجيات تختار من الأسر الكبيرة العريقة، وكان هذا الاقتراح من صنع سبنديوس، فوافق عليه الكثيرون من الجند وعدّوا طلبهم هذا غير محرج بل ممكن التحقيق.

بيد أنَّ فكرة احتمال مزج دماء المرتزقة بدماء القرطاجيين أثارت الأنفة

والاشمئزاز في نفوس الشعب، فأعلن المجلس رفض طلباتهم الجديدة بإباء وشمم، فهاج البربر وزعموا أنهم خدعوا، وأنذروا القرطاجيين بأنه إذا مرت ثلاث أيام دون أن تصل إليهم أجورهم فإنهم سيحتلون قرطاجة ليستولوا على أموالهم بأنفسهم..

لم يكن سوء النية متوفراً بجميع وجوهه لدى البربر كما ذهب إلى ذلك القرطاجيون، فإن هاميلكار كان قد مناهم بالمواعيد والأماني البعيدة التحقيق التي كانت على غموضها علنية مكررة، ولذلك حملهم الظن على الاعتقاد بأنهم عند عودتهم إلى قرطاجة سوف تترك المدينة لهم ليقتسموا كنوزها، فلما أيقنوا أنهم لن يُنقدوا أجورهم استولت خيبة الأمل على كبريائهم وعلى طمعهم.

أما كان أمامهم مثل «دنيس» و«بيروس» و«أجاتوكليس» وقواد الإسكندر الذين أحرزوا المجد والثروة؟ ألم يكن طموح «هرقل»، الذي كان الكنعانيون يخلطون بينه وبين الشمس، متألّقاً في أفق الجيوش؟ لقد كانوا يعلمون بأن هناك قبلهم جنوداً مغمورين توصلوا إلى أن يعقدوا التيجان على رؤوسهم، وكان صدى أصوات تهدم الأمبراطوريات يرن في الآذان فيبعث الأحلام الذهبية إلى نفس الغولي في غابته، «والإيثيوبي» في رماله، وكان هناك شعب دائم الاستعداد للانتفاع بشجاعة الشجعان، فاللص المطرود من قبيلته، وقاتل أبيه الشارد على الطرقات المتبوع بلعنة الآلهة، وجميع الجياع والبائسين كانوا يجدّون السير ليصلوا إلى الميناء الذي كان فيه وسيط قرطاجة يقبل تطوّع المتطوّعين، وقرطاجة تفي دائماً بعهودها تمام الوفاء، ولكن شهوة بخلها العارمة دفعت بها هذه المرة إلى عمل مخز شائن مهلك، لأن نوميديا وليبيا بل إفريقية كلها ستطبق اليوم على قرطاجة، وإذ كان البحر لا يزال مفتوحاً أمامها فإن روما ستلقاها فيه، وهكذا فقد كانت تشعر بالموت يحيق بها من كل صوب كالرجل المحاط بالقتلة السفاحين.

بدا أنْ لا بد من اللجوء إلى جيسكون الذي ارتضى به البربر حكماً يوم

أنزلت السلاسل الحديدية التي كانت تقفل الميناء، وخرجت إلى البحر ثلاثة مراكب مستطيلة مرت بقناة «ثانيا» حتى بلغت البحيرة. وعلى سطح المركب الأول وفي المقدمة ظهر جيسكون ووراءه صندوق كبير يزدان بحلقات كأنها تيجان متدلية، ثم يلي ذلك جماعة من المترجمين تعلو رؤوسهم أغطية شبيهة بغطاء رأس أبي الهول، وعلى صدورهم وشم ببغاء، ويتبعهم أصدقاء وأرقاء عديدون، وكلهم أعزال من السلاح، وكانت هذه المراكب الطوال ملأى حتى لتكاد تنوء بأحمالها وهي تتقدم على أصوات هتاف الجيش الذي كان متجهاً بأنظاره إليها.

ولم يكد جيسكون يطأ الأرض حتى تهافت الجند على لقائه، فأمر برفع منصة على أكياس ملأى، وأعلن عن عزمه البقاء بينهم حتى يتم دفع جميع أجورهم كاملة غير منقوصة، فتعالى الهتاف ودوّى التصفيق وظل هو وقتاً طويلاً لا يتمكّن من الكلام.

ثم أخذ ينحي باللوم على الجمهورية، وعلى أولئك الذين حركوا الفتنة التي بلغت بخطئهم مبلغاً من الشدة أرهب قرطاجة. وذكر أن الدليل على حسن نية الجمهورية هو اختيارهم إياه وهو خصم هنون لإحلال السلام محل الخصام، وإعطاء كل ذي حق حقه، وأنه يجب ألاّ ينسب إلى الشعب سبب إثارة غضب جنود شجعان، ولا أن يقال عنه إن العقوق قد بلغ به حدّاً أنكر معه خدمات الجند البواسل.

شرع بعد ذلك بدفع مرتبات الجند مبتدئاً بالليبيين، ولمّا اعترضوا على صحة الأرقام الواردة في البيانات لم يعد يعتمد عليها في الدفع. وكانوا يمرون أمامه بترتيب الأمم التي ينتمون إليها ويرفعون أصابعهم ليدلوا على عدد سنيّ خدمتهم، وكل من قبض مرتبه تدمغ ذراعه اليسرى بالطلاء الأخضر، وكان الكتبة يخرجون النقود من الصناديق المفتوحة، وإلى جانبهم آخرون يحدثون بمداهم ثقوباً في لوح من رصاص. ومرّ رجل بدوره وهو يمشي متثاقلاً كمشي البقر، فقال له القائد، وقد تسرّب إلى نفسه الشك بأمره: «اصعد إلى جانبي. كم سنة خدمت في الجيش؟»

فأجاب الليبي: «اثنتي عشرة سنة» فدسّ جيسكون يده في خوذة الرجل وذقنه، ذلك لأن محل الخوذة واحتكاكها بالذقن يترك مع السنين ندبات في الجلد يسمونها «الخروبيات» لشببها بالخروب، وكان من يحمل في ذقنه هذه الآثار يعد من قدامى الجند.

صرخ به جيسكون: «يا لك من لص! إن ما لا تحمله في ذقنك لا بد أن تحمل آثاره على كتفيك». ثم مزق جلبابه، وإذا بجلد ظهره أجرب دامي البثور ما يدل على أنه كان يمارس حرث الأرض.

وعلت الصيحات من كل ناحية، وقطع رأس الرجل.

ولمّا جُنّ الليل انسل سبنديوس إلى خيام الليبيين وقال لهم:

«يوم يقبض الليغوريون والإغريق والباليار والإيطاليون أجورهم يعودون إلى بلادهم، وأمّا أنتم فستظلون في إفريقية منفردين في قبائلكم لا تقوون على الدفاع عن أنفسكم، وإذ ذاك تصب عليكم الجمهورية جام انتقامها. لا تثقوا من عودتكم ولا بما يقوله هذا الرجل، فإن القائدين الزعيمين هما على اتفاق بينهما، وهذا الزعيم يخادعكم. اذكروا جزيرة العظام و«كسانتيب» الذي أرسلوه إلى إسبرطة على سفينة مهلهلة».

فقال الليبيون: «ما العمل إذاً؟».

فأجاب سبنديوس: «فكّروا ملياً».

ومرّ اليومان التاليان في دفع أجور أهل «مجدالا» و«ليبتس» و«هيكاتوموبيل»، فأخذ سبنديوس ينفث سمه بين الغوليين يقول لهم: «ها هم يدفعون أجور الليبيين، وبعد ذلك يدفعون للإغريق والباليار والآسيويين وغيرهم، وأما أنتم، القليلو العدد، فلن يعطوكم شيئاً ولن تروا أوطانكم أبداً ولن تجدوا مراكب تحملكم إليها، وسيوقعون بكم توفيراً لطعامكم».

هبَّ الغوليون لمقابلة القائد، وأخذ أوتاريت ـ ذلك الرجل الذي جرحه يوم الوليمة في حديقة هاميلكار ـ يطرح عليه الأسئلة، ولكن العبيد صدوه فانسحب وهو يقسم بأن ينتقم.

ازدادت الشكاوى والطلبات،، وكان أكثر الشاكين إلحاحاً يلجأون إلى

خيمة القائد ويأخذون بيده ـ استدراراً لعطفه وشفقته ـ فيمرون بها على أفواههم الفاقدة الأسنان، وعلى أذرعتهم الضئيلة وجراحهم البليغة المتحجرة، وكان الذين لم يقبضوا بعد أجورهم هائجين، والذين قبضوها يطالبون بغيرها لخيولهم، والمتشردون والمطرودون يأخذون أسلحة الجنود فيتقلدونها ويزعمون أنهم منسيون، وحشود الرجال تتراكم في كل لحظة، حتى أن الخيام كانت تتمايل وتتقوض، وكانت الكثرة منهم، المحصورون في الوسط بين الجموع، تتماوج وتضج بالصراخ، فإذا اشتد الضجيج اتكأ جيسكون بمرفقه على صولجانه العاجي وأخذ يجيل عينيه في البحر ساكناً جامداً يعبث بأصابع يده في لحيته.

كان «ماتو» كثيراً ما يترك الخيمة ليذهب فيتحدث مع سبنديوس، ثم يعود فينتصب واقفاً أمام جيسكون الذي كان يشعر أن عينيه متجهتان إليه وكأنهما مشعلان مرجانيّان. وقد حدث أن تبادلا الشتائم مرات فمرت فوق رؤوس المحتشدين ولم يسمعها الواحد منهما ولا الآخر، ومع ذلك فقد كان توزيع الأجور مستمراً، وكان الزعيم يحاول أن يجد حلاً لكل مشكلة وتسهيلاً لكل عقبة.

وأراد الجنود الإغريق أن يثيروا نزاعاً حول فروق العملات، فبسط لهم جيسكون تفسيرات وشروحاً خرجوا بعد سماعها قانعين. وطلب الزنوج عطاءهم بعض تلك الأصداف البيض التي كان التجار يتبادلونها داخل إفريقية، فعرض عليهم أن يرسل من يحضرها لهم من قرطاجة، ولكنهم عدلوا عن طلبهم واستوفوا أجورهم عملة فضية كالآخرين.

وكان رجال الباليار قد وُعدوا بما هو أفضل من ذلك أي بنساء، فرد عليهم الزعيم بأن هناك قافلة في الطريق تحمل فتيات كلهن عذارى، وأنه يجب انتظارهن لما بعد أربعة أهلة لأن الطريق طويلة، وزاد فقال: إن أولئك النساء سيُحملن إليهم حتى جزائر الباليار على مراكب خاصة بعد أن تمتلئ أجسامهن ويطيّبن ويدلّكن بلبان البنجوان.

وبينا هم على هذا الحال إذا بـ«زركساس» ـ ذلك الذي نجا من الموت

عند ذبح حملة المقاليع - وقد أصبح وسيماً وشديداً كمصارع - يعلو مناكب أصدقائه ويصيح بجيسكون: «هل احتفظت بشيء من المال للجثث؟» قال هذا وهو يشير بيده إلى بوابة خامون في قرطاجة.

كانت تلك الأبواب المصفّحة بصفائح النحاس الأحمر تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة، فتوهّم البربر أنهم يرون عليها سيلاً من الدماء، فأخذوا يضجون بالصراخ حتى لم يعد جيسكون يقوى على الكلام، فنزل عن منصته بخطى متزنة ودخل خيمته وقبع فيها.

لمّا خرج جيسكون من الخيمة في الغداة مع بزوغ الشمس أبصر تراجمته، الذين كانوا ينامون خارجها، مستلقين على ظهورهم لا حراك بهم، وقد جحظت عيونهم وازرقت وجوههم وخرجت ألسنتهم من أفواههم مشدودة تحت أسنانهم، وكان يسيل من أنوفهم مادة بيضاء مخاطية وأعضاؤهم متجمدة كما لو كان برد الليل قد حالهم إلى جليد، وكل منهم يحمل نسعة صغيرة من الخيزران ملفوفة على عنقه.

منذ هذه الساعة، تأجّجت الفتنة ولم تعد نارها تخمد، لأن مذبحة رجال الباليار التي أعاد ذكرها «زركساس» جاءت مصداقاً لما كان يشيعه سبنديوس من عدم الثقة بالقرطاجيين، وقوت الظن عند البربر بأن الجمهورية تحاول خداعهم والغدر بهم، وإذاً يجب أن ينتهي الأمر منها، وإذاً فلا حاجة إلى المترجمين! وكان «زركساس» يلف مقلاعه حول رأسه ويردد الأغاني الحربية، و«أوتاريت» يلعب بسيفه المسلول الكبير، و«سبنديوس» يهمس كلمة في أُذن هذا ويضع خنجراً بيد ذاك، والأقوياء يحاولون أن يستوفوا أجورهم بأيديهم، وأقلهم هياجاً يطالبون بالاستمرار في الدفع والتوزيع، ولم يعد أحد منهم يخلع عنه سلاحه، واجتمعت ثورات الغضب كلها لتنصب على رأس جيسكون ببغضاء صاخبة.

راح الكثيرون منهم يصعدون إلى جانبه على المنصة ويستمعون بصبر إلى كل من يكيل له الشتائم، فإذا حاول أحدهم أن يدافع عنه بكلمة أسرعوا إلى رجمه أو أطاحوا برأسه من الوراء بضربة سيف، وهكذا أصبحت

أكياس المنصة أشد احمراراً من مذبح معبد.

كان الجميع أشد هولاً بعد الطعام وقد لعبت الخمر برؤوسهم، وقد كان شرب الخمر محرماً في جيوش قرطاجة والموت عقاب شاربيها، فأخذوا يرفعون كؤوسهم ويتجهون بها جهة قرطاجة ازدراء لنظمها وقوانينها، ثم يعودون إلى حيث العبيد خَدَمَة وزارة المال فيستأنفون القتل والذبح، وكانت كلمة «اضرب اقتل» التي يختلف نطقها باختلاف اللغات مفهومة من الجميع.

وكان جيسكون يعلم حق العلم بأن وطنه قد خذله، ولكنه كان يأبى أن يلطخ شرف الوطن رغم عقوقه ونكرانه لجميله، فلما ذكّره المرتزقة بأن قرطاجة قد وعدتهم بمراكب تحملهم إلى أوطانهم أقسم بالإله مولوخ بأن يجهز لهم هذه المراكب من ماله، وتوكيداً لقسمه انتزع من عنقه قلادته المنضدة بالحجارة الزرقاء وألقى بها بين الجموع.

طالبه الأفارقة بالقمح تنفيذاً لما تعهد به للمجلس الأعلى، فنشر جيسكون أمامه حسابات «السيسيت» المخطوطة باللون البنفسجي على جلود الأغنام، وأخذ يعدد ما دخل على قرطاجة شهراً فشهراً ويوماً فيوماً، وإذا به يتوقف عن القراءة وقد جحظت عيناه كأنه اكتشف ما بين الأرقام منطوق الحكم بإعدامه، ذلك أن أعضاء مجلس القدماء كانوا قد أنقصوا تلك الأرقام غشّاً منهم وتدليساً، ولأن القمح الذي بيع في أسوإ أيام الحرب وأشدها غلاء كان مسعراً بسعر واطئ بلغ من تدنيه حدّاً لا يقره إلاّ من أُصيب بعمى البصيرة.

فصاحوا به «تكلم وبصوت أعلى! آه، إنه يحاول الكذب والخداع! يا له من نذل! فلنحاذر منه!» فتردد قليلاً ثم عاد يقرأ.

وكان الجنود قبلوا بما تقدم به «السيسيت» من الحساب وعدّوه صحيحاً لأنهم ما كانوا يفكرون أن قرطاجة تخادعهم، فلمّا وقفوا على ما كانت تنعم به قرطاجة من رخاء أخذتهم غيرة منها أثارت حنقهم، فكسروا صندوق الجميز، وكان قد وزع ثلاثة أرباع ما يحتويه، فرأوا بأم العين ما

يسيل من تاجه على كتفه.

تقدّم الجميع بإشارة من «ماتو» فنحّى جيسون يديه، ولكن سبنديوس أسرع فشد معصميه بوثاق ودفعه آخر إلى الأرض، واختفى من بعد في تلك الفوضى من الحشد الذي تساقط على الأكياس.

نهب البربر خيمته التي لم يجدوا فيها إلاّ متطلبات المعيشة، ودققوا في البحث فوجدوا ثلاث صور للإلهة تانيت، كما وجدوا طي جلد قرد حجراً أسود سقط من القمر. وود الكثيرون من مرافقي جيسكون أن يصحبوه، وكانوا رجالاً ذوي جاه وكلهم من الحزب المائل إلى الحرب، فجروهم جرّاً إلى خارج الخيام وألقوا بهم في حفرة القاذورات، ثم ربطوهم من بطونهم بسلاسل من حديد إلى أوتاد متينة، وكانوا يمدون إليهم الطعام على رؤوس الحراب، و«أوتاريت» يراقبهم ويكيل لهم السباب ولا يفهمون ما يقول فلا يردون عليه، وكان هذا الغولي يرميهم بالحصى في وجوههم ليرغمهم على الصراخ.

*

في الصباح الباكر أحس الجند بضيق في الصدور لأن غضبهم كان قد سكن وحل محله شعور قلق، وماتو يشعر بكآبة غامضة تستولي عليه إذ كان يخيل إليه أنه بما فعله قد ألحق الإهانة بـ«سلامبو» وإن لم تكن تلك الإهانة قد وجهت إليها مباشرة، لأن أولئك الأغنياء ـ في عقيدته ـ أتباع لها ملحقين بذاتها، فكان يجلس في الليل إلى جانب حفرتهم إذ كان يجد في أنينهم شيئاً من ذلك الصوت الذي يملأ قلبه وأذنيه.

والحق أن الجنود كلهم كانوا يشكون من الليبيين الذين وحدهم قد استوفوا حقوقهم، ولكنهم على الرغم من اشتعال جذوة الكراهة الوطنية والأحقاد الشخصية حرصوا على عدم إثارتها، لأنهم كانوا يتوقعون انتقاماً شنيعاً بعد الفتنة التي وقعت، فأخذوا يتلمّسون الطرق الأمثل لتوقي انتقام قرطاجة. فبدأت المشاورات والمفاوضات والخطب الحماسية التي لا نهاية لها، فكل يتكلم وليس من يسمع، وسبنديوس، على ما عُرف عنه من شهوة

الكلام، يكتفي بهز رأسه كلّما تقدم أحدهم باقتراح.

وفي مساء يوم سأل سبنديوس «ماتو» عرضاً ودون أن يعير سؤاله أي اهتمام:

- ألا يوجد داخل المدينة ينابيع مياه؟

فقال له «ماتو»:

- «ليس هناك أي ينبوع».

في غداة ذلك اليوم سار سبنديوس صحبة ماتو إلى شاطئ البحيرة وقال له:

- إذا كنت مقداماً شجاع القلب فإني سأقودك إلى قرطاجة.

- وكيف يكون ذلك؟

- أقسم لي بأنك ستنفذ أوامري وأن تتبعني اتباع الظل لصاحبه.

فرفع ماتو ذراعه نحو كوكب «شابار» وصاح:

- أقسم لك بتانيت.

فقال سبنديوس:

- إذاً، غداً عند مغيب الشمس انتظرني عند أسفل قناة المياه الحجرية ما بين القنطرتين التاسعة والعاشرة ومعك رمح قصير من حديد وخوذة بدون رأس وفي قدميك حذاء جلدي.

هذه القناة كانت تجتاز البرزخ بكامله ملتوية معوجة، وتعتبر منشأة عظيمة، وقد زاد فيها الرومان فيما بعد. وكانت قرطاجة، على ما عرفت به من الكبرياء واحتقار ما عداها من الشعوب، قد اقتبست هذا الاختراع من روما، كما أخذت هذه عنها طريقة بناء السفن المنسوبة إلى قرطاجة. وكانت مكونة من أربعة صفوف من القناطر الواحدة فوق الأخرى من نوع هندسة المربعات، تستند عند قاعدتها إلى مساند، وفي أعلاها رؤوس أسود، وتنتهي في الجزء الغربي من الأكروپول حيث تختفي تحت المدينة فتسكب نهراً من الماء في آبار «ميجارا».

وفي تمام الساعة المحددة وجد سبنديوس ماتو في المكان المعهود،

نوعاً من الخطاف في رأس حبل وأداره بحركة لولبية كما يدار المقلاع ورماه فتعلق بأعلى السور فأخذا يتسلقانه الواحد تلو الآخر، ولكنهما لما صعدا إلى الطابق الأول أخذ الخطاف يفلت كلما رمياه، فاضطرا إلى السير على حافة الطنف علهما يهتديان إلى شق من الشقوق يثبتان فيه الخطّاف.

كان كل صف من صفوف القناطر أضيق مما سبقه، وأفلت الحبل مراراً وأوشك أن ينقطع مراراً أخرى، وبعد جهد وصلا إلى المصطبة العليا، فأخذ سبنديوس ينحني إلى الأرض مرة بعد مرة ويجس الحجارة بيديه، وإذا به يتوقف ويقول: «هنا. هنا. فلنبتدئ العمل». وشدا بثقليهما على الرمح الحديدي، الذي كان ماتو قد حمله معه، حتى تمكنا من انتزاع إحدى البلاطات من محلها. وشاهدا من بعيد ثلة من الفرسان تجري بهم أفراسهم بلا أَلْجِمَة، وأساورهم الذهبية تنتفض في حنايا أجواخ أرديتهم، وأمامهم رجل مكلل الرأس بريش النعام وفي كل من يديه رمح. فصاح «ماتو»: «هذا نارهافاس»، فقال سبنديوس: «لا أهمية للأمر». ثم انحدر في الفجوة التي بدت في محل البلاطة التي رفعاها. وحاول ماتو بإشارة من سبنديوس أن يزيح أحد الحجارة الكبيرة من مكانه فلم يتمكن لضيق الموضع وعجزه عن تحريك مرفقيه. فقال سبنديوس «سنعود يوماً. هيا سر أمامي». وهكذا أخذا يسيران مغامرين في مجرى قناة الماء.

بلغ الماء في ارتفاعه إلى بطنيهما، ولم يلبثا أن خارت قواهما فأخذا يسبحان وأعضاؤهما تصطدم بجوانب القناة الضيقة فتمزق وجهاهما، ثم جرفهما الماء، وكان يطبق على صدريهما هواء أثقل من هواء القبر، وهما يمرقان مروق السهم في ذلك الظلام، وقد كادا يختنقان، فأخذا يصعدان حشرجة الموت وقد وضعا رأسيهما تحت إبطيهما وركبتيهما الواحدة إلى جانب الآخرى وتمددا ما استطاعا إلى التمدد سبيلاً.

فجأة أظلم كل شيء أمامهما، وتضاعفت سرعة المياه، ثم هويا إلى القاع، ولمّا عادا فارتفعا إلى سطح الماء أخذا يعومان على ظهريهما بضع دقائق ويستنشقان الهواء بلذة. وكانت هناك قناطر تلي واحدتها الأخرى

تنفرج ما بين الجدران العريضة الفاصلة بين الأحواض، وكانت كلها ملأى والماء يسيل منها بمسيل واحد متجه طولاً إلى الآبار. وقباب السقوف يتسلل من فتحاتها ذبالة ضياء شاحب يبسط على صفحة الماء أشباه أقراص من النور، والظلام حولها يتكاثف عند الحيطان فيدفعها إلى الوراء، إلى ما لا نهاية له، وكانت أضعف الهمسات تخرج صدىً متجاوباً.

وعاد سبنديوس وماتو يسبحان، ومرّا من فتحة القناطر فاجتازا دون توقف حجرات كثيرة الواحدة بعد الأخرى، وبلغا صفين آخرين من البرك الصغرى كانا يمتدان في خطين متقابلين، فضلاّ وأصبحا يعومان على غير هدى ويدوران ثم يرجعان، وأحسا أخيراً بشيء ثابت تحت أقدامهما، تلك أرضية الرواق الذي يتماشى مع الآبار.

وراحا يتقدمان بحذر شديد ويجسان الجدران ليجدا منفذاً، ولكن أقدامهما كانت تزلق فيقعان في الأجران العميقة، ويحاولان التخلص فيعاودان السقوط، فأحسا بتعب مرهق مرعب، كما لو كانت أعضاؤهما وهي تسبح قد ذابت في الماء، فأغمضا العيون ودخلا في حشرجة النزع.

بسط سبنديوس يده وضرب بها على قضبان حديدية متينة في الشبكة التي كانت تسد منفذاً من المنافذ، وعاونه ماتو فشداها إليهما شدّاً عنيفاً فانفتحت، وإذا بهما على درج سلم مغلق بباب من البرونز، فأخذا يعالجان بالخنجر مزلاج الباب، الذي كان يفتح من الخارج، حتى فتحاه فامتلأت رئاتهما بالهواء الطلق.

كان السكون يشمل الليل والأفق يبدو عالياً بعيداً، وعلى جانبي الجدران باقات من الأشجار، والمدينة كلها نائمة وأنوار عسس الليل في مقدمة المعسكر تشع كأنها كواكب تائهة.

لقد صرف سبنديوس ثلاث سنوات في سجن العبيد فهو لا يعرف أحياء قرطاجة حق المعرفة. وتشاورا فقدّر ماتو أنه ـ توصّلاً إلى بلوغ قصر هاميلكار ـ لا بد لهما من الانحراف في سيرهما يساراً مجتازين حي «مابال».

فقال له سبنديوس: «لا، لا، بل قدني إلى معبد تانيت».

وهمّ «ماتو» بالكلام فقاطعه سبنديوس قائلاً: «تذكر!» ورفع ذراعه نحو السماء مشيراً إلى كوكب «شابار» الذي كان يتألق والذي أقسم به ماتو. فسكت هذا الأخير واتجه عند ذاك بسيره نحو الأكروپول(*).

مشى الاثنان يزحفان على طول سياجات نبات الصبار التي كانت مفروشة على حافات المعابر، وكان الماء يتصبب من أعضائهما على الغبار، وكانت نعلاهما المبلولتان لا تحدثان صوتاً، وسبنديوس يخترق الأشواك بحثاً بعينيه اللتين كانتا أشد لمعاناً من أنوار المشاعل، وهو يسير وراء ماتو ويداه على قبضتي خنجرين يحملهما على ذراعيه مثبتين تحت إبطيه بحلقتين حديديتين.

*

(*) الأكروپول يعني المدينة المرتفعة. أطلق في اليونان على القلاع المحصنة فوق التلال.

5
الحجاب السرّيّ

عندما فرغا من السير على طول السياجات اعترضتهما أسوار «ميجارا»، ولكنهما وجدا فجوة في الجدار الضخم فنفذا منها وتابعا سيرهما. وكانت الأرض على انحدار يتفرع منها شبه واد متسع والمكان مكشوفاً، فالتفت سبنديوس إلى ماتو وقال له: «أصغ إليّ.. ولا تخف قبل كل شيء.. إنني سأنجز وعدي». ثم توقف عن الكلام هنيهة وكأنه يفكر أو يختار ألفاظه، ثم استأنف حديثه: «أتذكر يوم أريتك قرطاجة في مطلع الشمس وعلى سطح سلامبو؟ لقد كنّا في ذلك اليوم أقوياء ولكنك لم ترد أن تسمع نصيحتي». ثم أردف بصوت رصين: «أيها السيد، إن في قدس معبد تانيت حجاباً سرياً سقط من السماء يغطي الإلهة».

- «إني أعلم ذلك».

- «إن هذا الحجاب مقدس لأنه جزء منها لا يتجزأ، وإن الآلهة تستقر حيث تستقر تماثيلها وصورها، وإذا كانت قرطاجة قوية فلأنها تمتلك هذا الحجاب». ثم مال إليه وهمس في أذنه: «لقد جئت بك معي لتختطف هذا الحجاب».

تقهقر ماتو إلى الوراء فَزِعاً وصاح به:

- «اغرب عن وجهي وابحث عن رجل آخر، فأنا لا أريد أن أعاونك على ارتكاب هذا الإثم الفظيع».

- لكن تانيت عدوة لك وهي تضطهدك، وأنت تموت لغضبها عليك! بهذا تنتقم منها فتطيعك، وتصير خالداً وغالباً لا يقوى بشر على غلبك».

فطأطأ ماتو برأسه وقال:

- سنخذل ونغلب، وسيفنى الجيش ويتلاشى. لا أمل لنا بالفرار ولا بالنجدة ولا بالصفح والغفران.

- أي عقاب تخشاه من تانيت وقوتها ستصبح بين يديك؟ أتؤثر أن تهلك

في عشية هزيمة هلاك البائسين اليائسين مختبئاً بين الأشواك أو بين إهانات رعاع الشعب أو فوق نار محرقة؟ أيها السيد، ستدخل يوماً إلى قرطاجة بين جماعة الأحبار وهم يقبّلون نعليك، وإذا شعرت في ذلك اليوم أن حجاب تانيت لا يزال يثقل منكبيك فإنك تعيده إلى معبدها. هيا اتبعني وخذ الحجاب.

فصاح ماتو «هيا إلى المعبد». واستأنفا السير بخطى سريعة، وهما يسيران صامتين جنباً إلى جنب.

بدت الطريق تتجه صعوداً والمنازل تتقارب، وكانا يسلكان شوارع ضيقة وسط الظلام الحالك، وقطع القماش التي تربط بها أقفال الأبواب تخفق فتلصق بالحيطان، وفي ميدان من الميادين رقدت الجمال منبطحة أمام حزمة من الأعشاب وهي تجتر. ثم سلكا رواقاً مغطى بأوراق الشجر فأخذت الكلاب تنبح. ثم اتسع الفضاء أمامهما فتعرفا إلى واجهة الأكروپول الغربية. وهناك في أسفل حي «برسا» بدت كتلة من البناء طويلة سوداء: ذاك معبد تانيت به مجموعة من المباني والحدائق والدوروالأحواش، يكتنفها حائط حجري صغير اجتازه سبنديوس وماتو.

وكان في وسط هذا الحاجز الأول غابة من شجر الدلب تقي من الطاعون وتمنع فساد الهواء، وهنا وهناك خيام منصوبة يباع فيها في النهار معجونات لإزالة الشعر، وعطور وملابس وأقراص حلوى بشكل أقمار، وصور للإلهة مع رسوم للمعبد محفورة على قطع من الرخام الطريّ.

وما كان الاثنان يخشيان بأساً لأن جميع الطقوس وأشكال العبادات تنقطع وتتوقف في الليالي التي لا تظهر فيها الكواكب. وأخذ ماتو يتباطأ في سيره، ثم توقف أمام درجات الأبنوس الثلاث الموصلة إلى الدار الثانية. فقال له سبنديوس: «هيا تقدم».

كانت أشجار الرمان واللوز والسرو والآس تتوالى جامدة لا حراك لها، كأن أوراقها صفائح البرونز، والطريق المرصوفة بالفسيفساء الزرقاء تطقطق تحت وقع الأقدام، والورود المتفتحة تتدلى وكأنها أسرّة على

جنبات الممر. وقد سارا حتى توقفا أمام ثقب بيضوي الشكل عليه باب مشبك بقضبان الحديد، فقال ماتو وقد أرهبه ذلك الصمت الشامل: «هنا يمزجون المياه العذبة بالمياه المرة».

فقال سبنديوس: «نعم، لقد رأيت مثل هذا في سورية في مدينة مبهرج».

ثم ارتقيا إلى الدار الثالثة على سلم درجاته من الفضة، فبدت لهما في وسطها شجرة أرز عظيمة قد اختفت أغصانها السفلى تحت قطع من القماش، وتحتها قلائد كان المؤمنون قد علّقوها بها، وبعد خطوات ظهرت لهما واجهة المعبد يتقدم بابيه رواقان يقوم طنفهما على دعائم مكتّلة علا فوقها برج مربع يزدان عند سطحه بهلال. وفي زوايا الرواقين، وعلى أركان البرج الأربعة، آنية مليئة بحبات الطيوب المحترقة، وفوق تيجان الأعمدة ثمار الرمان والحنظل، وتزدان الحيطان بنقوش أشكال وأرقام ومربعات متساوية الزوايا وبصفوف من اللآلئ، وأمام السلم الحديدي الذي ينحدر من الدهليز قام سياج من خيوط الفضة على شكل نصف دائرة وسيعة. وكان في المدخل بين عمود من الذهب وبين عمود آخر من الزمرد كرز صنوبر من حجر، فلمّا مر ماتو بجانبه أخذ يقبّل يده اليمنى.

كانت الحجرة الأولى عالية السقف أُحدثت بقبتها كوى كثيرة بحيث إذا رفع المرء رأسه أمكنه أن يشاهد منها الكواكب، وحوالى الجدار وفي سلال من القصب تتكدس شعور الرؤوس واللحى من بواكير المراهقين، وفي وسط القاعة المستديرة يبدو جسم امرأة خارجاً من غلاف مغطى بالأثداء، والمرأة سمينة ذات لحية تغض جفنيها وتبدو كأنها باسمة، تضع يديها بشكل صليب على بطنها المنتفخ الذي صقلته قبلات الجماهير.

أصبحا يسيران الآن في الهواء الطلق في ممشى معترض ارتفع فيه مذبح صغير نسبيّاً يستند إلى باب عاجي، وكان محرّماً على غير الكهان أن يتجاوزوا هذا المكان، وللكهنة وحدهم الحق بأن يفتحوا هذا الباب، لأن

المعبد ليس بالمكان المعد لاجتماع الجماهير بل هو مقر الإلهة الخاص.

وهنا قال ماتو لسبنديوس: «إن ما تطلبه مستحيل. إنك لم تفكر حق التفكير، فلنعد أدراجنا».

بدأ سبنديوس يتلمّس الحائط، لا لأنه يريد أن يستولي على الحجاب، لاعتقاده بفضله وفضيلته وخصائصه، بل لاقتناعه بأن القرطاجيين سيملكهم الذعر والخيبة إذا ما رأوا أنفسهم محرومين من ذلك الحجاب.

وأخذا يدوران خلف المعبد بحثاً عن منفذ ينفذان منه، فرأيا غابة من شجر البطم يسرح في ظلالها قطيع من الوعول تدفع بقرونها المتشعبة كروز الصنوبر الساقطة من أشجارها.

عاد الرجلان أدراجهما مارّيْن ما بين رواقين طويلين متقابلين على جوانبهما صوامع صغيرة والدفوف والصنوج معلقة على عمد الأرز التي كانت تستند إليها سقوف تلك الصوامع، وكانت هناك نساء يرقدن خارج الصوامع مستلقيات على الحصر، تتصاعد من أجسامهن المدهونة بمختلف الدهون رائحة البقول والمباخر المطفأة، وأجسام مغطاة بالوشوم والقلائد والخواتم والدمالج والكحل، حتى ليحسبهن الناظر أصناماً مطروحة على الأرض لولا الأنفاس التي كانت تحرك صدورهن، وأشجار السدر تحيط بينبوع تسبح فيه أسماك كأسماك سلامبو، وهناك في أقصى المكان كرم من العنب دواليه من الزجاج، وعناقيده من الزمرد، وإشعاعات الحجارة النفيسة ترسم ألعاباً من النور على الوجوه النائمة بين الأعمدة المصبغة.

كان ماتو قد ضاق صدراً من ذلك الجو الخانق الحار الذي يطبق عليه من حواجز الأرز، وتلك الرموز، رموز الإخصاب والتناسل والروائح العطرة والإشعاعات والأنفاس المتصاعدة تنهك قواه، وهو من خلال تلك المظاهر الدينية البراقة يحلم بسلامبو، فقد كانت تتقمص وتذوب في الإلهة نفسها، وكان حبه ينبعث منها كأشجار السدر التي تزدهر بجوار المياه العميقة الغور.

وعاد سبنديوس بذكراه إلى الماضي البعيد، وراح يقول لنفسه «كم كنت كسبت من المال ببيع هؤلاء النساء» كما أخذ يزن بعينيه تلك القلائد الذهبية.

بدا أنَّ المعبد لا ينفذ إلى داخله لا من واجهته ولا من مؤخرته، فرجعا إلى ما وراء الحجرة الأولى، وأخذ سبنديوس يبحث ويتحسس، وجثا ماتو على ركبتيه أمام الباب يضرع إلى «تانيت» ألاّ تسمح بوقوع ذلك الرجس والإثم، ويتوسل إليها بالكلمات الطيبة المحببة، كما لو كان يخاطب شخصاً ثائراً غاضباً.

أبصر سبنديوس كوة صغيرة فوق الباب فأشار إلى «ماتو» بأن يقف وأسنده إلى الحائط واقفاً ووضع إحدى رجليه على يديه والأخرى على رأسه حتى أمكنه الوصول إلى الكوة، فولج فيها، ثم أحس ماتو بحبل يسقط على كتفه فشده إليه واستعان بكلتا يديه حتى التحق بسبنديوس في قاعة كبيرة احتواها الظل.

لم يكن يدور بخلد أحد أن يقدم بشر يوماً على مثل هذه المغامرة الجريئة، ولذلك لم تتخذ الحيطة لمنعها للثقة باستحالة وقوعها، لأن الرعب يحمي المعابد أكثر مما تحميها الجدران، حتى إن ماتو كان يتوقع الموت في كل لحظة لشدة ما أصابه من الخوف.

وكان ينفذ شعاع ضئيل من خلال الظلام فاقتربا منه، وإذا بسراج مشتعل في وسط صدفة على قاعدة تمثال معمم بقلنسوة كالتي يلبسها الإله الكبير، وكان ثوبة الأزرق الطويل مرصعاً هنا وهناك بأقراص من الماس، والسلاسل الغائصة تحت البلاط تربطه بكعبي قدميه إلى الأرض، فكتم ماتو صرخة أوشكت أن تخرج من فيه وتمتم متلعثماً: «آه. هذه هي، هذه هي». وأخذ سبنديوس السراج بيده يضيء المكان، وصاح به ماتو «يا لك من زنديق» ومع ذلك فقد كان يقتفي خطاه.

كانت الحجرة التي دخلا إليها لا تحوي إلاّ طلاء أسود رسمت به امرأة أخرى كانت فخذاها ترتفعان حتى أعلى الجدار، وجسمها يملأ السقف

بأكمله، ويتدلى من سرتها بيضة كبيرة معلقة بخيط، ثم يتصل رسم المرأة بالحائط المقابل من أعلى السرة فيبدو رأسها منكساً وأصابع يديها تكاد تمس البلاط.

نحّى الاثنان بساطاً ليتمكنا من التقدم إلى الأمام فهب الهواء، وانطفأ السراج، فأخذا يسيران على غير هدى تائهين في ما خطته يد الهندسة من أشكال معقدة، وإذا بهما يحسان تحت أقدامهما بشيء ذي ليونة غريبة، يقدم شرراً كأنهما يمشيان على النار، فجسّ سبنديوس الأرض فوجدها مفروشة بأبسطة من جلود الفهود، ثم خيل إليهما أن هناك حبلاً مبتلاً بارداً لزجاً ينسل بين أرجلهما، وكانا يسيران على هدي أشعة بيضاء تتسرب من شقوق في الحائط فتبينا على هديها حية كبيرة سوداء، لم تعتم أن انسلت واختفت. فصاح ماتو: «هيا بنا إلى الفرار. هذه هي. إني أحس بها. إنها في طريقها إلى هنا».

فقال له سبنديوس: «لا، إن المعبد خاوٍ خال».

سطع نور فجأة يبهر بصريهما فغضا جفونهما، ثم أبصرا ما لا عد له من البهائم متجمعة لاهثة مبرزة مخالبها متحفزة مختلطة ببعضها في بلبلة لا تدرك تملأ النفوس رعباً: فهناك حيات ذات أرجل، وثيران مجنحة، وأسماك لها رؤوس كرؤوس الآدميين تزدرد الثمار، وأزهار متفتحة في أشداق التماسيح، وفيلة مرفوعة الخراطيم تشق عباب الفلك الأزرق كأنها نسور، وهذه البهائم تبذل مجهوداً كبيراً لتتوصل إلى قبض أعضائها غير الكاملة أو المتكاثرة، وكانت إذا سلت ألسنتها بدت كأنها تريد أن تلفظ أنفاسها، كان هناك مختلف الأشكال كما لو أن الغلاف الحاوي الجراثيم قد تفتق فجأة فأفرغ محتواه على جدران تلك القاعة.

وفي جنبات القاعة تتدلى دائرياً اثنتا عشرة كرة تحملها مسوخ تشبه النمور حدقاتها بارزة كعيون القواقع، وهي مقعية على أعجازها، تتجه بأبصارها إلى أقصى القاعة حيث تتجلى على مركبتها العاجية الإلهة العليا المخصبة للنسل ذات السلطة المطلقة الكلية القدرة وآخر من أبدع.

كانت الأصداف والأرياش والأزهار والطيور لاصقة بها حتى بطنها، وقرطا أذنيها صنجان من الفضة يلاطمان خديها، وعيناها الثابتتان دائمتا التحديق بالناظر. وقد أثبت على جبينها، بصورة رمزية دنسة فاضحة، حجر نفيس مشع ينير القاعة بانعكاس نوره على مرايا من النحاس الأحمر موضوعة فوق الباب.

خطا «ماتو» خطوة إلى الأمام فتحركت بلاطة تحت قدمه وإذا بالكرات تدور و«المسوخ» تزأر، وارتفعت أصوات موسيقى رخيمة يمازجها دويّ كأنغام الكواكب. كانت تلك نفس تانيت الصاخبة تسيل وتفيض وكأنها ستنتصب واقفة تملأ القاعة، وذراعاها مفتوحتان! ثم أقفلت المسوخ أشداقها، ووقفت الكرات عن الدوران، وتلا ذلك انتقال إلى نغم محزن ارتفع في الجو لحظة ثم ساد الصمت، وتساءل سبنديوس: «أين الحجاب؟» ولم يكن ذلك الحجاب ظاهراً في أي مكان من القاعة «أين هو؟ وما السبيل إلى الاهتداء إليه؟ هل خبأه الكهنة؟».

كان ماتو في الواقع يشعر بخيبة أمل في معتقده وإيمانه ويتمزق في أحشائه.

قال له سبنديوس «من هنا» فمشى وكان الإلهام يقود خطاه، وجرّه إلى ما وراء مركبة تانيت، فأبصرا فجوة مفتوحة في الحائط من أعلاه إلى أسفله، فتسلّلا منها إلى قاعة صغيرة مستديرة عالية السقف كأنها جوف عمود، وفي وسطها حجر كبير أسود نصف كروي بشكل الدف فوقه شعلة من نار ووراءه كرز صنوبر من الأبنوس عليه رأس وذراعان.

وظهر غير بعيد شيء يشبه سحاباً تتألق فيه الكواكب وفي ثنايا طياته رسم أشمون والإله الكبير وبعض المسوخ وحيوانات بابل المقدسة وحيوانات أخرى مجهولة، ذلك الشيء كان يمر كالوشاح تحت وجه الصنم ثم يرتفع منشوراً على الجدار معلقاً بزواياه التي كانت تبدو مزرقة كالليل مصفرة كالفجر أرجوانية كالشمس، عديدة لماعة خفيفة. ذلك هو وشاح الإلهة، الحجاب المقدس الذي ما كان يستطيع أحد أن يراه.

علا وجهيهما الاصفرار وقال ماتو «خذه»، فاستند سبنديوس إلى الصنم وانتزع عنه الحجاب فسقط على الأرض، فوضع ماتو يده عليه وأدخل رأسه في فتحته ثم لفه حول جسده فاتحاً ذراعيه ليزداد تمتّعاً برؤيته والتأمل ببهائه.

وقال سبنديوس: «والآن، فلننصرف».

انتصب ماتو يلهث وعيناه محدقتان في الأرض، ثم قال وكأن خاطراً خطر فجأة بباله: «ولكن ما عليَّ لو ذهبت إليها؟ إني لم أعد أخشى جمالها؟ ما الذي يمكن أن تفعله؟ لقد أصبحت الآن أكثر من رجل. سأقتحم النيران! سأمشي على ماء البحار! إن حافزاً يحفزني. سلامبو! سلامبو! أنا سيدك!».

ودوّى صوته كالرعد وبدا لسبنديوس وكأن قامته قد طالت وكأنه يتجلى. وسمع وقع خطوات تقترب، وفتح باب وبرز منه رجل هو كاهن بقلنسوته العالية وبعينيه المحملقتين، وقبل أن تبدر منه إشارة أطبق سبنديوس عليه وعاجله بضربتين من خنجريه غاصا في خاصرتيه فارتطم رأسه بالبلاط.

وقفا جامدين كجثتين هامدتين ينصتان وقتاً قصيراً فلم يسمعا سوى همسات الريح في مرورها عبر الباب المفتوح بعض الشيء، والباب يؤدي إلى ممر ضيق فسلكاه فأوصلهما إلى الدار الثالثة ما بين الأروقة الجانبية حيث صوامع الكهنة. وقدّرا أن يكون وراء هذه الصوامع مخرج فطريق قصيرة، فجدّا بالسير، وتوقفا عند سبيل الماء، وانحنى سبنديوس ليغسل يديه الملطختين بالدماء، والنساء نائمات، وكرم العنب الزمردي يتلألأ.

شعر ماتو بشخص يتبعه ويشد بذيل الحجاب شدّاً خفيفاً، وإذا به قرد ضخم من تلك القردة التي تعيش طليقة في حظيرة الآلهة، وكأنه قد أحس بوقوع السرقة فسار متمسّكاً بالحجاب. ولم يجرؤ على ضربه خشية أن يزداد صراخاً، وبعد قليل سكن عنه الغضب، فأخذ يمشي خبباً إلى جانبهما وهو يتمايل في مشيته، ويداه الطويلتان متدليّتان، حتى إذا بلغا

الحاجز قفز قفزة فتسلق نخلة.

وحين تجاوزا الدار الأخيرة اتجها إلى قصر هاميلكار ليأس سبنديوس من إمكان إرجاع ماتو عن عزمه. فسلكا إليه شارع الدبّاغين، فميدان «متهمبال»، فسوق العطارين، فمفرق طريق «جيناسين». وفي ركن حائط رأيا رجلاً يعود على أعقابه متقهقراً لما حل به من الخوف لرؤيته شيئاً متألّقاً يخترق الظلام، فأشار سبنديوس على ماتو بأن يخفي الحجاب. وقابلا بعد ذلك أناساً آخرين فلم يفطنوا إليه.

وأخيراً عرفا منازل حي «ميجارا».

كانت المغارة المبنية وراء هذا الحي على قمة مجتمع صخور الشاطئ تنير السماء بضياء مبهر أحمر، وآكام القصر بأسطحه المنضدة تمتد على الحدائق كأنها أبنية هرمية هائلة، فدخلا من مدخل شجر العناب وهما يقطعان بالخنجرين الأغصان التي تعترضهما.

والحق أنَّ آثار وليمة المرتزقة كانت لا تزال بادية على كل شيء، فالخمائل مهشمة، والسواقي ناضبة، وأبواب سجن العبيد مشرعة، وليس من أحد حول المطابخ أو صوامع الغلال. فأخذهما العجب من هذا السكون السائد الذي لا يُسمع فيه إلاّ تصاعد أنفاس الفيلة المتململة في مرابطها وإلاّ طقطقة الأعواد المحترقة في المنارة.

كان ماتو يقول ويعيد القول مراراً وتكراراً: «أين هي؟ أريد أن أراها! سر بي إليها!» ويردد سبنديوس: «هذا محض جنون أيها السيد! ستستنجد فيسرع إليها عبيدها وستقتل رغم قوتك».

حين بلغا السلم ذا الجلفق، المصنوع من مقدمات السفن، رفع ماتو رأسه وكأنه رأى نوراً خفيّاً عذباً يتسرب من الأعلى، وحاول سبنديوس أن يستوقفه ولكنه خف إلى السلم وأخذ يرتقيه.

تعرف إلى الأماكن التي مر بها بالأمس وعاد بخياله إلى الماضي، فسقط من ذهنه حسبان أيام الفترة التي انقضت بين الأمس والحاضر، فرآها ورأى نفسه في يوم الوليمة وهي واقفة تغني بين الموائد ثم تتوارى

عن عينيه، وكم من مرة منذ ذلك اليوم رأى نفسه في الحلم والخيال يرتقي هذا السلم.

رأى السماء فوق رأسه مغطاة بالنيران، والبحر يملأ الأفق، وكلما خطا خطوة كلما اتسع حوله فضاء لا نهاية له، ومع ذلك فهو يرتقي السلم بالسهولة الغريبة التي يحسها الحالم في حلمه.

ذكّره حفيف الوشاح على الحجارة بالسلطة الجديدة التي اكتسبها، ولكن مغالاته بالأمل أنسته ما يجب أن يفعل، وهذا التردّد ذهب بجرأته. ومشى وهو يلصق وجهه حيناً بعد حين على تلك الفتحات المربعة التي تعلو أبواب المخادع المقفلة فيلمح أناساً كثيرين نائمين.

والطابق الأخير، الذي كان أضيق مما تحته، يبدو كأنه قمع الخياط فوق ذرى السطوح، فدار ماتو حوله متمهلاً.

كانت صفائح حجر الطلق التي تسد كوى الجدران المنسقة تبدو في الظلام حبات لؤلؤ صغيرة. وعرف الباب الأحمر ذا الصليب الأسود، فازداد خفقان قلبه، وود لو أمكنه الفرار، ولكنه دفع الباب فانفتح.

شاهد مصباحاً على شكل سفينة يضيء وهو معلق في أقصى المخدع، ومن قاعدته الفضية تنبعث أشعة ثلاثة ترتجف فينعكس ارتجافها على أعالي الجدران المرقشة بطلاء أحمر مقلم بخطوط سود، وكان السقف مشكلاً من مجموعة من العوارض والروافد تحمل، فوق طلائها الذهبي وعند عقد الأخشاب، حجارة كريمة من الجمشت والزبرجد، وعلى أوسع مكان في جانبي المخدع يمتد سرير واطئ معلق بسيور بيض، وفي داخل الجدار الصفيق مشاجب أشبه بصدف الحلزون تدلت منها بعض الملابس حتى الأرض، وهنا درج من العقيق اليماني يحيط بحوض للسباحة بيضوي الشكل، وعلى حافته خفان من جلد الحيات وإبريق من المرمر الأبيض، وهناك أثر أقدام مبلولة في جانب الحوض، ويتصاعد في المخدع نشر روائح زكية.

راح يمس بأطراف أصابعه البلاط الملبس بالذهب والعاج والزجاج،

وعلى الرغم من نعومة الأرض، خيل إليه أن قدميه تغوصان في الرمال. وبدا له وراء المصباح الفضي مربع كبير أزرق اللون معلق في الهواء بحبال أربعة، فتقدم محني الظهر فاغر الفم نحوه.

وكان هناك أجنحة لطيور البحر على أغصان من المرجان الأسود ملقاة بين وسائد الأرجوان، ومجسات الصدف وأحقاف الأرز وملاعق العاج، وكان ملفوفاً على قرون وعول خواتم وأساور، كما كان هناك آنية من الفخار يبرد ماؤها في الهواء وهي موضوعة في فتحة من الحائط على أعراش من الورد، وقد تعثر بخطاه مراراً لأن الأرضية كانت متساوية ما جعل الغرفة وكأنها مجموعة من الغرف المتتابعة، وفي أقصى المكان يقوم جلفق فضي حول بساط منقوش بأزهار مرسومة عليه. وأخيراً وصل جانب السرير المعلق قريباً من موطئة يصعد عليها. ولكن النور لم يكن يصل إلاّ إلى الحافة، ولا يكشف الظل، الممدود كستر كبير، إلاّ عن زاوية فراش أحمر وعن قدم نحيفة عارية ممدودة على الكعب، فتناول ماتو المصباح بلطف وأدناه من السرير.

كانت تنام وخدها على يد ذراع، والذراع الأخرى مبسوطة، وحلقات فرعها منتشرة حولها متراصة بشكل يظن معه أنها تنام على ريش أسود، وقميصها الفضفاض الأبيض ذو النسيج اللين الناعم يمتد نازلاً حتى قدميها بطيات تتناسق مع تثني قامتها. ويبدو القليل من عينيها تحت جفنيها المطبقين بعض الإطباق، وسجف السرير المنشورة عمودياً تغلفها بجو صافي الزرقة، وتتصل نبضات تنفسها بحبال السرير فتبدو كأنها تؤرجحها في الهواء. وكانت هناك بعوضة تطن.

وقف ماتو جامد الحركة ممسكاً بأطراف أصابعه قاعدة المصباح، وإذا بكلة السرير تشتعل وبـ«سلامبو» تهب من نومها.

انطفأت الشعلة من تلقاء نفسها، ولم تنبس هي ببنت شفة، وكان ضياء المصباح يرسل إلى الجدران تموجات من الشعاع.

فقالت:

- «ما هذا الذي أراه؟».

- هو حجاب الإلهة.

فقالت في صرخة استفهام وإنكار:

- حجاب الإلهة!؟ واتكأت على قبضتي يديها ومالت إلى خارج السرير وهي ترتعش.

وأكمل حديثه فقال:

- «لقد ذهبت فأحضرته لك من أعماق المعبد المقدس! انظري». وكان الحجاب يتألق مشرقاً بالأشعة. وأخذ يتمتم: «أما تذكرين أنك كنت تتراءين لي في الحلم ليلاً، ولكنني لم أفطن للأمر الصامت الذي صدر من عينيك - وكانت هي تقدم رجلاً لتضعها على موطئ العاج - ولو كنت فهمت يوم ذاك لأقبلت مسرعاً، وتركت الجيش وأقمت في قرطاجة. أنا على أهبة الهبوط إلى أعماق الظلمات مارّاً بمغارة «هادروميد» إطاعة لأمرك. عفوك عفوك: كنت وكأن الجبال قد أطبقت بثقلها على أيامي، ومع ذلك كان هناك شيء يحفزني ويحدو بي! كنت أحاول أن أجيء إليك! هل كان بإمكاني أن أجترئ بمثل هذه الجرأة لولا الإلهة؟ لنرحل، يجب أن تتبعيني أو أن أبقى أنا هنا إذا لم تريدي اتباعي. وأي حرج في ذلك؟ أغرقي روحي في نسمات أنفاسك! ولتسحق شفتاي وهي تقبل يديك».

- «دعني أنظر إليه! قرّبه مني، زده اقتراباً».

وبزغ الفجر، واكتست صفائح الطلق في النوافذ بلون خمري، وسلامبو تستند وهي خائرة القوى إلى وسائد السرير، وماتو يصيح ويردد: «أنا أحبك».

فتمتمت: «أعطنيه» واقترب واحدهما من الآخر.

تابعت سلامبو الاقتراب منه بقميصها الأبيض الصافي الذيل، وعيناها الكبيرتان عالقتان بالحجاب، ووقف ماتو ينظر إليها مبهوراً بجمال ذلك الرأس، ومد نحوها الحجاب وهو يهم بأن يحتضنها في ضمة إلى صدره،

فأبعدت ذراعيها، ثم توقفت فجأة ولبثا مبهوتين لحظات صامتين يتبادلان النظرات.

لم تسبر كنه ما كان يلتمسه، ولكن الرعب والاشمئزاز تملكاها مع ذلك فعقدت حاجبيها النحيفين وانفرجت شفتاها وهي تنتفض، ثم ضربت على مشجب نحاسي كان إلى جانب الفراش الأحمر وصاحت بملء فيها:

- إلى! إلى! إلى الوراء أيها الدنس الكافر المرذول الملعون! إليّ يا طناش، يا كروم، يا أيو بامبيبسا، يا شاوول!

وأطل وجه سبنديوس المذعور من وراء الجدار بين أباريق الخزف وهو يصيح: «أسرع في الهرب!» وهرول الاثنان مسرعين.

ارتفعت ضجة صاخبة زعزعت درجات السلالم، وأقبل حشد من الناس، نساء وخدم وعبيد، يهرولون إلى المخدع وبأيديهم الحراب والهراوات المدملكة الرؤوس والمدى الطويلة والخناجر، ولما لمحوا رجلاً جمد الدم في عروقهم استنكاراً، وأخذت الجواري يولولن كولولتهن في المآتم، واكفهرت وجوه الخصيان تحت جلودهم السوداء.

كان «ماتو» يقف وراء الأعمدة وهو متوشح بالحجاب كأنه إله من الكواكب يحدق به الفلك من كل صوب. وهمّ العبيد بأن ينقضوا عليه فأوقفتهم قائلة: «لا تلمسوه، فهذا حجاب الإلهة».

وكانت سلامبو قد انزوت في زاوية، ولكنها خطت نحوه خطوة ومدت ذراعها العارية وصاحت به: «لتحل اللعنة عليك أنت يا سارق تانيت! لينزل بك البغض والانتقام والموت والألم! ليمزق جسدك «جرزيل» رب المعارك! وليكتم أنفاسك «ماتيسمان» إله الموت! وليحرقك ذلك الإله الآخر الذي لا يجوز أن يسمّى».

صرخ ماتو صرخة كصرخة الصريع بضربة السيف. وعادت سلامبو تكرر مراراً: «اذهب! اذهب».

وانتحى حشد العبيد ناحية، ومر ماتو بينهم منكس الرأس بخطى وئيدة، ولكنه توقف عند الباب لأن ذيل الحجاب علق بكوكب من تلك

الكواكب الذهبية التي كانت ترصع البلاط، فانتزعه بعنف بحركة من كتفه، وانحدر على السلم.

كان سبنديوس قد أطلق ساقيه للريح هارباً من الحدائق فتخطى السطوح والحواجز والسواقي قفزاً وجرياً حتى وصل إلى أسفل المغارة. وكان السور في هذا المكان مقفراً لصعوبة سلوك معابر الشاطئ الصخري، فتقدم حتى الشفير واستلقى على ظهره ورجلاه إلى الأمام ثم تدحرج على السور حتى بلغ البحر ووصل سابحاً إلى «الحُفر» ثم دار دورة كبيرة حول المستنقعات حتى وصل إلى معسكر البربر عند المساء.

وبزغت الشمس، وسار ماتو وكأنه الأسد الجريح، يقطع الطرق وهو يجيل حوله عينيه المرعبتين، وكان يصل إلى سمعه صوت جلبة صاخبة صادرة من القصر متجددة من بعيد من جهة الأكروپول.

كان الناس بين قائل لقد سرقت كنوز الجمهورية من معبد مولوخ، وقائل لقد قتل كاهن من الكهنة، وشاع في مكان آخر أن البربر قد دخلوا المدينة.

ولمّا كان ماتو لا يعرف كيف يتخطى الحواجز والأسوار، فقد أخذ يسير إلى الأمام لا ينحرف يمنة ولا يسرة، فلمحه الناس فعلت الجلبة، وعرف كلهم حقيقة ما وقع، فبهتوا وصعقوا ثم شملهم الغضب والحنق.

جاء الناس حشوداً من أعالي الأكروپول، ومن المقابر، ومن شواطئ البحيرة، وخرج سراة القوم من قصورهم، والتجار من حوانيتهم، وتركت النساء أطفالهن. تسلّحوا بالسيوف والفؤوس والعصي، ولكن المانع الذي منع سلامبو منعهم هم أيضاً، أجل كيف كان يمكنهم أن يستعيدوا الحجاب، ورؤيته وحدها تعد إثماً، لقد كانت طبيعته من طبيعة الآلهة وملمسه كان مميتاً.

انتصب الكهنة في أروقة المعابد الداخلية يقلّبون الأكف، وقد ملأ اليأس قلوبهم، وأخذ حرس الكتيبة يعدون على خيولهم على غير هدى، وتسلق الناس أسطح المباني ومناكب الأصنام وصواري السفن.

حدث هذا وماتو يتابع سيره فيزداد سير غضبه ويزداد معه أيضاً سير الرهبة والرغبة، والشوارع تقفر عند مروره، وهذا السيل من الناس الهاربين يتدفق

من الجانبين حتى أعلى قمم الأسوار، وهو لا يرى منهم إلاّ عيوناً شاخصة محملقة، كأنها تريد افتراسه، وأسناناً تصرف كأنها تريد تمزيقه، وقبضات أيد تهدد، وكانت ترن في آذانه لعنات سلامبو مضاعفة متضاعفة.

فجأة إذا بسهم يصفر، وبآخر يمرق، وبحجارة تطق، ولكن الرميات لم تكن مسددة خشية إصابة الحجاب ولذا صدفت كلها عنه. وهو يتخذ من الحجاب درعاً تقيه، فيميل به منشوراً تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار وإلى الخلف أو إلى الأمام، وكان يجد في السير سالكاً الشوارع المفتوحة أمامه فيجدها مسدودة عند انتهائها بحواجز من الحبال أو العربات أو الفخاخ، فيضطر عند كل منعرج أن يعود القهقرى، ودلف أخيراً إلى ميدان معبد خامون حيث هلك حملة المقاليع، فوقف وقد امتقع لونه وقفة رجل أيقن من الموت، أجل لا بد من هلاكه في هذه المرة، وأخذ الجمهور يصفق بيديه.

هرع ماتو حتى بلغ الباب الكبير فإذا به مغلق، وكان متناهياً في العلو، مصنوعاً من لباب شجر البلوط، مكسوّاً بالمسامير، ومصفّحاً بالنحاس، فارتمى عليه يحاول دفعه، وتعالى ضحك الشعب لتحققه من عجزه رغم شدة هيجانه، فانتزع عند ذاك نعلاً من قدمه وبصق عليها وأخذ يصفع به مصراعي الباب الجامدين، فضجت المدينة كلها بصيحات الاستنكار والغضب، وتنوسي الحجاب وشأنه وهمّوا بسحقه، فأجال عينيه المغشيتين في الجمهور وصدغاه تنتفضان حتى ليكاد يغيب عن وعيه، وأحس بحذر شبيه بما يصيب السكارى، وإذا به يلمح سلسلة الحديد الطويلة التي كانوا يستخدمونها لإزاحة مزلاج الباب، فقفز عليها وتعلق بها موتراً عضلاته رافعاً رجليه، وأخيراً انفرج الباب الضخم عن أحد شقيه.

ولمّا انسلّ خارجاً أزال الحجاب الكبير عن رقبته ورفعه عالياً ما أمكن فوق رأسه، وساعدت الريح فانتشر الحجاب متألقاً في وهج الشمس بألوانه وحجارته الكريمة وبصور إلهته، واجتاز ماتو وهو يحمله بهذا الشكل طول السهل حتى خيام الجنود، بينما كان الشعب فوق الأسوار ينظر إلى كوكب سعد قرطاجة آفلاً في سمائها.

*

6

حصار أوتيك

عند المساء خلا ماتو بسبنديوس وأخذ يردد: «كان يجب عليّ أن أخطفها! أن أمسك بها وأنتزعها من قصرها. وهل كان بينهم من يجرؤ على مقاومتي؟!».

لم يكن سبنديوس يصغي إليه، إذ كان مستلقياً على ظهره يستريح متلذذاً، وبالقرب منه جرة ملأى بالماء المعسول يميل إليها برأسه من وقت إلى آخر ليشرب علاً بعد نهل.

سأله ماتو: «ما الذي يجب عمله؟ هل من سبيل إلى دخول قرطاجة مرة ثانية؟».

- «لا أعرف».

نفد صبر ماتو لعدم مبالاة سبنديوس بكلامه فصاح به:

- «ويحك، إنما الذنب ذنبك! تقودني بل تجرني جرّاً ثم تتركني! أنت نذل! ولن أطيعك بعد اليوم، أيخيل إليك أنك سيد لي؟ آه منك أيها القواد العبد وابن العبد» واصطكت أسنانه ورفع يده على سبنديوس.

لم يجب الإغريقي. وكان هناك مصباح من الخزف يشتعل إلى جانب عمود الخيمة حيث الحجاب يتألق معلقاً على حاملة السلاح.

وإذا بماتو يحتذي نعليه النحاسيتين ويشبك مشابك سترته ذات النصال الحديدية ويحمل خوذته بيده.

فسأل سبنديوس: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- أنا عائد إلى قرطاجة! دعني! سأجيء بها! وإذا تجمعوا عليّ فسأسحقهم كما تسحق الأفاعي! سأميتها! أجل يا سبنديوس، سأقتلها وسترى ذلك بنفسك.

لكنّ سبنديوس في حقيقة الأمر كان يتنصّت، وإذا به ينتزع الحجاب من مكانه ويلقي به في ركن من أركان الخيمة ويضع فوقه جزة من الصوف.

وسُمعت همسات وسطعت مشاعل ودخل نارهافاس يتبعه نحو ثلاثين رجلاً.

كانوا يرتدون أردية صوفية بيضاء ويحملون خناجر طويلة ويتقلدون قلائد جلدية، وفي آذانهم حلقات خشبية وفي أرجلهم نعال من جلد الضباع. فوقفوا على العتبة متكئين على رماحهم كأنهم رعاة يستريحون.

وبدا نارهافاس أجملهم شكلاً، تزيّن ذراعيه النحيلتين سيور علقت فيها اللآلئ.

كانت الحلقة الذهبية التي تحيط برأسه لتمسك ثيابه الفضفاضة تنتهي بريشة نعام تتدلى وراء كتفه، وابتسامته العريضة تكشف أسنانه، وعيناه تبدوان حادتين كرؤوس السهام، ومظهره كله ينم عن اليقظة والحيوية.

أعلن لتوه أنه إنما جاء لينضم إلى جيش المرتزقة لأن الجمهورية لا تزال تهدد ملكه منذ زمن بعيد، وهكذا فمن مصلحته أن ينجد البربر ويمكنه أن يسدي إليهم نفعاً، ثم أضاف فقال: «سأمدّكم بالفيلة! لأن غاباتي مليئة منها، وبالخمر والزيت والشعير والتمر والزفت والكبريت للحصار، وبعشرين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان. وإذا كنت يا ماتو أوجه الكلام إليك فلأن استيلاءك على الحجاب قد جعلك أول رجال الجيش ولأننا صديقان منذ أمد بعيد».

أظهر ماتو برأسه إشارات الرضا وهو يحدق بسبنديوس الجالس على جلود الغنم يصغي إلى حديث نارهافاس وهو يستشهد بالآلهة ويلعن قرطاجة. وفي أثناء ترديده اللعنات أخذ خنجراً فكسره بينما كان رجاله يخرجون بصوت واحد صراخاً أشبه بالعواء، وثار ماتو فشاركهم في غضبهم وأعلن أنه يقبل بهذا الحلف ويرتضيه.

عند ذاك جاؤوا بثور أبيض وبنعجة سوداء، هما رمزا النهار والليل، فذبحاهما على حافة حفرة، حتى إذا امتلأت غمس الرجلان أيديهما بالدم، ثم بسط كل منهما يده الدامية على صدر الآخر، ثم جدّدا هذا العهد بأن طبعا كفيهما الداميتين على خيامهما، وصرفا الليل وهما يأكلان مع

الجيش، ثم أحرقا فضلات اللحم مع الجلود والعظام والقرون والقوائم.

كان الجيش قد حيّا ماتو بالهتاف العظيم حين عاد وهو يحمل حجاب الإلهة، حتى إن أولئك الذين لا يدينون بالديانة الكنعانية شعروا، وهم يشتركون في الهتاف، أن هناك إلهة أقبلت عليهم، ولم يفكر أحد بالاستيلاء على الحجاب لأن مجرد وقوعه في حوزة ماتو بطريقة سرية كان يكفي، في عرف البربر، ليجعل تلك الحيازة شرعية، وبمثل هذا كان يفكر الإفريقيون. وأما الآخرون فلم تكن بغضاؤهم لقرطاجة متأصلة من قديم، فكانوا لا يدرون أي قرار يتخذون، ولو أن السفن توافرت لديهم لأقلعوا بها عائدين إلى أوطانهم.

أوفد سبنديوس ونارهافاس وماتو الوفود إلى جميع القبائل النازلة في البلاد القرطاجية، فقد كانت قرطاجة تستنفد قواهم فتأخذ منهم الضرائب الفادحة، وكانت السلاسل الحديدية، وقطع الرؤوس بالفأس، أو الصلب، عقاب التأخر في الوفاء بل التذمر والشكوى،وهم مرغمون على زرع ما يطيب للجمهورية زرعه وعلى توريد ما تفرضه،و وليس لأحد منهم الحق بأن يحمل سلاحاً، فإذا ثاروا باعتهم عبيداً، والحاكم يعدّ كمعصرة من المعاصر، قيمتها بما تنتجه، وأما الأقاليم المجاورة غير الخاضعة للحكم المباشر أو الأقاليم الحليفة فلا تؤدي إلاّ جزية ضئيلة.

ووراء هذه الأقاليم يعيش الرحل من القبائل التي كانت قرطاجة تثيرهم وتستعين بهم على حلفائها إذا دعت الحال.

وهكذا فالمحصولات دائمة الإقبال، ونتاج الحيوانات في الحظائر موفور، والمزروعات نامية والخيرات متدفقة.

ولهذه الأسباب مجتمعة علت في روما، بعد اثنتين وتسعين سنة من هذا التاريخ، صرخة جشع وحسد أرسلها ذلك الشيخ الروماني «كاتون»(*)

(*) كاتون الأكبر شيخ روماني اشتهر بعلمه وتقشفه وبغضه وحسده لقرطاجة، كان لا يلقي خطاباً في المجلس إلاّ جعل خاتمته هذه الكلمات المشهورة "Cartaginem esse delendam" «دمروا قرطاجة». قتل في مدينة أوتيك بعد هزيمته في تابسيس..

أعرف أهل زمانه بالزراعة واستغلال الرق، دعا بها مواطنيه إلى تدمير قرطاجة.

ثمّ اشتد عسفها بعد حربها الأخيرة، وتضاعفت طلباتها، حتى أن جميع مدن ليبيا خضعت مختارة إلى القائد الروماني «ريغولُس»(*)، فكان انتقام قرطاجة منها شنيعاً بعد هزيمته، إذ فرضت عليها ألف تالنت(**) من الفضة وعشرين ألفاً من الأبقار وثلاثمائة كيس من الذهب وكمية كبيرة من الحبوب، ثم صلبت زعماء القبائل أو ألقت بهم إلى الأسود.

كانت تونس أشد المدن مقتاً لقرطاجة، فهي أقدم من المدينة الأم، وهي تحسدها على عظمتها وتقف أمام أسوارها جاثية في الوحل على حافة المياه تتطلع إليها وكأنها حشرة سامة، ولم يقو النفي ولا التشريد ولا المذابح والأوبئة على إضعافها، وكانت قد وقفت إلى جانب «أرشغات بن أغاتوكليس» في نضاله، ووجد فيها طاعمو الأشياء النجسة **الأسلحة والعتاد.**

وقبل أن تسافر الوفود عمّ الفرح الأقاليم، فقام سكانها يخنقون وكلاء البيوت التجارية وموظفي الجمهورية في حماماتهم، ونبشوا الأسلحة القديمة المطمورة في الكهوف،و وأخذوا يصنعون السيوف من حديد المحاريث، وأقبل صغار الفتيان يشحذون الرماح أمام الأبواب، وقدمت النساء عقودهن وخواتمهن وأقراطهن، وهب كل يساعد على تدمير قرطاجة، ويسهم بنصيب في ذلك، وبدت حزم الرماح تملأ الضواحي كأنها حزم من الأذرة، وأرسلوا إلى البربر الدراهم والبهائم، وأسرع ماتو فدفع للجند أجورهم بتوجيه من سبنديوس ما دفع بالجيش إلى المناداة به قائداً على البربر.

في الوقت نفسه أخذت نجدات من الرجال تتدفق على الجيش: بدأت برجال من الأمم المستوطنة ثم بعبيد الأرياف، ومرت قافلة من الزنوج

(*) régulus: قنصل روما ٢٥٦ق.م وقائد روماني مشهور أسرته قرطاجة في ما بعد وقتلته شر قتلة.

(**) التالنت: مكيال زنته ٢٦ كيلوغرام.

فاحتجزوها وسلّحوها، ومرّ تجار في طريقهم إلى قرطاجة فانضموا إلى البربر طمعاً بجر كسب أوفر، وهكذا توالى إقبال الرجال على البربر، والقرطاجيون يرون الجيش يتكاثر ويتعاظم من مشارف الأكروپول.

وعلى مصاطب قناطر الماء كان الحرس القرطاجي يقوم بمهمة العسس، وإلى جانبهم، وعلى مسافات متقاربة، طشوت نحاسية مليئة بمذاب الأسفلت، وفوق السهل كانت حشود البربر تروح وتجيء صاخبة ضاجة قلقة تشعر بهذا التردد الذي كانت رؤية الأسوار القائمة تملأ به نفوسهم.

أبت مدينتا «أوتيك» و«هيبوزريت» أن تتحالفا مع البربر لأنهما كانتا كقرطاجة مستعمرتين فينيقيتين، ولكنهما كانتا تتمتعان بحكمهما الذاتي، وكانتا ـ في كل معاهدة تعقدانها مع قرطاجة ـ تحرصان على التنويه باستقلالهما عنها، ولكنهما مع ذلك كانتا تحترمان هذه الشقيقة الكبرى التي تحميهما، ولم يكن يخيل إليهما أن البربر لهم من القوة ما يتغلبون بها على قرطاجة، بل أيقنتا بأنها ستمحقهم محقاً، وهكذا آثرتا أن تظلا محايدتين وأن تعيشا في هدوء وسلام.

بيد أنَّ موقعهما الجغرافي جعل منهما مدينتين لا غنى للمتحاربين عنهما، فأوتيك الواقعة في أقصى الخليج فرضة تصلح لجلب الأمداد من الخارج، وإذا استولى العدو على أوتيك وحدها حلّت هيبوزريت محلها لأنها هي أيضاً على الشاطئ ولا تبعد إلاّ ست ساعات عن قرطاجة، وهكذا يتيسر للمدينة الأم أن تجلب المؤن من طريقها فيستحيل فتحها.

ورغب سبنديوس في أن يعجل في ضرب الحصار على المدينة فعارضه في ذلك نارهافاس، لأنه رأى الخطة المثلى أن يتقدم الجيش نحو الحدود فيكتسح البلاد، فوافقه على ذلك ماتو وقدماء المحاربين، فقر الرأي على أن يهاجم سبنديوس أوتيك، وماتو هيبوزريت، وأن يستند الجيش الثالث إلى تونس ويظل محتلاً لسهول قرطاجة. وعهد بقيادة هذا الجيش إلى أوتاريت، كما وافقوا على أن يعود نارهافاس إلى مملكته ليجهز الفيلة

ويقطع الطرق بفرسانه.

علت أصوات النساء استنكاراً لما تقرّر لأنهن كنّ يطمعن بالاستيلاء على جواهر النساء القرطاجيات، وكذلك أبدى الليبيون استياءهم لأنهم إنما انضموا إلى الجيش ليفتتحوا قرطاجة، لا ليجوبوا في أطراف البلاد، ولكن أفراد الجند وحدهم تركوا الجيش، فأصبح ماتو يقود رفقاءه منضمّاً إليهم جماعات الأيبيريين واللوزيتانيين ورجال الغرب والجزر، وأما الناطقون بلغة الإغريق فقد طلبوا الالتحاق بجيش سبنديوس لسعة حيلته وخفة روحه.

وانطلق الجيش فانتشر تحت جبل «أريان»، وسار في طريق أوتيك، إلى جانب البحر، وترك فرقة منه في تونس، واختفت فرقته الأخرى ثم عادت فظهرت على الشاطئ الآخر من الخليج في ظاهر الغابة، ثم تغلغلت فيها فتوارت عن العيان.

كان عددهم ثمانين ألفاً على وجه التقريب، يسيرون والأمل يحدوهم، وكلهم واثق من أن المدينتين الصوريتين لن تصمدا في وجوههم، وأنهم لن يمكثوا طويلاً حتى يعودوا إلى فتح قرطاجة، وقد تركوا أمامها جيشاً قوياً يحتل البرزخ والثغور فيقطع عنها الأمداد، فهي إذاً هالكة لا محالة، لأنها لا تستطيع الحياة إلاّ بمعونة الأقاليم وبما تجبيه منها، فأهلها لا يساهمون بدفع ضرائب كما هي الحال في روما.

إلى ذلك كانت قرطاجة تفتقد الفراسة السياسية، فهي لا هم لها إلاّ جني الأرباح، وهذا الذي فوت عليها التبصر بعواقب الغد. كانت سفينة ألقت مراسيها على الرمال الليبية بين أمم كثيرة توالى حولها الهدير، حتى إذا استحالت إلى عاصفة، ولو ضعيفة، زعزعت أركان تلك الآلة الضخمة.

كانت أموال الخزينة قد أوشكت أن تنفد لما أُنفق منها على الحرب ضد الرومان، ولما تبعثر منها أو ضاع في المساومات مع البربر، وكان لا بد لقرطاجة من الجنود، وما من حكومة تثق بالجمهورية: ألم يبخل عليها بطليموس بقرض ألفي تالنت؟ ومن جهة أخرى فإن خطف الحجاب من

الهيكل ثبط عزيمة الشعب كما توقع سبنديوس.

غير أنَّ هذا الشعب الذي كان يشعر ببغض الشعوب إياه كان يضم إلى قلبه ماله وآلهته، وأما وطنيته فلا يغذيها إلاّ شكل تكوين حكومته. والذي يجدر ذكره أن السلطة كانت بيد الجميع دون أن يكون لأحد من الجماعة سلطة بالغة من القوة حدّاً يمكنه من الاستئثار بالحكم، وكانت الديون الشخصية الخاصة تعتبر كالديون العامة، وحق الاتجار محتكراً بيد المولودين من أصل كنعاني، والواحد منهم يبلغ الغنى بضم ما يجمعه من مال القرصنة إلى أر باح الربا إلى نتاج استغلال الأرض والأرقاء والفقراء استغلالاً مقيتاً، وكانت الثروة وحدها السلم إلى القضاء والرياسة، وكانوا لا يرون بأساً بتحكم الأفراد، ولو أن السلطة والمال كانا قد تجمعا على مر السنين بأيدي أسر معدودة لأن كلاًّ من أفراد الشعب كان يأمل أن يبلغ يوماً ما بلغته تلك الأسر من الغنى والجاه.

وكانت شركات التجار هي التي تسن القوانين وتختار مفتشي المالية، وهؤلاء يعينون مجلس القدماء المائة الذين هم أعضاء أيضاً في المجلس الكبير، وهو الجمعية العمومية لجميع الأغنياء، وأما الزعيمان أو «بقايا الملوك» فهما دون القناصل سلطة، ينتخبان من أسرتين منفصلتين، ويحرصون على أن يفرقوا بينهما بجميع أنواع التفرقة والبغضاء لكي يضعف الواحد منهما الآخر، فإذا هزما في حرب يتولى المجلس الكبير صلبهما.

كما كانت قوة قرطاجة تصدر عما يسمونه «السيسيت» وهو حوش كبير في قلب حي «مالكا»، يزعمون أنه واقع في المكان نفسه الذي رسا فيه فلك البحارة الفينيقيين الأول، لأن البحر قد انكمش كثيراً عن الشاطئ منذ ذلك التاريخ. وفي هذا الحوش مجموعة من الحجرات ذات الطابع الهندسي القديم، مبنية بجذوع من النخل تجمعها حيطان من حجر، وكل حجرة منها مستقلة بنفسها لكي تتمكن كل شركة من الاجتماع على انفراد. والأغنياء يجتمعون فيها كل يوم ليتناقشوا في أمورهم الخاصة وفي

شؤون الدولة، سواء أكان الأمر متعلقاً بالبحث عن التوابل أو عن تدمير روما.

وكانوا يصعدون أسرّتهم على ثلاث مرات في كل شهر قمري على السطح العالي المطل على الحوش فيأكلون في الهواء الطلق دون أحذية ولا أردية، فيرى الناظر إليهم من أسفل أصابع حليت بخواتم الماس تمر على اللحوم، وآذاناً علقت فيها الأقراط الكبيرة تنحني على الأباريق الرخامية البيض، وكلهم قوي سمين نصف عار سعيد ضاحك يأكل وهو وسط الأديم الأزرق كأنه حوت ضخم يلهو ويمرح في البحر.

ولكنهم اليوم لا يمكنهم إخفاء ما بهم من قلق، فكلهم شاحب اللون، والشعب الذي ينتظرهم على الأبواب يسير يحرسهم حتى أبواب قصورهم طمعاً باستجلاء خبر ما.

كانت جميع الأبواب موصدة كأيام وباء الطاعون، وجميع الشوارع تمتلئ حيناً ثم تقفر، هؤلاء يصعدون إلى الأكروبول، وأولئك يهرعون نحو البحر، والمجلس الكبير يعقد جلساته كل ليلة للتشاور والتداول، وأخيراً دعي الشعب إلى التجمع في ميدان خامون، وهناك صدر القرار بتفويض الأمر إلى هنون بطل هيكاتومبيل. وهذا الرجل متعبد ماكر لا تأخذه رحمة بالإفريقيين، وقرطاجي لا شك فيه، ودخله يعادل دخل آل بركا، ولم يكن لأحد ما له من الخبرة في شؤون الإدارة. فأصدر للتو أمراً بتجنيد جميع المواطنين الأصحاء ووضع المنجنيقات على جميع الأسوار، كما أمر بتخزين كميات هائلة من الأسلحة، وببناء أربع سفن جديدة لم تكن الحاجة داعية إليها، وفرض تسجيل كل شيء كتابة، وأخذ يكثر التردد على مصنع الأسلحة والميناء ومستودعات كنوز الآلهة، فاتخذ محفة رفعت له تتمايل يمنة ويسرة في صعوده الدار وفي رقيّه سلالم الأكروبول.

وكان في الليل، في قصره وهو ساهد، بعد العدة للمعركة فيصدر التعليمات الحربية بصوت أبح مخيف أشبه بالنباح.

أضحى الناس كلهم شجعاناً لكثرة ما استولى عليهم من الرعب، وكان

الأغنياء مع صياح الديك يصطفون صفوفاً على طول «مابال» ويشمرون عن سيقانهم متمرنين على الطعن بالحراب، ولكنهم كانوا يتشاحنون إذ لم يكن لهم معلم، أو يجلسون لاهثين على القبور، حتى إذا استراحوا عادوا إلى التمدد. وكثير غير هؤلاء فرضوا على أنفسهم نظاماً للطعام، فأخذ بعضهم يكثر الأكل لظنه أن بالأكل تزداد القوى، وامتنع الآخرون عن الطعام ليزيلوا ما بهم من سمنة فأعياهم الصيام.

استنجدت أوتيك مراراً بقرطاجة، ولكن هنون لم يشأ أن يهب إلى نجدتها قبل أن يتم وضع آخر مسمار في معدات القتال، فأضاع هكذا ثلاثة أشهر قمرية ليجهز الفيلة المائة والاثني عشر التي كانت تبيت وراء الأسوار، وتلك الفيلة هي التي هزمت جيش ريغولس، فالشعب يحبها ولا يضن عليها بشيء، فأمر هنون بإعادة صهر الصفائح الحديدية التي تزيّن صدورها، وبتذهيب أنيابها، وتوسيع معالفها، وتفصيل أغطية أرجوانية لها تكون أجمل الأغطية مزركشة بشراريب ثقيلة. ولما كانوا يسمون قادة الفيلة هنوداً فقد أمر بأن يرتدي هؤلاء القادة ملابس على الزي الهندي: شريط أبيض تتعصّب به رؤوسهم حول أصداغهم، وسراويل من الحرير الهندي تبدو طياته المخيطة بالعرض على أفخاذهم أشبه بقشرتي صدفة.

استمرّ جيش أوتاريت قابعاً أمام تونس مختبئاً وراء سور، حجارته من وحل البحيرة، فرشت أعاليه بالشوك، وأثبت الزنوج في مواضع مختلفة منه حواجز طويلة، وأشكالاً مخيفة، كوجوه مصطنعة لرجال صنعت بريش الطيور، أو رؤوس لبنات آوى، أو لحيات وجّهت نحو العدو وهي تتمطى وتتثاءب لتخيفه لاعتقادهم أنهم بهذا يأمنون شر الهزيمة، وعكف البربر على الرقص، والمصارعة، والمبارزة بالخناجر، واثقين أن قرطاجة لن يتأخر دمارها.

ولو كان الأمر لغير هنون لما توانى في سحق هذه الجماعة التي كانت قطعان النساء تعرقل حركاتها، والتي تجهل كل شيء من فنون الحرب، ولا تخلى عن نجدة أوتيك التي يئست من نجدة هنون لها فلم تعد تطالبه بشيء.

كانوا إذا مر أوتاريت برجاله وهو يقلب فيهم عينيه الزرقاوين أفسحوا له في الطريق فيمشي حتى البحيرة ثم يخلع سترته المصنوعة من وبر كلب البحر، ويفك الحبالة التي يربط بها شعر رأسه الأحمر ويغمسهما بالماء، وقلبه مليء أسفاً لعدم فراره من الجيش والتحاقه بالرومان مع المائتي غولي التابعين لمعبد إيركس.

وكثيراً ما يحدث أن الشمس تحتجب وراء الغيوم في النهار، فيبدو الخليج وسطح البحر كأنهما في سكونهما الرصاص المذاب، وتمر غيوم من الغبار الأسمر معترضة في الأفق، وتهبّ على الأرض عاصفة، فتلتوي أشجار النخل ويختفي أديم السماء ويسمع صوت الحصى وهي تثب من الأرض إلى ظهور الحيوانات، فيرى ذلك الغولي محشرج الصدر من الإعياء والشكاية، وشفتاه ملتصقتان بثقوب خيمته. لقد شاقه الحنين إلى استنشاق شذا المراعي في صباح أيام الخريف، وهو يحلم بكرات الثلج المتساقطة، وعجيج أبقار الغول الضالة بين السحب المتراكمة. ثم يغمض عينيه فيخيل إليه أنه يلمح نيران الأكواخ الطويلة المغطاة بالقش تلمع مرتجفة على مياه المستنقعات في أعماق الغابات.

كان كثيرون غيره يحنون إلى أوطانهم، ولو أنها غير بعيدة هذا البعد. أولئك هم الأسرى القرطاجيون الذين كان يمكنهم أن يتعرفوا من بعيد إلى ستائر منازلهم المنشورة في الدور، ولكن الحراس يقلقونهم بلفهم ودورانهم. لقد ربطوا جماعة بسلسلة واحدة ووضع طوق حديدي في عنق كل منهم، ولم ينِ الجند ولا تعبوا من الإقبال على التحديق بهم، والنساء يرين صغارهن تلك الثياب الجميلة وقد أصبحت أطماراً رثة تتدلى بين أعضائهم الهزيلة. وكلما نظر أوتاريت إلى جيسكون كلما أخذه الحنق لذكرى الإهانة التي لحقته منه، ولولا العهد الذي أخذه عليه نارهافاس لأنزل به الهلاك. وكان يعود إلى خيمته فيشرب مزيجاً من عصير الشعير والكمون حتى يكاد لبه يطير من السكر، ثم يصحو عند الضحى وقد أجهده العطش.

شدّ ماتو الحصار على «هيبوزريت»، ولكن المدينة كانت محمية بحيرة تتصل بالبحر، ولها ثلاثة خطوط من التحصينات، وعلى مشارفها سور متين محصن بالأبراج. ولم يسبق لماتو أن تولى مشروع أعمال الحصار، فضلاً عن شرود فكره واتجاهه إلى سلامبو آناء الليل وأطراف النهار، فهو حالم في ملذات جمالها، ولكنها ملذة شبيهة بلذة الانتقام تملأ نفسه كبرياء، وهو في حاجة إلى العودة للقائها، ولكنها حاجة مرة الطعم ثائرة ملحة دائمة. وحدّث نفسه أن يتطوّع كرسول لمفاوضة قرطاجة لعله يتمكن من الوصول إليها إذا دخل المدينة، وكثيراً ما كان يأمر بالنفخ في الأبواق إيذاناً بالهجوم، ولكنه كان لا ينتظر تجمع الجيش بل يسرع إلى الرصيف الذي كانوا يبنونه على البحر، فيأخذ باقتلاع الحجارة بيديه وينشر الاضطراب ويضرب بسيفه، فيغوص هنا وهناك، ويترامى الجند متكدسين، بلا نظام، وتتكسر السلالم وتقرقع، وتتساقط جماعات الرجال إلى البحر فيتطاير رشاشها الدامي على الأسوار، ثم تضعف الجلبة ويبتعد الجند ليعودوا إلى ما كانوا عليه.

ويمضي ماتو إلى الخيام فيجلس خارجها وهو يمسح بيده وجهه الملطخ بالدم، ويتجه بباصرتيه نحو قرطاجة وهو ينظر إلى الأفق. وأمامه، بين أشجار الزيتون والنخل والآس والدلب، ينبسط مستنقعان واسعان يتصلان ببحيرة أخرى لا يلم البصر بمحيطها، ووراء جبل أول تبدو جبال أخرى، وفي وسط البحيرة، المترامية الأطراف، جزيرة قاتمة السواد ذات شكل هرمي، وفي أقصى الخليج على اليسار كثبان رملية شبيهة بأمواج كثيفة غير متحركة، وأمامها البحر المنبسط كبساط من البلاط اللازوردي يرتفع بأمواجه إلى عنان السماء. وكانت خضرة الحقول تختفي هنا وهناك تحت بقع صفر وسيعة، وذرى أشجار الخروب تلمع كأنها حبات مرجان، وأغصان دوالي العنب تتدلى من قمم أشجار الجميز، والماء يسمع خريره، والقنابر المتوجة الرؤوس تقفز وتتهادى، وآخر أشعة للشمس الغاربة تطلي بالذهب دروع السلاحف الزاحفة من ثنايا الخيزران لتستنشق النسيم العليل.

انبطح ماتو على بطنه وأخذ ينفث التنهدات ويشد بأظفاره على الأرض ويبكي، ويأخذه الشعور بأنه بائس حقير طريد، لأنه لن يحوزها، ولا هو قادر على التغلب حتى على مدينة.

وكان إذا خلا في الليل بنفسه في خيمته يتأمل في الحجاب ويسائل نفسه «أي نفع جنيته من هذا الشيء الإلهي؟». ويتسرب الشك إلى الرجل البربري، ثم يبدو له بأن الحجاب هو شيء من سلامبو، وأن بعضاً من نفسها يخفق فيه أخف من الأنفاس، فيقبل على الحجاب يلمسه ويتحسسه ويمسحه ويغوص فيه بوجهه ويقبّله وهو يصعّد الزفرات، ثم يغطي به كتفيه ليمنّي نفسه ويحملها على الاعتقاد بأنه إلى جانب سلامبو.

وكثيراً ما ترك المعسكر فجأة وسار على ضوء الكواكب يتخطى الجنود النيام الملتحفين بأرديتهم، حتى إذا وصل إلى أبواب المعسكر امتطى جواداً وشدّ في السير حتى يبلغ بعد ساعتين أبواب أوتيك، فيترجّل أمام خيمة سبنديوس، ويأخذ يحدثه بحديث الحصار، ولكنه لم يقدم عليه إلاّ ليخفف ألمه بالحديث عن سلامبو، فيحثه سبنديوس على التمسك بأسباب الحكمة ويقول له: «اربأ بنفسك عن هذه السخافات التي تشينك، لقد كنت في ما مضى مطيعاً فأصبحت اليوم قائداً للجيش آمراً مطاعاً، وإذا لم نفتح قرطاجة فسنعطى على الأقل بعض الأقاليم فنصبح ملوكاً».

أبدى ماتو دهشته من أن حيازة الحجاب الإلهي لم توفر لهم النصر، فنصحه سبنديوس بالتمهل والتريث.

بيد أنّ ماتو كان يفكر تفكير البربري الحاذق فيقول لنفسه: «إن الحجاب لا ينفع إلاّ الرجال الذين هم من أصل كنعاني، وعلى كل حال إذا كان لا ينفعني فإنهم، وقد خسروه، لا يمكنهم هم أيضاً أن ينتفعوا به».

وداخله بلبال من اعتقاده بأنه ـ وهو الليبي ـ لو عبد «إيتوكنوس» إله ليبيا لأغضب «مولوخ» إله الكنعانيين، فأفضى ببلباله إلى سبنديوس وهو خجل من قوله، فقال له سبنديوس وهو يضحك: «ضح لهذا أو ذاك» فلم يفهم ماتو مغزى كلامه، وظن أن الإغريقي يعبد معبوداً لا يود أن يفصح عنه.

كانت جميع العبادات ومختلف الأجناس تلتقي وتجتمع في هذا الجيش الذي يحترم الآلهة لخوفه منها. وكان الكثير من أفراده يخلطون بديانتهم الأصلية عادات غريبة عنها، فهم وإن لم يعبدوا النجوم مثلاً فإنهم يقدمون مع ذلك الذبائح لهذا الكوكب أو ذاك استدراراً لنفعه أو اتقاء لضره، وإذا وجدوا مصادفة خيمة في ساعات الخطر أصبحت تلك الخيمة إلهة، وكثيراً ما كانوا يعبدون أسماء يكررون ذكرها دون أن يعرفوا حقيقة مراميها، ولكنهم لكثرة ما نهبوه من المعابد ورأوه من الأمم وشهدوه من المذابح أصبح أكثرهم لا يعتقد إلاّ بالقضاء والقدر والموت، وهكذا كانوا ينامون في كل ليلة بهدوء الوحوش الضارية وعدم مبالاتها، ومن الممكن مثلاً أن يبصق سبنديوس على صور جوپيتر إله الألمب، ولكنه كان يحاذر أن يتكلم بصوت عال وسط الظلمة، ويحرص على أن يلبس نعليه مبتدئاً بالقدم اليمنى.

وكان يقوم ببناء مصطبة طويلة مربعة الزوايا أمام أسوار أوتيك، فكان كلما ارتفعت كلما ارتفع السور أيضاً، وكلما هدم جزء كلما أُعيد بناؤه، وكان يحرص على استبقاء قوى رجاله، ويحلم بالخطط الحربية، ويجتهد أن يذكر الخطط والحيل الحربية التي سمع الناس يتحدثون بها في أثناء أسفاره.

هذا والقلق سائد لتاخر نارهافاس عن الرجوع، والجند يتساءلون: «لِمَ لم يعد بعد؟».

أنهى هنون تجهيزاته، وفي ذات ليلة ظلماء غير قمراء اجتاز خليج قرطاجة على أطواف مع جنده وفيلته، وداروا وراء جبل المياه الساخنة ليجتنبوا «أوتيك»، وبلغ تباطؤهم بالسير حدّاً عاقهم عن التوصل إلى مفاجأة البربر صباحاً كما كان قدّر هنون فلم يصلوا إلاّ في ضحى اليوم الثالث والشمس قد مدّت أشعتها. وتتصل أوتيك بجهة الشرق بسهل يمتد حتى مستنقع قرطاجة الكبير، ووراء هذا السهل ينفرج بزاوية مستقيمة واد بين جبلين منخفضين. وكان البربر قد ضربوا خيامهم بعيداً إلى جهة اليسار

ليتمكنوا من قطع المدد عن الميناء ومن تطويقه، وكانوا نياماً حين بدا لهم جيش قرطاجة من منعرج التلال: فعلى الجناحين وعلى مسافات متباعدة حملة المقاليع، وحرس الكتيبة بشكات أسلحتهم المذهبة يؤلفون الصف الأول، وتحتهم جياد بدون نواصي ولا وبر ولا آذان، وبين أعينهم قرون من فضة ليصيروا بها أشباه وحوش الكركدن، وبين فصائلهم فتيان تعلو رؤوسهم خوذ صغيرة، وفي كل يد من أيديهم حربة من شجر الدردار، ووراءهم حملة المزاريق الطوال من فرقة المشاة الثقيلة، وهؤلاء التجار قد كدسوا فوق أجسامهم ما أمكنهم حمله من الأسلحة، فكان الواحد منهم يرى حاملاً بوقت معاً رمحاً وفأساً وهراوة وحربتين، والآخر جسمه كجسم القنفذ شاكي السهام في كل موضع، وقد تباعدت ذراعاه عن درعه المصنوعة من نصال القرون أو من صفائح الحديد، ووراء جميع هؤلاء سقالات أدوات الحصار العالية من المناجيق والأكباش وغيرها محمولة على مركبات نقل تجرها البغال وأربعة صفوف من الثيران. وكلّما تقدم الجيش وتجمّع كلما اضطر الضباط إلى الجري هنا وهناك وهم يلهثون لكي يبلّغوا الأوامر وينظموا الصفوف ويحافظوا على الاتصال بين الوحدات، وكان أعضاء مجلس القدماء المؤمرين على الجيش قد صحبوه وهم يلبسون خوذاً من الأرجوان كانت شراريب أذيالها تعلق في سيور أحذيتهم النحاسية، ووجوههم المصبغة بالزنجفر تلمع تحت تلك الخوذ الضخمة التي تعلوها رسوم الآلهة، وحواشي تروسهم العاجية مغطاة بالحجارة الكريمة وكأنهم شموس تمر على جدران من نحاس أصفر.

وقد بلغ ثقل مناورات القرطاجيين وبطئهم في التقدم مبلغاً حمل جند البربر على الاستهزاء بهم، فأخذوا يدعونهم إلى الجلوس ليستريحوا، ويهددونهم بأنهم سيمزقون بعد قليل بطونهم ليفرغوا ما فيها، وأنهم سيغسلون غبار الذهب العالق بأجسامهم وسيسقونهم الرصاص المذاب.

فجأة ظهرت في أعلى العمود المنصوب أمام خيمة سبنديوس قطعة من القماش الأخضر، تلك كانت إشارة بدء القتال. وردّ جيش القرطاجيين

بقعقعة من أصوات الأبواق والصنوج والسناطير(*) والشبّابات المصنوعة من عظام الحمير. وقفز البربر خارج حواجز الأوتاد وأصبح الجيشان وجهاً لوجه وعلى مرمى الحراب.

تقدّم أحد رماة حجارة المقاليع من الباليار خطوة ووضع في سير جلد مقلاعه قذيفة من الحجارة الخزفية، وأدار ذراعه ورمى فسمع صوت كسر ترس من عاج، والتحم الجيشان، وأخذ جنود الإغريق ينخزون خياشيم الخيل بأسنة رماحهم فانقلبت وداست فرسانها، وكانت الحجارة التي حملها العبيد معهم لرميها بالمقاليع كبيرة الحجم فكانت تتساقط قريباً منهم.

وبدأ مشاة قرطاجة يضربون بسيوفهم الطويلة جوانب جيش البربر فانكشفت ميمنتهم، واخترق البربر صفوفهم وأخذوا يذبحونهم بالسكاكين ويتعثرون بجثث القتلى والمنازعين، والدم المتفجر منهم يملأ الوجوه ويعمي الأبصار، وتلك الكتل المتراصة من الرماح القصيرة والخوذ والدروع والسيوف وأعضاء الجسم المبتورة كانت تدور على نفسها لترتمي على الحضيض. وبدا الفراغ في صفوف زمر القرطاجيين، وأصبحت أدواتهم الثقيلة مغروزة في الرمال لا يمكن تحريكها، وسقطت المحفة التي كانت ترى منذ بدء المعركة تتمايل بين الجنود كأنها زورق تحمله الأمواج، وإذا بالبربر يجدون أنفسهم وحدهم.

راح غبار المعركة ينجلي، وأخذ البربر يغنون، وإذا بهنون يبدو بنفسه معتلياً ظهر فيل من الفيلة، حاسر الرأس تحت مظلة من الحرير الهندي يحملها زنجي يقف وراءه، وقلادته ذات الصفائح الزرق تلاطم الأزهار المرسومة على ردائه، وذراعاه النحيفتان تعض فيهما أساوره الماسية. وكان فاغر الفم شاهراً مزراقاً متناهي العرض والطول يلمع رأسه لمعان زهر السدر المتفتح، فارتجت الأرض، ورأى البربر فيلة قرطاجة مقبلة بصف واحد بأنيابها المذهبة وآذانها المصبغة بالأزرق وأغطيتها النحاسية

(*) السَنطور والسِنطير: آلة طرب كالقانون أوتارها من نحاس (يونانية).

وفوق ظهورها تتهادى أبراج جلدية حمراء قرمزية في كل منها ثلاثة نبالين يحملون أقواساً كبيرة موترة.

وفوجئ البربر وهم لا يكادون يحملون سلاحاً وصفوفهم غير منتظمة، وتملّكهم الرعب فجمدوا حيارى مترددين.

اندفع النبالون يرمونهم من أعلى الأبراج بالحراب والنبال وكتل الرصاص، وحاول البعض أن يتسلقوا ظهور الفيلة متشبثين بأذيال سروجها، فتقطعت أيديهم تقطيعاً بالمدى الطويلة، وانقلبوا على الحضيض وبأيديهم حرابهم المرفوعة، وكانت الرماح الرخوة تتكسر، والفيلة تخترق الكتائب كما تخترق الخنازير البرية خصل الأعشاب، وتقتلع أوتاد المعسكر بخراطيمها، وتتمشى فيه من أدنى إلى أقصى دافعة الخيام بصدورها.

وفرّ البربر كلهم واختبأوا في التلال المحاذية للوادي الذي سلكه القرطاجيون عند مجيئهم، وتقدم هنون الظافر نحو أبواب أوتيك، وأمر أن ينفخ في الأبواق، فظهر قضاتها الثلاثة في أعلى أحد الأبراج في اتجاه الخليج الذي تشرف عليه نوافذ الحصون.

لكنّ أهل أوتيك تمنّعوا عن السماح بالدخول لضيوف شاكي السلاح، فغضب هنون وقبلوا بعد جهد أن يدخل المدينة مع حرس قليل. وكانت الشوارع لا تتسع لمرور الفيلة فتركت في الخارج.

وما إن استقر الزعيم القائد في المدينة حتى أقبل أولو الأمر فيها لتحيته، وطلب الذهاب إلى الحمام واستدعى طهاته إليه.

بقي هنون ثلاث ساعات غائصاً في زيت الدارصيني الذي كان يملأ الحوض، وكان يأكل في الحوض على جلد بقر ممدود ألسنة طيور البحر مع حب الخشخاش المتبّل بالعسل، وإلى جانبه طبيبه الخاص بجلبابه الأصفر وهو يقوم بتسخين الحمّام من وقت إلى وقت، وأمامه غلامان منحنيان على درج الحمام يدلّكان فخذيه، وعنايته بجسده لم تحل بينه وبين الاهتمام بالشؤون العامة، فقد كان يملي كتاباً للمجلس الأعلى وهو

حائر متردد بأمر العقاب الشنيع الذي يجب أن يوقع بالأسرى، فقال للعبد الذي كان يكتب على راحة كفه وهو واقف:

- «تمهّل، جيئوني ببعض هؤلاء الأسرى، فإني أريد أن أراهم».

جرّ الحرس إلى القاعة المليئة بالبخار الأبيض بين المشاعل الباعثة بأنوارها الحمر ثلاثة من البرابرة: سمنيّ، وسبارطي، وكابادوسي.

قال هنون لعبده وكأنه لم ير الأسرى: «عد إلى الكتابة».

- «افرحوا يا أنوار البعول، فإن قائدكم قد أفنى الكلاب الجائعة. تباركت الجمهورية، أقيموا الصلوات». ولمح الأسرى فقهقه ضاحكاً وقال: «آه. آه يا شجعان سيكا! إن أصواتكم اليوم لم تعد ترتفع بالصراخ مثل ما كانت ترتفع هناك! ها أنا ذا! فهل عرفتموني؟ أين هي سيوفكم؟ يا لكم من رجال مرعبين. أجل. أجل!» وتظاهر بإخفاء وجهه كما لو كان خائفاً منهم.

«كنتم تطلبون خيولاً ونساء وأرضاً ووظائف في سلك قضاء ودرجات كهنوتية! ولم لا؟ سأعطيكم أرضاً لن تخرجوا منها أبداً، وسأزوجكم من مشانق جديدة! وأما مرتباتكم فسأذيبها في أفواهكم سبائك من الرصاص، وسأرفعكم إلى منازل متسامية في العلو بين السحب لتحلّقوا مع النسور!».

كان البرابرة الثلاثة ينظرون ولا يفهمون ما يقول، وهم طوال الشعور تغطي أجسامهم الأطمار البالية. لقد أصابتهم جراح في ركبهم فرموا عليهم حبائل اقتنصتهم فوضعوا بأيديهم سلاسل غليظة تجرر أطرافها على بلاط الحمام. واستشاط هنون غضباً لرباطة جأشهم فصاح بهم:

- اركعوا، اركعوا يا بنات آوى يا تراب الأرض وروثها وقذارتها! من المدهش أنهم لا ينبسون ببنت شفة! كفى كفى. هيا اسلخوهم أحياء. لا، سأرى الرأي فيهم بعد قليل!

وراح ينفخ كجاموس بحر وهو يقلب بعينيه، والزيت المعطر يفيض من الحوض تحت كتلة جسمه الضخم فيلتصق ببثوره وقروحه، وأنوار

المشاعل تحيل لونه إلى وردي. ثم أردف فقال:

ـ لقد كوتنا الشمس بأوارها طوال أربعة أيام وخسرنا أربعة بغال تاهت في ممر ماكار. آه يا بادموندياس! كم أتعذب! هيا جهّز الحمام حتى يحمر!

ارتفعت أصوات الملاقط وأزيز نار الأفران وتصاعد دخان البخور كثيفاً في المباخر. وأخذ المدلكون العراة، والعرق يتصبب منهم، يدهنون مفاصله بمرهم مركب من طحين القمح ومن الكبريت والنبيذ الأسود وحليب الكلبة والمر ومن الصمغ والبخور الجاوري. كل هذا والعطش قد أجهده فمنعه طبيبه ذو الجلباب الأصفر شرب الماء ومدّ إليه كوباً ذهبياً يغلي به حساء أفعى وقال له: «اشرب لكي تتغلغل قوة الحيات التي أولدتها الشمس في مخ عظامك، وتشجع أيها النور المنعكس من الآلهة! إنك لا تجهل بأن هناك كاهناً من كهنة أشمون يراقب الكواكب القاسية التي يتفرع منها داؤك.. إن هذه الكواكب تصفر اصفرار البقع التي على جلدك والتي يجب أن لا تميتك».

ـ «أواه!.. أجل، يجب أن لا أموت منها». وكان يتصاعد من شفتيه المزرقتين أنفاس رائحتها أنتن من روائح الجثث، وعيناه شبيهتان بجمرتي نار تحترقان في محجريه، وقد اختفى وزال شعر حاجبيه، وتدلى من جبينه بقايا قشور جلد خشن، واستطالت أذناه وابتعدتا عن رأسه، والغضون العميقة تبدو حوالى منخريه بشكل نصف دائرة، فتجعل منظره غريباً مخيفاً كمنظر الحيوان النافر المكشر عن أنيابه. ثم تبدل صوته وأصبح أشبه بالزئير، وعاد يخاطب طبيبه:

ـ «أظن أنك على حق. أجل، لقد التأمت بعض البثور، وأنا أشعر بأني لا أزال قوياً. انظر كيف آكل بشهية!».

وكان لحبه الظهور، لا لنهمه، يقبل على التهام المحشيات بأنواعها والسمك المجرد من الحسك والكوسى والمحار والبيض والفجل البري والكمأة والعصافير المشوية، ويتلذذ وهو يأكل بالنظر إلى الأسرى

وبالتفكير بأنواع العذاب التي سيذيقهم إياها، ثم يفكر بيوم سيكا فيصب ألم ما يقاسيه من أوجاع إهانات مرة يوجهها للأسرى الثلاثة فيقول: «يا للخونة البؤساء المرذولين الملاعين! تجرؤون على إهانتي أنا الزعيم! سيهلكون كلهم ولن أستبقي أحداً منهم لأبيعه.. أحضروا لي في السلاسل أيديهم المقطوعة..!».

فجأة سمعت صرخات غريبة حادة وبحّاء وصلت إلى القاعة وغطت على صوت هنون وقعقعة الصحون، وتبيّن السامعون بين تلك الأصوات عجيج الفيلة الهائجة كما لو كان القتال قد عاد فاشتعل، وعلت الجلبة حول المدينة. ذلك أن القرطاجيين لم يجدّوا في اللحاق بجيش البربر المهزوم، بل جلسوا بجانب الأسوار ومعهم عبيدهم وأمتعتهم، فرحين بخيامهم ذات الجوانب المرصعة باللؤلؤ وأمامهم معسكر البربر المخرب. ولكن سبنديوس لم يفقد شجاعته، بل عجل بإرسال زركساس إلى ماتو، وأخذ يطوف في الوهاد والغابات فلمّ شمل جنوده ونظم صفوفهم. وعثر وهو يطوف على فرن للنفط كان القرطاجيون قد تركوه، فأخرج الخنازير من الحظائر وصب عليها النفط بعد أن طلاها بالقار وأشعل فيها النار ووجها إلى أوتيك، فأجفلت الفيلة لرؤية النيران وركنت إلى الفرار، وسارت صعداً فرماها البربر بالحراب فعادت القهقرى، وأخذت تدوس القرطاجيين بقوائمها، وتمزقهم بأنيابها، ونزل البربر وراءها من رؤوس التلال وأخذوا ينهبون معسكر القرطاجيين غير المحصن، وارتد هؤلاء مقهورين مغلوبين نحو أبواب الأسوار فالتصقوا بها لأن أوتيك لم ترد أن تفتحها لهم خوفاً من البربر.

أطلّ النهار، وأقبل مشاة ماتو من الشرق، وظهر غير بعيد فرسان نارهافاس على رأس النوميديين يقطعون الوهاد والأدغال ضرباً في أقفية الهاربين كأنهم أرانب تتبعهم كلاب الصيد. وأخذ هنون ينادي عبيده ليخرجوه من الحمام، وكان الأسرى الثلاثة لا يزالون ماثلين أمامه، فصاح بالزنجي الواقف إلى جانبه: «اقتل هؤلاء الأسرى»، فاستل الزنجي خنجره

وقطع رؤوس الثلاثة، فقفز واحد منها ما بين فضلات الطعام وتدحرج في الحمام فاغر الفم جامد العينين. وبدا نور الصباح والدم ينزف من أجسام القتلى يتدفق كالينبوع على بلاط القاعة المرشوش برشاش أزرق، فغمس الزعيم كفيه بنقيع هذا الدم الحار ومسح به ركبتيه ليقينه أن ذلك دواء له ناجع.

ولمّا أقبل المساء هرب من المدينة مع حرسه وتغلغل في شِعاب الجبل باحثاً عن جيشه فتوصل إلى اللحاق ببقاياه.

بعد أربعة أيام كان في «عرزا» على قمة ثنية من ثنايا الجبل، فرأى جند سبنديوس من أعلى في المضيق بحيث لو هاجمهم من مقدمتهم عشرون من حملة الرماح الأشداء لأسروهم، فاكتفى القرطاجيون بأن ينظروا مبهوتين إليهم، ورأى هنون نارهافاس في مؤخرتهم وقد انحنى ليحييه وأشار إليه بإشارة لم يفهم مرماها.

وعادوا إلى قرطاجة والرعب يملأ قلوبهم، وكانوا يمشون في الليل فقط ويختبئون في النهار بين غابات الزيتون، ومات منهم الكثيرون وأوشكوا أن يهلكوا، وأخيراً بلغوا رأس «هليوم» حيث التقطتهم مراكب حملتهم إلى قرطاجة.

كان التعب واليأس قد حلاّ بهنون، وتقطّعت نفسه حسرة وألماً لفقد الفيلة، فطلب من طبيبه أن يسقيه السم، وكان على كل حال موقناً من قرب صلبه.

ولكن الشجاعة أعوزت قرطاجة فلم تصب عليه جام غضبها، وكانت الخسائر نحو أربعمائة ألف زنة من الفضة وخمسة عشر ألف زنة من الذهب وثمانية عشر فيلاً وأربعة عشر عضواً من أعضاء المجلس الكبير وثلاثمائة رجل من الأثرياء وثمانية آلاف من المواطنين، عدا المقادير الكبيرة من القمح والأمتعة وآلات الحصار والقتال، وأصبحت خيانة نارهافاس لقرطاجة ثابتة، وهكذا فقد عاد الجيشان لضرب الحصار على المدينة، وأصبح جيش أوتاريت يحتل ما بين تونس ورادیس.

ولمح الناس من أعالي الأكروپول دخاناً كثيفاً يتصاعد في البرية نحو السماء، وكان ذلك دخان حريق قصور الأغنياء.

أمّا الجمهورية فرجل واحد كان يمكن أن ينقذها، وهذا الرجل قد جهلوا قدره فحل بهم الآن الندم والأسف، فأخذ حزب السلام، وهو الذي أقصاه، يطالب بجمع المال اللازم لرفع المحرقات للآلهة ليعود إليهم هاميلكار.

وأمّا سلامبو، فإن رؤيتها حجاب الإلهة تانيت ملأت نفسها اضطراباً، فكانت تتوهم في الليل أنها تسمع وقع خطى تانيت فتهب من نومها مذعورة آخذة بالصراخ، وكانت كل ليلة ترسل جاريتها لتوزيع الأطعمة في المعابد حتى تعبت طناش من تنفيذ أوامرها. وكان شاهبريم لا يفارقها لحظة واحدة.

7

عودة هاميلكار

أطل صباح يوم الحارس الراصد للأقمار، الذي كان يسهر كل ليلة في أعالي معبد أشمون، لكي يعلن بالنفخ في بوقه عن تحركات الكواكب، فلمح من جهة الغرب شيئاً شبيهاً بالطير يلمس بأجنحته الطويلة سطح البحر.

كانت تلك سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف في مقدمتها رسم جواد. وارتفعت الشمس في الأفق فوضع الراصد مراقب الأقمار كفيه أمام عينيه وقبض على بوقه بكلتا يديه وأرسل إلى قرطاجة صرخة نحاسية عظيمة.

خرج الناس من دورهم وهم لا يصدقون ما يسمعون، وأخذوا يتزاحمون على رصيف الميناء الذي كان مغطى بأمواج البشر، وبعد جهد عرفوا السفينة المثلثة، سفينة هاميلكار.

راحت تتقدم إلى الأمام باعتزاز وتدلل، وحبال صواريها مستقيمة، والشراع ممدود منتفخ بأكمله، وهي تشق عباب البحر حولها فيتدفق الزبد، ومجاذيفها الضخمة تضرب الماء بانتظام، ومن وقت إلى وقت يبدو طرف حيزومها وكأنه طرف محراث. وتحت المهماز الذي تنتهي عنده مقدمتها يبدو الجواد ذو الرأس العاجي، المرفوعة قائمتاه إلى الأمام، كأنه يجري على مروج من البحار.

وعند بلوغها رأس البحر هدأت الريح فسقط الشراع، فرأى الناس بقرب المرشد رجلاً واقفاً حاسر الرأس، كان هو الزعيم القائد هاميلكار، تشد حقويه نصال حديدية لامعة، وعلى كتفيه رداء أحمر تبدو ذراعاه من خلاله، ويتدلى من أذنيه لؤلؤتان مستطيلتان، وقد حنا على صدره لحيته السوداء الكثّة.

أخذت السفينة تتهادى ما بين الصخور وتسير وئيداً بمحاذاة الرصيف،

والحشود المجتمعة تتبعها مشياً على بلاط الرصيف وهي تهتف: «سلام وبركات يا عين خامون! هيا أنقذنا! الذنب ذنب الأغنياء! إنهم يريدون موتك فحاذر لنفسك يا باركا!».

فلم يجبهم هاميلكار على هتافهم، كأن هدير البحار وضجيج المعارك قد ألحق به الصمم والوقر. ولما بلغ السلم الذي يتدرج ابتداء من الأكروپول رفع رأسه وأخذ ينظر إلى معبد أشمون وذراعاه مصلبتان على صدره، ثم رفع عينيه إلى ما هو أعلى من ذلك، إلى السماء الواسعة الصافية، وأصدر بصوت خشن أمراً إلى بحارته، فاندفعت السفينة ولمست الصنم المرفوع على زاوية الرصيف ليهدئ بقوته الربانية الزوابع والعواصف، وفي الميناء التجاري، المملوء بالأقذار وبقايا الأخشاب وقشور الثمار، أخذت تسعى وتشق طريقها بين السفائن الأخرى المربوطة إلى أوتاد، والتي تشبه مؤخراتها أشداق التماسيح، كل هذا والشعب يجري، بل إن بعض أفراده ألقوا بأنفسهم إلى البحر يتبعونها عائمين. ولكنها كانت قد بلغت بعيداً الباب الملبس بالمسامير، وفتح الباب واختفت السفينة المثلثة تحت القبة العميقة.

كانت الميناء الحربية منفصلة تمام الانفصال عن المدينة، فإذا قدم إليها سفراء اضطروا إلى المرور بين سورين في مضيق يفضي إلى اليسار وينتهي أمام معبد خامون، وهذا المكان الكبير العميق بالماء المستدير كالكوكب تحف به أرصفة بُنيت عليها مآوي للسفن، وأمام كل مأوى منها ارتفع عمودان متوجان بقرون الإله آمون، وهذه الأعمدة المتتابعة كان يتكوّن منها رواق يحيط بحوض الماء، وفي الوسط وعلى جزيرة يقوم منزل لزعيم البحر.

وكان الماء بالغاً من الصفاء حدّاً يمكن معه أن تُرى الحصى في قاع البحر، ولم يكن ضوضاء الشوارع ليصل إلى ذلك المكان.

تعرّف هاميلكار عند مروره على تلك السفن التي كان قد تولى قيادتها في زمن مضى، لم يبق منها إلاّ حوالى العشرين سفينة مبعثرة في الماء قابعة

أو على الأرض مائلة إلى الجانب، أو قابعة على المؤخرة، مرتفعة المقدمة، مذهبة، مغطاة بالرموز السرية. لقد فقدت جميع أجنحتها التي كانت لاصقة بوحوش وهمية رمزية لها مقدم الأسد ومؤخر التنين، وبترت أذرع الإله «باتوك»، وخلت الثيران من قرونها الفضية، وانمحى نصف طلائها، وأصبحت جامدة متأكّلة تنخرها الأرض والسوس. ولكنها كانت لا تزال مع ذلك مليئة بحوادث التاريخ تتصاعد منها روائح الأسفار، وكأنها إذ رأته تناديه كما ينادي الجنود المشوهون قائدهم إذا عاد: «ها نحن أولاء! ها نحن! وأنت أيضاً أيها السيد قد هُزمت».

لم يكن من المسموح لأحد من الشعب أن يلج مسكن زعيم البحار إلاّ الزعيم وحده، وكانوا يظلون يعدون زعيم البحر حيّاً حتى يقوم الدليل على موته، لأن الأغنياء كانوا بهذا يجتنبون تعيين سيد جديد، ولم يشذوا عن هذه القاعدة في ما خص هاميلكار.

مشى يتفقد مخادع منزله الخاوية: فعاد يتذكر الأشياء التي تركها خلفه، كلما خطا خطوة، هذه الأسلحة وهذا الأثاث كلها أشياء قد ألفها ولكنها مع ذلك تبدو له غريبة، كل شيء في محله حتى رماد الطيب، الذي كان أحرقه استرضاء للآلهة قبل سفره ، لا يزال في مبخرة عند المدخل. لم يكن يرجو أن يعود إلى وطنه كمثل هذه العودة! وكل ما قام به من الأعمال في ماضيه، وكل ما رآه، كان يمر أمامه مطبوعاً في ذاكرته: الهجمات على الأعداء والحرائق والكتائب والعواصف والمعارك: دريبانوم، سيراكوز، ليبيا، وجبل إتنا، ونجود إيريكس. خمس سنوات كلها معارك وقتال ونضال، حتى ذلك اليوم المشؤوم الذي ضاعت فيه صقلية! تذكر غابات الليمون والرعاة والماعز على جبال غبراء، فقفز قلبه في صدره، إذ تخيل قرطاجة ثانية تنشأ في تلك الربوع.. وأخذ صدى مشاريعه وذكرياته يتجاوب في رأسه الذي كان لا يزال يشكو دوار اهتزاز السفينة، وانقبض صدره واشتد انقباضه وأخذه الضعف فجأة فأحس بالحاجة إلى التقرب من الآلهة.

صعد إلى آخر طابق من منزله، وفتح باب حجرة صغيرة بمفتاح يحمله في صدفة من ذهب معلقة في ذراعه، وفي قلب الحائط حلقات سود شفافة كالزجاج كانت تبعث في الحجرة ضياءً خافتاً. وبين صفوف تلك الأسطوانات المتساوية ثقوب شبيهة بالثقوب التي تحفر في صخور المقابر، وفي كل منها حجر مستدير قاتم ثقيل الوزن. وكان الرجال أصحاب العقول النيرة هم وحدهم يكرّمون هذه النيازك الصغيرة المتساقطة من القمر، فسقوطها يعني الكواكب والسماء والنار، ولونها الليل المظلم، وثقلها تماسك الأشياء الأرضية. وكان جو هذا المكان السرّي خانقاً، ورمال البحر التي قذفتها الريح من خصاص الباب تبيّض قليلاً تلك الحجارة المرصوصة في الحفر. فأخذ هاميلكار يعد تلك الحجارة، ثم غطى رأسه بحجاب بلون الزعفران، وجثا على ركبتيه، ثم تمدد على الأرض وذراعاه مبسوطتان، وكان الضياء الخارجي يسقط على صفائح الخشب الأسود، المرسومة عليه أنواع الأشجار والآكام والأعاصير والحيوانات بأشكال شفافة، وانبلاج النور مهدداً وحاملاً للسلام بوقت معاً، كما يجب أن يكون هذا النور وراء الشمس في الفضاء القاتم للأجيال المقبلة. وكان يجتهد أن يبعد من فكره جميع الأشكال والرموز وأسماء الآلهة كي يتمكن من إدراك الروح الثابت غير المتبدل الذي تحجبه المظاهر الخارجية، ويتغلغل في نفسه شيء من حيوية الكواكب، ويحس بازدراء داخلي للموت وعدم مبالاة به، حتى إذا فرغ من صلاته أصبح مليئاً إقداماً وصفاء ذهن، لا تؤثر فيه الرحمة ولا الخوف، وعاوده ضيق الصدر فصعد إلى البرج الذي يشرف على قرطاجة.

كانت قرطاجة تنحدر انحداراً ثم تكوّن أُخدوداً بشكل خط مقوس بما فيها من قباب ومعابد وسطوح مذهبة ومنازل وغدائر من نخل وكرات من زجاج تبعث الأنوار، والحصون تبدو كحواشٍ ضخمة لجسم هذا الرخاء الذي كان ينعطف نحوه، وكان يلمح تحته الموانئ والميادين وداخل الأحواش ورسوم الشوارع، ويرى الرجال أقزاماً تكاد أجسامهم تلامس

البلاط. أواه! لو لم يصل هنون متأخراً يوم معركة جزيرة آغات! وغاصت عيناه في أبعد مكان من الأفق ومد نحو روما ذراعيه المرتعشتين.

احتلّت الحشود درجات سلم الأكروپول، وفي ميدان خامون تدافع الناس ليروا الزعيم خارجاً. وامتلأت الأسطح شيئاً فشيئاً، وعرفه بعضهم فأخذوا يحيونه، فانسحب ليهيج فيهم الهلع والشوق إليه.

لقي هاميلكار في أسفل البرج أبرز رجال حزبه، فأطلعوه على ما حدث منذ توقيع معاهدة الصلح، وشكوا إليه بخل القدماء وخروج الجنود من قرطاجة وعودتهم إليها، وتعنّتهم في طلباتهم وأسرهم لجيسكون وسرقة حجاب الإلهة ونجدة أوتيك ثم انهزامها، ولكنهم حرصوا على ألاّ يذكروا له شيئاً مما كان خاصّاً به من الأحداث، وافترقوا على أن يعودوا فيلتقوا في مجلس القدماء في معبد مولوخ.

ولم يكادوا يخرجون حتى ارتفعت ضجة في الخارج عند الباب، ذلك أن أحد الناس كان يود الدخول عليه رغم حجابه فأمر هاميلكار بإدخاله.

دخلت عليه زنجية مسنّة مقطعة الأوصال مليئة بالغضون مرتعشة اليدين تبدو عليها الغفلة، مغطاة بحجاب ضافٍ من رأسها حتى أخمص قدميها، فتبيّن الواحد منهما وجه الآخر هنيهة، وإذا بهاميلكار ينتفض ويصرف عبيده بإشارة منه، ثم أومأ إلى تلك الزنجية بأن تمشي بحذر، وأخذها من ذراعها فأدخلها في غرفة قاصية نائية، فارتمت الزنجية على رجليه تقبّلهما، ولكنه أنهضها بقسوة وهو يقول:

- «أين تركته يا أدهِربعل؟»(*).

- «هناك يا مولاي» وخلعت عنها حجابها ومسحت وجهها بكم قميصها، وإذا باللون الأسود وبالقامة المحدودبة وبالرعشة قد زالت، وبدا المتحدث شيخ قوي البدن صبغ جسده بالرمل والريح والبحر، ترتفع من رأسه خصلة من الشعر الأبيض كأنها قنبرة طائر، ثم أشار بيده إشارة

(*) Adherbal: اسم لأمير البحر في قرطاجة انتصر على الرومان في دريپانوم (صقلية ٢٤٩ق.م

الساخر إلى الثياب الملقاة على الأرض التي كان متنكّراً بها.

ـ «حسناً فعلت يا أدهِربعل» ثم ألقى عليه نظراً حاداً يخترق الصدور وقال: «لا يداخل أحداً شك بوجوده، أليس كذلك؟»».

فأقسم له بالآلهة العظام أن السر مكتوم جد الكتمان، فهما لا يغادران الكوخ الواقع على مسيرة ثلاثة أيام من هادريمت، ذلك الشاطئ الذي لا يألفه إلاّ الضفادع ولا ينبت على كثبان رماله إلاّ شجر النخل، وزاد فقال: «وأنا أمرّنه عملاً بأوامرك على رمي الحراب وسوق المركبات».

ـ «هو قوي. أليس كذلك؟»».

ـ «أجل يا مولاي، وهو أيضاً مقدام شجاع، لا يخاف الأفاعي ولا الرعود ولا الأشباح، وهو يجري كالرعاة حافي القدمين على حوافي الوهاد.

ـ هيه، هيه يا أدهربعل!

ـ إنه يخترع الفخاخ للحيوانات المتوحشة، وفي الشهر القمري المنصرم باغت نسراً فأمسك به وأخذ يجره فامتزجت دماؤهما، السائلة من جراحيهما، كورود حمر يحملها الهواء، فكان النسر الهائج يطبق عليه بجناحيه وهو يضم النسر بين ذراعيه وصدره، حتى إذا دخل في النزع أخذ يضحك ضحكات كأنها صليل سيوف تتلاحم.

وحنا هاميلكار رأسه وهو يفكر بآيات العظمة ودلائل القوة.

وأردف أدهربعل فقال:

ـ «ولكنه منذ عهد قريب تبدو عليه دلائل القلق، ينظر من بعيد إلى شراع السفن، فتأخذه الكآبة ويأبى الطعام. هو يديم الاستعلام عن ماهية الآلهة ويريد أن يرى قرطاجة».

فصاح القائد:

ـ «لا، لا، لم يحن الوقت بعد».

وأحس الشيخ بالخطر الذي يخشاه القائد، فقال:

ـ «كيف السبيل إلى حجزه؟ لقد أصبحت مضطراً إلى أن أمنّيه بالوعود،

ولـم أجـئ إلـى قـرطـاجـة إلاّ لأبتـاع لـه خـنـجـراً بـمـقـبـض فـضـي مـحـلّـى بالجواهر». ثم أخذ الشيخ يعلل حضوره لمقابلة القائد: لقد رآه على السطح، فادعى أمام الحرس بأنه جارية من جواري سلامبو ليتمكّن من المثول بين يديه.

أخذ هاميلكار يفكر، وكأنه لا يدري بما يشير به، ثم قال:

- «انتظرني غداً في ميجارا عند غروب الشمس وراء معامل الأرجوان، وتكلّف عواء ابن آوى ثلاث مرات، فإذا لم ترني تعود إلى قرطاجة في بداية كل شهر قمري، فلا تنس شيئاً مما أقول وابذل له كل حب! والآن يمكنك أن تحدثه عن هاميلكار».

وعاد العبد فتنكّر بثيابه، وخرجا معاً من المنزل ثم من الميناء.

أكمل هاميلكار سيره وحيداً بلا حرس، لأن اجتماعات مجلس القدماء سرية ينسل إليها الأعضاء في الأوقات الحرجة متسترين. فمر في طريقه إلى المعبد أمام واجهة الأكروپول، ثم بسوق الأعشاب، فأروقة «كنيسدو»، فسوق العطارين. وبدأت الأنوار تنطفئ والشوارع العريضة يسودها الصمت، وأشباح الرجال تمرق في الظلام أمامه أو وراءه باتجاه «مابال».

كان معبد «مولوخ» يرتفع في مضيق قاتم عظيم المنحدر، إذا نظر إليه من أسفل لا يبدو منه إلاّ جدران عالية كأنها جنيات قبور موحشة مخيفة. والليل حالك السواد، والضباب ينوء بثقله على كاهل البحر الملاطم للشاطئ الصخري بهدير كحشرجات النزع أو زفرات العويل، والأشباح تختفي فجأة شيئاً فشيئاً كأنها تخترق الجدران نافذة منها. فإذا تخطى القادم باب المعبد نفذ منه إلى دار مربعة الزوايا تتتابع على جنباتها أقواس القناطر، وفي وسط هذه الدار كتلة بناء ذات ثمانية جدران متساوية، فوقها قباب متجمعة حول طابق ثان تعلوه مصطبة بدا فيها نصب حجري بشكل كرز من الصنوبر أعقف في رأسه كرة.

وكانت النار موقدة في آنية أسطوانية الشكل مصنوعة من أسلاك، ولها مقابض من خشب يمسك بها رجال يحملونها، وألسنة النار تلعب بها

الرياح فتنعكس حمرتها على أمشاط ذهبية مغروزة بشعور مجدولة متدلاة على نقر أعناق، وحملة المشاعل يهرولون ويتنادون لاستقبال القدماء، وعلى البلاط هنا وهناك أسود رابضة كأبي الهول، هي رموز حية للشمس المفترسة. وكان النعاس يراود أجفان الخدم فتطبق أجفانهم بعض الإطباق حيناً ثم تنفتح على وقع أقدام القادمين وتجاوب أصواتهم، فيقفون متثاقلين ليستقبلوا القدماء ذوي الأثواب المميزة لهم، ويتجهون نحوهم وهم يتمطون ويتثاءبون، فيمر بخار أنفاسهم ظاهراً فوق ضياء مشاعلهم.

ويعلو الضوضاء وتزداد الحركة، فتقفل الأبواب وينسحب الكهنة مسرعين، ويختفي القدماء في ظلال تلك الأعمدة التي يمتد تحتها وحول المعبد رواق مستطيل.

وقد شيدت هذه الأعمدة وصفّت بشكل دائري بحيث يمكن الاهتداء بها إلى حسبان دوران كوكب زحل على مدى السنين والشهور والأيام، وهي تمتد متلامسة عند نهاية الصف بسور المعبد، حيث يترك القدماء الداخلون عصيّهم المصنوعة من قرون وحيد القرن البحري، لأن القانون يفرض عليهم أن يشهدوا هذه الاجتماعات وهم عزل من كل سلاح.

وكثير منهم كانوا يلبسون أثواباً بدت فيها خروق أُحيطت أطرافها بحواش من الأرجوان، وذلك ليثبتوا للملإ أنهم قد شقوا ثيابهم حزناً ولهفة على قريب لهم قد مات، وآخرون غلفوا لحاهم بأكياس صغيرة من جلد بنفسجي مشدودة إلى آذانهم بخيوط.

تبادلوا التحيات، وتعانقوا، وأحاطوا بـ«هاميلكار» وهنأوه بعودته، وكأنهم أخوة يلقون أخاً لهم.

وأكثر ما يكون القرطاجي ربعة القامة أقنى الأنف كأصنام الأشوريين، ومع ذلك فمنهم من هو بارز عظم الخد طويل القامة ضيق القدم، ما ينم عن أصل إفريقي وعن أجداد من البدو الرحل، والذين يديمون المكث جلوساً في محلات تجارتهم صفر الوجوه، وأما الآخرون فخشونة القفر بادية على وجوههم، وهم يحملون في جميع أصابعهم، التي لوحتها

شموس البلاد المجهولة، جواهر عجيبة متلألئة لمّاعة. ومن السهل الاهتداء إلى مختلف المهن والأعمال التي يزاولونها: فالملاحون يتهادون في مشيتهم، وقراصنة البحر يكلفون غيرهم بحرث الأرض، والمختزنون للذهب والفضة يجهزون السفن، وأصحاب المزارع يمنون بلقمة العيش على عبيد يحترفون صنائع يدوية، وكلهم ملمّ بالطقوس الدينية، مدرّب على فنون القتال، غني مثرٍ لا رحمة له ولا شفقة.

كانت أمارات الهم والكآبة بادية على وجوههم المتعبة، وعيونهم المحمرة كالجمر تنظر بحذر ومكر، وكثرة الأسفار ومزاولة الاتجار واعتيادهم على الكذب والإمرة خلع عليهم مظاهر المكر والخديعة والعنف والقسوة، وأثر آلهتهم وتأثيرها زاد نفوسهم غمّاً ووجوههم قتامة.

دخلوا بادئ ذي بدء قاعة ذات قبة بيضوية لها سبعة أبواب تمثّل الكواكب السيارة السبعة، في وسط جدرانها رسمت سبعة مربعات بألوان مختلفة، ونفذوا منها إلى حجرة أفضت بهم إلى قاعة ثانية تشبه الأولى.

وفي هذه القاعة انتصب شمعدان كسته رسوم أزهار متنوعة له ثمانية أعواد ذهبية تعلو كلاً منها كأس من الماس فيها ذبالة من خيوط الحرير، والشمعدان مثبت على آخر درجة من تلك الدرجات الطويلة الموصلة إلى مذبح كبير بدت في آخر زواياه قرون نحاسية. وهناك سلمان متقابلان يفضيان إلى مصطبة مستطيلة تكاد حجارتها تختفي تحت الرماد المتراكم المتجمّع، وفي أعلى المصطبة شيء مجهول يخرج الدخان قليلاً فقليلاً، وفي موضع بعيد من الشمعدان وأعلى من المذبح يربض الصنم «مولوخ» وكله من الحديد وصدره صدر رجل وفيه فتحات وأجنحته مبسوطة تمتد على الحائط، ويداه مفتوحتان تتدليان حتى الأرض، وعلى جبينه ثلاثة حجارة سود، يرقشها من وسطها خط دائري أصفر، كأنها ثلاث ثمرات من الخوخ، والصنم يرفع رأسه بجهد إلى فوق لكي يتمكن من إرسال خوار كخوار الثور.

وعلى جنبات القاعة صُفّت مواطئ عاجية وراء كل منها عمود صغير من العاج في أعلاه مخالب تحمل مصباحاً يبسط نوره على الطنافس فتبدو كأن فيها رقعاً من العاج. وسقف القاعة متناه في علوه، حتى أن لون الجدران الأحمر يستحيل إلى أسود عند اتصاله بالسقف، وعيون الصنم الثلاث تبدو من علوها نجوماً تكاد تضل طريقها في غيابة الليل.

جلس القدماء على مواطئ الأبنوس وغطوا رؤوسهم بذيول أثوابهم، ساكنين لا حراك بهم، وأيديهم مصلبة وأطرافها في أكمامهم الواسعة، وتحت أقدامهم البلاط العاجي كأنه نهر من نور يجري في الهيكل نحو الباب.

وجلس الأحبار الأربعة في الوسط، ظهراً لظهر، على أربعة مقاعد عاجية بشكل صليب، يلبس حبر «أشمون» الأعظم حلة مرصعة بالياقوت الزعفراني، وحبر تانيت ثوباً من الكتاب الأبيض، وحبر «خامون» حلة من الصوف الفاقع اللون، وحبر «مولوخ» حلة أرجوانية.

تقدم هاميلكار نحو الشمعدان، ودار حوله وتأمل في الذبالات التي تشتعل، ورمى عليها مسحوقاً من الطيب، فتصاعد فوقها لهب بنفسجي اللون. وعند ذاك ارتفع صوت حاد تلاه آخر، ووقف المائة القدماء والأربعة الأحبار وهاميلكار معهم، وأخذوا يرتلون تسابيح مرددين الكلمات ذاتها، معالين بالنبرات رافعين أصواتهم حتى غدت صياحاً وهديراً ثم سكتوا على حين غرة.

صمت الجميع زمناً قصيراً، ثم أخرج هاميلكار من صدره تمثالاً صغيراً أزرق كاللازورد، لهه ثلاثة رؤوس، فوضعه أمامه، كانت تلك صورة الحقيقة وملهمة كلمة الحق، ثم أعاده إلى صدره، وإذا بهم يصيحون وكأنما أخذتهم فجأة ثورة الغضب:

- «هؤلاء هم أصدقاؤك البربر أيها الخائن المرذول! إنك تعود لتشهد هلاكنا أليس هذا صحيحاً؟ اتركوه يتكلم.. لا. لا...».

كانت الطقوس ومراسيم الاحتفال قد أرغمتهم على ضبط نفوسهم منذ

لحظات فانفجروا الآن.

كلهم كان يتمنى أن يعود هاميلكار، ولكنهم كانوا حانقين عليه لأنه لم يجنبهم ذل الانكسار، أو بالأحرى لأنه لم يذقه معهم.

ولما سكنت الجلبة سأله حبر مولوخ:

- «لِمَ لم تعد إلى قرطاجة؟».

فرد عليه هاميلكار بأنفة:

- «وما يهمك من ذلك؟».

فزاد ضجيجهم فقال لهم:

- «بم تتهمونني؟ هل تظنون أني لم أُحسن إدارة الحرب؟ لقد اطلعتم على خطط معاركي! أنتم الذين تركتم البربر..».

- «كفى! كفى».

- «آه! هذا صحيح! إني أخطأت يا أنوار البعول! إن بينكم لشجعاناً! أين أنت يا جيسكون؟ قف!». وأخذ يطوف بدرج السلم كمن يبحث عن شخص، ثم استأنف كلامه: «قف يا جيسكون! إن بإمكانك أن توجه إليّ تهماً فيساعدونك! ولكن أين هو جيسكون؟! لا شك أنه في منزله محوط بأبنائه مؤمر على عبيده فخور سعيد بتعداد قلائد الشرف التي قلده الوطن إياها والتي علقها على جدار مخدعه».

بدأ الجميع ينتفضون ويهزون بأكتافهم كأنهم يجلدون بالسياط.

- «آه، إنكم لا تعرفون إذا كان حيّاً أو ميتاً».

ولم يأبه لصياحهم، بل أكد لهم أنهم بخذلانهم لجيسكون قد خذلوا الجمهورية نفسها، وأن الصلح مع روما، وإن بدا لهم موافقاً، هو أشأم من عشرين معركة، فصفق له أقلهم غنى، أولئك الذين كانوا متهمين بالميل إلى الشعب أو بتأييد الاستبداد، وأما خصومهم، رؤساء «السيسيت» ورجال الإدارة، فقد كانت الغلبة لهم لكثرة عددهم، وأكثرهم نفوذاً قد تجمعوا حول هنون الجالس في الجهة الأخرى من القاعة، وقد طلى بالمساحيق بثور وجهه، ولكن مسحوق الذهب المرشوش به شعره تساقط على كتفيه،

وكان يلف يديه بقطع من النسيج المبلل بعطر قوي تتساقط قطراته على البلاط، ويبدو أن مرضه قد ازداد خطورة لأن عينيه كانتا تختفيان تحت طيات جفونه، فهو لا يستطيع النظر إلاّ إذا قلب رأسه إلى الوراء.

ودعاه أتباعه إلى الكلام، فقال بصوت أجش حاد:

- أقِلَّ من قحتك يا باركا! لقد هزمنا كلنا! فليحمل كل مصابه. فاستسلم لحكم القدر.

- لا، بل قل لنا كيف قدت أنت سفنك إلى وسط سفن الرومان؟

- لقد دفعتني الرياح.

- أنت فعلت ما يفعل وحيد القرن الذي يتمرغ في حمأة بعره. إنك تذيع على الملإ آثار غباوتك. فاسكت».

وأخذا يتراميان بالتهم بخصوص معركة جزر آغات، فاتهمه هنون بالقعود عن القدوم لمقابلته.

ورد عليه هاميلكار: «لو فعلت ذلك لانكشفت إيريكس، وقد كان عليك أنت أن تأخذ عرض البحر فما الذي منعك؟ آه لقد نسيت. أجل نسيت أن جميع الفيلة تخاف البحر».

وأُعجب أنصار هاميلكار بهذا التعريض اللاذع فاستسلموا للضحك حتى علت صيحاتهم إلى قبة القاعة كأنها رنّات صنوج.

شكا هنون إلى الجمع ما بتلك الإهانة من تنكب لسبيل اللياقة والإنسانية، فإنه إنما أُصيب بدائه، داء الفيل، يوم كان يضرب الحصار على هيكاتومبيل فأضرّ به البرد، وأخذ يبكي حتى سالت دموعه على خديه كما يسيل مطر الشتاء على جدار متهدّم.

قال هاميلكار:

- «لو أحببتموني حبكم هذا الرجل لكان الفرح اليوم شاملاً قرطاجة، فكم من مرة مددت يدي نحوكم فرفضتم إعطائي المال».

فأجاب رؤساء السيسيت:

- «كنا بحاجة إليه».

- «ونحن يوم بلغ اليأس بنا حدّه شربنا بول البغال وأكلنا سيور النعال، وفي اليوم الذي أردت فيه أن تستحيل سيقان الأعشاب إلى جنود، وأن أؤلف الكتائب من رميم عظام أمواتنا، استدعيتم أنتم إلى قرطاجة ما كان قد بقي لي من المراكب».

فأجابه «بقبعل»، وهو أحد ملاّك مناجم الذهب في جيتوليا:

- «لم يكن بوسعنا أن نخاطر بكل شيء».

- «وما الذي كنتم تصنعون أنتم هنا في قرطاجة، في منازلكم ووراء جدرانها؟ كان بإمكانكم أن تسلّحوا الغوليين في «أريدان» والكنعانيين في القيروان، بينما كان الرومان يرسلون السفراء لمفاوضة بطليموس»..

فقاطعوه صائحين:

- «لقد أصبح الآن يشيد بالرومان!» وصاح أحدهم: «كم دفعوا لك لتدافع عنهم؟»».

- «سلوا عن ذلك سهول «بروتيوم» وخرائب «لوكرس» و«ميتابونت» و«هرقلية». لقد أحرقت جميع أشجارهم ونهبت جميع معابدهم، وحتى اليوم الذي يموت فيه أحفاد أحفادهم..».

فقاطعه كاسبوراس التاجر المعروف قائلاً:

- «إنك تمثّل كمدرس لعلم الخطابة، فما الذي تريده الآن؟».

- «أريد أن نكون أكثر دهاء أو أشد هولاً، وإذا كانت إفريقية بأجمعها ستطرح يوماً نيركم عنها فلأنكم، أيها الأسياد الضعفاء، لا تعرفون أن تشدوا هذا النير إلى أعناقها، وليس على «أغاتوكليس» و«ريغولس» و«كوبيو» وجميع ذوي الجرأة والإقدام إلاّ أن يطأوا الشاطئ فينتزعوها من أيديكم. وفي اليوم الذي يتفق فيه الواقفون في الشرق مع النوميديين النازلين في الغرب، ويقبل البدو الرحل من الجنوب والرومان من الشمال». وسمعت صيحات استنكار ورعب «في ذلك اليوم ستتمرغون على العفراء وتمزقون أرديتكم، ولا يهمكم هذا. ستذهبون فتديرون أرحاء المعاصر في «سوبور» وتقطفون الكروم لأسيادكم على تلال لاتيوم».

اندفعوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم اليمنى إظهاراً لاستنكارهم فضيحة ذلك الخطاب، وأخذت أكمام أثوابهم ترتفع كأنها أجنحة طيور مذعورة. وأخذت الحماسة من هاميلكار كل مأخذ فظل واقفاً على أعلى درجات الهيكل، منتفضاً هائلاً، وكان يرفع ذراعيه فتمر بين أصابعه أشعة المصابيح المشتعلة وراءه كحراب من ذهب.

ـ «ستفقدون سفنكم ومراكب القتال التي لكم، وأسرّتكم المعلّقة وعبيدكم الذين يدلكون أرجلكم! وستأوي بنات آوى إلى قصوركم، وستحرث المحاريث قبوركم، فلا يبقى إلاّ صياح النسور وتراكم الخراب. ستسقطين يا قرطاجة».

وهنا مدّ الأحبار الأربعة أيديهم ليتجنّبوا اللعنة وهب الجميع وقوفاً، ولكن الزعيم القائد كان قاضياً من رجال الكهنوت، وتحت حماية الشمس فهو محصّن لا يجوز أن يمس حتى تحاكمه جمعية الأغنياء، وخيم الرعب على الهيكل فتراجعوا جميعاً.

وصمت هاميلكار ولم يعد يتكلم، بل وقف جامد الحدقتين ووجهه مصفر كاصفرار لآلئ تاجه، يلهث وكأنه خائف من نفسه، وذهنه شارد في رؤى محزنة، وبدت أمامه، من علو الموقف الذي كان فيه، جميع تلك المصابيح المرفوعة على أعواد من البرونز، كأنها تيجان من نار موضوعة على البلاط، وكان الدخان الأسود يرتفع منها فيلمس ظلمات القبة، وأطبق السكون هنيهة، عميقاً شاملاً، حتى كانوا يسمعون من بعيد هدير البحر.

أخذ القدماء يستشيرون أنفسهم: إن مصلحتهم ووجودهم يقتضيان سحق البربر، ولا يمكن التغلب عليهم إلاّ بمعونة القائد. فأنساهم هذا الاعتبار، رغم كبريائهم، كل اعتبار سواه. فانتحوا ناحية بأصدقائه وأخذوا يتساومون على المصالحة، ووقعت تلميحات وجرت وعود.

رفض هاميلكار الاشتراك بأية حكومة، فاستحلفوه ورجوه ملتمسين، ولكن كلمة الخيانة كانت تتردد على ألسنتهم، فاستشاط غضباً، وذهب إلى أن الخائن الأوحد هو المجلس الكبير، لأن البربر إنما تطوعوا لمدة

الحرب فقط، وعلى ذلك فقد أصبحوا أحراراً بانتهاء الحرب، وزاد فأثنى على بسالتهم، وأشار إلى الفوائد التي قد تجنيها قرطاجة منهم باصطفائها إياهم واكتساب تعلقهم بها، وذلك بمنحهم بعض الهبات والامتيازات.

فردّ عليه «مجداسان»، وهو حاكم سابق لإقليم من الأقاليم، فقال، وهو يقلّب عينيه الصفراوين:

ـ «هذا صحيح يا باركا. إنك لكثرة ما سافرت أصبحت إغريقيّاً أو لاتينيّاً بل لا أدري ماذا! كيف تجرّأت أن تطلب مكافآت لهؤلاء الرجال؟ ليهلك عشرة آلاف من البربر ولا يهلك واحد منا».

وأمّن القدماء على كلامه بحني رؤوسهم وهم يتمتمون: «أجل، ما الداعي إلى الاهتمام بهم؟ من السهل أن نجد غيرهم».

ـ «أهذا رأيكم؟ يجدر بنا أن نتخلص منهم! أجل، ستتخلون عنهم كما فعلتم في سردينيا فدللتم العدو على الطريق الذي سيسلكونه، وكما فعلتم بأولئك الغوليين في صقلية إذ أنزلتموهم من المراكب في وسط البحر! أجل لقد رأيت في طريق عودتي عظامهم على الصخرة وهي لا تزال بيضاء».

فقال كابوراس بقحة واستهزاء: «يا للمصيبة!».

وقال الآخرون: «ألم ينقلبوا علينا مئات المرات فيلتحقوا بالعدو؟».

فصاح هاميلكار: «ولِمَ دعوتموهم إلى قرطاجة رغم قوانينكم؟ حتى إذا حلوا فيها جمّاً غفيراً من الفقراء في وسط ثرواتكم الضخمة، لم تعملوا على إضعافهم بالتفريق بينهم! لم أخرجتموهم بعد ذلك من المدينة مع نسائهم وأطفالهم دون أن تتركوا رهائن منهم في أيديكم؟ هل دار في خلدكم أنهم سيتفانون ليوفروا عليكم ألم الوفاء بعهودكم؟ إنكم تبغضونهم لأنهم أقوياء! وتبغضونني أنا بغضاً أشد، لأني سيدهم المؤمّر عليهم! أجل، لقد أحسست ذلك منذ هنيهة ساعة كنتم تقبلون يديّ، وأنتم ممسكون أنفسكم كي لا تعضوهما!».

فلو أن الأسود، التي كانت رابضة في الحوش، دخلت القاعة مصعدة

في زئيرها لما كانت أحدثت صراخاً وضجيجاً أشد من صراخهم المخيف. ولكن حبر أشمون هب واقفاً، وضم ركبتيه الواحدة إلى الأخرى. وأسند مرفقيه إلى جسمه، وفتح كفيه نصف فتحة وقال:

- «يا باركا، إن قرطاجة لفي حاجة إلى أن تأخذ بيديك قيادة جندها لمحاربة المرتزقة».

- «إنني أرفض هذه القيادة».

صاح رؤساء السيسيت:

- «إننا نفوّض إليك الأمر تفويضاً تامّاً. ونخوّلك السلطة المطلقة!».

- «لا».

- «بغير رقابة ولا مشاركة. لك كل المال الذي تريده وجميع الأسرى وجميع الأسلاب وخمسين مقاس «زيرتس» من الأرض عن كل جثة من جثث الأعداء».

- «لا. لا. لأنه من المحال إحراز النصر معكم».

- «إنه خائف!».

- «إنكم أنذال، بخلاء، جاحدو الجميل، ضعاف، ومجانين!»».

فقال قائل: «إنه يمالئهم». وقال آخر: «إنه ينوي تولي قيادتهم»، وقال ثالث: «ليكر بهم علينا»، وصاح هنون من أقصى القاعة: «يريد أن يصبح ملكاً».

عند هذا الكلام انتفضوا وقلبوا المقاعد والمشاعل، وهجمت جماعة منهم نحو الهيكل وخناجرهم مرفوعة، ولكن هاميلكار مدّ يديه إلى كميه وأخرج مديتين كبيرتين، وحنا ظهره نصف حنية ومد رجله اليسرى إلى الأمام، وقدحت عيناه شرراً وصرّت أسنانه، وأخذ يحدق بهم محتقراً أمرهم مستهتراً، وهم وقوف بلا حراك تحت الشمعدان الذهبي الكبير المعلق في السقف.

وللحال انكشف أمرهم وخروجهم على القانون لأنهم دخلوا القاعة ومعهم أسلحة، وتلك جريمة معاقب عليها، فأخذوا ينظرون إلى بعضهم

خائفين، ولكنهم اطمأنوا من العقاب لاشتراكهم كلهم في جريمة حمل السلاح، ثم أداروا ظهورهم للزعيم القائد وانحدروا عن درج السلم وهم مستعرون غيظاً لخيانتهم. وهكذا فإنهم تراجعوا أمامه للمرة الثانية.

بقوا وقتاً ساكنين واجمين يمتص البعض منهم الدماء التي كانت تسيل من أصابعهم، ثم يلفونها بطرف أرديتهم، وهموا بالانصراف، ولكن هاميلكار سمع قائلاً منهم يقول:

- «أجل هذا تلطف منه كي لا يحزن قلب ابنته».

وقال آخر:

- «لا شك في ذلك لأنها تختار عشاقها من البربر!».

وهنا خارت قوى هاميلكار، وتضعضع، وأخذت عيناه تبحثان عن شاهبريم، ولكن كاهن تانيت وحده كان في مكانه، ولمح هاميلكار قلنسوة شاهبريم من بعيد.

كانوا كلهم يهزأون به وبها، وكلما زادت قواه تضعضعاً كلما زادوا هم فرحاً. وبين القهقهات والصيحات كان البعيدون منه في أقصى القاعة يصيحون:

- «لقد رآه الناس خارجاً من مخدعها؟».

- «في يوم من أيام شهر تموز!».

- «هو ذاك الذي سرق الحجاب الإلهي!».

- «رجل وسيم جداً؟».

- «أكبر منك جسماً؟».

انتزع هاميلكار عن رأسه تاجه رمز كرامته وشارة رتبته، ذلك التاج ذو الصفوف الرمزية الثمانية المحلّى وسطه بصدفة من الزمرد، وألقى به بكلتا يديه وبكل قوته على الأرض، فقفزت منه حلقاته الذهبية عند تكسرها، ورنّت حبات اللؤلؤ على البلاط، فبدت على جبينه الناصع البياض ندبة جرح طويل مندمل ينتفض بين حاجبيه انتفاض الحية، وكانت جميع أعضائه ترتجف، وصعد على أحد السلالم الجانبية التي تفضي إلى

المذبح، وأخذ يمشي في أعلاه، ومعنى هذا أنه يسلم أمره إلى الآلهة ويقدم نفسه قرباناً لها، وكان انتفاض ردائه يهز أضواء المشاعل الموضوعة في مستوى أوطأ من نعليه، ورشاش المسحوق الناعم المتطاير تحت قدميه يحدق بجسمه حتى بطنه وكأنه هالة من غيم. ووقف بين رجلي الصنم النحاسي، وأخذ بكفيه من ذلك الغبار الذي كانت رؤيته وحدها تبعث الرعب في قلوب جميع القرطاجيين وقال:

- «أقسم بمشاعل بصائركم المائة وبنيران الكبار الثماني وبالكواكب والظواهر الجوية والبراكين وبكل ما يحترق، وبعطش القفر وملوحة البحار المحيطة، وبمغارة «هادروميت»، وبسلطان النفوس، وبفناء رماد أبنائكم، ورماد أخوة أجدادكم الذي أمزج به الآن رمادي، أنكم أنتم أعضاء مجلس قرطاجة المائة، قد كذبتم باتهامكم لابنتي. وأنا هاميلكار باركا، أمير البحر، ورئيس الأغنياء، والمسود على الشعب، أقسم أمام مولوخ الحامل لرأس كرأس الثور... وانتظر السامعون شيئاً مرعباً يخرج من فيه، ولكنه أتم قسمه بصوت أعلى وأكثر هدوءاً فقال:

- «بأني لن أخاطبها أبداً بشأن هذا».

في هذه الأثناء دخل الخدم المكرّسون للآلهة، ذوو الأمشاط الذهبية، يحملون إسفنجاً بلون الأرجوان وسعوفاً من النخل، فرفعوا طنافس الياقوت الأصفر المبسوطة أمام الباب، فبدت من فتحة هذه الزاوية ومن أقصى القاعات الأخرى السماء الزرقاء كأنها المصباح ترتفع في الأفق، فلطمت بأشعتها صدر الصنم النحاسي المقسم إلى سبع خانات، لكل منها باب من شبكة حديدية، فبدا فكاه ذوا الأسنان الحمر منفرجين لتثاؤبه بشكل مريع، ومنخراه الضخمان منتفخين ممددين، كما بدا كله، وقد ألهبته الشمس بنورها، بمظهر مرعب، وكأنه عيل صبراً فأخذ يتحفز للوثوب إلى الفضاء ليمتزج بالنور الإلهي فيسيرا معاً ليجتازا الفضاء الذي لا نهاية له.

كانت المصابيح الملقاة على الأرض هنا وهناك لا تزال تشتعل ناشرة

على البلاط العاجي بقعاً كبقع الدم، وأصبح المائة القدماء خائري القوى متعبين، فأخذوا يستنشقون بملء رئاتهم النسيم العليل، والعرق يتصبب من وجوههم الشاحبة، لكثرة ما ضجوا وصرخوا، وقد انقطعوا عن الحديث، ولكن غضبهم على الزعيم القائد لمّا يكن قد سكن بعد، فاستبدلوا ألفاظ الوداع بالتهديد، وهاميلكار يجيبهم بالمثل:

- «إلى الليل القادم يا باركا، في معبد أشمون».
- «سأكون هناك».
- «سنستصدر عليك حكماً من الأغنياء؟».
- «وأنا سأستصدر عليكم حكماً من الشعب».
- «حذار أن تُسمّر على الصليب؟».
- «وأنتم حذار أن تموتوا ممزقين في الشوارع؟».

ولما بلغوا عتبة الدار استعادوا هيئة الهدوء والسكينة.

كان الحوذيون والعداؤون ينتظرونهم في الباب، فانصرف أكثرهم على بغال شهب، وقفز الزعيم إلى مركبته، وأخذ أعنتها بيديه، فحنا الجوادان صهوتيهما وسارا ينهبان الأرض نهباً، حتى بدت العقاب المرفوعة فوق مجر المركبة كأنها تطير، واجتاز طريق «مابال» وهي تمر بحقل الأموات، حيث ترتفع ما فوق القبور البلاطات العالية المستوية الرؤوس ذات الشكل الهرمي، وقد نقشت عليها أكف مفتوحة كما لو أن الدفين يبسطها إلى السماء ليلتمس منها شيئاً. وعلى المقابر أكواخ وأعراش من التراب أو غصون الأشجار أو أعواد الخيزران، وكلها مخروطية الشكل، ويفصل بينها بغير نظام جدران صغيرة من الحصى، وسواقٍ وجبال من نبات الحلفاء، وسياجات من الصبار، وهذه الأكواخ تزدحم بالقرب من حدائق الزعيم.

أرسل هاميلكار بصره نحو برج كبير ذي ثلاثة طوابق بشكل ثلاث أسطوانات مبنية، أولها بالحجارة، والثاني باللبنات المشوية، والثالث بخشب الأرز. وبأعلى البرج قبة من النحاس ترتكز على أربعة وعشرين

عموداً من شجر العرعر، تنحدر منها بشكل أكاليل سلاسل صغيرة متشابكة من النحاس. وهذا البناء العالي يشرف على المباني القائمة إلى اليمين وعلى المستودعات والمحلات التجارية، بينما كان القصر المعد للنساء يقوم وراء أشجار السرو المصفوفة على الجانبين كحائطين من البرونز.

ولمّا دخلت المركبة المتجاوبة الأصداء من الباب الضيق وقفت تحت سقيفة واسعة حيث كانت الخيل المحجوزة بعقالاتها تعلف بحزم من العشب.

هرع جميع الخدم لمقابلته، وكانوا عديدين، لأن الذين يعملون في البراري أُعيدوا إلى قرطاجة لخوفهم الشديد من البربر. فالمزارعون اللابسون جلود الحيوانات يجرون السلاسل الحديدية مشدودة إلى كعوب أرجلهم، وعملة مناسج الأرجوان حمر الأذرعة كأنهم جلاّدون، والبحارة تعلو رؤوسهم القلانس الخضر، وصيادو الأسماك يتقلدون القلائد المرجانية، وعلى مناكب صيادي الطيور شباك، وجماعات «ميجارا» يلبسون قمصاناً بيضاً أو سوداً، وسراويل من جلد وقلانس من القش أو اللبد أو القماش، كل ذلك بحسب نوع الخدمة أو الصناعات المختلفة التي يزاولونها. ووراء هؤلاء جماعة من عامة الشعب في أطمار بالية، عاطلون من العمل يعيشون بعيداً عن البيوت، ينامون الليل في الحدائق ويلتقطون فضلات المطابخ، فهم بقايا آدميين متشردين يعيشون في ظلال القصر. وهاميلكار يتسامح معهم ويتجاهل وجودهم لبعد نظره ورويته لا لأنفته وكبريائه. وكان كل منهم يضع زهرة وراء أذنه إظهاراً لفرحه بعودة سيده، ولو أن الكثير منهم لم يروه من قبل. وأقبل رجال يلبسون قلانس كقلنسوة أبي الهول، وبأيديهم هراوات، فأخذوا يضربون في الأقفية يميناً ويساراً ليبعدوا الفضوليين والعبيد، ترويحاً عنه وخشية أن يضيق صدراً بروائحهم الكريهة.

جثوا كلهم أرضاً وهم يصيحون: «يا عين البعل، عمرت دارك

وازدهرت!». وبين هؤلاء الساجدين تقدم ناظر القصر والقيّم الأكبر أبدالونيم، وعلى رأسه قبعة بيضاء وبيده مبخرة.

كانت سلامبو حين ذاك تنزل السلم ووراءها جميع جواريها ووصائفها. تخطو فيمشين. وتقف فيقفن. فعلى رؤوس الزنجيات منهن طرر سود كبيرة في صف من العصبات عليها صفائح من ذهب عصبنها على النمط الروماني، وعلى شعور الأخريات أشباه سهام من الفضة أو فراشات من الزمرد أو دبابيس صُفت بشكل شموس، وعلى أثوابهن البيض، أو الصفر، أو الزرق، تلمع الحلقات والمشابك والعقود والأساور والزركشات، يمشين وحفيف أثوابهن المخيطة من قماش خفيف يمتزج بحفيف نعال المنتعلات ووقع أقدام الحافيات على خشب السلم، وأمامهن يسير خصيّ يعلوهن بكتفيه، يبتسم ووجهه مرفوع إلى الهواء.

حين انتهى الرجال من ترديد الهتاف غطّت الجواري وجوههن بأكمام قمصانهن، وصعدن معاً صراخاً غريباً شبيهاً بعواء الذئبات، بلغ من الشدة والحدة مبلغاً خيل معه أن سلم الأبنوس الكبير يخرج رنيناً كرنين الأعواد. كل هذا والريح تلاعب براقعهن، وسوق البردى الرفيعة تتمايل تمايلاً خفيفاً، وشجر الرمان المزهر يرفع سنام أغصانه نحو زرقة السماء. ومن خلال الأغصان يظهر البحر وعليه رست جزيرة بعيدة تكاد تضل في الضباب. ووقف هاميلكار لما برزت سلامبو.

وُلدت سلامبو بعد فقد هاميلكار لعدد كبير من أبنائه الذكور. وولادة البنات تعتبر كارثة عند عبدة الشمس والكواكب. وهو الآن، وإن كان قد صب عليها اللعنة، إلاّ أنه لا يزال يتعلق بخيط من الأمل يزيل الشك ويمحو اللعنة.

استمرّت سلامبو تتقدم نحوه واللآلئ ذات الألوان المتنوعة تتدلى كعناقيد كبيرة من أذنيها على كتفيها وحتى مرفقيها، وفرع رأسها مصفّف مجعد ملبد كغيوم السماء، وحول عنقها صفائح صغيرة ذهبية ذات أربع زوايا تمثل رسم امرأة بين أسدين رابضين، وثوبها تقليد تام لثوب الإلهة،

فهو من الياقوت، واسع الأكمام، يشد على قامتها من أعلاه ويتسع من أسفله، وصباغ شفتيها القرمزي يزيد في بياض أسنانها، وكحل عينيها يطيل من جفنيها، ونعلاها المصنوعتان من ريش الطيور عاليتا الكعبين، وهي شاحبة اللون شحوباً سببه البرد بلا شك!

وصلت بعد جهد إلى حيث وقف هاميلكار. ودون أن تنظر إليه أو ترفع رأسها نحوه حيته بقولها:

ـ «سلام يا عين بعليم! لك المجد الأبدي والنصر الدائم وسعة الزمان! لك الرضا والغنى! لقد طال حزن قلبي وضنى البيت! لكن ربه العائد الآن هو كتموز الذي بعث حيّاً. وتحت نظرك يا أبتاه يزدهر الفرح وتنبعث الحياة الجديدة في كل مكان».

ثم تناولت من يد طناش آنية مستطيلة فيها مزيج ساخن من الدقيق والزبدة وحب الهال والنبيذ وقالت:

ـ «اشرب ملء شفتيك شراب العودة الذي أعدّته لك خادمتك».

فأجابها:

ـ «عليك البركة».

وتناول بحركة آلية الآنية الذهبية التي قدمتها إليه وهو يحدق بوجهها بخشونة ظاهرة. فتمتمت سلامبو وهي تضطرب:

ـ «لقد قيل لك أيها السيد...

ـ «أجل عرفت...».

فهل كان ذلك اعترافاً منها أم أنها كانت تعني البربر وأعمالهم؟! ثم تمتم بعض كلمات خاصة بالشؤون العامة والمصاعب التي يأمل أن يجتازها بنفسه فقالت:

ـ «لن تمحو يا أبي ما ليس بالإمكان تعويضه».

فارتدّ إلى الوراء وتحوّل عنها.

استغربت سلامبو ذهوله واضطرابه، لأنها لم تكن تفكر بقرطاجة، بل بانتهاك حرمة الحجاب الذي شاركت بانتهاكه. وأخافها كما تخيف

الآلهة هذا الرجل الذي ترتجف لهوله الكتائب والذي لا تكاد تعرفه. وقدرت أنه مطّلع على كل شيء... وأن أمراً فظيعاً هائلاً سيطبق عليها فصاحت:

- «عفوك؟ عفوك!» وحنا هاميلكار رأسه ببطء.

كانت تود أن تشكو ولكنها عجزت عن فتح شفتيها على ما بها من حاجة إلى الشكوى... وإلى التعزية، وهاميلكار يحارب في نفسه الرغبة الملحة التي كانت تدفعه إلى الحنث بقسمه الذي كان يتمسك به إما إرضاء لكبريائه، وإما لخشيته أن يتحول شكه إلى يقين. فأخذ يحدق بها تحديق الفاحص لعله يستطلع ما تخفيه في أعماق قلبها، ورأس سلامبو يغوص شيئاً فشيئاً بين كتفيها، لأن تلك النظرات الفاحصة المستطلعة شدت عليها فسحقتها سحقاً. وأصبح هاميلكار موقناً من سقوطها بين ذراعي بربري من أولئك البربر، فرفع قبضتي يديه نحوها وقد أخذته الرعدة، فصرخت صرخة أليمة... وسقطت على الأرض بين جواريها اللائي التففن حولها منعطفات.

دار هاميلكار على عقبية وتبعه حراسه.

فتحوا باب المستودعات فدخل إلى قاعة فسيحة مستديرة يتفرع منها ممرات طويلة تفضي إلى قاعات أخرى، وفي الوسط مصطبة حجرية لها مرافق تستند عليها وفوقها وسائد مكدسة على أبسطة.

أخذ الزعيم القائد يمشي بخطى سريعة واسعة، جيئة وذهاباً، ويصعّد أنفاساً ويضرب الأرض بقدميه، ويمر بيده على جبينه كمن يزعجه الذباب. وسرّي عنه لما رأى تراكم غناه فسكن غضبه، واتجهت أفكاره إلى ما في الغرف الأخرى من خيرات وكنوز أعظم وأندر مما يراه أمامه من صفائح البرونز وقضبان الحديد وسبائك الفضة والقصدير التي جيء بها من «كاسيتريدس» من طريق بحر الظلمات، ومن صمغ بلاد الزنوج المعبأ بأكياس من ألياف النخل، ومن التبر المحشو في قرب يتسرب منها إلى الخارج لبلاء خيوطها بتراخي الزمن، ومن ألياف مسحوبة من نباتات

بحرية معلقة بين كتان مصر واليونان، وثابروبان واليهودية، ومن عروق اللؤلؤ الشائكة كالعليق المكدسة إلى جانب الحيطان. وكانت القاعة عابقة برائحة من امتزاج العطور بالجلود والبقول، وبريش النعام المحزوم باقات تتدلى من قبة السقف. وأمام كل ممر أنياب فيلة مرصوصة عمودياً بحيث تلتقي أطرافها فيتكون منها قوس يعلو الباب.

ارتقى المصطبة، ووقف أمامه جميع الوكلاء والأمناء مصلبي الأيدي.. مطأطئي الرؤوس. بينما كان أبدالونيم يرفع بكبرياء قلنسوته المقزّزة.

راح هاميلكار يطرح الأسئلة على رئيس السفن، وهو مرشد مسنّ قلبت الريح جفنيه، وتدلت شعرات لحيته البيض حتى وركيه، كما لو كان زبد زوابع البحر لا يزال عالقاً بها.

أجاب هذا بأنه أرسل عمارة من السفن من طريق «جاديس» و«تيمياماتا» لتحاول بلوغ «أزيون جاير» مارة بقرن الجنوب ورأس «الأرومات»، وأن سفناً أخرى اتجهت إلى الغرب فمكثت أربعة أشهر قمرية دون أن ترى برّاً أو يابسة، وأن مقادم السفن كانت تلتف عليها الأعشاب، وصدى تدفق الشلالات يرتفع إلى الأفق بلا انقطاع، والضباب بلون الدم يغطي وجه الشمس، ويهب نسيم معطر فيبعث النعاس في جفون الملاحين حتى أنهم اليوم لا يستطيعون وصف ما وقع لهم لاضطراب ذاكراتهم. وتوصلت هذه السفن إلى أنهار «شيت» وإلى دخول «كلوشيديا» وبلاد الجوجيريان والإستيان، واختطف تجارها ألفاً وخمسمائة عذراء من الأرخبيل وأغرقوا جميع ما التقوا به من مراكب لكي تظل أسرار الطرق البحرية مجهولة من غيرهم. وحدثوا أن الملك بطليموس يحجز لديه بخور «شسبا»، وأن سرقسطة وأيلاتيا وكورسيكا والجزر لم تمدهم بأي شيء. ثم خفض رئيس السفن صوته وأردف قائلاً: «لقد استولى النوميديون في روسكارا على سفينة لنا مثلثة الصفوف لأنهم أصبحوا حلفاء للبربر، يا مولاي». فقطب هاميلكار حاجبيه وأذن بالكلام لرئيس الأسفار، وكان متّشحاً ثوباً غامقاً، ورأسه مشتمل بشملة قماش

أبيض يلفها تحت ذقنه إلى الوراء، على الكتفين، فقال:

«لقد سافرت القوافل بانتظام عند اعتدال فصل الشتاء، وعليها ألف وخمس مائة رجل اتجهوا بها إلى أقصى بلاد إثيوبيا على جمال من خيرة الجمال، ومعهم قِرَب ماء جديدة وبضائع من النسيج المرقش، فلم يعد منهم إلى قرطاجة إلاّ واحد فقط، وأما الآخرون فهلكوا من التعب أو مسهم الجنون لما قاسوه من أهوال الصحراء. وزعم الرجل الذي نجا أنه رأى بعيداً وراء «هاروش» السوداء وبعد الأترانت وبلاد القردة الضخام، ممالك شاسعة أحقر الأدوات المستعملة فيها هي من الذهب الخالص، كما رأى نهراً ماؤه بلون الحليب واسعاً كالبحر، وغابات أشجار زرقاء، وآكاماً مليئة بالعطور، ومسوخاً بشكل آدميين تعيش على الصخور إذا التفتت تفتحت عيونها كأزهار، ووراء ذلك بحيرات مليئة بالحيتان.. وجبال بلور تتكئ عليها السماء.

وقد عاد رجال القوافل من الهند يحملون الطواويس والفلفل والمنسوجات الجديدة الصناعة. وأمّا الذين ذهبوا لابتياع النساء «الكلسيدونيات»، سالكين طريق سرت ومعبد آمون، فقد هلكوا بين الرمال. وأما قوافل «جيتوليا» و«فزان» فقد جلبت البضائع المعتاد جلبها». ثم أردف رئيس الأسفار فقال: «وأمّا الآن فإني لا أجرؤ على إرسال أية قافلة».

أدرك هاميلكار أن المرتزقة يحتلون البراري، فصعد أنّة واتكأ على مرفقه الآخر، وأحجم ناظر الزراعات عن الكلام لخوفه وارتعاده رغم تكتل منكبيه واحمرار حدقتي عينيه، وكأن وجهه الشبيه بوجه الكلب الضخم قد حيك بخيوط من خيوط قشور الأشجار، وكان يتمنطق بحمالة من جلد الببر محتفظة بجميع وبرها، غرز فيها مديتين كبيرتين.

ولم يكد يحوّل وجهه عنه حتى أخذ يقسم بجميع البعول بأن الذنب ليس ذنبه، فإنه كان يراعي طبيعة الجو ويراقب الأرض والكواكب ويغرس النبات ويلقي البذور عند انقلاب الشمس الشتوي، ويشد بها عند نقصان

القمر، ويسهر على العبيد ويحرص على ملابسهم.

ثارت ثائرة هاميلكار لثرثرته وخرجت قعقعة من لسانه، فعجل الرجل بقوله:

«آه. يا مولاي! لقد نهبوا وسلبوا وخربوا كل شيء! قطعوا ثلاثة آلاف شجرة في «ماشالا»، وأتلفوا صوامع الغلال في «أوثادا»، وردموا الآبار، واستولوا على ألف وخمس مائة كيلة من الدقيق في «مرازانا»، وقتلوا الرعاة وأكلوا القطعان وأحرقوا منزلك الجميل المسقوف بخشب الأرز الذي كنت تصطاف فيه، وهرب إلى الجبل عبيدك الذين كانوا يطبخون الشعير، وساقوا أمامهم الحمير والبغال كبيرها وصغيرها وأبقار «تاورمين» والخيول الأصائل، فلم يبق من ذلك كله شيء. تلك لعنة من اللعنات، ولن أعيش بعد اليوم. آه يا مولاي، كانت الأهراء ملأى والمحاريث لماعة. أسفي على تلك الكباش والثيران الجميلة».

كاد غضب هاميلكار يخنقه فانفجر صائحاً:

- «اسكت! اسكت! أتراني فقيراً؟ لا أريد كذباً، بل أريد أن أعرف ما خسرت وفقدت حتى آخر «بيكا»! أنت يا أبدالونيم أحضر لي حساب المراكب والقوافل والزراعات والمنزل. وأنتم ويل لكم! هيا اخرجوا!».

خرج الوكلاء يمشون القهقرى وقبضات أيديهم متدلية حتى الأرض، وخف أبدالونيم إلى خزانة ذات رفوف مثبتة في الحائط فسحب منها حبالاً مليئة بالعقد، وشرائط من القماش والبردى، وعظام أكتاف خرفان مليئة بالكتابات الرفيعة، وعاد فوضعها عند قدمي هاميلكار، كما وضع بين يديه إطاراً خشبياً أثبتت فيه من الداخل ثلاثة أسلاك ينتهي كل منها بكرات من الذهب أو الفضة أو القرون. وبدأ بالحساب فقال:

«مائة واثنان وتسعون بيتاً مؤجرة للقرطاجيين الجدد بإيجار قدره «بيكا» للبيت، عن كل شهر قمري.

- لا. لا هذا كثير! تساهل مع الفقراء واستكتب أسماء الذين تراهم ذوي جرأة بعد أن تتحقق أنهم مخلصون للجمهورية.

انتزع هاميلكار الشرائط من يديه وأخذ يقرأ ثم قال:

ـ ما هذا؟ ثلاثة قصور حول معبد خامون تؤجرها باثني عشر «كينريتا» شهريّاً؟ ارفع الإيجار إلى عشرين، لأني لا أريد أن أكون غنيمة للأغنياء.

فانحنى أبدالونيم وعاد يقرأ:

ـ أقرضنا تيجيلاس حتى آخر الفصل «كيسكارين» بثلاثة بسعر الفوائد البحرية وكبار مالكاريت خمس مائة «سيكل» برهن على ثلاثين عبداً، فمات منهم اثنا عشر في أعمال المستنقعات المالحة.

ـ يظهر لي أنهم لم يكونوا أشداء. لا بأس، أقرضه أيضاً إذا كان بحاجة إلى النقود. يجب أن نقرض دائماً بفوائد تختلف باختلاف غنى المقترضين.

وتلا الخادم بياناً بجميع ما أنتجته من الأرباح معادن حديد «عنابة»، ومصائد المرجان، ومناسج الأرجوان، والضرائب المضروبة على الإغريق المقيمين، وتصدير الفضة إلى بلاد العرب، حيث كان ثمنها أغلى من الذهب عشر مرات، والاستيلاء على المراكب بعد خصم عشرة بالمائة لمعبد الآلهة. وهنا لاحظ أبدالونيم بأنه كان يخفي ربع الدخل الحقيقي، كي لا يدفع عنه الضريبة المستحقة للآلهة. وكان هاميلكار يراجع الحساب على الكرات التي كانت تسمع طقاتها تحت يديه.

قال هاميلكار:

ـ «يكفيني هذا فما الذي دفعته؟»،

ـ دفعت إلى سترانيكليس من قورنثية وإلى ثلاثة تجار من الإسكندرية بموجب هذه الرسائل عشرة آلاف دراخمة يونانية واثني عشر «تالنت» ذهباً سوريّاً. وبلغ ثمن طعام البحارة عشرين «مينا» في الشهر عن كل سفينة..

ـ أعرف ذلك! وما هي الخسائر؟

ـ إنها مكتوبة على الألواح الرصاصية، وأمّا في ما خص السفن المشحونة شراكة، فقد حدث مراراً أن اضطر البحارة إلى رمي البضائع في

البحر، فقسمت الخسائر على أفراد الشركاء، وأما الحبال التي اقترضناها من مصانع السفن فقد استحال علينا ردّها، ففرض علينا «السيسيت» ثمانمائة «كازيتا» ثمناً لها.

فقال هاميلكار وقد حنى رأسه: «لا يأتيني الشر إلاّ منهم دائماً».

وظل هنيهة واجماً وكأنه قد رزح تحت ثقل هذه البغضاء الموجهة إليه، ثم قال: «ولكنني لا أرى حساب ميجارا». فاصفر وجه أبدالونيم وتناول من خانة أخرى ألواحاً من خشب الجميز ملفوفة لفات بسيور من جلد، وأخذ يتلو الأرقام بعد الأرقام، وهاميلكار يستمع إليه متسلّياً بحساب الخدم وبوحدة سياق ذلك الحديث الممل. وإذا بأبدالونيم يتباطأ في قراءته، ثم تساقطت من يديه ألواح الخشب وانطرح على الأرض وذراعاه مرفوعتان كأنه في موقف المجرمين المحكوم عليهم. فالتقط هاميلكار الألواح دون أن يبدو عليه تأثير، ولكن شفتيه أخذتا تنفتحان وعينيه تتسعان لما ظهر له من أن نفقات يوم واحد بلغت مبلغاً هائلاً ثمناً للحوم وأسماك وطيور وخمور وعطور وآنية مكسرة وعبيد مقتولة وأبسطة مفقودة. وقص عليه أبدالونيم وهو جاثٍ على ركبتيه قصة وليمة البربر، وقال إنه يمكنه أن يتملص من الأمر الذي صدر إليه من القدماء ولا سيما أن سلامبو أوصت بإنفاق المال بسخاء لكي يُستقبل الجند أكرم استقبال.

لم يكد هاميلكار يسمع اسم ابنته حتى انتفض واقفاً وزم شفتيه وجلس القرفصاء على الوسائد، وأخذ يقطع حواشيها بأظفاره وهو يلهث وحدقتاه جامدتان، وقال لخادمه:

- «انهض» ثم نزل عن المصطبة ومشى.

لحق به أبدالونيم ورجلاه ترتعشان. ثم تناول قضيباً حديدياً وأخذ يخلع البلاط وهو هائج، فقفز قرص خشبي من مكانه، وبدت على طول الرواق أغطية كثيرة واسعة مما يستعمل لسد الصوامع المعدة لحفظ الحبوب.

قال أبدالونيم: «أرأيت يا مولاي، يا عين البعل! إنهم لم يستولوا على كل شيء، كل هذه الصوامع بعمق خمسين ذراعاً، وهي مليئة حتى

الحوافي، وفي أثناء غيابك حفرت الكثير من هذه الصوامع تحت المصانع وفي الحدائق وفي كل مكان. هذا بيتك مليء بالقمح كما أن قلبك مليء بالحكمة».

ارتسمت ابتسامة على وجه هاميلكار وقال: «هذا حسن يا أبدالونيم» ثم مال إلى أذنه وهمس فيها: «جيء بالقمح من «إترووريا» ومن «برسيوم» وخزن واحرس. يجب أن أستولي أنا وحدي على جميع قمح قرطاجة».

ولما بلغا آخر الممر فتح أبدالونيم بمفتاح معلق في حزامه باب قاعة كبيرة مربعة الزوايا مقسمة أقساماً بدعامات الأرز، فظهرت أكداس من نقود الذهب والفضة والنحاس مرصوفة على الطاولات أو موضوعة في كوى غير نافذة محفورة بالحيطان، ترتفع حتى جوانب السقف، وهناك في زوايا القاعة قفف متناهية في السعة من جلد جاموس البحر تحوي صفوفاً صفوفاً من الأكياس الصغيرة، وعلى البلاط أكداس عملة الجلد كأنها تلال، وهنا وهناك صفوف تساقطت فبدت كأنها عمد متداعية. وكانت قطع نقود قرطاجة مطبوعاً على الكبيرة منها صورة الإلهة تانيت على جواد وفي ظل نخلة، وكانت هذه القطع مختلطة مع عملات المستعمرات المطبوع عليها ثور وكواكب أو قرص أو هلال. وهناك أيضاً نقود من جميع القيم والأحجام والعصور: فمن عملة الأشوريين التي هي أرق من الظفر، إلى عملة لاسيوم القديمة التي هي أكثر سمكاً من الكف. ويضاف إلى هذه العملات أزرار «أجينا» وصفائح «باكتريانا» وقضبان «لاسيديمونيا» القديمة، وكثيرمن هذه القطع كان يعلوها الصدأ أو نثارة الحديد أو الاخضرار لملامسة الماء أو يكسوها السواد بفعل النار، لأنها كانت مستخرجة من البحر بشباك أو ملتقطة من أنقاض المدن بعد فتحها وإحراقها.

استطاع هاميلكار ن يقدّر ما إذا كانت تلك المبالغ تلائم الأرقام التي تليت عليه من أرباح وخسائر، وهمّ بالانصراف، وإذا به يرى ثلاث جرات من العملات النحاسية فارغة، فأدار أبدالونيم عينيه استفظاعاً للأمر، وظل

هاميلكار ساكتاً سكوت المستسلم.

عبرا ممرات وقاعات أخرى، ووصلا في نهاية سيرهما أمام باب قُيّد حارسه ـ لكي يحسن الحراسة ـ بسلسلة لفّت حول بطنه وأثبتت في الحائط، وتلك عادة من عادات الرومان مستحدثة في قرطاجة، وكانت لحيته وأظفاره قد نمت وطالت طولاً شنيعاً، وهو يتأرجح يميناً ويساراً، كما تتأرجح الوحوش الأسيرة في الأقفاص. وما كاد الرجل يتعرّف إلى هاميلكار حتى مال نحوه وهو يصيح: «عفوك عفوك يا عين البعل..؟ رحماك مر بقتلي؟ لقد مرت عليّ عشر سنوات لم أر فيها الشمس. أستحلفك باسم والدك أن تعفو عني».

لم يجبه هاميلكار بل صفق بيديه، فظهر ثلاثة رجال وتعاون أربعتهم وهم يشدون عضلاتهم حتى استطاعوا أن يسحبوا من بين السلاسل قضيب الحديد الضخم الذي كان يقفل الباب. وأخذ هاميلكار مشعلاً واختفى وسط الظلمات. كان هذا ـ على زعم الزاعمين ـ مكان دفن أموات الأسرة، ولكن الداخل لا يجد إلاّ بئراً واسعة حفرت لتضليل اللصوص ولا شيء فيها مخبأ. ومر هاميلكار بجانب البئر وهو منحني الرأس قليلاً، وأدار على لوالبها رحى ثقيلة كل الثقل، فبدت فجوة ولج منها إلى حجرة مبنية بشكل كرز صنوبر.

كانت قشور النحاس تغطي الجدران، وفي الوسط وعلى قاعدة من حجر الصوان ارتفع أحد الآلهة الكبار واسمه «ألسيتس» مكتشف المناجم في «سلتبيريا». وعلى الأرض وإلى جانب القاعدة وضعت على شكل صليب تروس عريضة من ذهب وآنية من فضة بشكل قبيح مقفولة الفتحات بشكل أقبح، بحيث لا يمكن الانتفاع بها، كان ذلك من عاداتهم أن يصهروا كميات ثقيلة من المعادن بهذه الصورة كي لا يُستطاع نقلها أو سرقتها أو تبديدها.

أشعل هاميلكار من ذبالة مشعاله فانوساً مما يستعمل في المناجم كان موضوعاً على قلنسوة الصنم، فأشرقت في القاعة نيران خضر وصفر وزرق

وبنفسجية وخمرية وبلون الدم، ذلك أنها كانت ملأى بالحجارة والجواهر المعبأة بقوارير من ذهب معلقة كالمصابيح بأسلاك النحاس، أو مصفوفة بحسب أنواعها في أسفل الحائط: فمنها البهرمان المتجمّد من بول الفهد، والنيازك المتساقطة من القمر، والماس والسندروس والزبرجد واللازورد، والياقوت بأنواعه الثلاثة، والسفير بأنواعه الأربعة، والزمرد بأنواعه الاثني عشر، وهذه الحجارة تشع وتتوهج كرشاش الحليب، أو كقطع الجليد الزرق، أو كمذاب الفضة، وترسل أضواءها أسمطة أو بسطاً أو إشعاعاً أو كواكب. وكانت الحجارة التي حملت بها الرعود تلمع إلى جانب حجارة «كلسيدونيا» التي تشفي من السموم، وحجارة الزبرجد المجلوبة من «زابركا» لتقي من الرعب، والحجارة البنية المجلوبة من «بكتريانا» لتمنع إجهاض الحوامل، وقرون آمون التي توضع تحت الأسرّة لتوحي بالأحلام.

كانت أنوار الجواهر، ولهب المصباح، تتراءى في التروس الكبيرة الذهبية الصافية كالمرايا، وهاميلكار واقف يبتسم متلذذاً بفكرة غناه أكثر من تلذذه بتلك المناظر، فثروته محصنة ممتنعة لا نفاد لها ولا نهاية، وأجداده النائمون تحت قدميه يفيضون على قلبه شيئاً من خلودهم فيشعر أنه قريب جد القرب من عباقرة ما تحت الأرض من الآلهة، وبدت له الأشعة المتألقة المنعكسة على وجهه كأنها نهاية خط غير منظور مار فوق وهاد يربطه بنقطة دائرة العالم.

وخطرت له خاطرة فارتجف ووقف وراء الصنم، ثم مشى بخط مستقيم نحو الحائط، فنظر نظرة فاحص إلى الوشم المطبوع على ذراعه فتبيّن فيه خطّاً أفقيّاً بجانب خطين عموديين أي رقم ١٣ باللغة الكنعانية. ثم بدأ يعد صفائح النحاس حتى وصل إلى الثالثة عشرة، فمد ذراعه اليمنى وقرأ في مكان آخر منها خطوطاً أدق من الأولى، وهو يمر بأصابعه برفق على الحائط كما يفعل ضارب العود، وأخيراً ضرب بإبهامه سبع ضربات، وإذا بجزء كبير من الحائط يدور على نفسه، وانكشف قبو مخبأة فيه أشياء

سرية لا أسماء لها، ولكنها ذات قيمة لا تقدّر، فنزل هاميلكار ثلاث درجات وأخذ من دن فضّي جلد حيوان اللاّما الطافي على سائل أسود وصعد إلى حيث كان.

اندفع أبدالونيم يسير أمامه ويضرب على البلاط بعصا عند مقبضها جلاجل معلقة وهو ينادي أمام كل غرفة باسم هاميلكار، مصحوباً بالبركات والدعوات والمديح والثناء. وفي الرواق الدائري، حيث تنتهي جميع الممرات، كانت تتراكم إلى جانب الحيطان جسور البطم، ودروع السلاحف المليئة باللآلئ، وأقراص من تراب «ليمنوس». كان القائد يلمسها بثوبه وهو مار دون أن يلتفت إلى القطع الضخمة من العنبر الذي يكاد يكون إلهيّاً لأن أشعة الشمس قد كوّنته، وانتشر بخار تتفرع منه رائحة، فقال هاميلكار لخادمه: «افتح هذا الباب» ودخلا.

وإذا هما برجال عراة يعجنون العجائن ويسحنون الأعشاب ويحركون الفحم ويصبون الزيت في الجرار، ويفتحون الخلايا البيضوية العديدة، المحفورة حوالى الحائط، وكأنها خلايا النحل، وهي مليئة بالأهليج والزعفران والبنفسج، وهنا وهناك أنواع الصموغ والمساحيق، والجذور والأغصان والأزهار، وقماقم الزجاج، حتى ليكاد المرء يختنق من تصاعد الروائح رغم دوران المراوح القائمة على مواطئ نحاسية تملأ المكان بصريرها.

تقدّم رئيس الروائح العطرية الشاحب اللون الطويل كعود من شمع نحو سيده ليدهن يديه بعطر نادر، وتبعه اثنان من العمّال ليدهنا قدميه بأوراق البكاريس، فصدهم عنه لأنهم كانوا من القيروان ومن ذوي الأخلاق المرذولة، على أنهم كانوا مشمولين بالرعاية لاحتفاظهم بأسرار صناعتهم.

وإظهاراً لحذقه لصناعته قدّم رئيس الروائح العطرية للقائد مزيجاً في ملعقة من الفضة المذهبة، ثم ثقب بمخرز ثلاثة حقاق هندية وقدّم له بلسماً عطريّاً من صنعه، وكان هاميلكار عليماً بأساليب الغش والتقليد، فأخذ قرناً مليئاً من ذلك البلسم وقرّبه من الجمر ثم صب منه على ثوبه فبدت فيه بقعة

سمراء فاتّضح له الغش، فجحظ رئيس العمال بنظرة قاسية، وقذف القرن بوجهه، ولكنه رغم ما تظاهر به من استنكار الغش أمر العمّال ـ وقد رآهم يحزمون حزماً من الناردين للتصدير ـ بأن يخلطوا الناردين بالكحل ليثقل الوزن.

طلب أن يأتوه بثلاثة حقاق من مسحوق صنع له خصيصاً، فادّعى رئيس معمل العطور بأنه لا يدري شيئاً من أمر هذا المسحوق وأن جماعة من الجنود دخلوا عليه والمدى بأيديهم وصاحوا به مهددين فاضطر إلى فتح الأدراج لهم. فقال له هاميلكار: «إذاً أنت تخشاهم أكثر مما تخشاني!»، وبدت عيناه من خلال الدخان تقدحان شرراً في وجه ذلك الرجل الطويل المتمدد الذي أحس بحرج موقفه.

صاح هاميلكار بأبدالونيم: «مزق جسده بالسياط قبل أن تغيب الشمس».

هذا الأذى الذي لحق به ليس بذي بال ولكنه أثار مع ذلك غضبه، لأنه أذكره ـ وهو يحاول أن ينسى ـ بالبربر، ودائماً بالبربر الذين يعيد ذكرهم إلى ذهنه عار ابنته، فأصبح موغر الصدر على رجاله وخدم بيته، الذي يعرفون دون شك ما وقع لابنته ويكتمون عنه أمرها. وأحس بشعور خفي يدفعه إلى الارتماء في أحضان مصيبته، وأثار فيه هذا الشعور حب البحث والاستقصاء، فأخذ يتفقد جميع المخازن المعدة للقار والخشب والمراسي والحبال والعسل والشمع، ومستودعات الأقمشة والمؤن، ومعامل الرخام والمرمر وصوامع «السيلفيوم».

ثم انتقل إلى الجهة الأخرى من الحدائق يستقصي في الأكواخ أعمال الصنّاع من عبيده وخدمه الذين كانت مصنوعاتهم تباع في الأسواق: فهنا الخياطون يفصّلون ويطرزون الأردية والمعاطف، أو يجدلون الشباك، وهناك المنجدون يملأون الوسائد، والإسكافيون يصنعون الأحذية. وهناك عمال مصريون يصقلون بالأصداف أوراق البردى، وحاكة يقرقعون بمكاكيكهم، وصانعو الأسلحة والصياقل يملأون الجو صخباً

بالضرب على سنداناتهم. فوقف هاميلكار إلى جانب هؤلاء وقال لهم:

ـ «اصنعوا السيوف والحراب، وأكثروا منها، فإني في مسيس الحاجة إليها»، ونزع عن صدره درعه المصنوعة من جلد بقر الوحش، والمسقية بالسموم، ودفعها إليهم لكي يصنعوا له درعاً أمتن من الدروع النحاسية بحيث لا يؤثر فيها الحديد ولا النار.

وكان كلّما مر بفئة من العمال كلما عمد أبدالونيم إلى تحقيرهم والحط من قيمة مصنوعاتهم لكي يصرف غضب سيده عنه ويحوّله إليهم فيقول لهم: «ما هذا العمل المخجل! لا شك بأن مولانا طيب القلب متسامح».

وكان هاميلكار يتابع سيره دون أن ينبس ببنت شفة.

أبطأ من سيره ووقف ينظر إلى دوحات الأشجار التي اعترضته في سبيله وقد استحالت إلى فحم كما تستحيل أشجار غابة نزل فيها رعاة يستدفئون، ورأى السياجات والحواجز وقد تحطمت، وحديقته وقد لعبت بها يد الخراب، فمن جداول نضب ماؤها، إلى قطع من الزجاج المتكسر، ومن عظام قردة ملقية في حمأة من المستنقعات، إلى شرائط أطمار من قماش عالقة بالأشواك، وزهرات ليمون ارتمت تحت أشجارها كوماً من السماد الأصفر. لقد أهمل خدمه وعبيده كل شيء لظنهم بأن مولاهم لن يعود أبداً.

كان كلما خطا خطوة كلما زاد يقيناً بفداحة الكارثة، وعثر على دليل جديد لحدوث ذلك الشيء الذي أقسم على أن لا يتثبّت منه، لقد علقت الأقذار بطماق حذائه الأرجواني، وهو جاد في سيره، ومع ذلك فهو لا يقوى على إهلاك أولئك الرجال مجتمعين كتلة واحدة بقذائف منجنيقه فيطيرون شظايا وهباءً منثوراً. وأحس بأنه قد حقّر نفسه بدفاعه عنهم، وأن دفاعاً كمثل هذا يعد مخادعة وخيانة. ولما كان عاجزاً عن إنزال انتقامه بالبربر أو بالقدماء أو بابنته سلامبو فقد أمر بأن يرسل في الحال جميع العبيد المولجين بخدمة الحدائق إلى المناجم دفعة واحدة.

وأبدالونيم يرتعد خوفاً ويزداد رعباً كلما توغل سيده قُدُماً في الحدائق،

ولكن هاميلكار تحول إلى الممر الذي يفضي إلى المطاحن حيث ترتفع أصوات مزعجة.

هناك في وسط غبار عجاج كثيف تدور رحى مؤلفة من حجرين من البرفير يطبق الواحد منهما على الآخر، وأعلى الحجرين ذو لهوة مفتوحة مرت بها قضبان متينة تدار بها الرحى، وهناك حولها رجال بعضهم يدفعونها بصدورهم وأذرعتهم، وبعضهم يشدون وقد ربطوا كالبهائم إلى نير فأحدث احتكاك أجسادهم باللبب أو سيور الجلد قروحاً متقيّحة تحت آباطهم كالقروح المشاهدة على غوارب الحمير، وتدلت كأذنابها أطراف أطمارهم السود التي لا تكاد تغطي أوراكهم على عراقيبهم، ونفرت من محاجرهم عيون بحمرة الدم، وعلت قرقعة السلاسل في أرجلهم، وكمت أفواههم بكمام أثبتت بسلسلتين من البرونز ليستحيل عليهم لعق الدقيق، كما وضعت في أيديهم كفوف حديدية تمنعهم من تناوله بأيديهم. وبدا هاميلكار فقعقعت قضبان الخشب أشد من ذي قبل، وطقت الحبوب، وجثا الكثيرون على ركبهم فمر الآخرون فوق أجسامهم. فاستدعى «جدنيم» حاكم العبيد، فأقبل يدل بوظيفته وبقميصه الأرجواني المفتوح من جانبيه، وبأقراط ثقال تشد أذنيه، وبسلك ذهبي يربط به شرائط القماش الملفوفة على ساقيه، سلك يصعد من كعبيه إلى وركيه كأنه حية ملتفة. وكان ممسكاً بأصابعه بقلادة من حب اليسر يهتدي بها إلى الرجال المعرضين للجذام أو المرض المقدس.

أمره هاميلكار بإشارة أن ينزع الكمامات عن أفواه الرجال، فارتموا على الدقيق يزدردونه كالوحوش الجائعة، ووجوههم غائصة في أكوامه.

وقال القائد: «إنك تستنفد قواهم».

فأجاب حاكم العبيد: «لا بد من هذا لترويضهم».

فقال له هاميلكار: «لم أجن أية فائدة من إرسالك إلى مدرسة العبيد في سرقسطة. أحضر جميع الآخرين».

جيء بالطباخين ووكلاء المؤن والسياس والعدائين وحملة المحفات

والفرانين، وبالنساء وأطفالهن، فاصطفوا في البستان صفّاً واحداً، ابتداء من محل التجارة حتى حظيرة الضواري، وهم يكتمون أنفاسهم، وبدا السكوت مخيّماً على ميجارا، والشمس تنشر أشعتها على المستنقع في أسفل مغاور القبور، والطواويس تعالي بصراخها، وأخذ هاميلكار يمشي أمامهم خطوة فخطوة، ثم قال لحاكم عبيده:

- «ما الفائدة من هؤلاء الشيوخ؟ بعهم، إن بينهم كثيراً من الغوليين السكيرين وكثيراً من أهل كريت الكذابين. بعهم واشتر لي من أهل كبادوسيا ومن الزنوج والآسيويين».

ثم أبدى دهشته لقلة المواليد وقال:

- «يجب أن تتكاثر مواليد العبيد كل سنة يا جدنيم! اترك أبواب الخانات مفتوحة كل ليلة ليكونوا أحراراً في اختلاطهم وتزاوجهم».

واستدعى بعد ذلك اللصوص والكسالى والمتمردين فوزّع عليهم أنواع العقوبات التي يجب أن تنزل بهم، ووجّه اللوم الشديد إلى جدنيم الذي بدا كالثور المنكس الرأس.

أشار جدنيم إلى ليبي شديد البأس وقال: «انظر يا عين البعل إلى هذا فقد فاجأناه وهو يضع الحبل في رقبته».

فسأل هاميلكار الليبي: «أتريد أن تموت؟».

فأجابه بصوت الشجاع المقدام: «نعم».

«إذاً خذوه وأعدموه» قال هذا دون أن يأبه للمثل الذي قد يتمثل به سائر العبيد ولا إلى الخسارة المادية التي تلحق به. وقد يكون أمر بهذا لأنه في قرارة نفسه كان ينوي أن يقدم ضحية للآلهة، فيتقي بهذه الخسارة شرّاً أعظم.

وكان جدنيم قد خبأ العبيد المبتوري الأعضاء وراء الأصحاء فلمحهم هاميلكار وسأل أحدهم:

- من الذي قطع يدك؟

- الجنود يا عين البعل.

وسأل أحد السمنيين وقد كان يخطر كمالك الحزين:

ـ من كسر ساقك؟

وكان الفاعل الحاكم جدنيم الذي كسر ساقه بقضيب حديدي.

استاء هاميلكار واستشاط غضباً لهذه الوحشية، وانتزع من يد الحاكم قلادة اليسر وصاح به:

ـ «ملعون الكلب الذي يجرح القطيع! ويحك! كيف تجرؤ على بتر سيقان العبيد! يا لتانيت وطيبتها! إنك تسعى في خراب سيدك؟ اكتموا أنفاسه في المزبلة! ويحك! وأين ما تبقى من العبيد؟ هل اشتركت في قتلهم مع الجنود؟». وكان وجهه مرعباً كل الرعب حتى هربت النساء وتقهقر العبيد والتفوا حول بعضهم بشكل دائرة. وارتمى جدنيم على الأرض يقبّل نعليه بحرارة، وظل هاميلكار رافعاً يديه هاماً بضربه.

وأخذ إدراكه المستنير يعاوده، كما كان يعاوده في أشد الساعات هولاً في ساحات القتال، فتذكر كثيراً من الأشياء المنكرة وكثيراً من الأمور الوضيعة السافلة التي أشاح بوجهه عنها في الماضي، ورأى على نور سورة غضبه جميع ما مُني به من الضربات. لقد هرب جميع نظار حقوله حذر بطش الجنود بهم، وقد يكون هربهم لتواطئهم مع البربر، فجميع عماله ووكلائه يخدعونه، وهو يضبط نفسه وقد طال ضبطها. فصاح آمراً:

ـ «خذوا العبيد وسموهم في جباههم بالحديد المحمّى بالنار كما يوسم الأنذال!».

حملوا إلى البستان أشكالاً من أطواق الحديد والأصفاد والسكاكين والسلاسل والأغلال، لشد الأرجل والمناكب، كما جاؤوا «بالعقارب» وهي سياط ذات ثلاثة سيور جلدية تنتهي بمخالب نحاسية.

ثم أداروا وجوه الجميع نحو الشمس، لجهة مولوخ الضاري، وألقوا البعض منهم على الأرض منبطحاً على بطنه أو مستلقياً على ظهره، وأوقفوا الآخرين، وهم المحكوم عليهم بالجلد، إلى جانب الأشجار، وتولى رجلان جلد الواحد منهم، فهذا يعد الجلدات وذاك يكيل الضربات.

كان الجلاّد يضرب بكلتا يديه، وسيور الجلد تصفر فتتناثر من تحتها

قشور أشجار الدلب، ويتطاير الدم نقطاً تغطي الأوراق، وعند جذوع الأشجار كتل من اللحم تئن وتعوي من الألم. وكان الذين يشدون بالحديد يمزقون بأظفارهم وجوههم، بينما كانت تسمع طقات المسامير الخشبية ودقات المطارق الخرس أو صراخ حاد يشق عنان الجو من وقت إلى وقت. وهناك عند المطابخ، بين الأطمار الرثة الممزقة أو بين الشعور المقصوصة، وقف أناس يزكون الجمر بمراوحهم، ثم ارتفعت روائح اللحم المشوي. وكان المجلودون على آخر رمق من الحياة يدلون رؤوسهم على أكتافهم وعيونهم مغمضة والقيود تشد أذرعتهم، وأما الآخرون المشاهدون فقد علت من صدورهم صيحات الرعب، والأسود، وقد تذكرت يوم الوليمة، كانت تتمطى وتتثاءب مادة رؤوسها من حوافي الحفائر.

في ذلك الوقت شوهدت سلامبو على طنف المصطبة وهي تذرعه مسرعة يميناً ويساراً، ورآها هاميلكار، وخيل إليه أنها تمد ذراعها نحوه، بحركة تنم عن الرعب، لتلتمس منه عفواً عن المحكوم عليهم، فاندسّ متغلغلاً في حديقة الفيلة..

كانت هذه الحيوانات الضخمة موضع فخر بيوتات القرطاجيين لأنها حملت أجدادهم وأكسبتهم الحروب، وكانوا يوقرونها ويعدونها صفيّات الشمس. وفيلة ميجارا أقوى الفيلة في قرطاجة، وقد كان هاميلكار قد أخذ الأقسام والأيمان على أبدالونيم قبل سفره بأن يسهر عليها ويوليها عنايته، وجميع هذه الفيلة قد نفقت بسبب تقطيع أعضائها وخراطيمها ولم يبق منها إلاّ ثلاثة مرتمية على الأرض على الغبار أمام بقايا معالفها. فعرفته وأقبلت نحوه، وكان الواحد منها مشقوق الأذنين، والثاني مقرّح الركبتين من جرح بليغ، والثالث مقطوع الخرطوم، وهي مع ذلك تنظر إليه بمظهر الحزين كأنها من العقلاء، وكان المقطوع الخرطوم يحاول أن يتملق إليه بحني هامته الضخمة وبطيّ عرقوبيه، وبطرف حيزومه القبيح الشكل. فنفرت دمعتان من عيني هاميلكار لتودد الفيل إليه وهجم على أبدالونيم

وهو يصيح:

- آه. آه. إلى الصلب! إلى الصلب! أيها البائس.

أُغمي على الخادم وسقط منطرحاً على قفاه.

علا من وراء مصانع الأرجوان، المتصاعد دخانها إلى الجو، عواء ابن آوى، فتوقف هاميلكار عن متابعة السير. لقد سكن غضبه فجأة لتذكره ابنه، كما لو كانت يد إله قد لمسته. فابنه امتداد لقوته وتكملة غير محدودة لشخصه، وذلك ما كان يتوقعه، ولم يستطع العبيد المرافقون له أن يجدوا تفسيراً لهذا السكون المفاجئ.

اندفع نحو مصنع الأرجوان مارّاً من أمام سجن العبيد، وهو بيت مستطيل من الحجر الأسود مبني في حفرة مربعة يوصل إليه من طريق ضيقة وعلى أربعة سلالم قائمة في الزوايا. وكان هاميلكار واثقاً من أن «أدهر بعل» سينتظر الليل حتى يكرر الإشارة المتفق عليها، وأنه لا داعي إلى الإسراع، فنزل إلى السجن رغم تحذير بعض وكلائه وتبعه أكثرهم جرأة.

كان باب السجن مفتوحاً وأشعة الشفق تتسلل من الكوى الصغيرة بحيث يمكن تمييز ما في الداخل، فرأى هاميلكار سلاسل محطمة مدلاة من الجدران: كان ذلك كل ما تبقى من أسرى الحرب!

اصفر عند ذاك وجهه اصفراراً شديداً، ورآه الواقفون في الخارج، المائلون بأبصارهم نحو الحفرة، يستند إلى الحائط بإحدى يديه كي لا يسقط.

ولكن ابن آوى عاد يكرر عواءه ثلاثاً، فرفع هاميلكار رأسه دون أن ينبس ببنت شفة أو يبدي حركة، حتى إذا غربت الشمس تمام الغروب اختفى وراء سياج الصبار.

في المساء، وفي معبد أشمون، وأمام جمعية الأغنياء، قال لهم وهو يدخل:

- «يا أنوار البعول! لقد رضيت بأن أتولى قيادات القوات القرطاجية لمحاربة جحافل البربر».

*

8

انهزام سبنديوس

مع مطلع النهار أخذ هاميلكار من «السيسيت» مائة وثلاثة وعشرين ألف «كيكار» من الذهب، وفرض على الأغنياء ضريبة مقدارها أربعة عشر «شيكالا»، واشترك النساء والأولاد في دفع هذه الضريبة، وأرغم جماعات الكهنة على الدفع رغم أن عادات القرطاجيين كانت تعد هذا أمراً منكراً، واستولى على جميع البغال والخيل والأسلحة، وحاول أناس إخفاء ثرواتهم فصودرت أموالهم، ولكي يخزي البخلاء وهب الجيش من ماله ستين شكة سلاح وألفاً وخمسمائة «جومور» من الدقيق، أي ما يساوي كل ما قدمته شركة العاج.

ثم أرسل فجلب جنوداً من ليغوريا، بلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل من ساكني الجبال المدربين على صيد الدببة، ونقدهم سلفاً أجرة ستة أشهر قمرية بواقع أربعة «مين» عن اليوم.

كان لا بد من تأليف جيش، ولكنه مع ذلك لم يضم إليه، كما فعل هنون، جميع المواطنين على السواء، فرفض قبول تطوّع الذين يمارسون الأعمال وهم جلوس، والذين كانوا كبار البطون أو صغار النفوس جبناء، ولكنه قبل فاقدي الشرف وحثالة سكان مالكا، وأبناء البربر، والمعتوقين من العبودية، ووعد أن يكافئ القرطاجيين الدخلاء بمنحهم جميع حقوق المواطن القرطاجي.

وكان أول ما وجّه إليه اهتمامه هو إصلاح الكتيبة، فإن فتيانها المدلّين بجمال خلقهم، والمتوهمين أنهم عباقرة رجال الحرب في الجمهورية، كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم، فعزل الضباط، وأخذ يعامل الجنود منهم بخشونة ويجبرهم على الجري وعلى صعود مرتفعات «بيرسا» دون توقف، وعلى رمي الحراب والمصارعة والنوم ليلاً في الميادين، وكانت أسرهم تفد لزيارتهم مشفقة على ما صاروا إليه.

أوصى بعمل الحراب القصيرة، وبتقوية طماقات الأحذية، وحدّد عدد الخدم والأمتعة. وكان مودعاً في معبد مولوخ ثلاثمائة حربة من الحراب الرومانية الثقيلة فأمر بالاستيلاء عليها رغم احتجاج الكهنة.

ثم إنه شكّل قطيعاً من الفيلة التي نجت من معركة أوتيك، وضمّ إليها الفيلة التي كان يملكها الأفراد، فبلغ عددها اثنين وتسعين فيلاً، ضرّاها على الوثوب وجعل منها قوة هائلة، وسلح قادتها بالمطارق والمقصّات ليستطيعوا فج هاماتها إذا جمحت في ميادين القتال. ولم يجز للمجلس الأعلى تعيين القواد، بل احتفظ لنفسه بهذا الحق رغم محاولة القدماء بأن يتمسكوا بنص القوانين، ولم يعد أحد يجسر على الهمس بالشكوى بل رضخ الجميع لقوة عبقريته، فهو وحده المهيمن على شؤون الحرب والحكومة والمالية، وتجنّباً لكل تهمة قد توجه إليه، طلب هو بنفسه تعيين هنون مراجعاً لحساباته.

أخذ بعد ذلك يحدّد الحصون والحواجز، وتوصّلاً لتوفير الحجارة أمر بهدم الأسوار الداخلية القديمة التي أصبحت عديمة النفع، ولكن تفاوت الثروات التي حلّت محل فوارق الجنس كانت لا تزال تفرق بين أبناء المغلوبين وبين أبناء الفاتحين، ولذلك فإن الخاصة من المواطنين نظرت نظرة سخط إلى تدمير تلك الخرائب، ولكن عامة الشعب فرحت بهذا الإجراء دون أن يكون لذلك تعليل أو سبب.

كان الجنود، من الصباح إلى المساء، يسيرون بعرض في الشوارع. وفي كل وقت كان يسمع نفخ الأبواق وترى الخوذ والخيام والرماح محمولة على مركبات النقل، والنساء في الأحواش مقبلات على تفصيل المنسوجات. وسرت عدوى الحماسة من الواحد إلى الآخر، فروح هاميلكار تملأ الجمهورية. وكان قسّم جنده إلى أعداد مزدوجة وحرص على أن يضع في الصفوف على التتابع رجلاً شديداً فرجلاً ضعيفاً، لكي يرغم الضعيف أو الجبان على التقدم مدفوعاً برجلين شديدين. ولكنه على الرغم من ضم الجنود القدماء إلى أحسن عناصر قرطاجة من الجنود الجدد

لم يستطع أن يشكّل أكثر من كتيبة قوامها أربعة آلاف وستة وتسعون جندياً من المشاة، تحميهم الخوذ الفولاذية، ويحملون الرماح الطويلة من أعواد الخيزران يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر ذراعاً. وكان هناك ألف رجل يحملون المقاليع والخناجر وينتعلون النعال الخفيفة.

أصبح عدد الفرسان ألفاً وتسعمائة، وهو عدد ما تبقّى من الكتيبة القديمة، وكلهم منتعل بنعال من النحاس الأحمر كجند «الكلينابار» الأشوريين، وفوق ذلك كان لديه أربعمائة نبّال ركبان من المسمين «ثارنتان» على رؤوسهم قبعات من جلد بنات عرس، وبأيديهم فؤوس ذات حدين، وملابسهم قمصان جلدية. وكان هناك ألف ومئتا زنجي من العدائين يسيرون جنباً إلى جنب مع الجياد وهم ممسكون بيد واحدة بنواصيها، وأصبح كل شيء معدّاً للقتال، ومع ذلك فهاميلكار قابع في مكانه لا يبرح.

وكثيراً ما كان يخرج في الليل من قرطاجة وحيداً فيجتاز المستنقع متجهاً نحو مصب نهر ماكار. هل كان يريد الانضمام إلى المرتزقة؟ وكان الليغوريون النازلون في «مابال» يحدقون بقصره.

بدت مخاوف الأغنياء كأنها ستتحقق، وإذا بهم يرون ذات يوم ثلاثمائة من البربر يقتربون من الأسوار، ففتح لهم هاميلكار الباب، وكانوا فارين من معسكرهم جاؤوا لينضموا إلى سيدهم إما لرهبة منه أو لأمانه له.

لم تفاجئ البربر عودة هاميلكار لاعتقادهم أن مثله لا يمكن أن يموت، وقد عاد ليفي بوعوده لهم، وهذا الوفاء ممكن تحقيقه رغم الخلاف الواقع بين الجيش والوطن، ولا سيما أنهم لم يكونوا يعدون أنفسهم مخطئين لنسيانهم الوليمة.

بيد أنَّ الجواسيس الذين وقعوا بيد البربر بدّلوا عقيدتهم به، فكان في ذلك انتصار للمشاغبين أنصار الحرب، بل إن المعتدلين أنفسهم أصبحوا هائجين. وأصابهم الملل لطول حصارهم للمدينتين بدون جدوى، وأصبحوا يفضلون الالتحام في معركة. وانفصل عن الجيش كثيرون

وأصبحوا في البرية يهيمون، ولكن لما اتصل بهم نبأ تسلح قرطاجة عاد هؤلاء الهائمون ورقص ماتو فرحاً وهو يقول: «وأخيراً وأخيراً».

هكذا تحوّلت البغضاء التي كان يكنّها لسلامبو إلى والدها هاميلكار، وأصبح بغضه يجد أمامه هدفاً واضحاً. وتبلور الانتقام أمام عينيه وأصبح موقناً من تحقيقه وقرير عين بالتفكير به، وكان يرى نفسه وسط جنده رافعاً على سنان رمحه رأس القائد، وطوراً في المخدع ذي السرير الأرجواني يضم العذراء بين ذراعيه، يملأ وجهها بالقبلات ويداعب بيديه فرع رأسها الطويل الأسود، وهذا التخيل لأمل بعيد يعرفه بعيد التحقيق كان يعذبه عذاب السعير، فآلى على نفسه، وقد انتخبه الجند قائداً عامّاً لهم، أن يثيرها حرباً لا هوادة فيها ليقينه بأنه لن يخرج منها حيّاً.

أقبل ماتو على سبنديوس وقال له:

- خذ رجالك وأنا سآخذ رجالي، ونبّه أوتاريت إلى مثل هذا، لأننا إذا اتكل واحدنا على الآخر وتركنا هاميلكار يهاجمنا فسيقضي علينا! أسمعت، قم أسرع.

دهش سبنديوس لأمارات السلطة التي كانت تتجلى في كلام ماتو وقد عهده يُقاد ولا يقود ويستشيط غضباً فلا يعتم أن تهدأ ثائرته، ولكنه الآن أصبح أكثر هدوءاً وأشد هولاً، وأصبحت الإرادة تشع في عينيه كلهب النار المحرقة.

لكن سبنديوس لم يرضخ لرأي ماتو لأنه كان ينزل في خيمة قرطاجية ذات حواشٍ تزدان باللآلئ، ويشرب الخمور المثلجة في أكواب فضة، ويلعب بفصوص النرد ويرسل شعر رأسه ويتباطأ في شد الحصار، ومن جهة أخرى كان له في المدينة عيون وأرصاد، فلن يبرح مكانه لثقته من أن المدينة ستفتح له قريباً أبوابها.

كان نارهافاس، الذي يتنقّل بين المعسكرات الثلاثة، جالساً بالقرب من سبنديوس، فوافقه على رأيه، بل زاد فلام ماتو على محاولته ترك الخطة التي اتفقوا عليها، مدفوعاً بشجاعته البالغة حد التهوّر. فصاح به ماتو:

ـ «إن كنت خائفاً فعد من حيث أتيت! لقد وعدتنا بالغاز والكبريت والفيلة والمشاة والخيل، فأين ما وعدت به؟».

وهنا ذكّره نارهافاس بأنه هو الذي قضى على البقية الهاربة من جيش هنون، وأن الفيلة تصاد في الغابات، وأنه يسلح المشاة، وأن الخيل في طريقها إليهم. وكان وهو يتكلم يداعب ريشة الطاووس المدلاة على كتفه، ويقلّب بعينيه كأنه امرأة، ويفتر عن ابتسامة مثيرة. ولم يجد ماتو ما يجيب به.

وإذا الثلاثة برجل لا يعرفونه أشعث أغبر يتصبب العرق من جسمه، ورجلاه داميتان، وحزامه مفكوك، وتنفسه يهز خاصرتيه النحيلتين،يلقي بحديث بلغة عامية غير مفهومة، وهو يحملق بعينيه كمن شهد قتالاً. فأسرع ماتو ملك نوميديا إلى الخارج ونادى بفرسانه، فاصطفوا صفين في السهل على شكل نصف دائرة متجهة إليه، ووقف نارهافاس وهو على صهوة جواده، وقد حنى رأسه وأخذ يعض على شفتيه، فقسم رجاله نصفين، وأوعز للقسم الأول أن ينتظر، وأشار إلى القسم الثاني أن يسير في ركابه، فأسرعوا يعدون على خيولهم حتى اختفوا في الأفق على سفوح الجبال.

وتمتم سبنديوس: «أيها السيد، لا أحب هذه المصادفات. هذا هاميلكار يجيء وذاك نارهافاس يمضي!».

صاح ماتو بلهجة الاحتقار: «لا أهمية لذلك».

كان في ما حدثهم به الرجل القادم ما يدعوهم إلى الإسراع بالانضمام إلى جيش أوتاريت ليتقوا هجوم هاميلكار. ولكنهم إذا رفعوا الحصار عن أوتيك خرجت حاميتها لتضربهم في أدبارهم ساعة يقف القرطاجيون في مواجهتهم. وبعد تبادل الآراء قرروا اتخاذ الإجراءات التالية وشرعوا بتنفيذها في الحال:

أسرع سبنديوس على رأس خمسة عشر ألف مقاتل فاحتل الجسر المقام على نهر ماكار على مسافة ثلاثة أميال من أوتيك، فحصّنوا جوانبه

الأربعة بأربعة أبراج هائلة نصبوا عليها المنجنيقات، ثم سدوا جميع معابر الجبال وممراتها ومضايقها بجذوع الأشجار وجلاميد الصخور وحزم الأشواك المشبكة وحيطان الحجر، ووضعوا على قمم الجبال أكداساً من الهشيم ليشعلوه فيكون بمثابة إشارات تُعطى للجيوش، ووكلوا بذلك رعاة مهرة نافذي البصر.

ظنّوا أن هاميلكار لن يهاجمهم، كما فعل هنون، من طريق جبل المياه الساخنة، لعلمه بأن أوتاريت المهيمن على الريف سيسد عليه الطريق، وليقينه من أن أي هزيمة تلحقه في أول الحرب تقضي عليه قضاء مبرماً، وأن انتصاره سيكون فاتحة انتصارات لاحقة. كما قدروا أيضاً أن هاميلكار يمكنه إنزال جيشه من البحر عند رأس «ريزان»، ولكنه لو فعل لوضع نفسه بين جيشين لا يمكنه التغلب عليهما بقواته القليلة العدد. فاستنتجوا من كل ذلك أنه سيختار السير على طول قاعدة «أريانا»، ثم ينحرف يساراً ليتجنّب مصب نهر ماكار فيبلغ هكذا الجسر على خط مستقيم. وهناك يقف ماتو متربّصاً.

كان ماتو يقضي الليل وهو يراقب على ضوء المشاعل العمال الذين يمهدون الطرقات، ثم يخف إلى هيبوزريت ليراقب أعمال تحصينات الجبال، ثم يعود دون أن يذوق طعم الراحة. ويراه سبنديوس فيغبطه على قوته. وماتو يعمل بكل ما يوحيه إليه سبنديوس ولا سيما بتوجيه الجواسيس واختيار حرس الليل وإدارة الآلات وسبل الدفاع. ولم يعودا يتحدثان عن سلامبو لأن سبنديوس لا يحلم بها ولأن ماتو يمنعه الحياء من ذكرها.

وكثيراً ما كان ماتو يرتاد محيط قرطاجة محاولاً اكتشاف كتائب هاميلكار محدقاً بعينيه في الأفق، ثم يعود فينام منبطحاً على بطنه متوهّماً خفقان الدم في شرايينه وقع أقدام الجيش.

قال لسبنديوس «إذا لم يقدم هاميلكار بجيشه قبل ثلاثة أيام فسأسير أنا للقائه فأرغمه على القتال». ومر يومان وسبنديوس يحاول منعه من المسير ولكنه تحرك في اليوم الثالث.

لم يكن جزع القرطاجيين وتلهفهم على القتال بأقل من جزع البربر. وهكذا فسكان البيوت، كالنازلين تحت الخيام، تدفعهم الرغبة ويتملكهم القلق، وكل يسائل نفسه ما الذي يؤخر هاميلكار عن الإقدام.

أمّا هذا الأخير فكان يصعد من وقت إلى آخر على قبة معبد أشمون، حيث يقف راصداً الأقمار مستمعاً إلى صوت الريح.

وفي صباح يوم، وفي الثالث من شهر آب، رآه الناس هابطاً من الأكروپول بخطى متسعة مسرعة، فارتفع اللجب واللغب في حي مابال وزادت الحركة في الشوارع، وأخذ الجند يتقلّدون أسلحتهم بين صفوف النساء الباكيات المرتميات على صدورهم، ثم أسرعوا إلى ميدان خامون لينتظموا في صفوفهم، ولم يكن مسموحاً لأحد أن يتبعهم، أو أن يتحدث إليهم، أو يقترب من الأسوار. وساد الصمت على المدينة فأصبحت كأنها قبر من القبور، ووقف الجند يستندون إلى رماحهم، وبقي ذووهم في بيوتهم يصعدون التنهدات.

مع غروب الشمس خرج الجيش من الباب الغربي، ولكنه بدل أن يسلك طريق تونس، أو أن يتجه إلى الجبال في اتجاه أوتيك، ظل يسير على شاطئ البحر حتى بلغ المستنقع حيث يجد السائر رقعاً مستديرة من الأرض علاها الملح، فبدت في النهار كأنها صحاف من الفضة واسعة كبيرة منسية على طول الشاطئ.

راحت برك مياه المستنقع تتكاثر، وأصبحت الأرض أشد رخاوة تغوص فيها الأقدام. فلم يتراجع هاميلكار بل ظل سائراً في الطليعة على متن جواده الذي كان يتقدّم في الوحل، والمهماز يعمل في وركيه، وجسمه ملطخ بالبقع الصفر كتنين، والزبد يخرج من شدقيه فيرتمي حواليه والليلة حالكة غير قمراء. وصاح بعضهم لقد صار هلاكنا وشيكاً، فأمر بهم فجردوهم من أسلحتهم ودفعوا بها إلى العبيد. وزاد عمق الوحل، فاضطروا إلى ركوب الدواب وتعلق بعضهم بأذناب الخيل. وكان الأشداء يجرون الضعفاء، ورجال فرقة الليغوريين يدفعون المشاة بأسنة رماحهم.

واشتد حلك الظلام وضلوا الطريق، فتوقف الجيش عن المسير. فتقدم الخدم أمام الجيش وساروا يبحثون عن معالم الطريق، وهي أوتاد كان هاميلكار قد أمر بدقها هنا وهناك هداية للجيش. وأخذوا يرسلون الصيحات في الظلام، والجيش يتبعهم من بعيد. وبعد جهد أصبحت الأرض أشد صلابة، ثم لمحوا خطاً مقوّساً مبيضاً غير واضح، تلك ضفاف نهر ماكار. وعلى الرغم من شدة البرد لم يشعلوا النيران.

حين انتصف الليل ارتفعت هبّات الريح. فأمر هاميلكار بإيقاظ الجنود وحذّرهم من النفخ في الأبواق، فأخذ الضباط يربتون على أكتاف الجند لإيقاظهم.

انتصب رجل مديد القامة في مجرى النهر فلم يتجاوز علو الماء وسطه فتحققوا من إمكان عبوره، فأمر هاميلكار بأن يوضع صف من الفيلة تعدادها اثنان وثلاثون على بعد مائة خطوة منهم، وأن تقف الفيلة الأخرى بعيداً على خط أسفل من الأول، لكي تتلقى الرجال الذين قد يحملهم التيار. وعبر الجند بين جدارين من الفيلة، وأسلحتهم مرفوعة فوق رؤوسهم. وكان هاميلكار قد راقب الريح والنهر فرأى أن ريح الدبور إذا هبت حملت الرمال إلى النهر فكونت ممرّاً في عرضه. وأصبح الجيش على الضفة اليسرى أمام أوتيك، وفي سهل فسيح. وتلك ميزة للفيلة التي هي قوة جيشه.

ألهبت عبقرية القائد الفذ صدور جنده حماسة، وعادت إلى أنفسهم الثقة التامة، وأبدوا رغبتهم بالهجوم منذ الساعة على البربر. ولكن القائد ألزمهم بالراحة ساعتين، ولما بزغت الشمس تقدموا في السهل على ثلاثة صفوف: فالفيلة ثم المشاة الخفيفة فالفرسان ثم الكتيبة.

دهش البربر المحاصرون لأوتيك، أو المنتشرون حول الجسر وعددهم خمسة عشر ألفاً، لرؤيتهم الأرض تتماوج من بعيد. وكانت الريح تهب عنيفة شديدة فتعصف بالرمال وتدفعها إلى الجو متناثرة قطعاً شقراً ترتفع ثم تتمزق وتعود فترتفع بلا انقطاع فتحجب الجيش القرطاجي

عن عيون البربر، فكان بعضهم إذا رأى القرون المثبتة في الخوذ ظن أن هناك قطيعاً من البقر يتقدم، ويرى البعض الآخر الأردية الفضفاضة تتحرك فيظنها أجنحة طيور، وأمّا الذين ألفوا الأسفار في القفار فكانوا يهزون بأكتافهم مستهزئين وينسبون ما يراه هذا وذاك إلى تأثير السراب الخادع. ومع ذلك كان هناك شيء هائل ضخم يتقدم.

كان الهواء يرفع فوق القفر بخاراً ضئيلاً أرق من الأنفاس، ومن فوقه الشمس تزداد لمعاناً فترسل شعاعاً حادّاً يهتز فيرد إلى الوراء أعماق الفضاء، ويتغلغل في الأشياء فيجعل المسافات مستحيلاً قياسها. فالسهل الواسع يزداد اتساعاً من كل صوب، على مدى نظر الناظر، وتموجات الأرض التي لا تكاد تحس تمتد حتى الأفق الأقصى الذي يحده خط كبير أزرق هو البحر.

خرج الجيشان من الخيام، والجنود يرون أهل أوتيك يزدحمون على الأسوار ليتمكنوا من استجلاء المنظر.

شاهد البربر بعد جهد خطوطاً متعارضة ذات نقط متساوية، أخذت تتكاثف ثم تتعاظم، فإذا هي تلال سود تتمايل وتتأرجح، فنباتات عظيمة بدمعة من العليق تتجلى، فصاحوا صيحة رجل واحد: «القرطاجيون!». وبدون إشارة تبدو أو أمر يصدر، تقدم المرتزقة، سواء منهم المحاصرون لأوتيك أو المرابطون على الجسر، جماعات غير منتظمة ليكروا على هاميلكار.

سمع سبنديوس اسم هاميلكار فارتعدت فرائصه وأخذ يردد، وقد ضاقت أنفاسه: «هاميلكار! هاميلكار» وماتو لم يكن هناك! فما العمل وما الحيلة، ولا سبيل إلى الهرب؟ وزاد في اضطرابه هول المفاجأة وخوفه من القائد الزعيم، ولا سيما اضطراره إلى اتخاذ قرار سريع، ورأى نفسه في الغداة وقد نفذت فيه مئات الحراب، وقُطعت عنقه وأُعدم. ولكنه سمع أصواتاً تناديه من كل صوب، ورأى ثلاثين ألف جندي ينتظرون أوامره ليتبعوه فاضطربت نفسه ولكنه أخذ يعللها بالظفر، فامتلأ غبطة وأحس أنه

أكثر إقداماً من «إيبامينونداس»(*) فطلى وجهه بطلاء قرمزي ليخفي شحوبه، ولبس درعه وشرب كأساً من الخمر صرفاً، وجرى مسرعاً إلى اللحاق بجيشه الذي كان يسرع الخطى للانضمام إلى الجيش المحاصر لأوتيك.

انضم الجيشان بسرعة خاطفة قبل أن يتمكن هاميلكار من تنظيم صفوف جيشه للقتال، فأخذ يتباطأ في السير شيئاً فشيئاً، وأوقف الفيلة وهي تتهادى بهاماتها المزدانة بريش النعام وتضرب أكتافها بخراطيمها. ومن خلال صفوف الفيلة تبدو المشاة الخفاف، وبعيداً منهم خوذ «الكليناباز» بأسلحتهم اللامعة ودروعهم، وبالريش الذي يزدانون به، وبراياتهم الخفاقة.

كان جيش قرطاجة، وعدده أحد عشر ألفاً وثلاثمائة وستة وتسعين رجلاً، لا يقوى على الالتفاف بجيش البربر لأنه كان مربعاً طويلاً ضيق الجناحين متراصّاً.

ورأى البربر جيش القرطاجيين قليل العدد وجيشهم يبلغ ثلاثة أضعافه ففرحوا فرحاً عظيماً، ولا سيما أنهم لم يروا هاميلكار على رأسه، ولعله لم يعد من سفره أو ظل بعيداً عن الجيش. وهب أنه سيشترك في القتال فأية أهمية لمشاركته! وأي شأن لمثل هؤلاء التجار في ميادين القتال؟ بمثل هذا حدثوا أنفسهم، فازدادوا شجاعة وحماسة، وأدركوا الخطة المثلى لتنظيم صفوفهم، وشرعوا في تنفيذها قبل أن يصدر إليهم سبنديوس أمره.

اصطف الجميع في خط طويل مستقيم، يتجاوز طرفاه جناحي الجيش القرطاجي، ليقوموا بحركة التفاف يطوقونه بها. وبلغوا بحركتهم هذه إلى بعد ثلاثمائة قدم من جناحي عدوهم، وإذا بالفيلة تتراجع بدل أن تتقدّم، وبفرقة الجيش وبعمال الجيش يتبعون الفيلة في تراجعها. فطرب البربر، وأيقنوا بأن القرطاجيين يلوذون بالفرار، فارتفعت من صدورهم صيحات

(*) إيبامينونداس قائد يوناني مشهور. كان زعيم الديموقراطيين في طيبة. تغلب على جيوش إسبرطة في معركة «لوكتر» سنة ٣٧١ ق.م. وفي معركة «مانتيني» التي جرح فيها جرحاً بليغاً.

الازدراء والاحتقار، وناداهم سبنديوس من فوق جمله «لقد كنت أتوقع هذا فهيا إلى الأمام!» فانطلقت الحراب والسهام وقذائف المقاليع كرمية رجل واحد، وأخذت الفيلة، وقد أُصيبت ظهورها بالسهام، تعدو والغبار يغطيها حتى توارت عن أعينهم كأنها ظلال غيوم.

سُمع في المؤخرة ضوضاء لوقع أقدام كثيرة ونفخ في الأصوار والأبواق نفخاً شديداً ارتفع فغطى وقع الأقدام، واجتذب البربر ذلك الفضاء القاتم بأعلاه من الغبار كما تجتذب الغريق اللجة، فارتمى بعضهم فيه، فظهر أمامهم فرقة من المشاة الخفاف، وأخذت تتجمع وانضمت إليها فصائل من المشاة الثقال، وأقبل الفرسان يعدون، ذلك أن هاميلكار لما رأى هجوم البربر أمر الكتيبة بأن تتباعد أقسامها لتترك بينها فضاء لكي تمر من هذا الفضاء فرق الفيلة والمشاة الخفاف والفرسان، فتتحول بسرعة إلى الجناحين، وضبط حساب أبعاد المسافات بحيث يتهيأ للجيش بكامله أن يكون مصطفّاً في خط مستقيم عند اشتباك البربر به.

بدا ترتيب جيشه على هذا النحو: تقف الكتيبة في القلب بشكل مربعات مليئة قوام كل منها ستة عشر رجلاً، وجميع ضباط الفرق يقفون في الوسط والأسلحة الجديدة تغطيهم، لأن الصفوف الستة الأولى كانت تمسك برماحين من أوساطها، والعشرة صفوف التي تليها تسندها برجالها الواقفين على أكتاف رفاقهم بالتتابع، وجميع الوجوه مغطاة حتى أنصافها بطرر الخوذ، والأرجل اليمنى محمية بطماقات من النحاس، والتروس العريضة الأسطوانية تعلو حتى الركب، وهذه الكتلة المربعة الهائلة تتحرك كلها كجسم واحد، فهي تدب وتحيا كإنسان وتتحرك كآلة.

وعلى كل جنب من جنبات هذا المربع وقفت مجموعتان من الفيلة التي كانت تنتفض لتنفض ريش السهام العالق بجلودها السود، وفوقها قوّادها مقرفصين على عراقيبهم بين باقات الريش الأبيض، وهم ممسكون بحبال الخطاطيف ليملكوا قيادها، ويكبحوا جماحها. وفي أبراجها رجال مغطون حتى أكتافهم يوجهون إلى كل صوب مغازل من حديد

معلقة على جوانب أقواس موتّرة عليها مشاقات كتّانية مشتعلة.

كما اصطف عن يمين الفيلة ويسارها حملة المقاليع يلفون واحداً على حقويهم، والثاني على رأسهم، والثالث في يدهم اليمنى. ثم الفرسان الكلينابار، ومع كل منهم زنجي يسددون رماحهم من بين آذان جيادهم المغطاة مثلهم بالذهب، ثم يقف الجنود الخفاف الأسلحة متباعدين عن بعضهم، وهم يحملون تروساً من جلود الفهود يخرج من جنباتها رؤوس الحراب الممسكين بها بأيديهم اليسرى، ويكمل بناء هذا الجدار البشري فرسان «الترانتان» يقود كل منهم جوادين مقرونين.

وعلى نقيض هذا فإن جيش البربر لم يتمكن من المحافظة على نظامه، فقد بدت فجوات وفراغ وتموجات في صفه الطويل المتمدّد، فضلاً عن أن رجاله كانوا كلهم يلهثون تعباً لأن الجري أنهك قواهم.

هجمت الكتيبة بثقل تدفع أمامها جميع رماحها، فالتوى خط المرتزقة من وسطه لاصطدامه بهذا الوزن الثقيل، لأنه كان رقيقاً غير صفيق.

عند ذاك انبسط جناحا القرطاجيين ليمسكا بهم، وتبعتهما الفيلة فتمكنت الكتيبة من شطر جيش البربر شطرين بقوة عوالي رماحيهما. واضطرب الشطران فأخذ الجناحان يردانهما نحو الكتيبة بالنبال وبقذائف المقاليع، وكان لا بد للبربر من فرسان لينقذوا الموقف، ولم يكن لديهم سوى مائتين من النوميديين الذين انقضوا على ميمنة الكلينابار، لأن ما تبقى من الفرسان كان محصوراً لا يمكنه الخروج من صفوفه، فأصبح الخطر داهماً ولا بد من اتخاذ قرار سريع.

وهنا أمر سبنديوس بمهاجمة الكتيبة من جانبيها كليهما لكي يشطرها شطرين فينفذ منهما، ولكن صفوفها الضيقة المتكتلة تسللت تحت الصفوف الطويلة، وعادت إلى مراكزها وواجهت البربر بقوة في جانبيها تعادل القوة التي كانت عليها حين هاجمتهم بجبهتها. فأخذوا يضربون على أعواد الرماح، ولكن الفرسان من الوراء كانوا يشلون هجماتهم، كما كانت الكتيبة المعتمدة على الفيلة تنكمش حيناً، وتتمدد حيناً آخر،

وتواجههم بجميع الأشكال الهندسية: مربعة أو بشكل مخروطي، أو مستطيل، أو معين، أو مربع منحرف أو هرمي. وهكذا فإن حركة مزدوجة كانت تتوالى في قلب الكتيبة من مقدمتها إلى مؤخرتها، فالذين كانوا في مؤخرة الصف يسارعون إلى الحلول محل من هم في المقدمة، وهؤلاء بسبب تعبهم أو لنقل جرحاهم يتقهقرون إلى المؤخرة. ورأى البربر أنفسهم مدفوعين تحت الكتيبة، وكان من المستحيل عليهم أن يتقدموا، وكأن الجيشين بالتحامهما محيط من البحار تطفو على سطحه قنابر الريش الحمر وقشور الأسلحة الحديدية، بينما تسيل على صفحاته التروس الصافية اللون كزبد من الفضة. ومن وقت إلى آخر يُشاهد سيل عرم يسيل انحداراً ثم يرتد صعداً، وفي وسطه كتلة ثقيلة تقف ثابتة غير متحركة، والرماح تميل ثم تعود فترتفع حيناً بعد حين، وفي مكان آخر خناجر عارية عجلى، لا يظهر منها إلاّ الرؤوس، وهجمات الفرسان توسع الحلقات التي تعود فتنطبق وراءها وهي تثير الغبار، وفوق ذلك جميعه أصوات الضباط ودقات اليراعات وصرير الأعداد، ثم قذائف الرصاص وحجارة الخزف مارة في الهواء مسمعة صفيرها، منتزعة الخناجر من الأيدي، والأدمغة من الجماجم. وكان الجرحى المحتمون وراء تروسهم يمسكون بها بيد ويوجهون بالأخرى رؤوس سيوفهم إلى الأمام مسندين مقابضها إلى الأرض، وآخرون منهم يتخبطون في نقيع من الدم يديرون رؤوسهم ليعضوا أعقاب الأعداء بأسنانهم، وفي هذا العجاج من الغبار الكثيف والجمع المتراكم والضوضاء القوي، استحال تمييز الأشياء، والجبناء الذين عرضوا تسليم أنفسهم لم تسمع أصواتهم، وكانوا إذا خلت أيديهم من السلاح يتجالدون جسماً إلى جسم، فترتطم الصدور على الأذرع وتنقلب أجسام المغلوبين، ورؤوسهم مرتمية إلى الوراء وأيديهم مشنجة. وحدث أن سرية واحدة قوامها ستون رجلاً من «الأونبيريين» ثبتوا على أقدامهم ورماحهم بين عيونهم يصرّون بأسنانهم ولا يتزحزحون من مكانهم، فأمكنهم أن يرغموا فرقتين على التراجع. وهجم رعاة من «أبيروس» على

الكوكبة اليسرى من فرسان الكلينابار، وأمسكوا بنواصي الخيل، وأخذوا يلوّحون أمامهم بعصيّهم، فألقت بفرسانها عن ظهورها وجرت في السهل نافرة.

توقّف حملة المقاليع فاغري الأفواه وقد تشتّتوا هنا وهناك، وأخذت الكتيبة تتذبذب وضباطها حيارى. ونشط منظمو صفوف البربر إلى دفع الجنود فأعادوا تنظيم الخطوط والتجمع وعادوا إلى بذل الجهد وأوشك النصر أن يكون حليفهم.

فجأة علت صرخة هائلة، صرخة زئير ألم وغضب. كانت تلك أصوات الفيلة وهي تكر مسرعة في خط مزدوج، ذلك أن هاميلكار انتظر حتى احتشد البربر في مكان واحد لكي يطلق عليهم فيلته، وكان قوّادها قد اشتدوا في نخزها حتى أن الدم جرى يسيل من آذانها، وكانت خراطيمها المدهونة بالزنجفر(*) ترتفع مستقيمة في الهواء كأنها حبات حمر، وعلى صدورها حراب مثبتة، وعلى ظهورها أذرع، وقد أُطيلت أنيابها بنصال حديدية محدودبة كالسيوف، وسقيت مزيجاً من الفلفل والخمر والبخور لتصبح أشد ضراوة، وسارت تجري وجلاجل قلاداتها ترن، ومن فوقها قادتها يطأطئون الرؤوس اجتناباً لشعل النار التي كانت ترمى من أعلى الأبراج.

عمد البربر إلى رصّ صفوفهم جماعات متكتلة ليتمكنوا من الصمود أمام هجماتها، فارتمت الفيلة بعنف في وسطهم، وأخذت مهاميز صدورها الشبيهة بمقدمات السفن تشق الجماعات فتعود إلى الالتحام، والفيلة تخنق الرجال بخراطيمها أو ترفعهم بها إلى جنود الأبراج، أو تمزق بطونهم بأنيابها، أو تقتلعهم من الأرض وترمي بهم إلى الجو. وقد تدلت من أنيابها العاجية بقايا الأحشاء الممزقة العالقة بها كرزم حبال معلقة على صوارٍ. وكان البربر يحاولون أن يفقأوا عيونها أو يقطعوا

(*) الزَنْجَفَر والزُنْجُفْر معدن متفتّت بصّاص أحمر يُصبغ به ويُدهن به الحديد ليسلم من الصدإ (فارسية).

عراقيبها، ويحاول أيضاً نفر منهم أن يتسللوا تحت بطونها فيغمدوا فيها الخناجر حتى مقابضها ويموتوا مسحوقين مداسين، وأكثرهم إقداماً يتعلقون بسيورها ويأخذون ينشرونها تحت لهب النيران والقذائف والسهام، حتى يقطعوها، فتهوي عنها الأبراج كالحجارة. وحدث أن أربعة عشر فيلاً من التي كانت في أقصى الميمنة ثارت ثائرتها لجراحها فارتدّت على الصف الثاني، فأخذ قادتها الدقاميق والمقصات وضربوا بها مفاصل هاماتها ضرباً مميتاً، فتقطعت الحيوانات الضخمة بعضها فوق بعض كأنها جبل، وظل أحدها واسمه «غضب البعل»، وهو أضخمها جثة، يعج حتى المساء، وفي عينه سهم قد استقر.

غير أنَّ الباقيات من الفيلة ظللن كالفاتحين الغزاة، يتلذذن بما ينزلنه من محق وإفناء، فيطرحن الرجال على الأرض ويدسن وينكلن بالجثث والبقايا، كما كن يدرن قوائمهن الخلفية في حركة دوران مستديمة، لكي تتمكن من صد الفرق المتراصة حولهن بشكل تيجان، كل ذلك وهن يتقدمن إلى الأمام. وأحسن القرطاجيون بعودة عزيمتهم ونشاطهم، وعاد القتال فاستعر من جديد.

أخذ الوهن يستولي على البربر، وألقى رجال فرقة المشاة من الإغريق أسلحتهم، فحلّ الرعب بالآخرين، وشوهد سبنديوس مائلاً على ظهر جمله وهو يستحثه بنخزة بحربتين في كتفيه، فهربوا كلهم حينذاك متجهين جرياً ناحية أوتيك.

لم يحاول الكليناباراللحاق بهم لأن جيادهم كانت متعبة، والليغوريون أجهدهم العطش فأخذوا يلحون بطلب ورود النهر، وأمّا القرطاجيون، وقد كان موقفهم وسط الصفوف ولم ينلهم من الجهد ما نال غيرهم، فقد أخذوا يتلهفون شوقاً وأسفاً لهرب انتقامهم بهرب البربر، وأوشكوا أن يكروا لمطاردة الجيش المهزوم.

وبرز هاميلكار بين الصفوف ممسكاً عناناً فضيّاً وتحته جواد مرقط كجلد النمر يتصبب منه العرق، والشرائط المعلقة بقرون خوذته تخفق مع

الريح وراءه، وتحت فخذه اليسرى خوذته البيضوية، فأوقف الجيش بإشارة من مزراقه(*) المثلث الرؤوس، فقفز فرسان الترانتان عن ظهور الجياد التي يمتطونها إلى ما فوق الجياد المقرونة وساروا من اليمين واليسار إلى النهر باتجاه المدينة.

قضت الكتيبة بسهولة على كل من تبقى من البربر، وكان بعض هؤلاء إذا رأوا السيوف مشهرة مدّوا رقابهم وغضوا جفونهم، ولكن بعضهم ظل يدافع دفاعاً شديداً فقتلوهم ضرباً بالحجارة من بعيد كما تقتل الكلاب الكلبة، وأوصاهم هاميلكار أن يكثروا من أخذ الأسرى، ولكن القرطاجيين كانوا يطيعونه ناقمين حاقدين لأنهم كانوا يتلذذون بإغماد خناجرهم في صدور أعدائهم.

ولمّا كان الحر شديداً فقد عروا أذرعتهم ليسهل عليهم القتل كما يفعل الحصادون في حصادهم، فإذا نالهم التعب وقفوا يستريحون ويتطلعون إلى البرية متتبعين خطى فارس يعدو بجواده وراء جندي يجري، حتى إذا أدركه أمسك بشعره لحظات قليلة ثم أطاح رأسه بضربة فأس.

هبط الليل واختفى القرطاجيون والبربر، وبدت الفيلة الهاربة تهيم في الأفق فتبدو على ضوء الأبراج المحترقة متلألئة في الظلام هنا وهناك كمنارات تضيع أنصاف أضوائها في الضباب، ولم يعد يلمح شيء آخر إلاّ تموجات مياه النهر الذي ارتفع مستواه بما عليه من جثث يسحبها إلى البحر..!

*

وصل ماتو بعد ساعتين فلمح على ضياء الكواكب أكواماً غير متساوية منتشرة على الأرض، كانت تلك صفوف أبناء البربر، فانحنى ليجدهم كلهم أمواتاً، فرفع صوته في النداء فلم يجبه مجيب. كان قد ترك عند الصباح هيبوزريت على رأس جيشه ليزحف على قرطاجة، ولمّا بلغ أوتيك كان جيش سبنديوس قد غادرها، وكان أهل المدينة قد بدأوا بإحراق

(*) المزراق، وكثيراً ما يرد ذكره في الرواية، هو الرمح القصير.

الآلات والمعدات، فاستعر قتال مرير، ولكن الجلبة التي ترتفع من جهة الجسر كانت تزداد لسبب لم يدركه ماتو، فأسرع بالاتجاه إلى مصدر الجلبة من أقرب طريق من ثنايا الجبال، ولم يقابل أحداً في طريقه لأن البربر كانوا قد تفرقوا في السهول.

شاهد أمامه كتلاً هرمية الشكل صغيرة الحجم تخيم عليها الظلال، وفي الضفة الأخرى من النهر، قريباً منه، أنوار تضيء على سطح الأرض، ذلك أن القرطاجيين كانوا قد انسحبوا إلى ما وراء الجسر، ولكن هاميلكار حرص على أن يخدع البربر فأقام مراكز كثيرة من الحرس على الضفة الأخرى.

تقدم ماتو مسافة أخرى فبدت له رايات قرطاجة، لأن رؤوساً لخيل كانت تبدو له مرفوعة في الهواء ومثبتة على أسنة رماح، وسمع من بعيد ضوضاء عنيف، وأصوات غناء، وقرع كؤوس، فأصبح لا يدري أين هو، ولا كيف يتوصل إلى اكتشاف مكان سبنديوس. وامتلأت نفسه قلقاً وجزعاً، وضل في الليل وهو ناكص على عقبيه مسرع في العودة إلى حيث كان، وابيض ضياء الفجر فأبصر من قمة الجبل أوتيك وبقايا الآلات التي سودها الحريق، فبدت كأنها هياكل لعظام جبابرة تستند إلى الأسوار.

كان كل شيء ساكناً في صمت وضيق لا حدّ لهما، وبين جنوده وعلى جنبات الخيام رجال ينامون أنصاف عراة على ظهورهم أو يتكئون بجباههم على أذرعتهم المدعومة بدروعهم، ونفر منهم ينتزعون عن سيقان أرجلهم ضمادات مخضبة بالدماء، وأولئك الذين دخلوا في حشرجة الموت يميلون برؤوسهم برفق ولين، وإلى جانبهم رجال يحملون إليهم الماء يجرون أنفسهم جرّاً، وفي الممرات بين الخيام يمشي الحراس ليستدفئوا، أو يقفون وعيونهم ترتاد الأفق ومزاريقهم على أكتافهم والخشونة بادية عليهم.

عثر ماتو على سبنديوس في ظلال بقية قطعة من قماش مرفوعة بعصوين وهو مطأطئ الرأس ويداه على ركبتيه. وظلاّ واجمين صامتين وقتاً طويلاً.

قال ماتو: «لقد هُزمتم».

فأجابه سبنديوس بصوت أجش: «أجل لقد هزمنا» وأخذ يرد على جميع أسئلة ماتو بإشارات تنم عن اليأس.

في هذه الأثناء كان يصل إلى الأسماع صوت زفرات وحشرجات، فأمال ماتو برأسه خارج الستار، ورأى منظر الجند فذكره ذلك بهزيمة أخرى في المكان ذاته، فقال وهو يصرف بأسنانه:

ـ «يا له من بائس .. لقد سبق مرة»...

فقاطعه سبنديوس بقوله: «ولكنك لم تكن موجوداً أيضاً».

ـ «هذه لعنة تتبعني! ولكني مع ذلك سأصل إليه! سأغلبه! سأقتله! آه! يا ليتني كنت موجوداً..» وكانت فكرة تخلّفه عن شهود المعركة تبعث في نفسه يأساً أشد من يأسه للهزيمة التي لحقتهم، فانتزع خنجره وألقى به إلى الأرض وقال: «كيف غلبك القرطاجيون؟».

وراح سبنديوس يبسط له مناورات الموقعة، وماتو يراها ماثلة أمام عينيه فيزداد هياجاً.

ـ «لقد كان من المفروض على جيش أوتيك أن يهاجم هاميلكار من مؤخرته لا أن يجري نحو الجسر».

ـ «أعرف ذلك».

ـ «كان يجب عليك أن تضاعف عمق صفوفك، وألاّ تجازف بإرسال فرقة المشاة الخفيفة لمهاجمة الكتيبة القرطاجية، وأن تفسح في المجال بين صفوفك للفيلة الهاجمة، وكان يمكن في الساعة الأخيرة إحراز النصر ولم يكن هناك مدعاة للفرار».

ـ «لقد رأيته مارّاً بردائه الفضفاض الأحمر وذراعاه مرفوعتان فوق العجاج كنسر يطير بين جنبات الفرق، وبإشارة من رأسه كانت هذه الفرق تنضم وتتجمع فتكرّ، ودفعتنا الجموع فصار الواحد على مرأى من الآخر، فنظر إليّ فأحسست في قلبي ببرد كبرد السيف».

وكان ماتو يقول لنفسه: «لقد عرف أن يختار يومه».

أخذا يتشاوران وخصوصاً راحا يتساءلان ما الذي دفع القائد الزعيم إلى قتالهم في أسوإ ظروف كانوا فيها؟ ودرسا الحالة الحاضرة، فقال سبنديوس ليجد تقوية لنفسه، وليخفف وقع أخطائه «إنه لا يزال هناك أمل كبير في إحراز النصر».

فقال ماتو: «وما عليّ إذا لم يكن هناك من أمل! سأواصل الحرب وحدي».

وصاح سبنديوس: «وأنا أيضاً». وكان يمشي جيئة وذهاباً وعيناه تقدحان شرراً، وابتسامته الغريبة تبعث الغضون إلى وجهه الشبيه بوجه ابن آوى، ثم استطرد فقال:

ـ «سنعيد الكرة ولكن لا تتركني وحدي أبداً! أنا لم أخلق لأحارب في وضح النهار، فإن لمعان السيوف يبهر عيني وذلك مرض بي، لقد عشت طويلاً في ظلام السجون، ولكن اعهد إليّ بتسلق الأسوار ليلاً فألج القلاع والحصون وأملأ المكان بالجثث وأتركها قبل صياح الديك باردة. أرني شخصاً ما أو شيئاً تريده أو عدوّاً أو كنزاً أو امرأة، ولو كانت ابنة ملك، فإني أجيئك بما تشتهيه وألقي به تحت قدميك! لقد أنبتني لانهزامي أمام هنون، ولكني عدت فكسبت المعركة بفضل قطيع الخنازير الذي أدى لنا خدمة أجل من خدمة فرقة من الإسبرطيين».

وأخذ يعدد الخدمات الجلى التي أداها للمرتزقة ليرفع من شأن نفسه فقال: «أنا الذي دفع الغولي في بستان هاميلكار ليفعل ما فعله! وأنا الذي هجت الجنود في سيكا على الجمهورية! وأنا الذي حرم جيسكون من مترجميه، أتذكر كيف كانت ألسنتهم خارجة من أفواههم؟ ألم أقدك إلى قرطاجة؟ ألم أسرق حجاب الإلهة؟! ألم أوصلك إليها؟ سأعمل أكثر وسأريك ذلك». ثم قهقه ضاحكاً كالمجنون.

أخذ ماتو يحدق به بعينين يبدو عليهما الاستغراب، فقد كان يشعر بانقباض أمام هذا الرجل الذي كان جباناً ومخيفاً في وقت معاً.

ثم أضاف الإغريقي قائلاً: «لا بأس، فالشمس تعود لتشرق بعد هطول

المطر! لقد عملت في مقاليع الحجارة، كما شربت أفخر أنواع الخمور تحت خيمة من ذهب كما يفعل بطليموس، في موكب كنت أملكه! يجب أن تعلمنا المصائب أن نكون أكثر لياقة وأشد حذقاً، وبالعمل يذل لنا الحظ فهو يعشق السياسة ولا بد له من الإذعان لنا». ثم أقبل على ماتو وأمسك بذراعه وهو يقول:

- «أيها السيد! إن القرطاجيين الآن واثقون من النصر، ولديك جيش كامل لمّا يخض المعركة بعد ورجاله يأتمرون بأمرك فضعهم في المقدمة، ورجالي سيتحمسون إلى القتال لينتقموا، ولا يزال لدي ثلاثة آلاف من الكاربيين وألف ومئتا رام بالمقاليع ونبالون وفرق كاملة من المشاة، وفي مقدورنا أن نؤلف كتيبة، فلنعد إذاً إلى الحرب!».

ولكن ماتو كان لا يزال مضعضعاً من هول صدمة الهزيمة، ولم يكن بعد قد فكر بما يجب عمله لرأب الصدع وإصلاح الأمر، فكان يصغي وهو فاغر الفم، ونصال البرونز المشكوكة في منطقته تهتز لاهتزاز قلبه وشدة خفقانه، فامتشق سيفه وصاح بسبنديوس:

- «اتبعني! وإلى الأمام!».

لكن رجال طلائع الجيش كانوا قد عادوا من الاستكشاف يخبرون بأن القرطاجيين قد حملوا جثث موتاهم، وأن الجسر قد تهدم، وأن هاميلكار قد توارى عن الأنظار.

9

قربان الآلهة

فكّر هاميلكار في أن المرتزقة قد ينتظرونه أمام حصون أوتيك، أو أنهم سيعودون إلى مهاجمته، ولمّا لم يكن لديه من القوات ما يكفي للكرّ عليهم، أو للصمود لهم، فقد تغلغل في الجنوب، على الضفة اليمنى للنهر، ليكون بمأمن من المفاجآت.

كان يهدف إلى فصل القبائل عن البربر واستدراجها إلى نصرته متناسياً ثورتها، حتى إذا تم له عزل البربر في أواسط الأقاليم كرّ عليهم فأبادهم. فتوصّل في خلال أربعة عشر يوماً إلى إعادة السلام إلى ربوع المنطقة الواقعة بين «هوكابر» و«أوتيك» وإلى مدن «تجنيكابا وفصورة وفاكا» ومدن أخرى في الغرب، وأرسلت إليه الفداء مدن «عصورة» المشهورة بمعبدها، و«جيرادو» الخصيبة بأشجار العرعر، و«تابيتيس» و«هاجور»، وكان سكان البرية يفدون عليه وأيديهم ملأى بالأقوات ملتمسين حمايته، مقبّلين قدميه وأقدام جنده شاكين من البربر، وجاءه قوم يقدمون له في أكياس رؤوساً لجنود من المرتزقة زعموا أنهم قد أوقعوا بهم، ولكنهم كانوا في الواقع قد قطعوها من جثث الموتى، لأن كثيراً من البربر ضلّوا السبل في فرارهم، فكانت جثثهم تُرى هنا وهناك تحت أشجار الزيتون أو في الكروم.

في صباح يوم انتصاره أرسل هاميلكار إلى قرطاجة ألفي أسير كانوا أُسروا في ساحة المعركة، فوصلوا إليها شراذم في كل منها مائة رجل موثقي الأيدي وراء ظهورهم، وفي الوثاق قضيب من حديد يتصل بنقر رقابهم، ومعهم الجرحى يجرون هم أيضاً والدماء تسيل من جراحهم، والفرسان وراءهم يسوقونهم بضرب السياط.

عمّ الفرح الشديد أهل قرطاجة، وجرى على الألسنة أن قد قُتل ستة آلاف من البربر، وأن الباقين لن يقووا على الصمود، وأن الحرب قد

انتهت. وأخذ الناس يعانق بعضهم بعضاً في الشوارع، وطلوا بالزنجفر وجوه الإلهة «باتوك» شكراً لها وحمداً، فبدت تلك التماثيل بعيونها الواسعة الحدقات، وبطونها المنتفخة، وأذرعتها المرتفعة حتى المناكب، كأن قد عادت إليها الحياة بطلائها الجديد، وكأنها تشارك الشعب في فرحته الكبرى. وترك الأغنياء أبواب قصورهم مفتوحة للرائحين والغادين، وامتلأت المدينة بصدى أصوات الدفوف، وأُنيرت المعابد طوال الليالي، ونزلت خادمات الإلهة تانيت إلى شوارع «مالكا» فنصبن فيها أسرة من خشب الجميز لتعاطي الفسق والفحشاء، وصدرت قوانين بعطاء الغالبين مساحات من الأرض، وبتقديم الخدمات للإله مالكاريت، وبإهداء القائد الزعيم ثلاثمائة تاج، وهي قطع من النقود الذهبية، كما اقترح أنصاره بأن يمنح أيضاً امتيازات وشارات شرف جديدة.

كان هاميلكار قد أوصى القدماء بأن يفاوضوا أوتاريت لاستبدال أسرى البربر جميعهم ـ إذا دعت الحاجة ـ بجيسكون ومن معه من القرطاجيين المعتقلين، ولكن الليبيين والرحّل، وهم جنود أوتاريت، كانت لا تصلهم أية صلة بالأسرى، فكلهم من أصل إغريقي أو إيطالي، ومن جهة أخرى، فإذا كانت قرطاجة تتنازل عن هذا العدد الكبير من الأسرى لافتداء عدد قليل من القرطاجيين، فما ذلك إلاّ لأن الأولين لا قيمة لهم بعكس الآخرين الذين تبدو قيمتهم كبيرة، فلا بد إذاً أن يكون وراء الأكمة ما وراءها، ولهذا رفض أوتاريت ما عرضه القرطاجيون، وأمر القدماء بإعدام جميع الأسرى رغم ما أوصى به القائد الزعيم من الاحتفاظ بهم، لأنه كان ينوي أن يجنّد خيرتهم بين جنوده، فيشجع بذلك غيرهم من البربر على الانتقاض على جيشهم واللجوء إليه. ولكن البغضاء أطاحت بكل حكمة وتحفظ.

أوثقوا البربر مصلبين إلى عمد القبور، وهرع ليشترك في إعدامهم التجار وخدم المطابخ والمطرزون، حتى النساء أيامى الجنود القتلى وأبناؤهم أقبلوا يقتّلونهم رمياً بالسهام، فكانوا يسددون الرميات إليهم ببطء كي يطيلوا عذابهم، كما كانوا يرفعون القوس ثم ينزلونها بعد التسديد.

ووراءهم الجماهير تتدافع وترسل صيحات كالعواء، وحتى المقعدون توافدوا محمولين على محفاتهم، وكثير من الناس كانوا يجلبون معهم أطعمتهم ويمكثون في ساحة التعذيب حتى المساء. وقد نصبت الخيام للشاربين وجنى الكثيرون أرباحاً طائلة من تأجير الأقواس.

ثم إنهم تركوا جثث المصلوبين في أماكنها فبدت وهي فوق القبور كتماثيل حمراء اللون، ما زاد في فرح الشعب فرحاً اتصلت عدواه بسكان مالكا الذين لم يكونوا من أصل قرطاجي، والذين كانوا عادة لا يكترثون لأمور الوطن، ولكنهم الآن يشتركون في أفراح انتصاره لما في ذلك من اللذة، ويحسون بما يحس به المواطنون. وسر القدماء لذلك ورأوا ضرباً من المهارة أن يمتزج الشعب بأخلاطه فيشترك كله في الانتقام.

كما أنَّ الآلهة لم تبخل بالاشتراك في تنفيذ الحكم، فإن الغربان تجمّعت من جميع أنحاء السماء لتنقض على هذه الجثث، فكانت تطير وتحلق في الجو حائمة وترسل نعيباً أجش وتكوّن غيماً يدور على نفسه بدون انقطاع. وكان أهل «كليبيا» و«راديس» والواقفون على رأس «هرميوم» يلمحون هذا الغيم من الطيور يتجلى حيناً فيوسع دائرة خطوطه اللولبية السود لأن نسراً قد انقض ثم يعود فيرتفع في طيرانه، وهنا وهناك على ذرى المسلاّت وجباه الهياكل حطت طيور كبيرة الأحجام تحمل في مناقيرها المحمرة بقايا لحوم بشرية.

وبسبب انتشار الروائح الكريهة رضي القرطاجيون كارهين أن ينزلوا الجثث، فحرقوا بعضها، ورموا ما تبقى منها في البحر، وحملت الأمواج مدفوعة بريح الشمال بعض هذه الجثث إلى الشاطئ، فأودعتها في آخر الخليج أمام معسكر أوتاريت.

ولا شك في أن هذا الانتقام الفظيع ألقى الرعب في قلوب البربر، فقد رآهم الأهلون، من أعالي معبد أشمون، يقوّضون خيامهم ويجمعون قطعانهم ويحملون أمتعتهم على الحمير، ورحل الجيش بأكمله في مساء اليوم ذاته.

*

كان على هذا الجيش أن ينتشر من جبل المياه الساخنة حتى هيبوزريت ليمنع هاميلكار الزعيم القائد من الاقتراب من المدن الصورية ويحول بينه وبين إمكان العودة إلى قرطاجة. وفي الوقت ذاته يجتهد الجيشان الأخوان بأن يدركاه في الجنوب، فجيش سبنديوس من الشرق وماتو من الغرب، بحيث تجتمع الجيوش الثلاثة لمفاجأته والإحداق به وتطويقه.

في هذه الأثناء جاءهم مدد لم يكونوا ينتظرونه، فإن «نارهافاس» أقبل ومعه ثلاثمائة جمل محملة زفتاً وخمسة وعشرون فيلاً وستة آلاف فارس. وذلك لأن هاميلكار رأى أن يشغل عنه نارهافاس بعيداً في مملكته لكي يمنعه من نصرة البربر، فاتفق مع شرير قاطع طرقات اسمه «مسجبة» ـ كان يعمل ليؤسس أمبراطورية ـ وزوّده بالمال على أن يشعل هذا الشرير نار الثورة في أقاليم نوميديا، فأخذ يدعو الشعب إلى الثورة ويعده بالحرية، واتصل خبره بنارهافاس، من طريق ابن مرضعته، فخف إلى «سيرتا» وتغلب على أعدائه بأن سممهم بماء الآبار وأطاح ببعض الرؤوس وأعاد الحال إلى ما كانت عليه، وأقبل ليحارب القائد الزعيم وهو يضمر له حقداً أشد من حقد البربر.

اتفق القواد الأربعة(*) في ما بينهم على الخطة التي سيتابعون بها الحرب لأنها ستطول ولأنه يجب تدبر الأمور قبل وقوعها، وأجمعوا رأيهم على أن يطلبوا قبل كل شيء مساعدة الرومان، وعرضوا على سبنديوس أن يقوم بهذه المهمة، ولكنه لم يجرؤ على قبولها لأنه كان عبداً آبقاً، فعهد بالأمر إلى اثني عشر رجلاً من المستعمرات الإغريقية فرحلوا على زورق استقلوه من ثغر عنابا. ثم ألزموا الجيش بأن يقسم على طاعتهم طاعة عمياء، وأخذ الضباط يفحصون ملابس الجنود وأحذيتهم كل يوم، وحرموا على الحرس أن يحملوا تروسهم، لأنهم كانوا يستندون برماحهم إليها وينامون وهم وقوف، وأرغم الذين يجرّون وراءهم أمتعة على التخلي عنها، وأصبح كل

(*) ماتو، سبنديوس، أوتاريت، ونارهافاس.

شيء واجب الحمل على الظهر، على الطريقة الرومانية، وصدّاً لهجوم الفيلة.

شكّل ماتو فرقة من الفرسان يلتحم الرجل فيها بفرسه بأن يُغطى كلاهما معاً بدرع ضافية من جلد جاموس البحر مثبت فيها مسامير، كما ألبست الخيل نعالاً من نسج الحَلْفاء وقاية لحوافرها.

وقد مُنع الجند من نهب القرى ومن ظلم السكان الذين ليسوا من أهل قرطاجة. ولمّا كانت المنطقة قد نفدت أقواتها فقد خصص لكل جندي جراية يومية واستثني النساء من هذا التوزيع، فبدأ الجنود يقتسمون جراياتهم مع نسائهم ولكن الضعف أخذ يعتريهم لقلة التغذية. واستعرت المشاجرات وتعاطى الجند السب والشتم لأن الكثير منهم أخذوا يستجلبون نساء رفقائهم بإشراكهن في مخصصاتهم أو بوعدهن بذلك، فأمر ماتو بطردهن جميعاً دون رحمة ولا شفقة، فالتجأن إلى معسكر أوتاريت، ولكن النساء الغوليات والليبيات أسرفن في سبهن وإهانتهن حتى رحلن. وأخيراً لجأت هؤلاء النسوة إلى قرطاجة، ووقفن تحت الأسوار يلتمسن حماية «سبريس» و«بروزبين» لأنه كان في بيرسا معبد لهاتين الإلهتين، مبني كفّارة عن الآثام التي اقترفت عند حصار سرقسطة. وتمسّك «السيسيت» بالحق الذي يخوله القانون لهم بأن يستولوا على الأشياء التي ليس لها مالك معروف، فطالبوا بالاستيلاء على أصغرهن سنّاً ليبيعوهن في الأسواق، وتزوج القرطاجيون الجُدد من «اللاسيديمونيات» لأنهن كن شقراوات.

غير أن البعض منهن أصررن على اللحاق بالجيش، فكنَّ يجرين على جنبات صفوف الجند بجوار الضباط فينادين رجالهن ويشدونهم من أرديتهم، أو يضربن على صدورهن لاعنات إياهم، أو يمددن إليهم أذرعتهن وعليها أطفالهن وهم عراة، وكانت هذه المناظر تلين البربر، وأولئك النساء يعرقلن الجيش ويعرضنه للخطر، فحاولوا إبعادهن ولكنهن كن يعدن، فأمر ماتو بطردهن بالقوة، فحمل عليهن فرسان نارهافاس

وردوهن بطعنات الرماح، ولمّا صاح الجند بقائدهم أن لا بد لهم من نساء أجابهم: «لستم بخير مني فأنا لا أملك امرأة».

بدا أنَّ روح «مولوخ» صارت مستولية على ماتو، فعلى الرغم من تبكيت ضميره كان يقوم بعمل أشياء منكرة مرعبة وهو يتخيل أنه يطيع أمر الإله، فكان إذا لم يجد ما ينهبه أمر برمي الحجارة في الحقول لكي يجعلها جدباء.

أسرع الرسل مرة بعد مرة إلى سبنديوس وأوتاريت لكي يجدوا بالسير، وظلت مناورات هاميلكار غامضة غير مفهومة، فقد عسكر على التتابع في «عيدوس» و«مشار» و«تاهنت»، ورآه المستكشفون في جوار «أشعيل» على مقربة من حدود بلاد نارهافاس، ثم نقل إليهم أنه قد عبر النهر فوق «تبوردا» كما لو كان ينوي العودة إلى قرطاجة، وهكذا فلا يكاد يستقر في مكان حتى يغادره إلى آخر، والطرق التي يسلكها تظل مجهولة، وكان لا يزال محتفظاً بميزاته على البربر، لأنهم وإن كانوا يطاردونه فقد كان هو الذي يقودهم.

هذه التنقلات جيئة وذهاباً أتعبت القرطاجيين أكثر مما أتعبت البرابرة، فضلاً عن أن قوات هاميلكار، التي لم تتجدد، أخذت في التناقص يوماً بعد يوم، وأصبح أهل الريف يتباطأون في تجهيزه بالأقوات، وهو يشعر في كل مكان بسريان روح التردّد والبغض الدفين. وعلى الرغم من توسلاته إلى المجلس الأعلى لم يصله أي عون أو نجدة من قرطاجة، فهم يرددون هناك، أو هم يظنون، أنه ليس بحاجة إلى المدد وأن طلباته حيل ومخادعة أو لا فائدة منها ولا جدوى. وكان أنصار هنون يبالغون في أهمية انتصاره ليصرفوا الأذهان عن النظر في طلباته، وينسبون الفضل كله في انتصاره إلى تضحيات جنوده، ويرون أنه لا داعي إلى تحقيق جميع رغباته، وأن الحرب قد أثقلت الكواهل وكلّفت الكثير، وكان أنصاره لكبريائهم يؤيدونه دون حماسة.

أدرك اليأس هاميلكار حينذاك من الجمهورية، وأخذ يستولي بالقوة

على جميع ما يحتاج إليه من القبائل ليتمكن من متابعة الحرب، وهكذا اغتصب الحبوب والزيت والخشب والبهائم والرجال، فلجأ الأهلون إلى الفرار، وأصبحت القرى التي يجتازها خاوية، وخيمت الوحدة الموحشة المخيفة على جيشه.

ثارت ثائرة القرطاجيين فأخذوا يردمون الآبار ويحرقون المنازل، وحملت الريح شرر الحريق إلى بعيد فاحترقت الغابات على الجبال، وعقدت على الأودية هالات من نار، فكانوا يضطرون إلى التوقف حتى تنطفئ النيران ثم يتابعون السير على الرمضاء في حمّارة القيظ. وكانوا يلمحون أحياناً على حافة الطريق وما بين الأشواك بؤبؤ عين يلمع لمعان عيني السنّور، تلك عين رجل من البربر مقع على عرقوبيه وقد مرغ جسمه بالغبار ليختلط بلون الأوراق، وإذا مرّوا بواد سمع رجال الجناحين دحرجة حجارة تتساقط، ثم لمحوا في ثنايا المضيق رجلاً حافي القدمين مسرعاً في عدوِه.

كانت هيبوزريت وأوتيك قد أصبحتا حرتين لرحيل البربر المحاصرين، فطلب هاميلكار من سكانهما أن يسارعوا إلى نجدته، ولكنهم ـ وقد خشوا عاقبة الانضمام ـ ردوا عليه بقول مبهم مصحوب بالتحيات والأعذار.

فجأة اتجه إلى الشمال وقد عقد العزم على الاستيلاء على إحدى المدينتين الصوريتين، ولو اضطره الأمر إلى ضرب الحصار عليهما لحاجته إلى قاعدة على الشاطئ ليتمكن من جلب المؤن والذخيرة من الجزر أو من القيروان. وآثر إذ ذاك أن يستولي على أوتيك لأنها أقرب إلى قرطاجة.

ترك «زويتين» ودار بحرص حول بحيرة هيبوزريت، ولكنه اضطر إلى مد خطوط فرقه أفقيّاً ليتمكّن من تسلق الجبل الفاصل بين الواديين، وحط الجيش رحاله عند المساء على قمة جبل بشكل مصفاة، وإذا بهم يرون أمامهم في السهل خوذاً بشكل ذئاب تجري على العشب الأخضر، وقنابر

من ريش الطيور جاثمة، ويسمعون نشيداً يرتفع عالياً على نغم الشبّابات.

كان هذا جيش سبنديوس، وتلك رسوم الذئبات الرومانية اتخذها الكمبانيون والإغريق شعارات لهم لكرههم للقرطاجيين. وفي الوقت نفسه ظهرت لهم من الشمال رماح طوال وتروس من جلد النمور ودروع من الكتان وأكتاف عارية، هم جنود ماتو من «اللازيستانيين» والباليار والغيتول، الذين التحقوا بجيش سبنديوس. ثم سمع صهيل خيول نارهافاس، وانتشر هذا الجيش حول الأكمة، وأخيراً أقبل الخليط الذي يقوده أوتاريت من الليبيين والرحل وآكلي الطعام النجس الذين تدل عليهم حسكات الأسماك المعلقة في شعورهم.

على هذا النحو اجتمعت جيوش البربر طبقاً للخطة الدقيقة الموضوعة من القواد الأربعة الذين فوجئوا هم أيضاً برؤية القرطاجيين فأخذوا يتشاورون فيما بينهم.

رتّب هاميلكار جيشه بشكل مستدير لتتساوى قوة دفاعه ومقاومته في جميع جنباته، وحول المشاة خوذهم الطويلة ملقاة إلى جانبهم على العشب، وخارج الحلقة فرسان «الكلينابار» والفيلة الراقدة غير بعيد منهم.

كان المرتزقة متعبين فآثروا أن يرجئوا الهجوم إلى الغداة لثقتهم بالنصر، وصرفوا الليل وهم يأكلون، وأوقدوا نيراناً عظيمة ارتفع لهيبها فبهر عيونهم وحجب عنهم رؤية الجيش القرطاجي الغارق في بحر من الظلام. وأمر هاميلكار جنوده فحفروا حول معسكرهم خندقاً عرضه خمسة عشر قدماً وعمقه عشرة أذرع وعلى شكل الخنادق الرومانية، ورفعوا فيه من الداخل بالتراب المرصوص إفريزاً دقوا فيه أوتاداً متشابكة حادة الرؤوس.

مع الصباح عرت البربر الدهشة لرؤيتهم القرطاجيين وقد تحصنوا خلف خندق كأنه قلعة من القلاع، ورأوا هاميلكار يسير بين الخيام يصدر الأوامر وهو مدرع بدرع سمراء مطعمة بالأصداف الصغيرة وخلفه جواده يتبعه. وكان يقف من حين إلى آخر ليدل على شيء بإشارة من يده الممدودة، فأعادت رؤيته إلى أذهان الكثيرين من رجال المرتزقة ذكريات

ساعات صباح شبيهة بهذه الساعة كان ينفخ فيها بالصور فيمر أمامهم مستعرضاً متمهّلاً في سيره ويرمقهم بنظرات تنشطهم كأكواب الخمر، فأخذتهم هزة من حنين. وأما الذين لم يعرفوه من قبل فقد تملّكتهم نشوة طرب لما كانوا يتوقعونه من انتصار عليه.

اجتمعوا وفكّروا فيما يجب عمله، فإن هم هاجموه كتلة واحدة فقد يصيب بعضهم بعضاً لضيق المسافة، وإذا هاجمه النوميديون وحدهم فإن فرسان الكليناربار المحتمين بدروعهم يسحقونهم. وعلى كل حال لا سبيل إلى اجتياز الحواجز، وأما الفيلة فغير مدربة تمام التدريب.

فصاح بهم ماتو: «كلكم جبان رعديد!». وهجم على رأس خيرة جنوده يحاول اختراق الحواجز، فرده عنها سيل من الحجارة، لأن هاميلكار جر معه المنجنيقات التي غنمها من البربر عند الجسر.

نال هذا الفشل من نفسية البربر السريعة التقلّب وأنقص من مغالاتهم بشجاعتهم، فهم توّاقون إلى الانتصار ولكن ببذل أقل التضحيات. ورأى سبنديوس أن يحتفظ الجيش بمواقعه وألاّ يهاجم لأن الجوع سيدفع القرطاجيين إلى الاستسلام. عند ذلك أمر هاميلكار بحفر الآبار فعثروا على المياه لأن الجبال كانت تعلو الأكمة المخيمين فيها. وأخذوا من مرتفعهم هذا يرمون البربر بالسهام والأقذار والتراب والحصى ينتزعونها من الأرض والمنجنيقات تقذفهم بالحجارة دون انقطاع.

لكن الآبار لا بدّ ستنضب، وستنفد المؤن وتتلف المنجنيقات، فرأى القائد الزعيم أن يفاوض البربر كسباً للوقت، وهكذا عثروا في صباح يوم على جلد كبش مرمي في خطوطهم مغطى بالكتابة. في هذا الكتاب يعتذر هاميلكار للبربر عمّا أوقعه بهم من هزيمة، لأن القدماء أرغموه على حربهم، ويعرض عليهم أن ينهبوا هيبوزريت، ويقول لهم في آخر كتابه: «إنه لا يرهب جانبهم لأنه عرف أن يجتذب إليه كثيراً من الخونة بينهم،وإنه بمساعدة هؤلاء سيتغلب على الآخرين».

هاجت نفوس البربر لما جاء في تلك الرسالة، فالعرض الذي فيها

جعلهم يحلمون بغنيمة عاجلة، كما أنهم أصبحوا يخشون الخيانة. ولم يدر في خلدهم أن هناك شركاً ينصبه لهم الزعيم القائد، وأخذوا يتفرسون في وجوه بعضهم بحذر، ويحرصون في كلامهم وحركاتهم، بل إن الرعب الذي أخذ يقض عليهم المضاجع جعلهم يستيقظون في الليل قلقين، وكثير منهم ترك الفرقة التي ينتمي إليها ليلتحق بفرقة أخرى، فالغوليون التابعون لأوتاريت انضموا إلى رجال «جيزالبين» لفهمهم للغتهم.

كان القادة الأربعة يجتمعون كل ليلة حول خوذة فيقدمون ويؤخرون الدمى الصغيرة التي اخترعها «بيروس» لاتباع مناورات الجيش المتحاربة. وكان سبنديوس يقيم الأدلة على بعد نظر هاميلكار ومعين حيله الذي لا ينضب، ويستحلفهم ألاّ يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم، ويناشدهم باسم جميع الآلهة، وكان ماتو يمشي جيئة وذهاباً وهو يتابع الإشارات بيديه، وكأنّ محاربة قرطاجة هي ملك له خاص به، وكان يفيض بالشكوى لأن الآخرين لا يريدون أن يطيعوه، وأوتاريت لا يفهم كلامه من إشاراته فيصفق له، ونارهافاس يرفع ذقنه دلالة على الاستهزاء، لأنه لا يرى صواباً في كل ما يعرضه.

لقد فارقته ابتسامته كما لو أنه ردّ إلى صدره نصل حادّ من حلم مستحيل التحقيق، أو يأس لضياع فرصة سنحت ففاتت.

وبينما كان البربر يتشاورون فلا يستقرون على رأي، كان القائد الزعيم يعزز معدات الدفاع، فأمر بحفر خندق وراء الإفريز وبرفع حائط آخر وبناء أبراج خشبية عند الأركان، وانسل عبيده حتى طلائع جيش البربر فطمروا الفخاخ في الأرض. ولكن الفيلة وقد نقص علفها هاجت تحاول التملص من عقالاتها. وتوفيراً للعشب أمر الكليناباِر بأن يذبحوا أضعف الخيول، فرفض بعضهم فأمر بقطع رؤوسهم، وأكلوا لحوم الخيل الذبيحة، ولكن شهوتهم إلى أكل اللحم الطازج ملأت نفوسهم كآبة في الأيام التالية.

كانوا يرون من أعلى المدرجات المزدحمة بهم معسكرات البربر

الأربعة وهي محيطة بهم مليئة بالحركة، وهناك نساء يحملن قرب الماء على رؤوسهن ويدرن بها على الخيام، والأمعز تضل تحت حزم الحراب، ورجال العسس يبدلون، والجنود حول موائدهم يأكلون ما طاب لهم، لأن القبائل كانت تمدهم بالمؤن والأقوات. ولكنهم ما كان يدور في خلدهم أن قعودهم عن مهاجمة القرطاجيين كان يخيف هؤلاء أكثر من خوفهم من الهجوم.

لاحظ القرطاجيون، منذ اليوم الأول، أن في معسكر البربر جماعة من الرجال عزلوا بعيداً عن الخيام، وكان أولئك هم الثلاثمائة من القرطاجيين الأغنياء الذين اعتقلهم البربر منذ بدء الحرب، وها هم يضعونهم اليوم في الصف الأول على حافة الحفرة المرتمين فيها ويختبئون وراءهم ويرمون القرطاجيين بالحراب متخذين من أولئك البؤساء دروعاً لهم يحتمون خلفها.

لم يكن من السهل التعرف إليهم لكثرة ما علق بوجوههم من الأقذار والهوام والدود، وبدا في جلد رؤوسهم، في المواضع التي اقتلعت منها شعورهم، القروح والبثور، وبلغ بهم الهزال ودمامة الشكل مبلغاً أشبهوا معه مومياءات عليها أكفان مثقبة، وكان البعض منهم يبكون وينتفضون بشكل ينم عن الغباوة، والآخرون يصرخون طالبين من أصدقائهم أن يرموا البربر بحرابهم، وكان بينهم رجل لا يبدي حراكاً، مخفوض الجبين، لا ينبس ببنت شفة، ولحيته البيضاء الطويلة تتدلى حتى يديه، والقرطاجيون ـ وكأنهم أحسوا في أعماق نفوسهم بسقوط جمهوريتهم ـ عرفوا بذلك الرجل الزعيم جيسكون، فأخذوا على ضيق المكان يتزاحمون ليشاهدوه، وكان البربر قد ألبسوه تاج سخرية مصنوعاً من جلد جاموس البحر ومطعّماً بالحصى، وكان هذا من تخيل أوتاريت ولكن ماتو كان مستاء من ذلك.

هاج الغضب بالقائد هاميلكار إلى حد الجنون، فأمر بفتح أبواب السياج وهو عاقد عزمه على التفريج عن الجيش مهما كلفه ذلك، وصعد

القرطاجيون على الإفريز لمسافة ثلاثمائة خطوة، ولكن سيلاً من البربر تدفق عليهم فردهم إلى خطوطهم، وحدث أن حارساً من حراس الكتيبة تعثر بالحجارة وهو خارج السياج، فهجم عليه زركساس وطرحه أرضاً وأغمد خنجره في حلقومه، ثم انتزعه وارتمى على الجرح يمتص الدماء منه بدمدمة فرح كانت تهز جسمه حتى أخمص قدميه، ثم جلس على الجثة بهدوء وأمال رقبته لكي يستنشق الهواء، كما تفعل أنثى الوعل وقد ارتوت من الشرب من سيل متدفق، وأخذ يتغنى بأغنية منتشرة في جزر الباليار وطنه، وهي أغنية يرتفع فيها الصوت وينخفض ويكثر فيها الترجيع، وكان ينقطع عن الغناء قليلاً ثم يعود، وكان غناؤه صدى تتجاوب به الجبال، وفيه مناجاة لأخوته المسيييين يدعوهم به إلى مأدبة، ثم ترك يديه تسقطان بين فخذيه وحنى رأسه ببطء وراح يبكي.

هذا العمل الوحشي الهمجيّ استفظعه واستنكره البربر ولا سيما الإغريق.

منذ تلك اللحظة لم يعد القرطاجيون يفكرون في الخروج ولا في التسليم ليقينهم بأن القتل والتعذيب الوحشي سينزلان بهم.

أخذت الأقوات تتناقص تناقصاً مرعباً على الرغم من عناية هاميلكار، ولم يبق للرجل الواحد إلاّ ثلاثة «كومور» من القمح وثلاثة «هين» من الدخن، أي الذرة البيضاء، واثنا عشر «بتزا» من الفواكه المجففة، فلا لحم، ولا زيت، ولا مقددات أو مملحات، ولا حبة شعير للخيل التي كانت ترى مرخية الأعناق هزيلة تبحث بين التراب عن قشة وطئتها الأقدام. وفي بعض الليالي كان الحراس إذا رأوا كلباً قادماً إلى التحصينات يبحث تحتها بين القاذورات عن فضلة يأكلها رموه بالحجارة حتى يقتلوه، ثم يتدلى أحدهم على سيور الترس فيلتقطه ويأكلونه سرّاً، ويحدث أن يرتفع نباح الكلاب مجتمعة فلا يعود الحارس المتدلي، وقد تنازع ثلاثة من جنود الكتيبة على جرذ من الجرذان وتضاربوا بالمدى حتى قتلوا ثلاثتهم.

راح كل منهم يحن آسفاً إلى عائلته وبيته، فالفقير يحن إلى كوخه المبني

بشكل خلية النحل، المطروحة على عتبته الأصداف، والمنشورة أمامه شباك الصيد، والغني يذوب شوقاً إلى تلك القاعات الكبيرة المخيمة عليها الظلال المزرقة، حيث كان يستسلم إلى الراحة في أنعم ساعة من ساعات النهار، وهو يتسمّع إلى هدير أمواج الشوارع الممتزج بحفيف الأوراق المنتفضة المهتزة في حديقته، وتوصّلاً إلى الخوض في أعماق تفكيره، ليزيد من تلذذه به، يطبق جفنيه فتوقظه وخزة ألم من جرحه، وفي كل لحظة يقع التحام أو يسمع إنذار. فهذه الأبراج تحترق، أو هؤلاء هم أكلة الأشياء النجسة يقفزون على السياج فتقطع أيديهم بالفؤوس فيجيء غيرهم، أو هذا مطر من حديد يتساقط على الخيام! وأخيراً رفعوا أعراشاً من نبات الحَلْفاء ليتقوا قذائف الحديد فاستقر الجند فيها ولم يعودوا يغادرونها.

وفي كل يوم تطلع عليهم الشمس ثم تدور منذ الساعات الأولى مختفية عند أقصى المضيق، وتتركهم في الظلام، وأمامهم ووراءهم منحنيات الأرض الغبراء ترتفع وهي مغطاة بالحصى المرقشة بالحنّاء النادرة، وفوق رؤوسهم السماء الدائمة الصفاء، تمتد فتبدو للعيون أكثر ملاسة وأشد جموداً من قبة معدنية.

بلغ استنكار هاميلكار لموقف قرطاجة حدّاً أحس معه بالرغبة في أن يرتمي في أحضان البربر ويسير على رأسهم إلى فتحها، وأخذ الحمالون والبائعون والعبيد يتذمرون، ونامت عنه قرطاجة، فلا الشعب ولا المجلس الكبير ولا أحد يرسل إليه.. ولو بريق أمل! وأصبحت الحال لا تطاق ولا سيما أنهم توقعوا بأنها ستصير أسوأ مما هي عليه.

*

عندما وصلت أنباء الكارثة إلى قرطاجة انتفضت غضباً وحقداً، ولو أن هاميلكار جر الهزيمة على نفسه بادئ ذي بدء لكان بغضهم إياه أقل حدّة، فلا متسع في الوقت فيشترون جنوداً، ولا مال لديهم. وإذا جندوا أهل المدينة فمن أين يأتونهم بالسلاح والعتاد وقد أخذ هاميلكار كل الأسلحة،

بل هو القائد الذي يعرف أن يقودهم وجميع الضباط هناك معه، ولكن الرجال الذين أوفدهم هاميلكار أخذوا يضجون في الشوارع ويطالبون، فتأثر المجلس الأعلى من ذلك ودبر الأمر فاختفوا عن العيان إلى الأبد.

غير أن احتياطهم هذا في إخفائهم لم يكن ضرورياً، لأن جميع السكان كانوا يتهمون هاميلكار بالتهاون والتراخي في قيادته، إذ كان واجباً عليه أن يبيد البربر بعد انتصاره، ولأنه أخطأ في نهب القبائل دون داع ولا حاجة، والشعب قد تحمل أثقل الأعباء وقام بما طلب منه من تضحيات. وأخذ المواطنون يأسفون على ما أعطاه الواحد منهم، أي أربعة عشر «شيكيل» للجيش، والسيسيت لعطائهم مائتين وثلاثة وعشرين ألف «كيكار» من الذهب، وحتى الذين لم يعطوا شيئاً أخذوا يعولون مع المعولين.

حنق الشعب على القرطاجيين الجدد لأنه وعدهم بمنحهم حق المواطنية، وكانوا يخلطون بين البربر وبين الليغوريين الذين قاتلوا في سبيل قرطاجة خير قتال، ويلعنونهم ويعدون من كان من جنسهم مجرماً وممالئاً للبربر. وأخذ الجميع يناقشون الخطط الحديثة سواء في ذلك التجار الجالسون على عتبات حوانيتهم، والعمال المارون وبأيديهم مساطر من رصاص، وباعة المخلّلات وهم ينفضون سلالهم، والمستحمون في حماماتهم، حتى وباعة الأسماك الساخنة. وكانوا يضعون خطط المعارك بخطوط من أصابعهم على الغبار حتى لم يبق منهم خادم من خدمة الجند إلاّ أصلح أخطاء هاميلكار.

كما أنَّ الكهنة ذهبوا إلى القول إن ما حل بهاميلكار هو غضب وانتقام من الآلهة لما ظهر منه من ضلال طال أمده، فهو لم يقدم الذبائح المحرمات، ولا قام بتطهير جنوده، بل رفض أن يصطحب معه عرّافين، وكانت فضيحة تدنيس الحجاب تذكي نار الأحقاد المكبوتة والآمال العاثرة. وعادوا بالذكريات إلى هزائم صقلية وما احتملوه طويلاً من عنفوان كبريائه، ولم تنس جماعة الأحبار أنه استولى على كنوزهم، فطالبوا المجلس الأعلى بصلبه إذا عاد في يوم من الأيام.

كان حرّ شهر أيلول شديداً هذه السنة، فزاد من حدة الكارثة، وكان ينتشر في الجو من شواطئ البحيرة روائح كريهة نتنة فتمر مع الريح ممتزجة بدخان العطور التي تحرق في أركان الشوارع، وكثر سماع الأناشيد الدينية، وأقبل جمهور الشعب على المعابد فاحتل سلالمها، وغطيت جميع الجدران بالستور السود، وأُشعلت الشموع على جباه الإلهة «باتوك»، وجرت على درجات السلالم كالشلالات دماء الجمال التي ذبحت ضحايا للآلهة، وسرت في قرطاجة هزة عصبية من الجنون فأصبحت كأنها في بُحران: فمن أعماق الشوارع الضيقة، ومن أحلك المواخير ظلاماً، كان ينسل رجال ذوو وجوه شاحبة، ومظاهر جانبية كمظاهر الأفاعي، وأسنانهم تصطك، وعواء النساء الحاد يملأ البيوت ويتسرب إلى الخارج من خلال النوافذ والأبواب، فيلفت أنظار الرجال الواقفين في الميادين يتحدثون.

وكثيراً ما كان يخيل إلى الشعب أن البربر قد وصلوا وأنهم شوهدوا وراء جبال المياه الساخنة أو معسكرين في تونس، فترتفع الأصوات وتتضخم وتختلط وتنفجر في صرخة واحدة، ثم يلي ذلك صمت سائد شامل، فيظل بعضهم متسلقاً واجهات المباني، وأيديهم مفتوحة أمام عيونهم يتطلعون،وينبطح الآخرون على بطونهم في أسفل الأسوار يمدون آذانهم منصتين. فإذا ولى الرعب عاد الغضب، ولكن شعورهم بعجزهم لا يلبث أن يعود بهم إلى ما كانوا عليه من الغمّ والكآبة. وتزداد كآبتهم أضعافاً كلما صعدوا جميعاً إلى السطح، فأخذوا ينحنون تسع مرات ثم يرسلون صرخة عظيمة ليحيوا الشمس التي تنحدر وراء مستنقع الماء شيئاً فشيئاً لتتوارى فجأة وراء الجبل من جهة البربر.

هذا وهم يرقبون حلول العيد المثلث القداسة الذي يطير فيه من أعلى لهب النار إلى السماء نسر هو رمز انبعاث السنة ورسالة الشعب إلى بعله الأعظم، رسالة كانوا يعدونها اتحاداً مع الإله، واندماجاً منهم بقوة الشمس، ومن جهة أخرى فإنهم وقد ملئت اليوم نفوسهم بغضاً وضغينة

أصبحوا لسذاجتهم يتجهون بعباراتهم إلى مولوخ السفاح، وينصرفون كلهم عن تانيت، وبالفعل فإن «إلهتنا» وقد تجرّدت من حجابها أصبحت وكأنها مجردة من جزء من فضيلتها وقوتها، لقد أنفت من مياهها، وهجرت قرطاجة فهي إذاً هاربة من قومها بل عدوة قومها، وكان بعضهم يرميها بالحجارة ليلحق بها الإهانة، والبعض الآخر يرق لحالها مع إهانته إياها. ومع ذلك كانوا لا يزالون يحبونها، وقد يكون حبهم إياها أصبح أعمق من ذي قبل.

إذاً، فجميع البلايا قد حلّت بهم من خسارة الحجاب المقدس، وقد ساهمت سلامبو في هذه الخسارة فأصبحوا يتناولونها بحقدهم، وأصبح الواجب أن يحل بها العقاب. وسرت بين الشعب فكرة تقديم ضحية للآلهة، ولا بد لإرضائها أن تكون هذه الضحية ذات قيمة لا تقدّر: مخلوق جميل الصورة، في ريعان الشباب، بتول من أسرة عريقة، مولود من الآلهة، كوكب بصورة إنسان. وهكذا فإن أناساً مجهولين كانوا يختلفون كل يوم إلى حدائق ميجارا فلا يجسر العبيد على ردهم خوفاً على أنفسهم، ولكنهم ما كانوا يتجاوزون قط سلالم السجون، بل يظلون واقفين في أسفل المكان يجحظون بعيونهم أعلى إفريز القصر، يرقبون ظهور سلامبو وهم يجأرون بأصوات الشحناء والبغضاء، كأنهم كلاب تنبح القمر.

*

10
الثعبان الأسود

تلك الصيحات ـ صيحات الشعب الثائر ـ ما كانت لتلقي الرعب في قلب سلامبو ابنة هاميلكار، بل هي في الواقع كانت مضطربة لقلق أعظم شأناً كان يساورها: إن حيتها الكبيرة ـ الثعبان الأسود غير السام ـ آخذة في الذبول، والحية عند القرطاجيين معبود وفأل خير، مكرّم من الأمة ومن الأفراد، فهم يعتقدون بأن الثعبان ابن تراب الأرض لأنه خرج من أعماقها واستغنى عن الأرجل للتجول فيها، وأن انسيابه يذكر بتموجات الأنهر، وطبيعته بالظلمات اللزجة الرخوة المليئة بالإخصاب، والكرة التي يكونها وهو يعض ذنبه تذكرهم بمجموعة الكواكب ومعبد أشمون.

وقد رفض ثعبان سلامبو مراراً أن يبتلع عصافير الدوري الأربعة التي كانت تقدم إليه عند إهلال القمر وإبداره، وهذا جلده الجميل المغطى مثل الفلك بنقط ذهبية على خلفية سوداء قد أصبح اليوم أصفر لزجاً مليئاً بالغضون، واسعاً على جسمه، وامتد العفن بشكل القطن حول رأسه، وفي مأقي جفنيه بدت بقع حمر متحركة، ومن وقت إلى آخر كانت سلامبو تقترب من سلتها المصنوعة من خيوط الفضة فترفع عنها غطاءها الأرجواني وأوراق السدر وزغب الطير فتراه لا يزال ملتفاً على نفسه كنبات العشقة الذابل، وكلما زاد نظرها إليه كلما أحست كأن لولباً أو حية أخرى ترتفع من صدرها شيئاً فشيئاً حتى تأخذ بحنجرتها فتخنقها.

كان اليأس مستحوذاً عليها من قبل لرؤيتها الحجاب المقدس، ومع ذلك فهي تحس بنوع من الفرح والكبرياء في قرارة نفسها، فإن هناك لسرّاً مخفيّاً في لألاء طياته، إنه الحجاب الذي تتوشح به الإلهة، هو سر الوجود العالمي. وتملّك الأسف نفس سلامبو لأنها لم ترفعه بيدها، ولو أن قلبها قد امتلأ رعباً لمجرد أن خطر لها هذا الخاطر.

وبينما هي في جِلستها مقرفصة في أقصى مكان من مخدعها، ممسكة

بيديها ساقها اليسرى المطوية، وشفتاها منفرجتان، وذقنها مخفوضة، وحدقتا عينيها جامدتان، تذكرت، والرعب يملأ نفسها، وجه أبيها. لقد كانت تود أن تحتج إلى جبال فينيقيا، إلى هيكل أفقا، حيث نزلت تانيت بصورة كوكب، وكان كل ما تتخيله يجذبها ويخيفها، فهي تعيش في عزلة تتسع كل يوم وتحيق بها، حتى أنها لا تعرف ما صار إليه أبوها.

أخيراً ضاقت ذرعاً بتفكيرها، فانتصبت وأخذت تتمشى جيئة وذهاباً في الحجرة الكبيرة الصامتة، وهي تجر خفيها فيلاطم نعلاهما عقبيها، وحجارة الجست والزبرجد المغطية للسقف ترسل إلى هنا وهناك رقعاً مضيئة، وسلامبو ترفع عينيها إلى السقف لتراها، أو تتناول من أعناقها القوارير المعلقة، أو ترطب صدرها بالمراوح الواسعة، أو تلهو بإحراق الدارصيني في الصدف الأجوف. وعند غروب الشمس تنتزع طناش من فتحات الجدار قطع اللبد الأسود التي تسدّها فتتهافت الحمائم البيض المدهونة بالمسك كحمائم تانيت، وتندفع تدرج على البلاط الزجاجي بقوائمها الوردية، لتلتقط حبات الشعير التي تنثرها لها بملء قبضتيها كما يبذر الزارع الحب في حقله. وعلى حين فجأة أخذت سلامبو تصعد الزفرات، وارتمت بلا حراك على سريرها الكبير المصنوع من سيور جلد البقر، وهي تردد كلمة هي الكلمة ذاتها، لا تتبدل، وعيناها مفتوحتان وعليها صفرة الموت، فاقدة الحس باردة، ومع ذلك فهي تسمع صراخ القردة القابعة بين سعوف النخل الملتفة، والصرير المتواصل المنبعث من الدولاب الكبير الذي يدفع بدورانه إلى طوابق القصر غدير الماء الصافي فيتجمّع في أجران البِرفير.

مرّت أيام ترفض سلامبو فيها أن تتناول أي طعام، وتحلم في نومها بكواكب تراها قاتمة الضياء تمتد تحت قدميها، فتدعو شاهبريم، فإذا حضر لم تجد ما تقوله له. وهي لا تستطيب العيش لولا ما يغمرها به وجوده لديها من عزاء، رغم أنها كانت تثور في قرارة نفسها على ما اكتسبه من سلطان عليها، وهي تشعر نحوه بعواطف متناقضة من رهبة وغيرة

وبغض وحب وعرفان جميل لما كان يشعرها به من لذة وهو بقربها.

تبيّن لشاهبريم أن للإلهة تانيت يداً وأثراً في الذي تشكو منه سلامبو، لأنه، لسعة علمه وحذقه، كان يعرف أي الآلهة تبعث هذا المرض أو ذاك، فهو يداويها برش مخدعها بمزيج من الماء ورعي الحمام وكزبرة البئر، ويطعمها اليبروح كل صباح، ويلزمها بالنوم على كيس صغير مليء بعطور باركها الأحبار، ويسقيها ماء من عصير جذور نباتات ليزيل عنها الأرواح الشريرة، ويتجه كل يوم بوجهه إلى الكوكب القطبي وهو يردد اسم تانيت ثلاثاً. ومع ذلك كله ظلت سلامبو تعاني المرض، بل زاد غمها وقلقها أكثر.

لم يكن في قرطاجة أعلم منه بالطب، تلقى الدروس في شبابه في كلية «مجبد» في «برسيبا» بالقرب من بابل، وزار ساماطوراس وإفسس وتساليا واليهودية ومعابر النبط الضائعة بين الرمال، واجتاز ضفاف النيل ماشياً على قدميه من الشلالات إلى البحر، وألقى بديك أسود على نار من السندروس وهو محجب الوجه، هازّاً للمشاعل أمام تمثال أبي الهول. ونزل إلى مغاور «بروزريين» ورأى الأعمدة الخمسمائة تدور في تيه لمنوس. وكان كثيراً ما يجادل الإغريق ويسائلهم. وكان يهتم بتكوين العالم اهتمامه بطبيعة الآلهة، وتوصل إلى ضبط تبدّلات الفصول من طريق النقوش الدائرية المنقوشة على باب الإسكندرية. وصحب حتى القيروان أتباع «إيفرجيت» الذين يقيسون السماء بعدد خطواتهم. وهكذا نمت في رأسه مبادئ دين خاص لا طقوس تميزه، مليء بالحرارة وروح الضلال، ولم يعد يصدق أن الأرض ذات شكل مخروطي، بل يعتقد أنها مدورة تهوي دائماً وأبداً نحو الفضاء الذي لا نهاية له بسرعة عجيبة، حتى لا يشعر بسقوطها. واستنتج من وضع الشمس فوق القمر بأن البعل يسود كل شيء لأن الشمس ليست إلاّ انعكاساً لوجهه، ولا عجب فإنَّ كل ما يراه على الأرض يدفعه إلى القول بسيادة مبدإ الذكر المبيد، وكان في قرارة نفسه يحمل الإلهة جريرة ما مني به من الكوارث في حياته. ألم يرض في سبيلها ـ وحبّاً

لها ـ بأن يجره الحبر الأعظم بين أصوات الصنوج إلى هيكل فينتزع منه رجولته فوق فوهة كأس ملأى بالماء المغلي! وهو يتتبع بعينيه الحزينتين الرجال المختلين بكاهنات المعبد في أقصى غابات البطم.

أمّا الآن فهو يزجي أيامه ويصرفها في تفقّد المباخر وآنية الذهب والملاقط، وقشاشات الرماد وفساتين الآلهة، حتى إبرة البرونز المعدة لتجعيد فرع رأس هذه العجوز تانيت القابعة في المبنى الثالث بالقرب من كرمة الزمرد، وفي الوقت ذاته عليه أن يرفع سجف الأبواب، وأن يرفع ذراعيه ضراعة، وأن يصلي ساجداً راكعاً على البلاط نفسه، وحوله جيش من الكهنة يمشون حفاة الأقدام في الأروقة المليئة بالظلال الأبدية.

غير أنَّ سلامبو تبدو فوق صحراء حياته هذه كالزهرة الخارجة من شق ضريح، وكان قاسياً معها فلم يتورع عن إلزامها بالكفارات وعن إسماعها الكلام الفظ. وحالته الجسمية توجد بينهما مساواة في الجنس، وهو يحمل من الموجدة عليها لما يراه من جمالها وعفافها أكثر مما يحمله لعجزه عن امتلاكها، وكثيراً ما كان يلحظ أنها تبذل مجهوداً أكبر لتفهم ما يفكر فيه، فيعود إلى معبده أشد حزناً وكآبة، ويحس نفسه وحيداً طريداً مهملاً أكثر من ذي قبل.

كان يصدر عنه في بعض الأحايين كلمات غريبة تمر أمام سلامبو كبروق ساطعة تنير هوات عميقة. يحدث هذا في الليل وهما جالسان منفردين على إفريز السطح يراقبان النجوم، وتحتهما تنبسط قرطاجة مع الخليج والبحر المليء الضائعين كليهما في حلك الدجى. فيشرح لها نظرية النفوس التي تهبط إلى الأرض متتبعة مجرى الشمس الطاهر أو بروجها، ويمد ذراعه فيريها في برج الحمل باب الجنس البشري، وفي برج الجوزاء طريق الرجوع إلى الآلهة، فتجتهد سلامبو بأن تتبيّن ما يشير إليه، لأنها كانت تعد نظرياته حقائق ولو أنها رموز. فيقول لها مثلاً: «إن أنفس الموتى تندمج في القمر كالجثث في التراب، وإن دموعها تكسبها الرطوبة، وإن المقام هناك مظلم مليء بالوحول والفضلات والزوابع».

وتسأله: «وأنا، إلام أصير؟». ويجيبها «تبدئين بالذبول شبيهة ببخار يتأرجح فوق الأمواج المتلاطمة، وبعد تجارب قاسية وقلق طويل تذهبين إلى مصدر حرارة الشمس، إلى ينبوع الإدراك والفهم».

ولكنه لم يتكلم عن تانيت، فظنّت سلامبو أنه يغفل هذا لاستحيائه من هزيمتها، فأطلقت عليها اسم نكرة يدل على القمر، وأخذت تبارك اسم الكوكب المخصب ذي النعومة، فصاح قائلاً:

ـ «لا. لا. إنه يستمد خصوبته كلها من الكوكب الثاني. ألا ترينها تحوم حواليه كالمرأة العاشقة التي تحوم حول رجل في الحقل» ثم أطنب في مدح قوة النور.

وبدل أن يسحق شهواتها الروحانية، كان يهيجها، بل ويحس بفرح لإنهاك قواها العقلية بإيضاح قواعد علم متعب لا يرحم، وسلامبو تتلقف ما يوحيه إليها رغم ما تقاسيه من آلام حبها. وشاهبريم كلما زاد شكّاً بتانيت كلما زاد رغبة في الإيمان بها، لأنه كان يحس بتبكيت من ضميره. ولكن لا بد له، ليعود إلى إيمانه بها، من دليل ومن برهان ملموس تكشف عنه الإلهة. وتوصّلاً إلى ذلك قرّر أن يقوم بعمل تكون نتيجته إنقاذ وطنه وإيمانه في وقت واحد. فبدأ منذ أن عزم تنفيذ مشروعه يندد بإثم الرجس وبتدنيس الأشياء المقدسة ويعدد ما يجره هذا الإثم من الكوارث حتى في أرجاء السماء. ثم انتقل فجأة إلى التحدث عن الخطر المحدق بالزعيم القائد الذي يهاجمه أربعة جيوش بقيادة ماتو ـ ذلك أن ماتو أصبح عند القرطاجيين شبه ملك للبربر لحيازته الحجاب المقدس ـ واستطرد شاهبريم فقال: إن سلامة الجمهورية وخلاص أبيها يتعلقان بها وحدها.

فصاحت سلامبو قائلة: «بي وحدي! وكيف يمكنني...؟».

بيد أنَّ الكاهن قاطعها وقال، وعلى شفتيه ابتسامة استنكار: «لا، لأنك لن ترضي أبداً بذلك».

فأخذت تتوسل إليه وتلحف بالسؤال، وبعد لأي قال شاهبريم:

ـ «يجب أن تذهبي إلى البربر فتستردي الحجاب!».

سقطت للتو على المقعد العاجي وظلت واجمة وذراعاها متدليتان بين ركبتيها، وقد أخذتها قشعريرة سرت في جميع أعضائها، كالضحية الملقاة عند بلاطة المذبح، تنتظر ضربة الهراوة القاضية، وكان صدغاها يطنان، وعيناها تبصران حلقات من نار، ولم تعد تدرك في هذا البحران إلاّ شيئاً واحداً، وهو أن موتها قد أصبح محققاً عن قريب.

كان شاهبريم يقول في نفسه: «إذا انتصرت إلهتنا وعاد الحجاب وأنقذت قرطاجة، فما قيمة حياة امرأة! ولكنها قد تعود سالمة والحجاب معها».

حبس نفسه عنها ثلاثة أيام، فاستدعته مساء اليوم الرابع، فجاء يؤجج ما في قلبها من نار بأن نقل إليها ما يوجّه لها أبوها هاميلكار من اللعنات والتهم والسباب في قلب المجلس الكبير، ويدخل في روعها أنها قد اجترحت أشد إثم برؤيتها الحجاب المقدس، وأن المتوجب عليها الآن أن تقدم كفارة عما اقترفته، وأن تانيت هي التي تأمرها بالتكفير والتضحية.

وعلت ضجة وصلت إلى سمعهما، ثارت حتى في مابال وامتدت إلى ميجارا، فخرجا ليتبيّنا سبب الجلبة، واقفين على مصطبة سلالم السجون.

ذلك أنه في ميدان خامون رجال يتظاهرون ويضجون ملحين بطلب تسليحهم، والقدماء يرفضون لاعتقادهم بأن ما يطلبونه لا يجدي فتيلاً، لأن رجالاً غيرهم سبقوهم إلى قتال البربر فلقوا حتفهم ولم يجنوا فائدة، وصرف القدماء المتظاهرين فاقتلعوا أشجاراً من السرو من غابة المعبد لتكريم مولوخ أو لإرضاء شهوة تخريب ملكتهم، ثم أشعلوا الأشجار من مصابيح الآلهة «الكبار»، وأخذوا يطوفون بها في الشوارع وهم يغنون، وكانت هذه الشعلات تتقدم وهي تتذبذب قليلاً فترسل أضواءها على كرات الزجاج المرفوعة في أعالي المعابد، وعلى ملابس الأصنام ومهاميز السفن وفوق سطوح المنازل، كأنها شموس تدور في المدينة، ثم انحدر حاملو الأضواء من مرتفعات الأكروبول. وفُتح باب «مالكا».

صاح شاهبريم بها: «أمستعدة أنت للعمل، أو أنك تؤثرين أن تعهدي

إليهم بإبلاغ أبيك أنك تخذلينه وتتخلين عنه؟». فغطت وجهها ببراقعها وظلت صامتة. وتباعدت الأنوار وتضاءلت شيئاً فشيئاً عند أطراف أمواج البحر.

كان يمنعها من المسير إلى معسكر البربر رعبان لا حد لهما، خوفها من مولوخ وخوفها من ماتو: فهذا الرجل الفارع القامة كالجبابرة، المالك للحجاب، أصبح متسلّطاً على «ربتنا» تسلّط البعل الأكبر، وهو مثلها الآن محاط بهالة من النور واللألاء، وقد تحل أرواح الآلهة في أجسام الرجال. ألم ينبئها بذلك شاهبريم؟ ألم يقل لها أيضاً إن الواجب عليها أن تتغلّب على مولوخ.

وأصبحت على ذلك تمزج ماتو بمولوخ وتتخيل أنهما يطاردانها.

أرادت أن تستطلع الغيب فاقتربت من سلة الثعبان الأسود، لأن القرطاجيين كانوا يتبيّنون الفأل من مواقف الحيات وملامحها، وإذا بالسلة خاوية، فاضطربت وأخذت تبحث عن الثعبان فوجدته ملتفاً على نفسه، معلقاً بذنبه على جلفق من فضة بالقرب من سريرها المعلق، ورأته يحتك بالسرير لينزع عنه قشرته القديمة المصفرة، وقد غدا جسده برّاقاً صافياً كنصل حسام سل نصفه من غمده.

مرّت الأيام وهي تحاول أن تقتنع في قرارة نفسها بأنها ستعمل على نصرة «تانيت».

كان الثعبان يتماثل إلى الشفاء ويزيد سمنة ويعود إلى الحياة، فأيقنت أن شاهبريم يعبر عن إرادة الآلهة فيما أشار عليها به.

استيقظت ذات يوم وقد عقدت العزم على تنفيذ ما نوته، وسألت شاهبريم عما يجب أن تعمله ليرد ماتو الحجاب عليها.

فقال لها: «اطلبيه».

قالت: «وإذا رفض؟».

حدق فيها وهو يبتسم ابتسامة لم ترها قبل على شفتيه.

فكررت عليه سؤالها: «أجل، ما العمل؟».

راح يلف بين أصابعه أطراف الشرائط المدلاة من قلنسوته على كتفيه، وعنياه إلى الأرض وهو جامد لا يتحرك، وأخيراً أدرك أنها لم تفهم ما يرمي إليه.

- «ستكونين منفردة به».

- «وبعد ذاك؟».

- «وحدك معه في الخيمة».

- «وعند ذاك؟».

عضّ شاهبريم على شفته وهو يبحث عن تصريح أو تلميح مقنع.

- «إذا كان لا بد من موتك فستموتين بعد ذلك.. لا تخافي! ومهما فعل فلا تصرخي! لا ترتعدي؟ كوني مطواعة! هل تسمعينني؟ كوني خاضعة لرغبته التي هي أمر من السماء!».

- «والحجاب؟».

- «إن الآلهة تتولى أمره».

- «كم أود أن تصحبني أيها الأب».

- «لا».

ثم أركعها على ركبتيها وترك يده اليسرى مرفوعة وبسط يده اليمنى، وأقسم عنها وباركها أن تعيد إلى قرطاجة حجاب تانيت، وأيّد القسم بدعوات ولعنات هائلة، وأخذ عليها العهد بأنها تقدم نفسها متفانية ضحية للإلهة، وكانت تكرر بعده، وهي تكاد تهوي إلى الأرض، كل ما يقسم به كلمة كلمة.

أوضح لها كيف يجب أن تتطهر وتصوم، وكيف يتم لها الوصول إلى ماتو مصحوبة برجل يعرف معالم الطريق.

أحست سلامبو بالخلاص مما كان يساورها، ولم تعد تفكر إلاّ بالسعادة التي ستنعم بها لدى رؤية الحجاب، وأخذت تبارك شاهبريم الذي حثها على الإقدام.

*

حدث ذلك في الفصل الذي تهاجر فيه الحمائم البيض من قرطاجة إلى صقلية في جبال إيريكس، حول معبد ڤينوس، وكانت هذه الحمائم قبل هجرتها وطوال أيام يبحث بعضها عن بعض وتتنادى لتجتمع، وطارت أخيراً والهواء يدفعها، وأخذت هذه السحابة البيضاء تنسل على السماء مرتفعة فوق البحر. والأفق يلبس ثوباً أحمر وتبدو كأنها تتدنّى نحو الأمواج شيئاً فشيئاً، ثم تختفي كأن البحر قد ابتلعها وتسقط من تلقاء أنفسها في لهب الشمس، وتنظر إليها سلامبو، وهي تبتعد، فتحني رأسها، ويخيل إلى طناش أنها مطلعة على دواعي حزنها، فتقول لها برفق:

- ستعود هذه الحمائم يا سيدتي.

- أعرف ذلك.

- وسترينها مجدّداً.

- ربّما... وتنهّدت.

لم تفض بما اعتزمته لأحد من الناس، وزيادة في الحيطة والحذر، وكي لا يظن سكان حيها مرجمات الظنون، أرسلت طناش إلى ضاحية «كينسدو» لتبتاع لها ما تحتاج إليه من صباغ شفاه وملابس جديدة ونطاق من كتان، وجاريتها مدهوشة لما تأخذ سيدتها من أهبة واستعداد ولا تجرؤ على سؤالها عن الدواعي والأسباب. وأزف اليوم الذي حدده لها شاهبريم للرحيل.

في الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم رأت سلامبو في أقصى مكان تحت أشجار الجميز شيخاً كفيف البصر يستند بيد إلى كتف غلام ويحمل بالأخرى قيثارة من خشب الجميز يسندها إلى وركه. وقد حرصت على إبعاد العبيد والخصيان، فالمكان قفر من الناس.

أشعلت طناش النار في أربعة مواقد مثلثة الأرجل موضوعة في زوايا المخدع الأربع، ومملوءة بجوز الطيب وحب الهال، ثم بسطت أربع طنافس بابلية مزركشة ونشرتها على حبال حول المخدع، لأن سيدتها كانت تريد ألاّ يراها أحد حتى ولا الجدران. وجلس لاعب القيثارة خارجاً

وراء الباب، ووقف الغلام ينفخ في شبّابة من قصب، وأخذت أصوات الشوارع تخفت، وبدت ظلال بنفسجية تمتد من واجهات المعابد. ومن جهة الخليج الأخرى بدت الجبال الوطيئة وحقول الزيتون وقطع الأرض الصفر المتماوجة تندمج مع بخار مزرق. ولم يك يسمع صوت بل كان الجو محملاً ثقيلاً.

جلست سلامبو القرفصاء على درجة من الجزع اليماني على حافة الحوض، وشمّرت رافعة أكمامها برباط إلى كتفيها، وبدأت وضوءها بترتيب حسب الطقوس المقدسة، ثم أحضرت لها طناش في قمقم من المرمر الأبيض شيئاً سائلاً ومتجمداً، هو دم كلب أسود مذبوح بأيدي نساء عواقر، في ليلة شتاء، وبين أنقاض قبر، فمسحت به أذنيها وعقبيها وإبهام إصبعها اليمنى، وحتى ظفرها الذي ظل محمراً قليلاً كما لو كانت قد سحقت به ثمرة.

بزغ القمر فأخذ الشيخ والغلام يسمعان معاً صوت القيثارة والشبّابة.

نزعت سلامبو عقدها وأساورها وثوبها الأبيض الطويل، وفكت رباط فرع رأسها وأخذت تنفضه على كتفيها لترطب رأسها بإرساله على الكتفين. وظلت الموسيقى تضرب وراء الباب ثلاثة أصوات تتكرر متتابعة ثائرة، تصر منها أوتار القيثارة وتغص بها الشبابة، وطناش تماشي اللحن بضرب على كفيها، وسلامبو تتمايل بجميع أجزاء جسمها وهي تتمتم الصلوات وملابسها تسقط على الأرض حولها الواحد بعد الآخر.

تردّدت من ثمّ قليلاً، إما لحيائها وإما لخوفها من البرد، ولكنها تذكرت أوامر شاهبريم فتقدمت من الثعبان فمال نحوها فوضعته من نصفه على نقرة فبدا ذنبه كعقد قطع نظامه وبدا طرفاه متدليين يمران على الأرض، ثم أخذت تلفه حول خصرها وتحت إبطيها وبين ركبتيها، ثم أمسكت بشدقيه، وأدنت ذلك الرأس المثلث الزوايا حتى أطراف أسنانها، وأطبقت عينيها إطباقة خفيفة وانقلبت على ظهرها تحت أشعة القمر، فبدا ذلك الضياء الأبيض يوشحها بسحاب من فضة، وظهرت آثار قدميها المبلّلتين

على البلاط، وبصيص أنوار الكواكب ينتفض في الماء، والثعبان يشد عليها بفقرات ظهره المرقط كالنمر بنقط من الذهب، وكانت سلامبو تلهث تحت وزنه الثقيل، ووركاها ينطويان، وأحست أنها تموت، والثعبان يضرب بذنبه على ردفيها برفق ولين. وسكتت الموسيقى فنزل عنها.

دنت طناش منها، وبعد أن وضعت شمعدانين مضيئين في كرات كبيرة من البلور ملأى بالماء، دهنت بصباغ الحناء كفيها وبالزنجفر خديها وكحلت أطراف جفنيها، وأطالت حاجبيها بمزيج من مسحوق الصمغ والمسك والأبنوس وأرجل الذباب المسحوقة. كل هذا وسلامبو جالسة على كرسي مساندها من العاج تتلقى عناية طناش بها، ولكن هذه اللمسات وروائح الطيب والصيام الذي لزمته أهاجت أعصابها، فشحب وجهها شحوباً أقلق طناش فتوقفت، فقالت لها سلامبو:

ـ «أكملي». وغالبت نفسها فعاودها النشاط، ولكن صبرها عيل فأمرت جاريتها بالإسراع، فقالت لها طناش بصوت العاتب:

«حسناً حسناً يا سيدتي! ما الداعي إلى العجلة! ما من أحد ينتظرك».

ـ «بل هناك من ينتظرني».

انتفضت طناش دهشة وقالت وهي تود أن تعرف المزيد:

ـ «ما الذي ترغبين فيه يا سيدتي، لأنه إذا كنت ستظلين غائبة...».

وقطع عليها كلامها زفرات راحت سلامبو تصعّدها، فصاحت الجارية قائلة:

ـ «إنك تتألمين، فلا تسافري، خذيني معك.. عندما كنتِ طفلة كنت إذا رأيتك تبكين ضممتك إلى قلبي وأضحكتك بملاعبتك بطرفي ثديي، لقد أنضبتِ هذين الثديين يا سيدتي» ـ وكانت تلطم صدرها الجاف بيديها ـ «وقد أصبحت الآن هرمة فلا يمكنني أن أعمل شيئاً في سبيلك. لم تعودي تحبينني، إلاّ أنك تخفين عني آلامك احتقاراً منك لمرضعك».

وسالت دموعها، دموع الحنان والحنق، على خديها وعلى بقايا وشمها.

قالت لها سلامبو: «لا. لا أزال أحبك. فتعزي!».

عادت طناش إلى ما بدأت به وهي تبتسم ابتسامة أنثى القرد الهرمة، وقد أوصاها شاهبريم أن تبالغ في العناية بها إلى أبعد حد، فأخذت في تجميلها بذوق يستعذبه الرجال، جامع للأناقة والبساطة: ألبستها فوق الغلالة الأولى، الرقيقة المخططة، غلالة ثانية مطرزة بريش الطيور، وطوقت خصرها بنطاق عريض تحته سراويل فضفاضة زرق، عليها كواكب من فضة، وألبستها فوق ذلك برداً من نسيج بلاد «سبريس» مرقش بخطوط خضر، وربطت في طرفي كتفيها مربعين مثقلي الأطراف بحبوب السندروس، وخلعت عليها فوق الثياب معطفاً أسود يجرر ذيوله وراءه، وأخذت ترنو إليها بنظرات الإعجاب، قالت وكأنها تفخر بما صنعت يداها:

- «لن تكوني يوم زفافك أجمل مما أنت عليه الآن».

فردّدت سلامبو بعدها وهي حالمة وذراعها مستندة إلى كرسيها العاجي:

- «يوم زفافي!».

وضعت طناش أمامها مرآة كبيرة واسعة رأت فيها جسمها كله، فوقفت، وبحركة لبقة، ردت بأصبعها حلقة صغيرة من فرع رأسها كانت تتدلى إلى أسفل.

كان شعرها مرشوشاً بغبار الذهب، مجعداً على الجبين، ومتدلّياً من الوراء على الظهر بغدائر تنتهي بلآلئ معلقة فيها، ونو ر الشموع يذكي طلاء خديها وذهب أثوابها وبياض بشرتها، وكانت تلبس من الحجارة الكريمة العدد الوفير حول قامتها، وفي ذراعيها ويديها وأصابع رجليها، حتى أشبهت مرآتها شمساً ترسل إليها أشعتها، وكانت سلامبو وهي واقفة إلى جانب طناش تبسم لهذه اللآلئ.

راحت تقطع الغرفة عرضاً وطولاً تنتظر بنفود الصبر حلول وقت السفر. وإذا بصياح ديك يُسمع، فأسرعت وربطت إلى فرعها برقعاً طويلاً أصفر، ولفت شالاً حول عنقها، واحتذت حذاءها الجلدي الأزرق، وقالت لطناش:

- «اذهبي وانظري إذا كان هناك تحت أشجار الآس رجل معه جوادان».

ولم تكد طناش تعود حتى أخذت سلامبو تهبط سلالم الرواق.

فصاحت المرضع: «سيدتي!».

التفتت إليها سلامبو وقد وضعت سبابتها على فمها إشارة إلى التزام السكوت والكتمان وعدم الحركة. وانسلت طناش بخفة على السلالم إلى أسفل الشرفة، فلاح لها من بعيد على ضوء القمر وفي شارع السرو خيال ضخم يسير عن يسار سلامبو بخط أعوج، وذلك فأل شؤم ونذير موت.

هرولت صاعدة إلى غرفتها وارتمت على الأرض وأجهشت بالبكاء، وهي تمزق وجهها بأظفارها وتقتلع شعر رأسها وتبالغ بإرسال النواح الحاد.

وخشيت أن يسمعها سامع فصمتت، وأخذت تصعّد الزفرات بصوت خفيض، ورأسها بين يديها ووجهها فوق البلاط.

*

11

نارهافاس

ذاك الخيال الضخم الذي يقود سلامبو صعد بها إلى ما بعد المغارة باتجاه الحُفر العميقة ثم نزل فسار في ضاحية «موتو» المليئة بالممرات الزلقة الوعرة المرور. وأخذت السماء تبيض، وكانا يضطران من حين إلى آخر إلى إحناء رأسيهما وهما يمران خشية أن تصطدما بأطراف عوارض النخل الخارجة من الحيطان تحت سقوف المنازل، والجوادان يسيران متمهلين ويتعثران في السير، حتى بلغا باب «تيفت» فوجدا مصراعيه الثقيلين منفرجين فمرا وأقفل الباب خلفهما.

راحا يتبعان أسفل الحصون حتى إذا بلغا موقع الآبار سلكا طريق «تونيا»، وهي قطعة أرض ضيقة مستطيلة صفراء التربة تفصل بين الخليج والبحيرة وتمتد حتى راديس. ولم يريا أحداً حول قرطاجة لا في البحر ولا في الحقول. وكانت الأمواج بلون البلاط الأزرق تصفق برفق، والهواء الخفيف يدفع زبدها هنا وهناك فيرقعها برقع بيض، وكانت سلامبو ـ على كثرة ما تلبسه وتتحجّب به ـ تقشعر من برد الصباح، والهواء الطلق يسبب لها الدوار.

بزغت الشمس فلسعتها الأشعة وراء رأسها، وأخذها نعاس خفيف رغم إرادتها. وكان الجوادان يخبّان معاً جنباً إلى جنب وقوائمهما تغوص في الرمل الصامت.

عندما تجاوزا جبل المياه الساخنة جدّا في السير لأن الأرض أصبحت غليظة، وعلى الرغم من حلول زمن الحرث والبذار كانت الحقول على مد النظر أشد وحشة وخواء من الصحراء. وقليلاً ما كانا يشاهدان هنا وهناك أرضاً مبذورة قمحاً أو شعيراً بدت تتكون حباته، ووراء الأفق الصافي بدت المزارع سوداً بأشكال متقطعة غير متناسقة. ومن حين إلى حين يظهر على قارعة الطريق قطعة من حائط أوشكت حجارتها أن تستحيل جيراً من

الحريق، وسقوف أكواخ متداعية أو شظايا أوان خزفية وبقايا ملابس وأنواع من الأدوات والأشياء المحطمة التي لا يبين نوعها. وكثيراً ما كان يخرج من بين تلك الأنقاض والخرب مخلوق تستر جسده أطمار بالية ووجهه بلون التراب وبؤبؤا عينيه لامعان، فلا يلبث أن يسرع في الجري أو يختفي في حفرة. وكانت سلامبو ودليلها لا يتوقفان عن المسير.

راحت السهول المهجورة تتوالى، وعلى مساحات واسعة من أرض شقراء انتشر على الأرض غبار من الفحم بكثافة غير متساوية كانت أقدامهما تثيره في الجو وراءهما، وربما رأيا من آن إلى آخر أماكن صغيرة هادئة يجري فيها جدول بين عشب نام، فتتحول سلامبو إلى الجهة الأخرى من الجدول لتلتقط الأوراق المبللة فترطب بها يديها. وفي ركن من أركان غابة من الدفلى قفز جوادها قفزة طويلة أمام جثة رجل ممدد على الأرض، فسارع الدليل إلى مساعدتها على الاعتدال على صهوته.

كان الدليل من عبيد المعبد يستخدمه شاهبريم في المهام الخطرة، وزاد حرصه عليها فأخذ يسير مشياً على قدميه قريباً منها وما بين الجوادين، يسوقهما بقُدّة من جلد يلفها على ذراعه، ومن وقت إلى آخر يخرج من كيس معلق على صدره كريات من القمح أو بلحات أو محوح بيض ملفوفة بورق السدر فيقدمها إلى سلامبو ثم يبتعد صامتاً مسرعاً.

في ضحى النهار التقيا بثلاثة من البربر لابسين جلود حيوانات، وتلاهم آخرون يهيمون زرافات وشراذم مؤلفة من عشرة إلى خمسة وعشرين وبينهم من يدفعون أمامهم عنزاً أو بقرات عرج، وعصيهم الطويلة ملبسة الرؤوس بالنحاس، والمدى تلمع على ثيابهم القذرة الخشنة، وعيونهم تنفتح محدّقة مهددة أو دهشة، وكل منهم حيّاهما عند مروره أو أرسل نكتة خليعة سمجة، ورد العبد على كل بلغته، وكان يقول لهم إن رفيقه غلام مريض ذاهب ليلتمس الشفاء إلى معبد بعيد. ومالت الشمس إلى المغيب، وسمع نباح الكلاب، فاقتربا من مصدر الصوت فرأيا على نور الشفق حظيرة في وسطها بناء غامض، وقفز كلب على الحائط فرماه العبد

بالحصى ودخلا إلى قاعة عالية ذات قبة.

هناك في وسط القاعة جلست امرأة عجوز القرفصاء إلى نار من العوسج يطير دخانها إلى الجو من ثقوب السقف، وشعرها الأبيض المدلى حتى ركبتيها يغطي نصف وجهها، ولم تجب المرأة على أي سؤال، بل أخذت تتمتم ـ وعليها ملامح البله ـ كلمات عداء للبربر وللقرطاجيين معاً.

أخذ الدليل يبحث يميناً وشمالاً، ثم اقترب منها طالباً طعاماً، والعجوز تهز برأسها وتحدق في الجمر وهي تقول همساً: «كنت اليد فقطعت أصابعي العشرة فأصبح الفم لا يأكل».

فأراها العبد قبضة من النقود الذهبية فترامت عليها ثم عادت إلى جمودها. وبعد لأي وضع على عنقها خنجراً كان في حزامه، فارتجفت وقامت إلى حجر فقلبته واستخرجت من تحته إبريقاً من الخمر وأسماكاً من هيبوزريت منقوعة بالعسل.

أنفت سلامبو تناول ذلك الطعام النتن، واستلقت نائمة على سروج الخيل التي مدتها في زاوية من زوايا القاعة.

اندفع الكلب يهرّ وينبح، فاقترب العبد منه ببطء وعاجله بضربة من خنجره أطاح بها رأسه، ثم دهن خياشيم الجوادين بدم الكلب ليستعيدا نشاطهما، واستنزلت العجوز اللعنات عليه وهي واقفة خلفه، فلمحتها سلامبو فلمست التميمة التي كانت مخبوءة بصدرها عند قلبها.

عاودا بعد ذلك السير، وكانت سلامبو لا تفتأ تسائله إذا كانا قد قربا من نهاية السفر. والطريق تتماوج على تلال صغيرة، والجنادب تصر، والشمس تسخن العشب المصفر، والأرض مليئة بالشقوق التي تكون منها شبه بلاط جعل السير عسيراً، وتتداعى بهما من حين إلى آخر، والنور يحلق في الأجواء، والعبد دائب الجري، وسلامبو تحكم شدّ براقعها التي تحتفظ بها رغم حرارة الشمس خشية أن تعلق الأقذار بثيابها الجميلة. وعلى أبعاد متساوية ترتفع الأبراج التي شادها القرطاجيون لمراقبة القبائل، فكانا يدخلان إليها ليستظلا بها حيناً ثم يستأنفان السير.

كانا بالأمس قد مالا عن جادة الطريق خوفاً وحيطة، وأمّا اليوم فلا ديار ولا نافخ نار فالمنطقة قفراء، لأن البربر لم يمروا بها.

وعادت مظاهر الخراب والدمار الشامل، فهنا ـ بدلاً من حقل ـ ضريح يدل على بقايا قصر عفت آثاره، وهناك شجر الزيتون وقد عُري من أوراقه فبدا من بعيد حقل عوسج وشوك، ومرّا بقرية حرقت بيوتها حتى الأرض، وعلى جنبات ما تبقى من جدرانها هياكل من عظام آدميين، بل وبقايا جمال وبغال، وكانت بقايا اللحوم والعظام النتنة التي تنهشها الهوام والحشرات تملأ الأزقة.

أقبل الليل والسماء قاتمة مغطاة بالغيوم، ومع ذلك تابعا سيرهما في اتجاه الغرب مدة ساعتين، فبدت أمامهما على حين فجأة أنوار كثيرة خافتة، تضيء من أقصى مدرجات، وهنا وهناك صفائح ذهبية تلمع وهي تتنقل، تلك دروع الكينابار، وذلك هو معسكر القرطاجيين، ثم تبيّنا حوالى هذا المعسكر أنواراً أكثر عدداً، لأن جيوش البربر، وقد اندمجت في جيش واحد، أصبحت تمتد إلى مسافات شاسعة.

همّت سلامبو بالتقدّم ولكن عبد شاهبريم قادها إلى مكان أبعد، وسارا إلى جانب الحواجز التي تسد طريق معسكر البربر، فوجدا ثغرة، دخل منها الدليل.

وفي أعلى الحصن بدا حارس يروح ويجيء وبيده قوسه وعلى كتفه رمحه.

استمرت سلامبو تتقدم، فجثا الحارس على ركبتيه ورمى بسهم طويل أصاب أسفل معطفها فخرقه، وظلت واقفة بلا حراك تصيح وتصرخ، فسألها عمّا تبتغيه، فقالت: «أريد التحدث إلى ماتو. أنا هاربة من قرطاجة».

فأرسل للتوّ صفيراً ردّده غيره من بعيد مرات عديدة.

ظلت سلامبو تنتظر، وجوادها الخائف يدور حولها وهو يرسل شخيراً.

ولمّا وصل ماتو كان القمر يرتفع من ورائها، ووجهها مغطى بحجاب

أصفر عليه أزهار سود، وعلى جسمها أثواب كثيرة، فلم يكن التعرف إليها ممكناً. وأخذ يحدق من أعلى إفريز الحواجز بهذا الشكل الغامض الواقف أمامه كشبح في ظلال الليل.

أخيراً قالت له: «خذني إلى خيمتك. إني أريد ذلك».

عبرت بخاطره ذكرى لم يقف على إيضاحها، وأحس بقلبه يخفق، وقد نال من شجاعته هذا الصوت الآمر فقال لها: «اتبعيني».

وأُنزل الحاجز عن المدخل وأصبحت في معسكر البربر.

كانت الجموع وضوضاؤهم القوي يملآن المعسكر، والنيران الصافية توقد تحت قدور معلقة، والأضواء الحمر تنير بعض الأماكن وتترك غيرها في الظلام الحالك، والصياح يعلو والنداءات تتجاوب، والخيول المربوطة بعقالاتها تعطف خطوطاً مستقيمة وسط الخيام المختلفة الأشكال والأحجام: من مربعة أو مستديرة ومن الجلد أو من القماش، وهناك أعراش من قصب وحفر في رمال كحفر الكلاب، والجنود يجرون حزم الخشب أو يتكئون على التراب أو يلتفون بالحصر أو يهمون بالنوم، وكان جواد سلامبو يضطر أحياناً للقفز حتى يتمكن من العبور.

تذكرت أنها قد رأتهم قبل هذا اليوم، ولكن لحاهم أصبحت أكثر طولاً ووجوههم أشد سواداً، وأصواتهم أكثر خشونة، وكان ماتو وهو يسير أمامها ينحيهم بإشارة من ذراعه يرتفع معها رداؤه الأحمر، وكان كثيرون يقبّلون يديه، وآخرون يوترون أقواس ظهورهم منحنين، أو يستصدرون منه أمراً، لأنه أصبح الرئيس الحقيقي الأوحد لجميع البربر، فسبنديوس وأوتاريت ونارهافاس أصبحت تعوزهم الشجاعة، وظل هو وحده محتفظاً برباطة الجأش والجرأة والعناد، حتى صاروا كلهم مطيعين له.

قطعت سلامبو وهي تسير خلفه طول المعسكر، لأن خيمته كانت تقع في آخره على بعد ثلاثمائة قدم من حصن هاميلكار.

شاهدت على اليمين حفرة واسعة وخيل إليها أن وجوهاً تستند إلى حوافيها على مستوى الأرض، كما لو كان هناك حفوف من الرؤوس

المقطوعة، ومع ذلك فعيونهم تتحرك وأفواههم تنفتح لتخرج منها تنهّدات باللغة القرطاجية.

وكان على باب الخيمة يقف زنجيان يحملان فانوسين مضاءين بصموغ الصنوبر. فأزاح ماتو ستر الخيمة بخشونة وتبعته إلى داخلها.

كانت خيمة عميقة رفيعة العماد في وسطها سارية ترفعها، تنار بشمعدان كبير بشكل شجرة السدر فيه مشاعل مليئة بزيت أصفر، تطفو على وجهه مشاقات عديدة وتظهر على نورها أدوات حربية تلمع في الظلام، وهناك سيف مسلول من غمده ملقى على منصب بالقرب من ترس، وسياط من جلد جاموس البحر، وصنوج وجلاجل وقلائد، وكلها مبعثر في سلال من خيوط الحرير، وكسرات الخبز الأسود ملقاة على غطاء من اللبد، وفي زاوية من زوايا الخيمة، وعلى حجر مدوّر، قطع من النقود النحاسية مكدسة بلا نظام، ومن خلال ثقوب ستور الخيمة يسفي الغبار الذي تسوقه الريح محملاً برائحة الفيلة التي كانت تلتهم علفها وهي تحرك سلاسلها.

قال ماتو: «من أنت؟».

لم تحر سلامبو جواباً، بل أخذت ترمي حولها نظرة فاحصة، فرأت في أقصى الخيمة وعلى سرير من سعف النخل شيئاً صافي الزرقة متألق اللمعان، فتقدمت نحوه بخطى سريعة وبدرت منها صرخة.

كان ماتو يقف خلفها يضرب الأرض بقدميه، فصاح بها:

ـ مَن جاء بك؟ ولم قدمت!؟

أجابت وهي تشير بيدها إلى الحجاب: «جئت لآخذه» ونزعت بيدها الأخرى البراقع التي تغطي رأسها.

ارتد ماتو إلى الوراء فاغر الفم مدهوشاً.

أحست بقوة الإلهة تمدها بالتأييد، فنظرت إليه وجهاً لوجه غير خائفة ولا مذعورة، وطلبت منه الحجاب بقول عذب طلي غزير المعاني، وماتو لا يسمع، بل يرمق ويحدق ويتأمل، وقد اختلط في ناظرتيه جسمها

وملابسها: فتموج نسيج أثوابها كلألاء بشرتها الناعمة، وهو لألاء خاص بها لا يملكه غيرها، وعيناها وماسات حلاها تلمع وتشرق معاً، ونعومة أظفارها تكمل ملاسة الجواهر التي تغص بها أصابعها، ومشبكا غلالتها يرفعان نهديها قليلاً فيتقاربان! وسرح به فكره فإذا به يضل بين ذينك النهدين حيث تدلى شريط يحمل صفيحة من الزرد تظهر تحتهما وراء شفاف من الحرير البنفسجي، وقرطا أذنيها من اللازورد ينتهيان بلؤلؤتين مجوّفتين تتساقط منهما من حين إلى حين قطرات تبلل كتفيها العاريتين.

وقف ماتو مأخوذاً يرنو إلى هذه القطرات، وكمثل صبي يدفعه الفضول إلى التقاط ثمرة مجهولة، مدّ يده وهو يرتجف ولمسها في أعلى صدرها وبأطراف أصابعه لمساً خفيفاً فانطبقت فيها أطراف أنامله بعد مقاومة مرنة.

هذه اللمسة التي تكاد تكون غير محسوسة جرى أثرها في جسمه وتجاوزته إلى نفسه، حتى ليود لو كان باستطاعته أن يجعل من جسمه كله وشاحاً لها يوشحها به، وحتى ليشتهي أن يذوب بها وأن تذوب به ليشربها شرباً.

أمسكها بقبضتي يديها وجذبها إليه برفق، وجلس فوق درع بقرب سرير النخل المغطى بجلد أسد، وأخذ يرمقها من الأسفل إلى الأعلى وقد ضمها بين ساقيه وهو يردد: «ما أجملك! كم أنت جميلة».

كانت عيناه، المطيلتا التحديق بها، تسببان لها عذاباً وضيقاً، وكان نفورها منه يزداد حدة حتى لقد كانت تضبط نفسها حذر أن تصرخ، ولكن تذكرها لشاهبريم ووصيته أدّى بها إلى الاستسلام.

ظل ممسكاً بيديها الصغيرتين، وهي تحاول من وقت إلى آخر أن تفلت منه بشد ذراعيها، رغم ما أمرها به الكاهن، وهو يفتح منخريه ليتلذذ بشم العطر القوي الزكي المتصاعد من جسمها المثير للدوار كبخور المجامر.

كان جسمها يتضوّع بعرف العسل والفلفل والبخور والورود، وكذلك بعرف آخر.

ولكن: «ما السر في وجودها بالقرب منه تحت خيمته ورهن أمره؟ لا بد أنها جاءت إليه مدفوعة من دافع؟» لا، لم تجىء طلباً للحجاب! وهوى بذراعيه إلى الأرض، وحنى رأسه تحت وطأة تفكير شرود ذهنه.

ولكي تبعث سلامبو الحنان إلى قلبه، قالت له بصوت اللائم الشاكي:

- «بم أسأت إليك لتريد موتي؟».

- «موتك!؟».

- «أجل، موتي. لقد رأيتك مرة، على أضواء حديقتي التي كانت تحترق بين أكواب مشتعلة، وبين عبيد لي يذبحون، وكان غضبك شديداً حتى إنك هجمت نحوي، فاضطررت إلى الهرب، ثم حل الرعب بقرطاجة لتهديدك للمدن وإحراقك للحقول وقتلك للجنود، فأنت ذلك الرجل الذي عاث في الأرض فساداً وفتك بالجنود. فأنا أكرهك، وذكر اسمك وحده ينهشني كوخز الضمير، فأنت مكروه أكثر من الطاعون ومن حرب الرومان، وهذه الأقاليم كلها ترتعد فرقاً من شدة حنقك، وأثلام المحاريث مليئة بالجثث، لقد تتبعت آثار نيرانك كما لو كنت أسير وراء مولوخ»!.

انتصب ماتو واقفاً، وقد نفخ قلبه ريح من الكبرياء، وتطاول جسمه حتى كأن قامته ساوت بطولها الآلهة.

أتمّت سلامبو حديثها، وأسنانها مطبقة، ومنخراها ينتفضان:

- «وكأنّ كُل ما ارتكبته من انتهاك الحرمات المقدسة لم يكن كافياً، فاقتحمت مخدعي ليلاً وأنا نائمة والحجاب المقدس يغطيني! لم أفهم ما كنت تقول، ولكني أحسست بأنك آتٍ لتجرني إلى شيء فظيع رهيب، لتلقي بي إلى أعماق الهاوية».

صاح ماتو وهو يفتل ذراعيه:

- «لا! لا! إنما جئت لأعطيك إياه! لأرده إليك، لأنه خيل إليّ أن الإلهة تنازلت لك عن أثوابها وأنه قد أصبح ملكاً لك، وسواء أكان الحجاب في معبدها أم في بيتك، ألست مثلها صاحبة الحول والسلطان، العذراء التي لا عيب فيها ولا دنس، المتلألئة الجميلة مثل تانيت؟!» وأضاف وهو يلقي

عليها نظرة ملئت بالعبادة التي لا حد لها: «إلاّ إذا كنت أنت تانيت نفسها».

وقالت سلامبو لنفسها: «أنا تانيت!».

صمتا لا ينبسان ببنت شفة. وأخذ الرعد يدوي من بعيد والخراف تثغو، وسلامبو ترتعد لعصف العاصفة.

وعاد ماتو يقول: «آه! اقتربي مني! اقتربي ولا تخافي شيئاً، ألم أكن في ما مضى جندياً مغموراً بين حثالة الجند، بل كنت وديعاً متواضعاً أحمل الحطب على ظهري للآخرين؟ وماذا يهمني من أمر قرطاجة!؟ إن رجالها كلهم غبار يتطاير كالغبار المتطاير تحت نعليك، وجميع كنوزهم وأقاليمهم وأساطيلهم وجزرهم لا تستهويني بقدر ما تستهويني شفتاك والتفاف كتفيك، لقد كنت أريد تدمير أسوارها لأصل إليك فأحوزك، وكنت على انتظار ذلك أنتقم.

والآن أصبحت أسحق الرجال كأنهم أصداف، وأنقض على الكتائب، وأنحّي الرماح بيدي، وأوقف الجياد بإمساكي بخياشيمها، ولا تقوى المنجنيقات على قتلي. آه! لو كنت تدرين كم كنت أفكر بك في معمعان القتال، وكم من مرة أحسست بأن ذكرى حركة منك، أو ثنية من ثنايا ثوبك تمسك بي وتربطني كما تربط الشباك، إني أرى عينيك في لهب قاذفات النار، وعلى مذهبات التروس، وأسمع صوتك في تجاوب أصداء الصنوج، فألتفت فلا أراك، وعند ذاك أعود فأرتمي في ساحة الوغى!».

كان يرفع ذراعيه في أثناء كلامه فتبدوان حيث تتوتر العروق كاللبلاب على غصون الأشجار، والعرق يتصبب من صدره ويسيل بين عضلاته المربعة، وتنفسه يهز خاصرتيه حتى نطاقه المصنوع من البرونز المزركش بالخرائط المتدلية على ركبتيه اللتين كانتا أشد تماسكاً من المرمر، وسلامبو، التي اعتادت رؤية الخصيان، مأخوذة بقوة هذا الرجل، ويخيل إليها أن تأثير مولوخ وجبروته أو انتقام الآلهة يدوران حولها ممثلين بجيوش البربر الأربعة، وسمعت تجاوب أصوات العسس المتقطع

فامتلكها الخوف.

كانت أنوار المصابيح ترتجف لمرور لفحات هواء ساخن، والبرق يومض مرة بعد مرة، فتتخلل ذلك فترات ظلام مضاعفة السواد، فلا ترى سلامبو إلاّ إنساني عيني ماتو تتقدان كجمرتين في ليل، وهي تحس بوشك نزول قدر محدق بها، وبقرب حلول أمر حاسم لا سبيل إلى الإفلات منه، ومع ذلك حاولت أن تقاوم وأن تبذل جهداً، فتقدّمت إلى حيث كان الحجاب ومدّت يدها لتمسك به، فصاح بها ماتو:

ـ «ما الذي تفعلينه؟».

فقالت بثبات جاش:

ـ «أعود إلى قرطاجة».

مشى نحوها وهو يصلّب يديه على صدره وقال لها وقد بدا وجهه مخيفاً مرعباً جمدت لرؤيته:

ـ «تعودين إلى قرطاجة! آه! لقد جئت لتأخذي الحجاب ثم تتواري! لا. لا! إنك ملك لي! ولن يقوى بشر بعد الآن على انتزاعك من بين يديّ! لم أنس بعد وقاحة عينيك الكبيرتين المطمئنتين، ولا محاولتك سحقي من علو جمالك! لقد جاء الآن دوري! أنت أسيرتي وأَمَتي وخادمتي! نادي إذا شئت أباك وجيشه والقدماء والأغنياء وشعبك الممقوت كله! أنا السيد المسود على ثلاثمائة ألف جندي! وباستطاعتي أن أزيد عدده وأن أجيء بالمتطوعين من لوزيتانيا وبلاد الغول ومن أقاصي القفر، وأن أدمّر مدينتك وأحرق معابدها وأسيّر سفنها المثلثة المجاديف على بحار من الدماء! لا. لا أريد أن أترك في قرطاجة بيتاً ولا حجراً ولا نخلة! وإذا أعوزتني الرجال فسأجر الدببة من الجبال وأدفع أمامي الأسود. لا تحاولي الفرار فإني أقتلك!».

بدا ممتقع اللون متشنج اليدين يرتجف كقيثارة أوشكت أوتارها أن تتقطّع.. وإذا بزفراته تكاد تخنقه، وبعرقوبيه يخذلانه فيتداعى ويقول:

ـ «آه! عفوك! إني وغد مرذول وأحط شأناً من العقارب والوحل

والغبار! لقد كنت الساعة، وأنت تخاطبينني، أحس بأنفاسك تمر على وجهي فأتلذذ بها كالمحتضر المشرف على الموت الذي يشرب من حافة جدول وهو منبطح على بطنه. هيا اسحقيني على شرط أن أحس بقدميك فوقي! رحماك! لا تعودي. فأنا أحبك أحبك!».

كان جاثياً على ركبتيه أمامها وذراعاه ملفوفتان حول قامتها، ورأسه إلى الوراء ويداه تائهتان، وصفائح الذهب المعلقة بأذنيه تلمع على رقبته السمراء، والدموع تنهمر من عينيه كأنها كرات فضيّة، وهو يتنهد وكأن تنهداته مداعبات وملامسات، ويهمس بألفاظ أخف من النسيم وألذ من القُبَل.

اعتراها لين فقدت معه كل إحساس بوجودها، وكان هناك شيء خفيّ وأمر إلهي يدفعانها إلى الاستسلام، وغيوم تعلو بها إلى ما فوق. فانقلبت على السرير بين لبد الأسد خائرة القوى، وأمسك ماتو بعقبيها فانقطعت السلسلة الذهبية الصغيرة وتطاير طرفاها فاصطدما بالنسيج وكأنهما حيتان وثّابتان، وسقط الحجاب فغطاها، ورأت وجه ماتو منحنياً فوق صدرها فتمتمت: «إنك تحرقني يا مولوخ!».

كانت قبلات ماتو أشد التهاماً من النيران وهي تمر عليها وتنطبع على جسدها، وبدت كأنها محمولة على إعصار، مأخوذة بقوة الشمس.

قبّل القائد جميع أناملها وذراعيها وقدميها وغدائر شعرها الطويلة من المنبت حتى الأطراف. وكان يقول لها: «خذي الحجاب فهل أنا متمسك به!؟ احمليني معه! فأهجر الجيش وأتنازل عن كل شيء. هناك بعد «جاديس» وعلى بعد عشرين يوماً في البحر جزيرة مغطاة بالذهب والخضرة والطيور، وعلى جبالها زهور كبيرة زكية الرائحة تخرج نشرها وتتهادى كأنها مباخر أبدية، وعلى أشجار الليمون الشامخة كأشجار الأرز أفاع بيضاء تنثر بأشداق كأنها الماس ثمار الليمون على الأرض. آه. لسوف أجد هذه الجزيرة فنعيش هناك في كهوف البلور المنحوتة في سفوح الآكام، وليس من ساكن يسكنها اليوم فأصبح ملكاً عليها».

مسح غبار نعليه، وأحب أن تضع بين شفتيها ربع رمانة، وكدّس وراء رأسها ملابس ليهيئ لها وسادة، وبالغ في خدمتها والتواضع لها، حتى أنه بسط فوق رجليها الحجاب وكأنه بساط من الأبسطة، وأخذ يداعبها بقوله: «ألا تزال لديك قرون الغزال الصغيرة المعلقة عليها عقودك؟ إنك ستهدينني إياها لأنها تروق لي».

كان يتكلم كما لو كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وضحكات الفرح تخرج من صدره. وزالت جميع الموانع واختفى معها هاميلكار والجنود المرتزقة، وبدا القمر ينساب بين غيمتين ـ وهما يريانه من فتحة من فتحات الخيمة ـ وقال: «كم من نعال قطعتها وأنا أرعى القمر وأراقبه. وكان يبدو لي حجاباً يبرقع وجهك وأنك تنظرين من خلاله، وكانت ذكراك تختلط بأشعته فلا أعود أقوى على التمييز بينكما». ثم يضع رأسه بين نهديها ويسترسل في البكاء.

وكانت هي تقول لنفسها: «أهذا هو الرجل الجبّار الذي ترتجف منه قرطاجة!؟».

استسلم بعد ذلك إلى النوم، فانسلّت من بين ذراعيه وألقت بإحدى قدميها على الأرض فتنبهت عند ذاك إلى أن السلسلة التي تربط كعبيها قد انقطعت، وكانت كبار الأسر في قرطاجة تلزم بناتها العذارى باحترام هذا الرباط والمحافظة عليه كشيء يقدسه الدين، فاحمر وجهها ولفّت حول كعبيها قطعتي السلسلة الذهبية.

كان يدور في ذاكرتها بصور صاخبة ولكنها واضحة: قرطاجة وميجارا وبيتها وغرفتها والبراري التي قطعتها، فتبدو لها الهاوية الهائلة الطارئة التي أصبحت تفصل بينها وبين تلك الصور إلى أبعد مدى.

أمّا ماتو فكان كالثمل، ينام متمدداً على جنبه وإحدى ذراعيه تتجاوز حافة السرير، وعصابة اللآلئ التي تحيط برأسه قد انقلبت إلى الوراء فظهر جبينه، وابتسامة تفرق بين أسنانه البادية اللمعان إلى جانب لحيته السوداء، وفي أجفانه المطبقة، نصف إطباقة، يبدو فرح ساكن يكاد ينم عن

الاحتقار، وسلامبو تنظر إليه واجمة مطأطئة مصلبة اليدين.

كان فوق رأس السرير خنجر موضوع على طاولة من خشب السرو، فأثار فيها هذا المنظر نار شهوة دموية جامحة، وطنّت في أذنيها من بعيد أصوات نواح تقترب في الظلام كما لو كان هناك جوقة من الأرواح السماوية تتقدم إليها برجاء. فاقتربت وقبضت على مقبض الخنجر، وفتح ماتو عينيه لسماعه حفيف ثوبها، وأدنى فمه من يديها، فسقط الخنجر. وإذا بصرخات تعلو وبأشعة رهيبة تتوهج وراء الخيمة، فرفع ماتو الستر، فرأيا ناراً عظيمة تحرق خيام الليبيين.

كانت أعراش القصب تضطرم، وسيقان القصب تتلوى فتثب بين الدخان فترتفع كالسهام إلى الأفق الأحمر، وظلال سور تجري حائرة ولهى، وصراخ الألم يرتفع من سكان تلك الأعراش، والفيلة والأبقار والخيل تعدو بين الزحام فتدوس الرجال والذخائر الحربية والأمتعة التي كانت تستخرج من الحريق، والأبواق تنفخ والجند ينادون: ماتو! ماتو، ووقف بباب الخيمة رجال يحاولون الدخول وهم يصيحون:

ـ «تعال وأسرع! هذا هاميلكار يحرق معسكر أوتاريت!».

قفز قفزة، وإذا سلامبو منفردة.

راحت تتفحص الحجاب وأطالت فحصه، وإذا بها تصاب بخيبة أمل ودهشة لعدم شعورها بتلك السعادة التي كانت تتخيّلها من قبل، وظلت كئيبة حزينة رغم أن حلمها قد تحقق.

فجأة رُفع ستر الخيمة من أسفلها وظهرت صورة مسخ لم تتبيّن سلامبو منها ـ بادئ ذي بدء ـ إلاّ عينين ولحية بيضاء تتدلى حتى الأرض، لأن ما تبقى من الجسم كان يزحف على الأرض متعثّراً بأطمار ثوب أصفر اللون، وكان كلما همّ بالتقدم كلما دخلت اليدان باللحية ثم عادتا فسقطتا، وأخيراً وصل الرجل بزحفه حتى قدمي سلامبو، فعرفت فيه الشيخ جيسكون القائد الأسير.

كان البربر قد حطموا أرجل القدماء الأسرى بقضبان من حديد ليحولوا

بينهم وبين الفرار ورموا بهم البعض فوق الآخر في حفرة للأقذار حيث كان النتن يدنيهم من الموت، وكان الأشداء منهم يرفعون رؤوسهم عند سماعهم صلصلة قصاع الطعام، وهكذا أبصر جيسكون سلامبو وعرف أنها من قرطاجة لما رآه من كريات السندروس التي كانت تلتطم بحذائها النحاسي، وقدر أن يكون هناك سر له خطورته، فاستعان برفقائه وتوصل إلى الخروج من الحفرة واتكأ على مرفقيه ويديه حتى تمكن من جر نفسه إلى خيمة ماتو من بُعد خمسين قدماً. وسمع في الخيمة أصوات متحدثين وتنصّت فوعى حديثهما.

صعقت سلامبو وقالت وهي ترتجف:

- «أنت!».

- «نعم أنا! إنهم يحسبونني ميتاً!».

حنت رأسها، وأتم حديثه: آه! لماذا لم تمنّ عليّ البعول بنعمة الموت؟!» - واقترب منها حتى كاد يلمس ثوبها - «ولو أنهم فعلوا لوفّروا عليّ أن أحب اللعنة».

تراجعت سلامبو بسرعة إلى الوراء لما حل بها من الخوف من هذا الكائن القذر، الذي كان أقبح من يرقانة الدود وأشد هولاً من الشبح.

- «لقد نيفت الآن على المائة فرأيت أجاتوكليس وريغولس والنسور الرومانية تدوس حصاد الحقول القرطاجية، وشهدت جميع أهوال الحروب، ورأيت البحر غاصاً ببقايا أساطيلنا الممزقة، والبربر الذين كنت قائداً لهم قيدوا أعضائي الأربعة بسلاسل الحديد كالعبد المجرم، ورفاقي يموتون الواحد بعد الآخر من حولي، فتمنعني روائح جثثهم من النوم، وأذود عنهم الطير الذي يسقط لينقر أعينهم، ولكني مع ذلك كله لم أيأس يوماً من قرطاجة، ولو رأيت جميع جيوش الأرض مجمعة على حربها، ولهب نيران الحصار يرتفع فوق قباب الهياكل، لظللت أؤمن مع ذلك بأبدية بقائها، وأما الآن فقد انتهى كل شيء وفقدنا كل شيء، الآن أصبحت الآلهة تكرهنا. فعليك اللعنة أنت يا من عجلت بخرابها بخزيك وعارك!».

وفتحت شفتيها... فصاح بها:

ـ «لقد كنت هنا. لقد سمعتك تشخرين عشقاً وصبابة كالعاهر الساقطة، وكان يشكو إليك شدة شبقه فتتركين له يديك يطبع عليهما القبلات.، ولكن إذا كانت شهوتك الجامحة المنكرة تدفعك إليه فقد كان الحياء أو الخجل يقضيان عليك أن تعملي على الأقل ما تعمله الوحوش التي تختبئ عند سفادها، لا أن تنشري عارك حتى تحت عيني والدك!!».

فارتجفت سلامبو وصرخت:

ـ «ما الذي تقوله؟».

ـ «كأنك لا تعرفين بأن الحصنين لا يبعدان الواحد عن الآخر أكثر من خمسين ذراعاً، وأن معشوقك ماتو نصب خيمته أمام خيمة هاميلكار لشدة كبريائه. هو هناك هذا الوالد وراءك، ولو أمكنني أن أتسلق الممر المؤدي إلى الإفريز لصحت به: «تعال يا هاميلكار وانظر ابنتك بين ذراعي البربر! لقد توشحت إرضاء له بحجاب الإلهة وهي ـ إذ تسلّم جسدها ـ تسلم بوقت معاً المجد المقترن باسمك، وجلال الآلهة، وانتقام الوطن حتى وأمن قرطاجة».

كانت حركة فمه الذاهبة أسنانه تهز جميع أجزاء لحيته، وعيناه المسودّتان تنظران إليها وتفترسانها، وكان يعيد ويكرر وهو يلهث بين الغبار:

ـ «سحقاً لك يا منتهكة حرمة الآلهة! كوني ملعونة، ملعونة، ملعونة!».

كانت سلامبو قد أزاحت عنها الحجاب، ورفعته محمولاً على طرف ذراعها وهي تنظر إلى ناحية خيمة هاميلكار دون أن ترد بكلمة. ثم سألته:

ـ «أمن هنا السبيل إليه؟».

ـ «وما شأنك به! حوّلي وجهك! اغربي! لا بل مرغي وجهك في التراب واسحقيه. إن مقر أبيك مقدس يدنسه نظرك إليه».

لفّت الحجاب حول قامتها، والتقطت بخفة براقعها ومعطفها وشالها، وصاحت: «ها أنا ذاهبة إليه» وانطلقت لا تلوي على شيء.

مشت في الظلام لا تلتقي بأحد لأنهم جميعاً قد اتجهوا نحو الحريق، وكانت الضجة تتضاعف والحريق يزداد ولهبه يكسو السماء ثوباً أرجوانيّاً، وحالت دون تقدمها مصطبة، فأخذت تدور يميناً ويساراً تلتمس سلماً أو حبلاً أو حجراً أو شيئاً تستعين به، وهي لا تزال خائفة من جيسكون ويخيل إليها أنها تسمع صراخاً ووقع أقدام تطاردها. وبدأ الصباح ينبلج ببياضه، فأبصرت معبراً في قلب الحصن فأمسكت بأسنانها ذيل ثوبها الذي كانت تتعثر به وقفزت ثلاث قفزات أوصلتها إلى المصطبة، فانفجرت تحتها صيحة رنانة خرجت من الظلمة، هي الصيحة ذاتها التي كانت سمعتها يوم سفرها خارجة من أسفل سلم السجون، فمالت برأسها إلى الأسفل فرأت عبد شاهبريم ومعه الجوادان مقرونين، كان قد مشى طوال الليل هائماً بين الحصنين، وأقلقته نار الحريق فعاد أدراجه نحو معسكر «ماتو» لينظر ما يحدث فيه، ورأى أن المكان الذي كان قائماً فيه أقرب نقطة إلى الخيمة فوقف ينتظر عملاً بأوامر شاهبريم.

اعتلى العبد لمّا رآها صهوة أحد الجوادين ووقف على السرج فهبطت إليه سلامبو معتمدة عليه، وأخذا يجريان فرسيهما هرباً دائرين حول معسكر القرطاجيين لعلهما يجدان منفذاً إليه.

*

عندما عاد ماتو إلى خيمته كان المصباح يدخن ولا يكاد يضيء، فظن أن سلامبو نائمة فنادى فلم تجبه، فانتزع قطعة من ستر الخيمة بعنف ليرى على نور الفجر، وإذا بالحجاب قد اختفى، وإذا بالأرض تهتز لوقع أقدام جمهور مزدحم، وبالصباح يرتفع وبالخيل تأخذ بالصهيل، وبقرقعة السلاح ترتفع إلى الجو، وبالأبواق تنفخ مؤذنة بالهجوم، وكان ذلك كله كإعصار يدور حوله فهاجه حنق لا حد له ووثب على أسلحته وثباً فحملها واندفع خارج الخيمة.

كانت صفوف طويلة من البربر تنحدر من الجبل جارية، والجبل نفسه والمربعات القرطاجية تتقدم هاجمة بتأرجح ثقيل متناسق، والضباب الذي

شقت كثافته أشعة الشمس قد استحال إلى غيوم صغيرة تتماوج، حتى إذا ارتفعت شيئاً فشيئاً انجلت عن رايات وخوذ وأسنة رماح، ولسرعة تقدم الجيوش بدت قطع الأرض المغطاة بالظلام كأنها تنتقل مسرعة من مكانها بقفزة واحدة، وفي مكان آخر بدت الجيوش كأنها سيول منحدرة تتقابل وبينها مساحات من الشوك ظلت ثابتة غير متحركة. وكان ماتو يتبيّن الضباط والجنود وضباط الاتصال، وحتى الخدم السائرين وراءهم، راكبين الحمير، ورأى أيضاً نارهافاس يميل بجنوده فجأة إلى اليمين، بدلاً من أن يحتفظ بموقعه ليغطي المشاة، وكأنه يريد بميله أن يسحقه جيش هاميلكار.

تجاوز فرسانه الفيلة التي أخذت تتباطأ في تقدّمها، وأخذت الخيل، وقد مدت رؤوسها وهي مطلقة الأعنة، تعدو عدواً شديداً، حتى كأن بطونها تمس الأرض، وعلى حين فجأة تقدم نارهافاس بثبات من حارس من الحراس ورمى رمحه وحرابه وسيفه واختفى بين القرطاجيين.

مشى مباشرة إلى خيمة هاميلكار وقال له، وهو يشير إلى رجاله الواقفين بعيداً:

ـ «يا باركا، جئتك برجالي، فكلهم لك».

ثم جثا أمامه إشعاراً بالعبودية، وإظهاراً لأمانته، وأخذ يعدد له خدماته منذ اشتعال نار الحرب: فهو الذي حال دون حصار قرطاجة، ودون ذبح الأسرى، وهو الذي لم يرد أن يستفيد من انتصاره على هنون بعد انكساره في أوتيك، وأما المدن الصورية فهي واقعة على حدود مملكته. وذكره بعدم اشتراكه في معركة ماكار وبتخلّفه عن نجدة البربر كي لا يحارب القائد الزعيم.

كان نارهافاس يرمي إلى توسيع حدود مملكته بالاعتداء على الأقاليم القرطاجية، وهكذا، وتبعاً لنتائج المعارك، كان ينجد البربر أو يخذلهم. ولمّا رأى كفة هاميلكار ترجح، وقدّر أن سيتم له النصر في آخر المطاف، جاء ينضم إليه. وقد يكون أحد الأسباب في انقلابه ما يحمله من الضغينة

على ماتو، إمّا لتقلّده إمارة الجيوش دونه، وإمّا لحبه القديم.

أصغى إليه القائد الزعيم دون أن يقاطعه، فالرجل الذي يستسلم على هذه الصورة لجيش له ثأر عنده، لا يمكن إلاّ أن يكون عوناً لا يستهان به. وأدرك هاميلكار ببعد نظره أن حلفاً كهذا يساعد على تحقيق مراميه الواسعة، فبمساعدة النوميديين يتخلص من الليبيين ثم يجر الغرب إلى الاستيلاء على إمبيريا.

لم يسأله عن سبب عدم التعجيل بالانضمام إليه، ولا هو حاول تفنيد أكاذيبه، بل قام فقبّله بضم صدره إلى صدره ثلاث مرات.

كان هاميلكار قد أحرق خيام الليبيين ليأسه، ولاستعجاله النهاية؛ فعد هذا الجيش الذي أقبل عليه عوناً من الآلهة.

أخفى فرحه وردّ على نارهافاس قائلاً:

ـ «لتنصرك البعول! لست أدري ما ستكافئك الجمهورية به، ولكن هاميلكار لا يجحد جميلاً». وازداد اللجب واللغب وأقبل الضباط، فأخذ هاميلكار يتقلّد سلاحه وهو يقول لنارهافاس: «إلى الأمام! عد إلى جندك وسق مشاة البربر بفرسانك إلى ما بين أفيالي وأفيالك! هيا تشجع ولا تبقِ على أحد منهم».

أسرع نارهافاس يحاول الخروج ولكن سلامبو ظهرت على حين غرّة، فقفزت عن جوادها، وفتحت معطفها، وأخرجت منه الحجاب المقدس فنشرته.

كانت خيمة الجلد المرفوعة أستارها من كل ناحية تطل على جنبات الجبل المغطى بالجنود، ولما كانت سلامبو واقفة في الوسط كان جميع الجنود يرونها أو يلمحونها، فارتفعت منهم صيحات عظيمة تعبر عن النصر والأمل، والسائرون إلى الأمام توقفوا عن التقدم، والمرضى المحتضرون اتجهوا إليها بأبصارهم يباركونها. وكان البربر كلهم قد عرفوا بأنها قد استردّت الحجاب وهم من بعيد يرونها أو يتصوّرون، فارتفعت صيحات أخرى ولكنها صيحات ألم واستنكار وانتقام،

صيحات دوّت رغم تصفيق القرطاجيين، وهكذا فإن الجيوش الخمسة المصفوفة على مدارج الجبل تصيح وتضج حول سلامبو.

لم يستطع هاميلكار أن يتكلم، فأخذ يمحضها الشكر بإشارات من رأسه، وعيناه تنتقلان من الحجاب إليها ومنها إلى الحجاب، ولحظ أن سلسلتها مقطوعة فاعترته رعشة لما داخله من شك فظيع، ولكنه استعاد رباطة جأشه وأخذ ينظر بطرف عينه إلى نارهافاس دون أن يلتفت إليه.

كان نارهافاس ملك النوميديين منتحياً ناحية من الخيمة لرزانته، وعلى جبينه بعض من الغبار الذي علق به عند سجوده لهاميلكار، فتقدم الزعيم منه وملامح الجد تبدو على محياه وقال له:

ـ «مكافأة لك، على ما بذلته يا نارهافاس، قد زوجتك ابنتي.. فكن لي ابناً ودافع عن أبيك!».

ظهرت من نارهافاس حركة تدل على الدهشة، وارتمى على يدي هاميلكار يغطيهما بقبلاته.

بدت سلامبو هادئة ساكنة كالتمثال كأنها لم تفهم، وقد علا وجهها احمرار خفيف وهي تغض جفنيها فترسل أهدابها المقوسة الطويلة ظلالاً على خديها.

أراد هاميلكار أن يربطهما دون تأخير برباط الخطبة الذي لا يفصم، فوضعوا في يد سلامبو رمحاً قدمته لنارهافاس، وربطوا إبهاميهما بسير من جلد البقر، ونثروا القمح على رأسيهما، والحبات التي تساقطت حولهما أخرجت أصواتاً كصوت وقع البرد المتساقط على الأرض.

*

12

جحافل البربر

بعد اثنتي عشرة ساعة لم يبق من المرتزقة إلاّ أكداس من الجرحى والموتى والمحتضرين. ذلك أن هاميلكار خرج بجيشه على حين غرة من أقصى المضيق وتحول به إلى منحنى الجبل الغربي الذي يشرف على هيبوزريت، وحرص على أن يستدرج البربر إليه لأن المجال فيه كان أوسع. وكان نارهافاس قد أحدق بهم بفرسانه بينما كان هاميلكار يرد هجماتهم ويسحقهم. وكانوا قد أحسوا بالهزيمة قبل وقوعها لضياع الحجاب منهم، حتى أن الذين لم يكونوا مبالين به شعروا بالغم والقلق بل بالضعف لفقده، وقد انسحب هاميلكار بعيداً عن ساحة المعركة ووقف إلى اليسار على مرتفعات يشرف منها على الجيوش، لأنه لم يرد أن ينسب إليه ـ إرضاء لكبريائه ـ فضل السيطرة على المعمعة.

كان من الممكن التعرف إلى أشكال المعسكرات من حواجزها المنحنية، هناك أكوام الرماد تثير العجاج في المكان الذي كان الليبيون يعسكرون فيه، والأرض المضطربة تتماوج كبحر، والخيام بما عليها من أطمار تبدو سفناً مجهولة غامضة تكاد تضيع بين الصخور، وتنتشر بين الجثث هنا وهناك دروع وقرون وأبواق وقطع خشب وحديد ونحاس وقمح وقش وملابس، وبعض الفوانيس الموشكة على الانطفاء تشتعل إلى جانب أكداس من الأمتعة، والأرض تختفي في بعض الأماكن تحت التروس، وبقايا جثث الخيول تتتابع كتلال، وهناك أيضاً أرجل مبتورة ونعال وأذرع ودروع ورؤوس مقطوعة لا تزال في خوذها معلقة بسيور الجلد إلى الذقون، وكأنها كريات مبعثرة هناك، وشعور مدلاّة على الأشواك، والفيلة مطروحة في نقيع من الدماء مع أبراجها، وأحشاؤها ممزقة وهي ترسل حشرجات الموت، ويطأ السائر على مواد لزجة وعلى حفر من الوحول ولو أن المطر لم يكن قد تساقط.

هذا الخليط من الجثث كان يملأ الجبل كله من أعلاه إلى أسفله، والأحياء كانوا كالأموات لا يبدون حراكاً، بل إنهم يجلسون القرفصاء جماعات غير متساوية، ينظر الواحد منهم إلى الآخر وهم هلعون صامتون.

بدت بحيرة هيبوزريت في نهاية مرج أخضر وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة، وعلى اليمين بيوت بيض متقاربة تقع خارج منطقة الأسوار، ثم ينبسط البحر إلى ما لا نهاية.

كان البربر يصعدون التنهدات وأيديهم تحت ذقونهم وهم بأوطانهم يحلمون. وتبدو في السماء غيمة قاتمة تنحدر نحو البحر.

وهبت ريح المساء، فانفرجت جميع الصدور، وكلما زاد البرد شدّة كلما ابتعد الدود والهوام عن جثث الأموات الباردة وسرحت للرمال الساخنة، وعلى رؤوس الحجارة الكبيرة حطت غربان جامدة لا تتحرك تتجه برؤوسها ناحية المحتضرين.

وما إن جُنّ الليل حتى أقبلت جماعات من الكلاب ذات الوبر الأصفر وأسراب من هذه الوحوش القذرة التي تتبع الجيوش إلى وسط البربر، فبدأت تلحس قطرات الدماء المتجمدة العالقة على عصص الأعضاء المبتورة التي لا تزال دافئة، ثم تحولت إلى افتراس الجثث مبتدئة ببقر بطونها.

فجأة عاد الفارون إلى الظهور واحداً بعد واحد كما تظهر الأشباح والظلال، والنساء حاولن هنّ أيضاً أن يعدن، لأنه كان لا يزال منهن الكثيرات في معسكر الليبيين، رغم المجزرة التي أوقعها فيهن النوميديون.

أشعل بعضهم أطراف الحبال ليستنيروا بها كالمصابيح، وجعل بعضهم من أعواد الرماح محفات يبعدون بها الجثث عنهم.

كانت هذه الجثث متمددة في صفوف طويلة مستلقية على ظهورها، وأفواهها مفتوحة، ورماحها إلى جانبها، أو مكدسة فوق بعضها، حتى إنهم ليضطرون أن يحفروا فيها ليبحثوا عن جثة قتيل مفقود، وأن يتفرسوا

بوجوهها على ضوء مشعل. وكان الكثيرون قد أثخنت فيهم الجراح البليغة من سلاح فتاك، فهناك تناثرات لحم تتدلى من الجباه، وجند ممزقة أجسامهم تمزيقاً، أو مزرقة وجوههم لموتهم خنقاً، أو مسحوقة عظامهم حتى أمخاخها، أو ممزقة أجسادهم بأنياب الفيلة. وهم وإن كانوا قد ماتوا في وقت واحد فإن البلاء قد دب فيهم بأشكال وفي ساعات مختلفة، فأهل الشمال متورمون بورم أغبر اللون، والإفريقيون، وهم عصبيو التكوين، قد جفّوا جفافاً، ويميز المرتزقة بالأوشام المطبوعة على أيديهم: فقدماء جنود أنطوخيوس موشومون بصقر، والذين حاربوا في مصر موشومون برأس قرد كبير، والذين خدموا أمراء آسيا بفأس أو رمانة أو مطرقة، والذين عاشوا في الجمهوريات الإغريقية بقلعة أو باسم أركون. وأخيراً كان بينهم من غطت أذرعتهم الأوشام والرموز المتعددة التي كانت تختلط بندباتهم وجراحهم الجديدة.

رفع الأحياء أربعة أكوام من الحطب لإحراق جثث السمنيين والأتروسك والكامبانيين والبروتيين، وحفر الإغريق حفر موتاهم برؤوس سيوفهم، وخلع الإسبرطيون معاطفهم وكفنوا بها موتاهم، ودفن الإغريق قتلاهم موجهة إلى الشمس، و«الكانثير» في رجم من الحصى، «والنساقون» طووهم بربطهم بسيور من جلد البقر، وأخذ «الجوامند» موتاهم فدفنوهم على شاطئ البحر لتظل الأمواج تسقي قبورهم، وأسف اللاتينيون لعجزهم عن وضع رماد موتاهم في الأواني، وشكا الرحل من حرارة الرمال التي تحول الأجسام إلى مومياء، «والسلتيون» واروا أمواتهم تحت ثلاثة حجارة صم وسماء ممطرة وفي خليج مليء بالجزر.

وعلى هذا كان الصراخ والعويل يرتفعان ثم يليهما صمت ليرغموا نفوس الأموات على العودة، وهكذا كانت تتوالى الصرخات بلا انقطاع وبين فترات معينة.

كانوا يعتذرون إلى الأموات لعجزهم عن تكريمهم التكريم الذي تقضي به طقوس العبادة، لأنهم بهذا الحرمان سيضطرون إلى أن يهيموا

لفترات لا حدّ لها، ويتعرضوا لمفاجآت وتقمصات مختلفة، وينادونهم طالبين منهم ما يرغبون فيه، ويكيل لهم البعض الشتائم لأنهم لم يعرفوا أن يتقوا الهزيمة.

وعلى ضوء المحارق الكبيرة تبدو وجوه الذين نضبت دماؤهم صفراً، وهم مرتمون على بقايا أسلحتهم، والدموع تجرّ الدموع، والزفرات تتصاعد حرّى، ومظاهر الوفاء والعناق أشد، وبعض النساء يتمددن على الجثث والأفواه على الأفواه والجباه فوق الجباه، حتى ليضطرون إلى ضربهن لإبعادهن في ساعة الدفن، وكذا يصبغن وجوههن بالسواد ويقصصن شعورهن ويستخرجن من أجسادهن الدماء ليرمينها في القبور، أو يحدثن بأجسامهن جروحاً شبيهة بجراح الميت، وأصوات العويل والنواح ترتفع كالزئير فتختلط بأصوات الصنوج، وكان بعضهم ينتزع تمائمه ويبصق عليها، والمحتضرون يتمرغون في الوحل، وهم يبكون ويعضون بحنق عصص قبضاتهم المبتورة، وذبح ثلاثة وأربعون شاباً بعضهم على طريقة المصارعين. وجاء وقت نفد فيه الحطب اللازم للمحرقات فانطفأت النيران ولم يبق محل لإحراق الجثث الأخرى. وأنهكهم الصراخ ومسهم الضنى وخارت منهم القوى، فناموا إلى جنب أخوتهم الموتى، فالذين كانت لهم رغبة في الحياة كانوا ممتلئين قلقاً، والآخرون رقدوا وهم يتمنون ألاّ يستيقظوا من نومهم.

*

عند بزوغ الفجر ظهر على حدود معسكر البربر جنود يسيرون وخوذهم مرفوعة على أسنة رماحهم، وحيوا المرتزقة وسألوهم عما إذا كان لهم ما يعملونه في أوطانهم.

وتقدم آخرون من البربر فعرفوا فيهم بعضاً من رفاقهم القدامى.

كان هاميلكار قد عرض على الأسرى جميعاً أن ينخرطوا في سلك جيشه، فرفض الكثيرون عرضه بشجاعة، ولمّا كان لا يود أن يسلمهم إلى انتقام المجلس الكبير، ولا أن يقدم لهم الغذاء، صرفهم بعد أن أمرهم بأن

لا يعودوا إلى محاربة قرطاجة، وأمّا الذين خافوا التعذيب فقد وزعوا عليهم سلاح البربر، فجاؤوا إلى المغلوبين مدفوعين بعامل الكبرياء والفضول ليستدرجوهم إلى صفوفهم.

راحوا يحدثون بحسن معاملة القائد الزعيم لهم، والبربر يصغون إليهم والحسد يملأ نفوسهم، مع أنهم كانوا يحتقرونهم، ولما أخذ البربر يوبخونهم ثارت ثائرة الخونة وأخذوا يضعون تحت أعينهم أسلحتهم التي غنمها القرطاجيون منهم ويدعونهم ـ وهم يوجهون إليهم الشتائم ـ لأن يتقدموا نحوهم ليستردوا أسلحتهم، فتناول البربر الحصى ليرموهم بها، ففروا هاربين، ومنذ تلك الساعة لم يعد يظهر على قمة الجبل إلاّ أسنة الرماح خارجة من وراء الحواجز.

استبدّ بالبربر ألم أشد وأنكى من ذل الانكسار، ألم التفكير بعدم فائدة شجاعتهم وذهابها ضياعاً، فكانوا يعضّون شفاههم ندماً وعيونهم شاردة جامدة.

وخطر لهم خاطر عملوا كلهم على تحقيقه، فانقضوا وهم يصخبون على الأسرى القرطاجيين. وكان جنود هاميلكار لم يتمكنوا من الاهتداء إليهم لأن البربر أبعدوهم عن ساحة القتال وتركوهم مرميين في حفرتهم العميقة.

صفّهم البربر على الأرض في مكان ممهد، وأقاموا حولهم الحراس، وتركوا النساء يدخلن عليهم زمراً مؤلفة من ثلاثين إلى أربعين امرأة، وطاب لهن أن يغتنمن الوقت القليل الذي حدّد لهن، فأخذن ينتقلن جاريات من أسير إلى أسير وهن حائرات هائجات، وأخذن يعملن عملهن فيهم فيضربنهم ضرب الغاسلات لقطع الثياب القذرة، وهن يرددن أسماء أزواجهن، ويمزقنهم بأظفارهن، ثم فقأن أعينهم برؤوس دبابيس شعورهنّ، وجاء الرجال بعدهن فأخذوا يذيقونهم أنواع التعذيب وأشكاله من أقدامهم التي كانوا يقطعونها إلى الكعوب، إلى الجباه التي كانوا يسلخون جلودها ليستعملوها كتيجان تغطي رؤوسهم، وكان أكلة الأشياء

النجسة أشد قسوة وشراسة فيما تصوّروه، فكانوا يسممون الجراح بأن يصبوا عليها الخل ويضعوا فيها التراب وكسرات الأواني الخزفية. وكان غيرهم ينتظرون دورهم، والدم يسيل من الأسرى فيزداد فرحهم، كما يفعل عاصرو العنب وهم واقفون حول دسوتهم المتصاعد بخارها.

غير أنَّ ماتو ظل جالساً على الأرض في المكان الذي استقر فيه عند نهاية القتال، وقد وضع مرفقيه على ركبتيه وصدغيه بين كفيه، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يفكر.

وصلت إليه فجأة صيحات فرح الجنود فرفع رأسه فرأى أمامه بقية من قماش منصوبة على مدارة وهي تتدلى من أسفلها فتظلل، أو تكاد، سلالاً وبسطاً وجلد أسد، فعرف خيمته والتصقت عيناه بالأرض كما لو كانت ابنة هاميلكار قد غاصت في أعماقها عند اختفائها.

كانت الريح تلاعب النسيج الممزق حتى لتلمس أطرافه فمه، ولمح على النسيج علامة حمراء شبيهة ببصمة الكف، كانت تلك يد نارهافاس، رمز تحالفهما، فوقف ماتو عند ذاك وأخذ جمراً لا يزال مشتعلاً فرماه على بقايا خيمته بإباء واحتقار، وأخذ يجمع بطرف حذائه ما تبقى خارج النار ويدفعه إلى اللهب كي لا يبقى منه أي أثر.

وإذا بسبنديوس مقبلاً، ولم يكن بالإمكان معرفة الجهة التي أقبل منها.

كان العبد المحرّر قد ربط على فخذيه كسرتي رمح، وهو يعرج بشكل يدعو إلى الشفقة، ويضج بالشكوى. فقال له ماتو:

ـ «انزع هذا عنك فأنا أعرف أنك شجاع!» لقد كانت قوة ظلم الآلهة قد سحقته حتى لم يعد له من القوة ما يمكنه أن يظهر اشمئزازه من الرجال.

وأشار سبنديوس إلى ماتو بأن يتبعه، وقاده إلى وهدة في تلة يختبئ فيها أوتاريت وزركساس.

كانا قد هربا من ساحة القتال كما هرب سبنديوس، رغم شجاعة الأول وقسوة الثاني، وكانا يعللان الهزيمة بخيانة نارهافاس غير المنتظرة بحريق خيام الليبيين وخسارة الحجاب وهجوم هاميلكار المفاجئ، ولا سيما

لمناورته التي أرغمهم بها على الرجوع إلى أسفل الجبل، حيث وقعوا تحت ضربات القرطاجيين المباشرة، وكان سبنديوس ينكر أن الرعب قد حل به ويصر على الإدعاء بكسر رجله.

أخيراً أخذ الثلاثة الرئيسان والقائد العام يتشاورون فيما يجب عمله.

كان هاميلكار يسد بوجوههم طريق قرطاجة، كما أصبحوا محصورين بين جيشه وبين أقاليم نارهافاس.

بدا من المتوقع أن تنضم المدينتان الصوريتان أوتيك وهيبوزريت إلى هاميلكار، وهكذا يرغمونهم على التجمع وظهر الجيش إلى البحر، ثم تنقض عليهم جميع هذه القوات فتبيدهم وذلك ما لا بد من وقوعه.

وليس من سبيل إلى اجتناب الحرب، بل لا بد من متابعتها بشدة حتى النهاية، ولكن كيف السبيل إلى إقناع الجنود بمتابعة قتال لا نهاية له وكلهم فقد شجاعته وأكثرهم لا تزال جراحهم دامية؟

فقال سبنديوس: «دعوني أتولى هذا الأمر!».

لم تمض ساعتان على هذا الحديث حتى أقبل رجل من جهة هيبوزريت يتسلق الجبل وهو يجري وبيده ألواح مكتوبة يرفعها في الهواء وهو يرسل الصيحات فتجمّع البربر حوله.

كانت تلك ألواحاً مرسلة من الجنود الإغريقيين في سردينيا يوصون بها رفقاءهم في إفريقية بأن يسهروا على مراقبة جيسكون ومن معه من الأسرى، فإن تاجراً من ساموس اسمه «هيبوناكس» قدم إليهم من قرطاجة وأخبرهم بأن هناك مؤامرة تحاك لتسهيل فرار الأسرى، وأنهم إنما يكتبون إليهم لكي يحرص جيش البربر على إحباط المؤامرة، لأن الجمهورية القرطاجية ذات قوة وسلطان.

لم تنجح هذه المناورة التي كانت من وحي سبنديوس، لأن خبر المؤامرة المزعومة لم يثر حفيظة الجند وحميتهم، بل ملأ قلوبهم خوفاً، ولا سيما أنهم تذكروا إنذار هاميلكار السابق لهم، فأخذوا يتوقعون حدوث شيء رهيب. وانقضى الليل وهم قلقون، بل إن الكثيرين منهم

خلعوا عنهم أسلحتهم استدراراً لشفقة هاميلكار فيما لو كرّ عليهم.

لكنَّ رسولاً آخر ظهر في الغداة وهو لاهث معفّر بالتراب، فانتزع الإغريقي من يده لفافة من البردى مليئة بكتابة بالخط القرطاجي به يرجو شجعان تونس جنود البربر ألاّ يستسلموا إلى الخوف، لأنهم في طريقهم إلى نجدتهم.

تلا سبنديوس الرسالة ثلاث مرات، ثم حمله اثنان من الكبادوسيين على أكتافهما وسار من مكان إلى مكان يقرأ الرسالة على الجنود، وظل هكذا يقرأ ويخطب فيهم مدة سبع ساعات، فكان يذكّر المرتزقة بوعود المجلس الكبير، والإفريقيين بقسوة الوكلاء والنظّار، وجميع البربر بمظالم قرطاجة، ويؤكد لهم أن حلم هاميلكار طعم ليصطادهم به، وأن الذين يسلمون إليه سيساقون عبيداً ويباعون، وأن المغلوبين سيهلكون تحت أنواع التعذيب. وأمّا الهرب فكيف السبيل إليه؟ فما من شعب يرضى بإيوائهم، فهم إذا صمدوا وبذلوا الجهود سينالون الحرية والمال ويدركون الثأر، ولن ينتظروا طويلاً لأن رجال تونس، بل وأهل ليبيا جميعاً، سيهبون إلى نجدتهم مسرعين، ثم يقول وهو يبسط أمامهم ورق البردى:

- «هاكم انظروا! اقرأوا! هذه هي وعودكم! أنا لا أكذب أبداً».

كل ذلك والكلاب شاردة هائجة، وأقفاؤها السود ملطخة بالدماء، والشمس المحرقة تلذع الرؤوس العارية، والروائح الكريهة المهيجة للقيء تتصاعد من الجثث غير المطمورة الطمر الكافي، والتي كانت تخرج من حفرها حتى بطونها، وسبنديوس يهيبَ بها أن تقوم فتشهد على صدق قوله، وأخيراً يرفع قبضة يده ويمدّها جهة هاميلكار.

كان ماتو ينظر إليه ويراه، ولكي يلقي ستراً على تخاذله، أخذ يتظاهر بالغضب، ولكن هذا التظاهر تحول سريعاً إلى غضب حقيقي، وسلم أمره للآلهة،وضاعف لعناته على قرطاجة، وأخذ يفكر بأن تعذيب الأسرى لعب صبياني، فلِمَ يتركهم على قيد الحياة ويجر هكذا وراءه هذه البهائم التي لا تنفع؟ وقال: «يجب أن نتخلص من هؤلاء فقد عرفت نواياهم

نحونا، وقد يكون هلاكنا على يد واحد منهم، سأقدر بطولة الواحد منكم بسرعة جريه وقوة ضرباته».

وجّه الجند أحقادهم جهة الأسرى، وكان أكثرهم يُحتضر، فأجهزوا عليهم بأن أدخلوا أعقاب أقدامهم في أفواههم، أو بطعنات متعددة برؤوس حرابهم، وافتقدوا جيسكون، وزاد قلقهم إذ لم يجدوه بين الأسرى، وأصبح كل منهم يريد أن يراه وأن يشترك بقتله، وأخيراً وجده ثلاثة رعاة من السمنيين منطرحاً على بعد خمسة عشر قدماً من مكان خيمة ماتو، فعرفوه من لحيته الطويلة، ونادوا الآخرين فوجدوه مستلقياً على ظهره ويداه على وركيه وركبتاه مضمومتان كميت ينتظر كفنه، ولكن جنبيه الهزيلين كانا ينبضان، وعيناه متفتحتان في وسط وجهه الشديد الاصفرار، وهما ترسلان النظرات بشكل مستديم مزعج، فنظر إليه البربر بادئ ذي بدء بنظرات تنم عن الدهشة، لأنهم كانوا قد نسوه لإقامته الطويلة في الحفرة، فوقفوا منه بعيداً لعامل من ذكريات قديمة ولم يجسروا أن يرفعوا أيديهم عليه.

بيد أن الواقفين في الخلف أخذوا يتذمرون ويتدافعون؛ وإذا برجل من «جارامانت» يشق الزحام وبيده منجل حصاد، فأدركوا كلهم غرضه، فاحمرت وجوههم خجلاً، ومع ذلك أخذوا يصيحون: «أجل! أجل».

اقترب الرجل ذو السلاح المحدودب من جيسكون وأخذ رأسه بيديه وأسنده إلى ركبته وأخذ ينشر رقبته بحركات سريعة، فسقط الرأس، وانفجر الدم فأحدث نقرة في الأرض، ووثب «زركساس» عليه بأسرع من وثبة الببر وحمله وهو يجري نحو معسكر القرطاجيين، حتى إذا قطع ثلثي الجبل أخرج من جيب صدره رأس جيسكون ممسكاً فيه باللحية، وأدار ذراعه مراراً بسرعة ورمى به فدار الرأس بشكل نصف دائرة وسقط في معسكر القرطاجيين، فبدا على حافة الحاجز علمان مصلبان وهي الإشارة المتفق عليها لتبادل تسليم جثث الأسرى.

ردّ البربر على القرطاجيين بأن اختاروا أربعة رسل من المنادين،

وأرسلوهم مع أبواقهم إلى مكان قريب من القرطاجيين، فخاطبوهم بمكبرات صوت أنبوبة من نحاس معلنين بأنه منذ اليوم لم يبق بين البربر والقرطاجيين أمان ولا عهد ولا رحمة ولا آلهة، وأنهم سيرفضون بعد اليوم كل مفاوضة ويعيدون كل رسول مبتور اليدين.

بعثوا سبنديوس مندوباً عنهم إلى هيبوزريت ليجيئهم بالمؤن، فعجلت المدينة الصورية بإجابة طلبهم في مساء اليوم ذاته، فأكلوا بشراهة، ولما شبعوا كل الشبع أسرعوا بجمع ما تبقى من أمتعتهم وأسلحتهم المحطمة، ووضعوا الغزو في قلب الجيش، وتركوا جرحاهم يبكون وراءهم، ورحلوا متتبعين حافة الشاطئ مسرعين كأنهم قطيع من ذئاب خاطفة.

انطلقوا ليفتحوا مدينة هيبوزريت وقد عقدوا العزم على الاستيلاء عليها لأنهم كانوا بحاجة إلى مدينة.

*

عندما رآهم هاميلكار من بعيد راجلين أحس بخيبة أمل، رغم ما كان في رحيلهم من إرضاء لكبريائه، فلقد كان يجب أن يهاجمهم بدون تأخير بجيش جديد غير متعب، ولو تم له ذلك لانتهت الحرب بعد ذلك بيوم واحد، وإذا طال المطال فسيعودون أقوى مما هم عليه، وستضم إليهم المدن الصورية. وأدرك أن حلمه بمعاملة المغلوبين لم يأت بفائدة، ولذلك عقد العزم على أن يكون بلا شفقة ولا رحمة.

في اليوم ذاته أرسل إلى المجلس الكبير رسولاً محملاً بالأساور التي جمعت من جثث القتلى، وأمرهم مهدداً أشد تهديد بأن يجيشوا جيشاً آخر ويسوقوه إليه.

كانوا كلهم يحسبونه في عداد الأموات، حتى أنهم لما اطلعوا على نبإ انتصاره دهشوا دهشة تشبه الذعر، وكان تمام المعجزة استرجاعه للحجاب المقدس، وكأن الآلهة نفسها وقوة قرطاجة أصبحت بين يديه. ولم يجرؤ أحد من أعدائه أن يجأر بشكوى أو بانتقاد، وهكذا فإن حماسة هؤلاء وجبن أولئك حملا قرطاجة على أن تجهز، قبل الموعد المضروب،

جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل.

أسرع الجيش بالرحيل إلى أوتيك ليسند مؤخرة هاميلكار، واستقل ثلاثة آلاف غيرهم من الوجهاء سفناً تحملهم إلى هيبوزريت، ليردوا البربر عنها. وألقيت مقاليد القيادة لهنون، ولكنه عهد بقيادة جيش المشاة إلى نائبه «مجداسان» ليقود هو بنفسه جيش البحر، لعجزه عن تحمل ارتجاج المحفة، لأن داءه الوبيل كان قد نهش شفتيه وأنفه، وأحدث في وجهه نقرة واسعة حتى كان يمكن رؤية حنجرته على بعد عشر أقدام، وحتى أصبح يضع كالنساء برقعاً على وجهه ليخفي دمامته.

لم تخضع هيبوزريت لإنذار هنون، ولا لتهديد البربر، بل كانت ترسل إلى هؤلاء المؤن في السلال معتذرين لهم من أعلى الأبراج بكثرة ما تطالبهم به الجمهورية، وراجين منهم الابتعاد عن المدينة، كما كانت ترسل بالإشارات الطلبات ذاتها للقرطاجيين الراسية سفنهم على شاطئ البحر.

اكتفى هنون بمحاصرة الميناء متفادياً خطر الهجوم، ولكنه توصل إلى إقناع قضاة هيبوزريت بأن يقبلوا ما بينهم ثلاثمائة جندي، ثم تحول إلى رأس «ريزان» ودار دورة طويلة في البحر ليحدق بالبربر، رغم عدم فائدة هذه الدورة، بل رغم ما فيها من الخطر. ومنعه حسده من هاميلكار أن يسير إلى نجدته، بل إنه كان يحجز جواسيسه ويعرقل خططه. وأخيراً كتب هاميلكار إلى المجلس الكبير بأن يريحه من هنون، فعاد يسير إلى قرطاجة حانقاً على ذلك المجلس وجنون زميله، وهكذا وبعد تعليل النفوس بالآمال وجد القرطاجيون أنفسهم في مركز أسوإ مما كان، ولكنهم صرفوا النظر عن التفكير به بل وعن التحدث عنه.

وكأن هذه المحن لم تكن كافية على تواليها واشتدادها، فقد جاء النذير بأن المرتزقة في سردينيا قد ضحوا بقائدهم واحتلوا الحصون وأعملوا حد السيف بالرجال المنحدرين من أصل كنعاني، كما أن الشعب الروماني أرسل يهددهم بالحرب العاجلة إن لم يدفعوا ألفاً ومائتي «تالنت» من

الذهب، ويتنازلوا لهم عن جزيرة سردينيا كلها، وذلك لأن الرومان رضوا بأن يحالفوا البربر وأرسلوا إليهم سفناً تحمل الدقيق واللحوم المجففة، فطاردها القرطاجيون وأسروا منها خمسمائة أسير، ولكن أسطولاً من السفن القرطاجية كان يحمل إليها مؤناً من «بيزاسين» أغرقته زوابع البحر، وكأن الآلهة قد أصبحوا كلهم أعداء لقرطاجة.

حين انتشرت تلك الأنباء عمد أهل هيبوزريت إلى مكيدة للتخلص مما لديهم من جنود القرطاجيين، فزعموا أن هناك هجوماً على المدينة، ودفعوا الجنود إلى الأسوار ومشوا من ورائهم، حتى إذا بلغوها أخذوا بأرجلهم فدحرجوهم عن الحصون، ونجا بعضهم من الموت فطاردهم السكان حتى البحر فماتو ا غرقاً.

كانت أوتيك تقاسي ما تقاسيه من جند «ماجداسان» لأنه سلك مسلك هنون مؤتمراً بأمره، واكتفى بأن يحدق بالمدينة، وأصم أذنيه عن سماع صوت هاميلكار.

وفعل أهل أوتيك بما كان لديهم من الجنود القرطاجيين ما فعله أهل هيبوزريت، فسقوا جنود ماجداسان عصير الببروح المخدر ممزوجاً بالخمر وذبحوهم وهم نيام.

وأقبل البربر على المدينة فهرب «ماجداسان» وفتحت لهم أوتيك أبوابها، ومنذ هذا اليوم بدا من المدينتين إخلاص وولاء لأصدقائهم الجدد وبغض وعداء، لا مسوّغ لهما، لحلفائهم القدماء.

كان انتقاض هاتين المدينتين الصوريتين على قرطاجة مثلاً احتذاه غيرهما، فلقد تجددت بهذا آمال الشعوب المغلوبة على أمرها، ودفعت بالمترددين إلى الوقوف إلى جانب البربر، فساءت الأمور وتزعزع كل شيء.

اتصل خبر ذلك بهاميلكار، فأيقن بفقد النصير، وتحقق من قرب الهزيمة، فأعاد نارهافاس إلى بلاده ليحافظ على حدود مملكته، وعقد النية على اللجوء إلى قرطاجة ليجنّد الجند ثم يعود إلى القتال.

رأى البربر القرطاجيين ينحدرون من الجبل، فتساءلوا إلى أين هم ذاهبون، وحسبوا أن الجوع قد أمضهم فدفعهم إلى الهجوم، رغم ما بهم من ضعف وضيق، ولكنهم رأوا الجيش يميل إلى اليمين، فهو إذاً يركن إلى الفرار، فخفوا إلى مطاردته.

اعترض القرطاجيين نهر ماكار وقد أصبح عريض المجرى لأن ريح الدبور لم تكن تهب عليه في هذه المرة، فعبره بعضهم سباحة والآخرون على ظهو خوذهم. واستأنفوا سيرهم جادين. وأظلم الليل واختفوا عن عيون البربر.

لم يتوقف المرتزقة عن مطاردتهم، ولكنهم مالوا إلى أعلى النهر يلتمسون موضع حوض ضيق، ولحق بهم سكان تونس وأوتيك فتزايد عددهم بسكان هاتين المدينتين وبما كانوا يتلقون من أمداد الرجال في كل خطوة، بل وراء كل عوسجة. وكان القرطاجيون ينبطحون على الأرض متخفين فيسمعون وقع أقدامهم في الظلام، وهاميلكار يمطرهم بوابل من السهام حيناً بعد حين ليؤخر زحفهم، فقتل منهم عدد وفير.

مع الصباح كانوا قد بلغوا جبال «أريان» حيث تميل الطريق فتكون منعطفاً شبيهاً بمرفق الذراع.

كان ماتو يسير في طليعة جيشه، فرأى عند ذاك في الأفق شيئاً أخضر اللون على قمة مرتفع، ثم انخفضت الأرض وبدت مسلات وقباب وبيوت! كانت تلك قرطاجة!

فاستند إذذاك إلى شجرة كي لا يتهاوى لشدة خفقان قلبه.

أخذ يحلم بكل ما استجد في حياته منذ الساعة التي مر بها هناك! كانت مفاجأة وسكرة! ثم تملّكه الطرب لفكرة العودة إلى لقاء سلامبو! وعادت إلى ذهنه الدواعي التي تدعو إلى بغضها، ولكنه سارع إلى إبعادها عنه، وأخذ يتأمل، وهو يهتز حنيناً وبؤبؤا عينيه ممدودان يتأمل بشرفة عالية لقصر واقع بعد معبد أشمون وفوق شجر النخل، فأشرق محياه بابتسامة من اختطف بروحه وجذب، كما لو كان نور وهاج قد وصل إليه، فأخذ

يفتح ذراعيه ويرسل القبلات مع النسيم ويتمتم: «تعالي! تعالي! إليّ! إليّ».

امتلأ صدره حسرة وتحدّرت على لحيته دمعتان كلؤلؤتين.

وإذا بسبنديوس يصيح به: «ما الذي يعيقك! هلم وأسرع! سيفلت من يدنا هاميلكار!.. أرى ركبتيك تخونانك.. وأراك تنظر إليّ نظرة سكران!».

كان يضرب الأرض برجله لنفود صبره، ويستعجل ماتو ويغمز بعينيه كمن يشير إلى أمر قريب الوقوع طال انتظاره، ثم يقول:

- «آه! ها قد وصلنا! لقد تحقق الأمل! إنهم في قبضة يدي!».

كانت ملامح وجهه تدل على ثقته وانتصاره، فدهش ماتو لخمود همته وأحس بنفسه مدفوعاً في أثر سبنديوس لأن كلماته جاءت في أشد ساعات يأسه، فدفعته إلى الانتقام، فوثب إلى جمل يحمل أمتعة واختطف زمامه، وأخذ يضرب بالحبل الطويل، بكل قوته، المتباطئين في السير، ويجري ذات اليمن وذات اليسار في مؤخرة جيشه ككلب يسوق أمامه قطيعاً.

وفعل صوته الرنان فعله، فأخذت صفوف الرجال تنضم وتضيق، حتى إن العرجى منهم أخذوا يحثون الخطى.

عند البرزخ ضاقت المسافة بين الجيشين، وأصبح أوائل البربر يسيرون تحت الغبار المتصاعد من القرطاجيين، وزاد قرب الجيشين حتى أوشكا أن يتلامسا، ولكن أبواب مالكا وتاكست وبوابة خامون فتحت كلها على مصاريعها، وانقسمت المربعات القرطاجية إلى فرق ثلاث غاصت كل واحدة منها في باب، ثم تجمعت وأخذت تدور في الأروقة، ثم وقفت لا تتقدم لشدة ازدحامها وتكتّلها، وتلامست الرماح في الهواء، وأصبحت سهام البربر تنهمر على الأسوار.

وعلى عتبة باب خامون وقف هاميلكار والتفت إلى رجاله وأمرهم بأن يبتعدوا، ثم ترجل عن جواده ووخزه برأس سيفه في كفله ودفعه نحو البربر.

كان ذلك الجواد أصيلاً يغذونه بكريات العجين، يلوي قائمتيه

الأماميتين ليعتلي فارسه صهوته، فلم أرسله هاميلكار إلى وسط البربر؟! أكانت تلك أضحية يضحيها!

أخذ الجواد يعدو وسط الرماح فيقلب الرجال، ثم تتعثر قوائمه بأحشائه فيسقط، ثم يعود فينهض حانقاً، والرجال حوله يحاولون الإمساك به وهم يتنحون عن طريقه، أو ينظرون إليه دهشين.

ضم القرطاجيون صفوفهم ودخلوا، وأقفل وراءهم الباب الضخم وهو يرسل دوياً.

لم ينفتح الباب رغم ارتطام البربر به، وأخذ الجيش يتذبذب على طول خطه، ثم ارتخت الذبذبة وتوقفت.

كان القرطاجيون قد حشدوا جنداً على قناة الماء، فأخذوا يلقون بالحجارة والقذائف والعوارض، ورأى سبنديوس أن لا داعي للإصرار فانسحب الجنود ليخيموا غير بعيد، وقد عقدوا العزم على ضرب الحصار على قرطاجة.

*

وصلت أصداء الحرب إلى ما بعد حدود الأمبراطورية القرطاجية: فمن أعمدة هرقل حتى ما وراء القيروان أصبح الرعاة يحلمون بها وهم قائمون على حراسة قطعانهم، والقوافل تسمر بها في الليل على ضياء الكواكب: هذه قرطاجة العظيمة سيدة البحار، متلألئة كالشمس، مخيفة كالآلهة، ومع ذلك يجسر رجال على مهاجمتها! وسرت شائعات بسقوطها فصدقها الناس قاطبة لأنهم كانوا جميعاً يتمنون لها هذا السقوط: من الشعوب الخاضعة المغلوبة، والقرى المضروبة عليها الجزية، والأقاليم المحالفة، والقبائل المستقلة، إلى الذين يكرهونها لاستبدادها أو يحسدونها لسلطانها أو يتطلعون إلى ثرواتها.

كان الشجعان من جميع هؤلاء قد انضموا إلى البربر، وظل الكثيرون مترددين بعد انهزامهم في معركة ماكار، ولكنهم اليوم قد استعادوا الثقة بانتصارهم، فتألبوا واقتربوا من جيش البربر، ووقف رجال المناطق

الشرقية على كثبان رمال «كليبا» في الجهة الأخرى من الخليج، حتى إذا بلغ المرتزقة أسوار قرطاجة تقدّموا للانضمام إليهم.

لم يكن هؤلاء الرجال المنضمّون من سكان ليبيا المجاورين لقرطاجة الذين يتألف منهم الجيش الثالث، ولكنهم الرحّل من سكان نجود «باركا» وقطّاع الطرق النازلون على رأس «فيسكوس» أو على مرتفعات «درنة» أو «فزانة» أو «مارمريك».

كانوا قد قطعوا في قدومهم الصحراء يشربون من مالح مياه الآبار المبنية جنباتها بعظام الجمال، فمنهم رجال «الزواسيس» المغطون بريش النعام الراكبون المركبات التي تجر كلاً منها أربع أفراس، ومنهم رجال «الجرامنت» المقنعون بأقنعة سود يقبّلون أكفال خيلهم المصبغة أو يركبون حميراً أو حمر وحش أو جواميس، وربما جرّ البعض منهم نساءهم وأطفالهم وأصنامهم وسقوف أكواخهم المصنوعة بشكل زوارق، ومنهم «العمرنسيون» المجعدو الوجوه لإكثارهم من شرب مياه الينابيع الساخنة، «والأترنث» الذين يلعنون الشمس، وسكان الكهوف الذين يدفنون موتاهم تحت أوراق الشجر وهم يضحكون، «والأوانيان» القبيحو الصور الذين يتغذون بالجراد، «والأكريماشيد» الذين يأكلون القمل، و«الجيسانتنز» المصبوغون باللون الأحمر، أكلة القرود.

هؤلاء جميعاً اصطفوا على البحر بخط طويل مستقيم، ثم تقدموا كأنهم أعاصير رمال تدفعها الريح، واستقرت جموعهم وسط البرزخ، لأن البربر المعسكرين أمامهم لم يريدوا أن يفسحوا لهم في المجال بينهم.

ثم قدم من ناحية «الأريان» رجال المغرب الذين يؤلفون الشعوب النوميدية، لأن نارهافاس لم يكن مسيطراً إلاّ على الماسيليين، فضلاً عن أن عادات هذه الشعوب تجيز لها التخلي عن ملوكها إذا أصابتهم هزيمة، وجميع هؤلاء بدأوا يحتشدون على ضفاف نهر الزان ثم عبروه حين بدأ جيش هاميلكار يتحرك، وأول من تقدم منهم فرسان «ماتوت بعل» و«جرافوس» المرتدون جلود الأسود، وهم يقودون بقوائم رماحهم

أفراساً هزيلة ذات نواص طويلة، وتلاهم «الجتول» ودروعهم من جلود الأفاعي، ثم «الفاروزيون» وعلى رؤوسهم تيجان من الشمع وصمغ الراتنج، ثم «الفون» و«الماكار» و«التيلابار» وكل منهم يحمل حربتين وخوذة مستديرة من جلد جاموس البحر.

تجمعوا كلهم عند مغاور القبور في أوائل المستنقعات.

ولمّا تحوّل الليبيون عن أماكنهم ظهرت جموع الزنوج كغيوم تزحف على سطح الأرض، فمنهم من جاء من هاروش البيضاء ومن هاروش السوداء، ومنهم من أقبل من صحراء «أوجيل» أو بلاد «أغازنيما» الواسعة الأرجاء التي تبعد عن «جارامانت» مسيرة أربعة أشهر بل ومن بلاد أكثر بعداً. وعلى الرغم مما كانوا يتحلون به من الجلود الحمر فإن طبقات القذارة العالقة بجلودهم السود جعلتهم أشبه بثمار التوت السود التي مرغت طويلاً بالتراب، وكانوا يلبسون سراويل من خيوط قشر الشجر وجلابيب من الأعشاب المجففة، وعلى رؤوسهم أخطام لحيوانات ضارية، وهم يعدون كالذباب ويحركون بأيديهم قصبات معلقة بها الخواتم، أو يرفعون أذيال بقر على رؤوس عصي، هي راياتهم في حروبهم، ووراء النوميديين يزدحم المغاربة والجيتوليون الصفر الوجوه، المنتشرون وراء تاجير في غابات الأرز، وكناناتهم المصنوعة من وبر القطط تلاطم أكتافهم، وهم يجرون بالأزمة كلاباً لا تنبح ضخمة بعلو الحمير.

مع ذلك كله بدا أن بلاد إفريقية لم تفرغ بهذا ما بجوفها إلى حد الكفاية، بل دعت الحال إلى مزيد من الهياج والحنق، فتلاقت هناك أحقر الأجناس من رجال عليها ملامح الغباء والبهائم تقهقه كقهقهة المأخوذين الممسوسين، من بؤساء قد برحت بهم الأدواء الوبيلة، أو أقزام مشوهون، أو خلاسيون خناث، أو خلس برص تعشى عيونهم من الشمس، وكلهم يتأتى بألفاظ لأنفسهم، ويضع أصبعه في فمه ليدل على جوعه.

لم يكن خليط الأسلحة يقل عن خليط الملابس والأجناس، فلم يكن

هناك اختراع مما اخترعه الموت غير موجود لديهم: من الخناجر الخشبية، والفؤوس الحجرية، إلى السيوف الطويلة المسننة كأسنان المنشار، رقيقة الشعار ذات نصال نحاسية قابلة للالتواء، إلى سكاكين طويلة متفرعة الرؤوس شبيهة بأرجل بقر الوحش، ومناجل معلقة بأطراف حبال، ومثلثات حديدية وهراوات مدملكة، ومثاقب. وكان الأيتوبيون القادمون من «بنبوطي» يخبئون تحت شعورهم سهاماً مسمومة، وحمل بعضهم أكياساً مليئة بالحصى، وكان بعضهم أعزل من السلاح يصرف بأسنانه.

كان هناك اضطراب كاضطراب موج البحر يدفع هذه الجموع: فجمال محملة بالزفت تدفع إلى الأرض نساء يحملن أطفالهن ومؤناً معبأة في قفاف تنقلب على الرمال، والسائرون يسحقون تحت أرجلهم شذرات الملح ولفائف الصمغ والبلح الفاسد والجوز، ويرى الناظر على صدور، مليئة بالقمل والصئبان، شريطاً علق فيه بعض حجارة من الماس حملها السترابيون، وهي نفيسة متناهية في الكبر، يكفي ثمنها لشراء مملكة من الممالك.

لم يكن أحد من هؤلاء يدري ما الذي يريده، ولعل المدينة والفضول كانا يدفعانهم، ورأى رجل منهم الأسوار فارتعد خوفاً، لأنه لم يكن قط رأى مدينة مسوّرة.

أصبح البرزخ الآن مغطى بالرجال، وامتد هذا الفضاء الطويل، الذي بدت فيه الخيام كأكواخ وسط ماء طاغ، تمتد حتى خطوط البربر الأولى التي كانت تعج بالسلاح وتنتشر بنظام على جانبي قناة المياه.

كان القرطاجيون لا يزالون يرتعدون خوفاً من قدوم البربر، وإذا بهم يرون أيضاً مسوخاً ومباني تتجه نحو الأسوار هي أدوات الحصار المرسلة للبربر من المدن الصورية بصواريها وأذرعتها وحبالها ومحركاتها وتيجانها وهياكلها، وتعدادها ستون مركبة للمناجيق، وثمانون حماراً وحشياً من حديد، وثلاثون عقربة من نحاس، وخمسون قاذفة، واثنا عشر

كبشاً، وثلاثة منجنيقات عظام تدفع إلى بعيد جلامد صخور، زنة الواحد منها خمسة عشر «تالنت». والرجال أزواجاً وزرافات يدفعونها متمسكين بقواعدها، وهم يهتزون في كل خطوة ليصلوا بها أمام الأسوار.

كان لا بد مع كل ذلك من مرور أيام لإنجاز أعمال الحصار، لأن هزائم البربر السابقة علمتهم ألا يتعرضوا لمخاطرات هجمات سابقة لأوانها، لا تجدي ولا تنفع. وكذلك كانت الحال عند القرطاجيين، فلا هم ولا البربر راغبون في التعجيل ليقينهم من أن اشتباكاً هائلاً لا بد أن يقع، فتكون نتيجته نصراً حاسماً أو محقاً كاملاً شاملاً.

بدا أنَّ في استطاعة قرطاجة أن تصمد وتثبت طويلاً، لأن أسوارها العريضة، ذات الزوايا المتشابكة الداخلة الخارجة، كانت متينة معدّة لصد الهجمات، ولكن جزءاً منها كان قد تداعى من جهة حفر القبور، وهكذا فإن الأنوار كانت تظهر في مواخير مالكا في الليالي المظلمة من خلال الجدران المتشققة، وتلك المواخير كانت تعلو على الأسوار في بعض المواضع، وهناك تسكن مع أزواجهن الجدد نساء البربر اللائي طردهن ماتو، فصبت قلوبهن إلى أزواجهن الأوائل عند رؤيتهن لهم، فكن يلوحن لهم من بعيد بشالاتهن، ثم يجئن في الظلام فيتحدثن إليهم من شقوق الجدران، وأخيراً وصل إلى المجلس الكبير أنهن كلّهن قد هربن، مارّات بين الشقوق أو متدليات على الحبال عن الأسوار.

قرّ رأي سبنديوس على تنفيذ خطة طالما فكر بها.

كان بعده عن قرطاجة حال بينه وبين القيام بها، فلمّا عاد إلى المدينة خيل إليه أن أهلها متنبهون إلى خطته، ولكنهم ما لبثوا أن خفضوا عدد حراس قناة المياه لعجزهم عن الدفاع عن الأسوار الخارجية لقلة الرجال.

أخذ سبنديوس يتمرن أياماً على رمي طيور البحر بالسهام، وفي ذات ليلة قمراء طلب من ماتو أن يشعل في نصف الليل أكداساً من القش، وأن يوعز إلى جنوده بإرسال الصيحات عند اشتعال النار، ثم اصطحب زركساس ومشى سائراً على شاطئ الخليج باتجاه تونس.

عند وصولهما إلى جانب القناطر الأخيرة تحوّلا نحو قناة المياه، ولمّا كان المكان مكشوفاً أخذا يزحفان حتى قواعد الدعامات، والحراس على المصطبة يمشون جيئة وذهاباً مطمئنين.

ظهر لهب اشتعال النيران، ونفخ في الأبواق، فظن جنود الاحتياط أن هنالك هجوماً، فاتجهوا مسرعين نحو قرطاجة، وظل فوق القناة رجل واحد يبدو أسود في خلفية السماء والقمر وراءه يعكس ظله المحدود إلى السهل فيبدو من بعيد كأنه مسلة تمشي.

انتظرا حتى رأيا الحارس في موقف ملائم، فأخذ زركساس مقلاعه، فأوقفه سبنديوس لحيطته أو لقسوته وقال له: «لا.. إن رنين القذيفة يحدث ضجة! دعني أتولى أمره!».

تناول قوسه فوتره بجميع قواه بوضع أسفله على إبهام قدمه اليسرى ثم صوب وسدد، وانطلق السهم، فلم يسقط الحارس بل اختفى بكليته.

قال سبنديوس : «لو كان جريحاً لسمعنا أنينه». ثم أخذ يتسلق الجدار من طابق إلى أعلى كما فعل في المرة الأولى، مستعيناً بحبل وخطّاف حتى وصل إلى المصطبة، فدلى الحبل وربط به الباليار رمحاً ودقماقاً وعاد إلى المعسكر.

سكت النافخون بالأبواق وعمّ السكون، فرفع سبنديوس بلاطة وغاص في الماء ثم رد البلاطة إلى محلها. وحسب طول المسافة بعدد خطواته فوصل بالضبط إلى المحل الذي كان قد لحظ فيه شقّاً معوجّاً، وأخذ يعمل ويعالج الشق ثلاث ساعات متوالية حتى مطلع الفجر، وهو يتنفس من خلال شقوق البلاط، والقلق يملكه والهلاك يرقبه، وأخيراً سمعت فرقعة وسقط حجر كبير كان يستند إلى الأقواس الداخلية، وإذا بشلال عظيم بل بنهر بأكمله يتساقط من السماء على السهل، لقد انفجرت القناة من وسطها فسالت مياهها، وفي ذلك انكسار قرطاجة وانتصار البربر.

اضطربت قرطاجة، وهرع أهلوها في لحظة إلى الأسوار وإلى سطوح المنازل والهياكل، وأخذ البربر يتدافعون ويصرخون ويرقصون، وقد

ملكتهم سورة الفرح، حول شلال الماء المتحدر ويبلون رؤوسهم بمائه. ولمحوا في أعلى القناة رجلاً يلبس جلباباً أسمر ممزقاً، وهو ينحني على حافة القناة، ويداه على وركيه وهو ينظر إلى أسفل كأنه معجب بعمله، ثم انتصب واقفاً وأخذ يحيل نظره في الأفق وكأنه يقول: «كل هذا أصبح الآن ملكاً لي!».

وارتفع تصفيق البربر، وأمّا القرطاجيون الذين تبيّنوا مدى كارثتهم فقد أرسلوا صيحات اليأس شبيهة بالعواء، وحينذاك أخذ سبنديوس يجري على المصطبة من بدايتها إلى نهايتها، ثم رفع ذراعه وهو ثمل بانتصاره كمثل قائد مركبة أحرز قصب السبق في الألعاب الأولمپية.

13
التضحية الكبرى

لم يكن البربر في الواقع بحاجة إلى خندق حصار يحفرونه في جهة إفريقية لأنها كانت ملكاً لهم، ولكنهم تسهيلاً للاقتراب من الأسوار هدموا الحواجز التي كانت تحيط بحوافي الخندق، وقسّم ماتو جيشه إلى أقسام بشكل أنصاف دوائر ليتمكن من تطويق قرطاجة بشكل أشمل وأكمل، فوضع رجال المشاة الثقيلة في الخط الأول، وخلفهم حملة المقاليع والفرسان، وفي الأقصى الأمتعة والمركبات والخيل، وعلى بعد ثلاثمائة قدم من الأبراج وخلف هذه الجموع رفعت أدوات الحصار. ونظراً إلى تغير أسماء هذه الأدوات باختلاف العصور يمكن حصرها في نوعين تبعاً لطريقة استعمالها: فبعضها يعمل عمل المقاليع، والبعض الآخر عمل الأقواس. فأما النوع الأول، وهو من المنجنيقات، فيتكوّن الواحد منها من إطار مربع له قائمتان عموديتان وقصبة أفقية، وفي الجزء المقدم أسطوانة ذات حبال ثخينة تمسك بمقبض دفة كبيرة ذات يد تستقبل القذائف، والقاعدة ملفوفة بكبّة من خيطان مفتولة، فإذا أُرخيت الحبال ارتفعت وأخذت تلطم القصبة التي تصدمها باهتزازها فتضاعف قوتها.

أمّا الأنواع الثانية فكانت معقّدة التركيب في آلاتها، فعلى عمود صغير عارضة خشبية مثبتة فيه من وسطها، تتصل بزاوية مستقيمة بما يشبه القناة، وعلى طرفي العارضة يرتفع تاجان محتويان على لفات من شعر الخيل، أثبت فيها رافدتان (كمرتان) ممسكتان بطرفي حبل مسحوب إلى أسفل القناة على لوح من البرونز. وبوساطة زنبرك (نابض) يدفعه يفلت هذا اللوح ليزحف على خطوط فيدفع السهام.

كان يطلق أيضاً على المنجنيقات اسم حمير الوحش، يشبهها بهذه الحيوانات التي تقذف الحجارة بقائمتيها الخلفيتين، أو اسم العقارب لوجود كلاّب مثبت باللوح المعدني، إذا دفع إلى الأسفل حرك النابض وأطلقه.

وكان صنع هذه الآلات وتركيبها يتطلب علماً بالحساب الدقيق فأخشابها يجب أن تختار من الأنواع الأشد صلابة، وتروسها كلها من النحاس، وأربطتها من الأمخال والعتلات والعيارات المخمسة (موفل) والرحويات، وكانت لها محوّرات تغيّر من اتجاه رمياتها، وأسطوانات دائرية ضخمة تدفعها إلى الأمام، وهم يجيئون بها قطعة قطعة ويركبونها على مرأى من العدو.

وجه سبنديوس المناجيق الثلاثة الضخمة جهة الزوايا الثلاث الأكثر أهمية، ووضع كبش حصار أمام كل باب، وعقربة أمام كل برج، ووراء هذه الآلات مركبات حملها ونقلها. وكان لا بد له أن يؤمن، قبل كل شيء، حمايتها من نيران المحاصَرين وأن يردم الخندق الفاصل بينها وبين الأسوار. فمدوا أروقة من أعواد الخيزران الأخضر وأقواساً من شجر السنديان، على شكل خوذ كبيرة تسير على ثلاث عجلات، ورفعوا أكواخاً صغيرة مغطاة بالجلود الطرية ومحشوّة بمقذوفات البحر من النبات لتقي العمال، وغطوا المنجنيقات على أنواعها بستور مصنوعة من الحبال المحبوكة التي نقعوها بالخل لتصير غير قابلة للالتهاب، وكانت النساء والأولاد يذهبون إلى شاطئ البحر فيحملون الحصى أو يجمعون التراب بأكفهم ويجيئون به إلى الجنود.

في هذه الأثناء كان القرطاجيون هم أيضاً بالمقابل يستعدون.

بعث القائد هاميلكار الطمأنينة إلى نفوسهم إذ أكد لهم أن في الآبار مياهاً تفي بحاجاتهم مدة مائة وثلاثة وعشرين يوماً، فأعاد هذا التأكيد، ولا سيما استرداد الحجاب، الأمل إلى نفوسهم، وأفاقت قرطاجة من غيبوبة الوهن والضيق، وسرت عدوى النشاط حتى إلى من لم يكونوا من أصل كنعاني.

سلّح هاميلكار العبيد، وأخلى دور الصناعات، وأوكل بكل مواطن عملاً أو وظيفة، وكان لا يزال على قيد الحياة ألف ومائتا رجل من الفارين من معسكر البربر، فرقّاهم هاميلكار إلى رتب ضباط، وعهد بالآلات إلى

النجارين وصناع الأسلحة والحدادين والصياغ. وكان القرطاجيون قد احتفظوا، رغم شروط صلحهم مع الرومان، ببعض هذه الآلات فقاموا بإصلاحها لحذقهم في أمثال هذه الأعمال.

كان البحر والخليج يحميان الجهتين الشمالية والشرقية لاستحالة الهجوم منهما، فصرفوا عنايتهم إلى الأسوار المواجهة للبربر، فحملوا إليها جذوع الأشجار وأرحاء المطاحن والآنية الملأى بالكبريت والطشوت المليئة بالزيت، وبنوا الأفران، وكدسوا الحجارة على المصاطب، وملأوا البيوت التي تلاصق الأسوار بالرمال لتدعيمها وزيادة ثخانتها.

ولمّا كان البربر يرون هذه الأعمال والاستعدادات تثور ثائرتهم ويلحون بالإسراع في الهجوم، ولكنّ الأثقال التي وضعوها في المنجنيقات كانت فوق حد احتمالها، فتحطّمت مجراتها ودخانها الأمر الذي أخّر الهجوم.

أخيراً، وفي اليوم الثالث عشر من شهر شابار، وعند شروق الشمس، سمعت ضربات هائلة على باب خامون، فإن خمسة وسبعين جندياً كانوا يشدون حبالاً لفت على قاعدة جسر جبار (عارضة) علّق أفقيّاً بسلاسل تنحدر من ذراع المرفاع، وأثبت في طرفه رأس كبش من النحاس، مغطى بجلود البقر، وبالحلقات الحديدية تربطه وتشده هنا وهناك. وكان هذا الجسر (العارضة) أضخم من جسم الرجل ثلاث مرات، وطوله مائة وعشرون ذراعاً، وهو يتذبذب بنظام باندفاعه وانسحابه تحت عشرات من الأذرعة العارية تدفعه ثم تشده مداولة مداولة.

تحركت الأكباش أمام الأبواب الأخرى، وبرز في دواليب الطنابير المجوفة رجال يصعدون السلالم درجة فدرجة، وصرّت البكرات والتيجان ورفعت ستور الحبال، واندفعت رميات الحجارة، والسهام تنصب كالبرد، وأقبل حملة المقاليع، المنتشرون هنا وهناك، فاقترب بعضهم من الأسوار، وهم يخبئون وراء خوذهم أواني مليئة بصموغ الصنوبر القلفونية، ثم يلقون بها بما أوتوه من قوة. وكان هذا السيل من

القذائف والسهام والنيران يمر فوق رجال الصف الأول بخط معوج ثم يسقط وراء الأسوار، وإذا بمرافيع (ونشات)، من ناصيات صواري المراكب، ترتفع على أعلى الأسوار، وتنحدر منها كلاليب هائلة تنتهي بنصفي دائرتين ذات أسنان من داخلها، فتعض على الأكباش بفكيها، وتعلق البربر بالجسر يشدونه إلى الوراء، وأخذ القرطاجيون يلهثون وهم يحاولون رفعه إليهم. ودام الشدّ والرفع حتى المساء.

عندما استأنف البربر عملهم في الصباح الباكر كانت أعالي الأسوار مكسوة كلها بأكياس القطن والأقمشة والمساند، وفتحات المرامي والمتاريس مسدودة بالحصر، وعلى الحصن، وإلى جانب المرافيع، أكداس من عصي مدملكة ومن أوضام جزارين رُكّبت بها قبضات، وبدأ الدفاع شديداً، فكانت جذوع الأشجار المربوطة بالحبال الضخمة تتدلى وترتفع مرة بعد مرة، منهالة ضرباً على الأكباش، والكلاليب المدفوعة بقوة المنجنيقات تنتزع سقوف الأكواخ، ومن مصاطب الأبراج ينحدر سيل من حجارة الصوان والحصى.

بعد جهدٍ كبير خلعت الأكباش بابي «خامون» و«تاجست»، ولكن مصراعيهما لم ينفتحا لأن القرطاجيين كانوا قد كدسوا وراءهما الكثير من المواد، فظل المصراعان جامدين، فعمد البربر إلى مثاقب عالجوا بها محلات التحام الحجارة ففكوها، وعملوا على إتقان إدارة الآلات، وعهدوا بها إلى شراذم تعمل مناوبة من الصباح إلى المساء، فأخذت تعمل بدون انقطاع، على نغم واحد ممل كمثل مكوك الحائك. وسبنديوس لا يكل ولا يمل، فهو الذي يربط كبات المنجنيقات، وهو الذي يهيمن على شد الحبال ليكون هناك تناسق في الضغط المزدوج الذي يستدل عليه من تشابه أصوات صرير الحبال، وكان يصغي إلى هذا الصوت كأنه موسيقي ينظم أوتار عوده، فإذا ارتفع مجرالمنجيق، واهتز عمود الكبش باهتزاز زنبركاته، أو انقذفت الحجارة بنصف قطر دائرتها، أو سالت السهام كالجداول، كان سبنديوس ينحني بكليته، ويرفع ذراعيه إلى الهواء كأنه

يريد أن يلحق بها.

كان الجنود المعجبون بإدارته ومهارته ينفذون أوامره، ويؤدون أعمالهم عن طيب خاطر، وهم يحرصون على إطلاق الألقاب على آلاتهم، فالكلاليب الممسكة بالأكباش يسمونها «الذئاب»، والأروقة المسقوفة «أعراش دوالي العنب»، أو يلهون بتسمية أنفسهم «حملاناً» أو بأنهم «سائرون إلى الحصاد»، أو بمخاطبة آلاتهم بمثل قولهم «يا حمار الوحش ارفس جيداً، ويا أيتها العقارب انفذي إلى قلوبهم»، وهذه الملح والنكات المكررة كانت تعضد شجاعتهم.

مع كل ذلك لم تكن الآلات لتهدم الأسوار، فهي مزدوجة الجدران ومليئة بالتراب، وإذا هدمت جزءاً من قممها أسرع القرطاجيون إلى ترميمه. فأمر ماتو بأن تُبنى أبراج من خشب بارتفاع علو الأسوار، وألقوا في الخندق الأعشاب والأوتاد والحصى والرمال ومركبات النقل بدواليبها حتى يتوصلوا إلى ردمه بأسرع وقت، وقبل أن يمتلئ تماماً تحرك جمع البربر في السهل كالأمواج، وبوثبة واحدة على قواعد الأسوار، كبحر طغى فغمر.

جرّوا سلالم الحبال والسلالم المستقيمة والسنابك، وأعني بها صاريتين ينحدر منهما، بآلات رافعة، مجموعة من الغاب الهندي تنتهي إلى جسر متحرك، وهكذا يمتد منها خطوط كثيرة مستقيمة تلتصق بالأسوار، فأخذ البربر يصعدون عليها الواحد تلو الآخر وأسلحتهم بأيديهم، ولم يظهر على الأسوار أحد من القرطاجيين، ووصل البربر إلى ثلثي الحصن، وإذا بفوهات المتاريس تنفتح كأشداق الحيتان وتتقيأ عليهم نيراناً ودخاناً، والرمال تنتشر فتدخل في ثنايا مسكات الأسلحة ولحاماتها، والبترول يعلق بالثياب، والرصاص السائل يقفز على الخوذ فيحدث نقراً في اللحم، ورذاذ الشرر يلطخ الوجوه، وتبدو محاجر بلا عيون كأنها تفيض بدموع بأحجام ثمرات اللوز، ورجال غطّى الزيت وجوههم بلون الصفرة تحترق شعور رؤوسهم فيجرون فتتصل نيرانهم

بغيرهم، فكان رفقاؤهم يطفئونهم بأن يرموا عليهم من بعيد أردية مبلّلة بالماء، وبعض الذين سلموا من الجراح يقفون جامدين أشد تصلّباً من الأوتاد، مشدوهين وأذرعتهم متقلصة مرتخية.

واستمر الهجوم أياماً متوالية، لأن المرتزقة كانوا يأملون بالظفر ببذل المزيد من شدة القوة والجرأة.

وكان يحدث في بعض الأحيان أن يعتلي رجل كتفي آخر فيدق وتداً بين الحجارة فيستخدمه كمرقاة يرقى بها ويتدرج عليها إلى الأعلى، ومن وتد ثانٍ إلى ثالث، ويتبعه غيره محتمين بحوافي فتحات المتاريس الناتئة. ولكنهم كانوا كلهم يسقطون بعد بلوغهم غاية من الارتفاع. وكان الخندق قد امتلأ حتى فاض بالرجال، فكان الجرحى يتكوّمون، مع الموتى المحتضرين، تحت أقدام الأحياء، وأعالي الهياكل البشرية المحترقة تبدو نقطاً سوداء بين الأحشاء المندلقة، والأمخاخ المبعثرة، والدماء المتفجرة بركاً على الأرض، وهناك أذرعة وأرجل خرجت أنصافها من كومة، تقف منتصبة كأنها أعواد (مماسك) دوال في كرم محترق.

ولمّا احتاجوا إلى مزيد من السلالم لجأوا إلى جسر كبير أثبتوا عليه بالعرض رافدة تحمل في طرفها سلة كبيرة مربعة الزوايا تتسع لثلاثين رجلاً مع أسلحتهم. وأراد «ماتو» أن يكون أول الصاعدين فمنعه سبنديوس.

مال رجال على هذه الآلة الرافعة للأثقال التي أسموها «تولينون»، فارتفع الجسر الكبير وأصبح أفقياً، ثم أوشك أن ينتصب عموديّاً، وأخذ يلتوي من الوسط كأنه قصبة لكثرة ما حمل عليه من الرجال، وهؤلاء غائرون فيه حتى ذقونهم لا يبين منهم إلاّ الريش والخوذ، ولما ارتفع إلى علو خمسين ذراعاً دار ذات اليمين وذات اليسار ثم انحنى ووضع سلة الرجال على حافة السور، كأنه ذراع جبار يحمل في يده شرذمة من الأقزام، وقفز الرجال على الأسوار بين الجموع، ولكنهم لم يعودوا أبداً.

ثم إنهم نصبوا آلات أخرى من مثل هذه الرافعة، ولكنهم رأوا أن لا بد

من مئات غيرها ليمكنهم الاستيلاء على المدينة، فاكتفوا بأن يستخدموها للتقتيل، فرفعوا عليها نبالة «آيتوبيين» استقروا في السلال وربطوا الآلة بالحبال، فظل الجند بها معلقين وأخذوا يرمون المحاصَرين بنبالهم المسمومة، وكانت الخمسون آلة التي رفعوها تحيط بقرطاجة وتتسلط على المتاريس وكأنها عقبان ممسوخة، فكان حرس الحصون يتساقطون قتلى وهم يتشنجون لآلامهم الفظيعة، والزنوج الآيتوبيون يضحكون فرحين.

دفع هاميلكار برجال المشاة المدرعين إلى الأسوار، وكان يسقيهم كل صباح عصيراً من بعض الأعشاب تقيهم شر السموم.

وفي ليلة من الليالي وتحت جنح الظلام الدامس حمل خيرة رجال جيشه على زوارق كبيرة وعلى أطواف خشبية، فدار عن يمين المرفإ ونزل برجاله عند «ثونيا»، ثم تقدم على رأسهم إلى أول خطوط البربر وهجم عليهم جانبياً فأوقع فيهم مذبحة كبيرة. وكان يدلّي في الليل رجالاً على الحبال وفي أيديهم المشاعل فيحرقون منشآت البربر ثم يرجعون.

ظل «ماتو» متمسكاً بعزمه وتصميمه تمسك الوحش المفترس بفريسته، فكل مانع يثير غضبه ما يدفعه إلى القيام بأشياء مخيفة غريبة بعيدة عن الصواب: دعا مرة سلامبو بفكره إلى موعد حدده وأخذ يرقب حضورها فلم تحضر، فبدا له أن في تخلفها خيانة جديدة، فأصبح يمقتها أشد المقت، ولو أنه رأى جثتها لكان يمكن أن يرفع الحصار. وضاعف عدد الطلائع، وغرز أوتاداً قوية في أسفل الحصون، وطمر فخاخاً في الأرض، وأمر الليبيين أن يأتوه بغابة من الشجر ليحرق بها قرطاجة كما تُحرق أوجرة الثعالب.

كان سبنديوس مصرّاً كل الإصرار على متابعة الحصار، وهو يفكر في ابتكار آلات جديدة هائلة لم يسبق لأحد أن صنع مثلها.

أمّا البربر الآخرون المخيمون بعيداً في الجهة الثانية من الخليج فكانوا يستنكرون هذا التباطؤ ويتذمّرون، فأطلقوا سراحهم، فهجموا وبأيديهم

مداهم الطويلة وحرابهم يقرعون بها الأبواب، ولكن عري أجسامهم كان يسهل إثخانهم بالجراح، فأوقع فيهم القرطاجيون مذبحة عظيمة سُرّ لها البربر لحسدهم إياهم على السلب والنهب، فأفضى ذلك إلى المشاجرات بل إلى التقاتل بينهم. وعم الخراب بلاد الريف فأخذوا يتخاطفون الأقوات، ووهنت شجاعتهم، فرحل منهم قوم كثيرون ولم يلحظ رحيلهم لكثرة ما كان هناك من الجموع والحشود.

وخطر لأكثرهم شجاعة وحيلة أن يبثوا الألغام ولكن الأرض كانت رخوة فانهارت، فجددوا محاولتهم في أماكن أخرى، ولكن هاميلكار كان يتبيّن مواقع اتجاهها بوضع ترس برونزي على أذنه، فأخذ هو أيضاً يبث ألغاماً تحت الطرق التي كانت أبراج الخشب مزمعة أن تسلكها، فتغوص الأبراج في الممرات كلما حاولوا دفعها.

أخيراً اقتنع الجميع باستحالة فتح المدينة إلاّ إذا رفعوا بحذاء أعلى الأسوار مصطبة طويلة تمكّنهم من قتال القرطاجيين وهم على مستوى واحد، فيفرشون أعلاها بالبلاط لكي يمكنهم جر الآلات عليها، وعند ذاك يستحيل على قرطاجة أن تصمد لهم وتثبت أمامهم.

بدأت قرطاجة شيئاً فشيئاً تشكو من العطش، فأصبح الماء الذي كان يساوي الحمل منه في أول الحصار اثنين «كينريتا» يباع الآن بـ«سكيل» من الفضة، وأخذت مؤن اللحم والقمح تنفد أيضاً، فخافوا الجوع، وأخذ البعض يهمسون بأن هناك من لا فائدة منه بين الآكلين، ما بعث الرعب في قلوب جميع الناس. ومن ميدان خامون إلى معبد مالكاريت جثث تضيق بها الشوارع، والوقت آخر الصيف، فأخذ الذباب الكبير الأسود يزعج المقاتلين، والشيوخ ينقلون الجرحى، والمتعبدون يقومون بمراسيم جنازات صورية لأقرباء وأصدقاء ماتوا في أثناء الحرب من زمن بعيد، وتماثيل من الشمع والشعور والملابس تنشر أمام الأبواب فتذوب هذه التماثيل بحرارة الشموع الموقدة إلى جانبها، وعلى أكتافهم يسيل الصباغ المختلف الألوان، وعلى وجوه الأحياء تسيل الدموع وهم يرتلون على

وتيرة واحدة أنغامهم الدينية المكربة. وفي الوقت ذاته تجري الجماهير في الشوارع، وتمر عصابات مسلحة وضباط يلقون الأوامر، وأصوات صدمات الأكباش على الأسوار تُسمع دائمة دائبة دون هوادة.

وبلغ الجو من الرطوبة حداً كانت تنتفخ معه الأجسام حتى لا تعود التوابيت تتسع لها، فكانوا يحرقون الجثث وسط الأحواش.

اتسع مجال النيران المضطرمة فأصبح الحريق يصل إلى جدران المنازل المجاورة، فيرتفع اللهب في البيت ويتفجر تفجر الدم من الشرايين، وهكذا كان «مولوخ» يسود قرطاجة فيشد على الأسوار ويتدحرج في الشوارع ويلتهم كل شيء حتى جثث الأموات.

وفي زوايا تقاطع الطرقات استقر رجال يلبسون، ليدلّلوا على يأسهم، أطماراً التقطوها بين المهملات، وأخذوا ينحون باللائمة على القدماء وعلى هاميلكار، ويتنبأون للشعب بقرب دمار شامل كامل، ويحثون على التخريب وعلى استباحة كل شيء. وكان أخطرهم شاربو منقوع حشيشة الدجاج المخدرة، فإذا ما ملكهم البحران شبُّه لهم أنهم وحوش ضوار، فأخذوا يرتمون على المارة ويمزقونهم تمزيقاً، ويتجمع الناس حولهم زرافات وينسون الدفاع عن قرطاجة. فبدا للزعيم القائد أن يشتري رجالاً يقفون إلى جانبه ليؤيدوا سياسته.

فكّروا في أن يحتفظوا في المدينة بعبقرية الآلهة، فغطوا أنصابهم بالسلاسل الحديدية، ووضعوا ستوراً سوداً على تماثيل الإلهة «باتوك»، ومسوحاً حول المذابح، وأخذوا يبعثون الكبرياء والغيرة إلى أنفس البعول كأن يهمسوا في آذانهم قولهم: «أتترك نفسك تهزم! إن الآلهة الآخرين أقوى منك! أرنا قوتك! ساعدنا! لئلا تقول الشعوب الأخرى أين هي آلهتهم الآن».

واستولى القلق الدائم على أحبار الكهنة، ولا سيما أحبار الإلهة تانيت، لأن عودة الحجاب إلى مكانه لم تجدِ نفعاً، فقبعوا يحبسون أنفسهم في حظيرة المعبد الثالثة المحصنة كقلعة من القلاع، على أن واحداً منهم كان

يجازف في الخروج وهو الكاهن الأكبر شاهبريم.

كان هذا يتردد على سلامبو، ولكنه كان يظل صامتاً ساكتاً، يتأمل بها، بؤبؤا عينيه محدقان ومصوبان، أو يسترسل إلى الثرثرة ويشتد في تأنيبها بما لم يسبق له مثيل من قبل.

إنه لا يغتفر للفتاة ما عملته إطاعة لأمره، فيناقض نفسه بنفسه، وهو قد دبّر كل شيء فأصبحت هذه الفكرة الملحة الملازمة تذكي الغيرة التي يبعثها فيه ضياع رجولته، فكان يتهمها بأنها هي التي سببت الحرب، ويزعم أن ماتو إنما يحاصر قرطاجة ليسترد الحجاب، ثم ينزل اللعنات على هذا البربري ويتناوله بالتعريض والتلميح لما يدعيه من حيازة أشياء مقدسة. ولم يكن هذا ما يريد أن يقوله شاهبريم...

والحقيقة أن سلامبو لم تعد الآن تحس برعب من الكاهن، فقد زال عنها القلق والاضطراب اللذان كانت تحسهما من قبل، واستولت عليها سكينة غريبة، وأصبحت نظراتها ثابتة، بل تلمع ببريق صاف.

وعاد إلى الثعبان مرضه، واعتقدت طناش - وقد رأت سيدتها تستعيد عافيتها - بأن الثعبان قد انتزع منها لنفسه الذبول - ففرحت فرحاً شديداً.

لمحته ذات صباح ملتفّاً وراء السرير المصنوع من جلد البقر،وهو أشد برودة من الرخام، ورأسه مخفيّ تحت كومة من زجاج، فصرخت، فأقبلت سلامبو وأخذت تقلّبه بطرف خفها، فدهشت الجارية لما رأته من جمود عواطف سيدتها.

لم تعد ابنة هاميلكار تطيل صيامها بورع وحرارة كما كانت تفعل دائماً، فهي تقضي أكثر أيامها في أعلى شرفتها على السطح مستندة بمرفقيها إلى الحافة، متسلية بالنظر إلى ما يبدو أمامها: فهذه قمم الأسوار الواقعة في طرف المدينة ترسم على صفحات السماء خطوطاً متقطعة غير متساوية، ورماح الحراس كسنابل القمح تنبت على طول حوافيها. وهي ترى من حيث هي، ومن وراء الأسوار، مناورات البربر، وفي الأيام التي تبدأ فيها المناوشات، تتبيّن ما يقومون به من أعمال: فهم يصلحون

أسلحتهم، ويدهنون بالشحم شعورهم، أو يغسلون في البحر أذرعتهم الدامية. والخيام مقفلة والبهائم تأكل علفها، وهناك بعيداً تبدو مناجل المركبات، المصفوفة بشكل نصف دائرة، كسيف فضي عريض النصل ملقى على سفوح الجبال. وهي تستعيد أقوال شاهبريم وتنتظر إياب خطيبها نارهافاس، وتود أن تعود فترى ماتو رغم بغضها إياه، فهي وحدها، دون سائر القرطاجيين، التي خاطبته بلا خوف ولا جزع.

وكثيراً ما كان يدخل والدها إلى مخدعها فيرتمي، وهو يلهث تعباً، على الوسائد ويرسل إليها نظرات يكاد الحنان يتجلى فيها، وكأنه يجد في رؤيتها راحة بعد تعب، ويسألها بعض الأحيان عن حديث سفرها إلى معسكر البربر، وهل من رجل ما دفعها إلى ذلك، فتجيبه سلباً بإشارة من رأسها، وهي معجبة بنفسها لأنها أنقذت الحجاب.

لكن القائد الزعيم كان يعود دائماً إلى ذكر ماتو مدعياً بأن أسئلته هي استعلامات حربية، لأنه كان مشوقاً إلى معرفة ما جرى في الخيمة مدة الساعات التي أمضتها فيها. وهي لم تحدثه بحديث جيسكون لأنها تعتقد أن للكلام نفسه قوة ذات أثر، وأن تكرار كلمات اللعنة لشخص ما قد تجر اللعنة على الشخص الذي يسمعها، كما أنها كتمت أمر الخاطر الذي حفزها على قتل ماتو، خشية أن تلام على إحجامها عن إجابة داعي ذلك الخاطر. فهي إذاً تجتزئ على الرد بأن القائد العام للبربر كان يبدو هائجاً، وأنه أكثر من الصياح ثم نام، ولم تزد على ذلك إمّا لخجلها من نفسها، وإما لشدة عفافها الذي جعلها لا تعلّق اليوم أقل أهمية على قبلات الجندي، فضلاً عن أن جميع هذه الذكريات كانت تطفو في رأسها كئيبة مغطاة بضباب كذكرى حلم مزعج، ولم يكن باستطاعتها أن تجد الكلمات للتعبير عنها على كل حال.

وذات يوم بينما كانا جالسين، دخلت عليهما طناش مرتعدة وأنبأتهما أن في الحوش شيخاً، معه غلام، يريد أن يقابل القائد، فامتقع لون هاميلكار وقال «ليصعد».

دخل أدهربعل دون أن يجثو، وهو ممسك بيد غلام يلبس معطفاً من وبر الماعز، فرفع الشيخ طرطور المعطف وقال: «هذا هو يا سيدي، فخذه»!

اختلى القائد بالشيخ في ناحية من المكان، وظل الغلام واقفاً وسط الغرفة وهو يجيل نظرات المدقّق، لا المتعجب، في السقف وفي الرياش وعقود اللؤلؤ المنتشرة على وسائد الأرجوان، وفي هذه السيدة الشابة الممتلئة جلالاً المنعطفة إليه.

كان عمره عشر سنوات على وجه التقريب، وطوله لا يجاوز طول حربة رومانية، وشعره المجعد يظلل جبهة مسنمة، وإنسانا عينيه يبدوان كأنهما يبحثان عن آفاق جديدة، وقناتا أنفه الدقيق ينتفضان بشدة، وينبسط على كامل شخصه الإشراق الفائق عن الوصف الذي يشع من أولئك الذين خُلقوا لعظائم الأمور. ولما خلع معطفه الثقيل بدا تحته جلد فهد مربوط إلى قامته، وبدأ يشد على البلاط برجليه الصغيرتين الحافيتين المعفّرتين، ولا شك أنه شعر بأهمية ما كان يبحثه الرجلان فظل واقفاً جامداً، وإحدى يديه وراء ظهره، وذقنه محنية، وإحدى أصابعه في فمه.

أشار هاميلكار بيده إلى سلامبو فاقتربت منه فقال لها «ستحتفظين به عندك! هل تسمعين؟ يجب ألا يشك أحد بوجوده حتى ولا خدم القصر».
ولما بلغ أدهربعل عتبة الغرفة عاد هاميلكار فسأله: «أواثق أنت جيداً من أنه لم يره أحد؟». فقال العبد: «نعم، كانت الشوارع مقفرة».

كانت الحرب قد عمت جميع الأقاليم فخاف أدهربعل على ابن سيده، وحار في أمر اختيار مكان يخبئه فيه، فجاء به عابراً البحر على شواطئه على متن زورق، وظل ثلاثة أيام في الخليج يراقب الأسوار، حتى اتضح له في ذلك اليوم أن نواحي خامون مقفرة، فعبر المضيق ونزل إلى البر بالقرب من دار الأسلحة، لخلو المرفإ من الناس.

ولم يلبث البربر أن أقاموا أمام المرفإ طوفاً ليمنعوا القرطاجيين من الخروج، كما كانوا يعملون على رفع الأبراج الخشبية والمصطبة أمام الأسوار.

على هذا قطعت المواصلات مع الخارج، وبدأت مجاعة لا تطاق، فقتلوا الكلاب وجميع البغال والحمير، حتى الخمسة عشر فيلاً التي كان الزعيم قد جاء بها معه، وهاجت أسود معبد مولوخ ولم يعد مروضوها يجسرون على الاقتراب منها، فبدأوا بإطعامها جرحى البربر، ثم أخذوا يرمون إليها بالجثث فعافت أكلها ونفقت كلها. وكان أناس يخرجون بعد الأصيل هائمين يبحثون على طول خط التحصينات القديم عن الأعشاب والأزهار النابتة بين الحجارة فيلتقطونها ويقلونها مع الخمر، لأن الخمر كانت أرخص ثمناً من المياه، وغيرهم كانوا يتسللون حتى طلائع جيش العدو، وحتى خيامهم، ليسرقوا الأقوات، وصعق البربر لهذا وتركوهم يرجعون. وجاء أخيراً اليوم الذي عزم فيه القدماء على ذبح خيل أشمون واقتسام لحومها بينهم، وهذه الخيول مقدسة يقوم الأحبار بتمشيط نواصيها بأمشاط من ذهب، وهي ترمز بوجودها عن دورة الشمس، فقطعوا اللحوم قطعاً متساوية خبأوها وراء المذابح، ثم أخذوا يدلفون كل مساء، بداعي القيام بواجب العبادة، فيصعدون وراء المذبح ويأكلون حصصهم سراً، ويجيئون بقطع منها لأولادهم مخبأة تحت ثيابهم. وفي الأحياء المقفرة البعيدة عن الأسوار كان السكان أقل بؤساً، فأقاموا الحواجز على حيّهم ومنعوا الآخرين من دخوله، وتكدّست في الشوارع حجارة المنجنيقات وأنقاض المباني المتهدمة لضرورة الدفاع، وفي أهدإ ساعات النهار تعلو صيحات طبقات الشعب، إذ يرون في أعلى مرتفعات الأكروبول الحرائق تشتعل فتبدو كأنها أطمار ملابس من الأرجوان قد نُشرت على السطوح والهواء يجففها.

ومع قيام أعمال الحصار لم تتوقف المنجنيقات عن العمل، فاشتد ويلها وخطرها، وهكذا فإن رجلاً طارت رأسه لتصطدم بواجهة «السيسيت»، وأن امرأة كانت تلد في حي «كينسيدو» نزلت عليها كتلة من رخام فسحقتها وأطارت سرير المولود إلى حي «جيناسين» حيث وجدوا غطاءه.

وكان شر ما بليت به المدينة قذائف المقاليع، فقد كانت تتساقط على السطوح والحدائق والأحواش، والناس جالسون إلى كسرات من خبز، وصدورهم تصعّد الحسرات، وعلى قذائف هذه المقاليع نتوء محفورة تنفذ في الأجسام والجثث، تفيد كلمات جارحة مهينة كمثل: «خنزير، وابن آوى، ودودة» أو ألفاظ مزاح مثل «استلم!» أو «لقد كنت أستحق هذا».

أحدث البربر من بعد ثغرات في الحصن الممتد من زوايا الميناء إلى مواقع الآبار، فأصبح سكان حي «مالكا» محصورين بحصن «بيرسا» القديم من الخلف، وبالبربر من الأمام، وكان على القرطاجيين أن يعلوا الأسوار ويزيدوها سماكة، فلم يأبهوا لأولئك السكان بل تركوهم، فهلكوا جميعاً، فسرت في المدينة موجة مقت لـ«هاميلكار» ولو أن أهلها كانوا يكنون البغضاء لسكان ذلك الحي.

فتح هاميلكار في صباح ذلك اليوم صوامع الغلال، وأمر نظّاره بأن يوزعوها على الشعب، فأكلوا وأصابهم شبع مدة ثلاثة أيام.

لكنّ شدة العطش زادت وهم يرون أمامهم شلال ماء القناة ينحدر بمائه الصافي، وأشعة الشمس ترتمي عليه، فيتصاعد منه بخار خفيف يشكّل قوس سحاب، وعلى الأرض يسيل منه جدول ملتوٍ يجري حتى يرتمي في البحر.

كان هاميلكار يتوقع حدثاً ما ويقدّر وقوع أمر حاسم خارج عن حدود الطبيعة. وكان أمر عبيده فانتزعوا صفائح الفضة عن أبواب معبد مالكاريت، وسحبوا من الميناء أربعة مراكب كبيرة، بمرافيع ورحويات، وجروها إلى أسفل حي «مابال» وخرقوا السور المؤدي إلى الشاطئ وسافروا إلى بلاد «الغول» ليشتروا منها جنوداً مرتزقة مهما بلغ الثمن، ولكنه كان مكتئباً يائساً لعدم استطاعته الاتصال بملك النوميديين نارهافاس الذي لا يشك بأنه متربص وراء البربر، مستعد للانقضاض عليهم، ولكنه أضعف منهم فلن يجازف بالهجوم وحده.

أمر للتّو برفع الأسوار بعلو «اثنتي عشرة نخلة» وبتكديس جميع مواد دور الأسلحة في أعالي الأكروپول وبإعادة إصلاح أدوات الحصار. ولإصلاح تروس المنجنيقات كان لا بد من أطراف عضلات حيوانات تؤخذ عادة من رقاب البقر أو من عراقيب الوعول، وليس في قرطاجة هذا ولا ذاك، فطلب هاميلكار من القدماء أن يقدموا شعور نسائهم ففعلوا، ولكنها لم تكن كافية. وفي مباني (السيسيت) ألف ومائتا جارية مراهقة من اللائي يخصّصن كمومسات تباع في أسواق بلاد الإغريق وإيطاليا، وشعورهن التي أصبحت مرنة باستعمال الدهون والشحوم تصلح لآلات الحصار، ولكن الخسارة تبدو جسيمة، فاستقر الرأي على اختيار أجمل الشعور بين نساء طبقة الشعب، فأخذن يولولن يائسات حين جاء عبيد المائة القدماء يقصون شعورهن، ولم يبالين بحاجة الوطن الماسة إلى مثل هذه الشعور.

كان البربر من ناحيتهم منكبين على تشديد الحصار بهمة وحماسة، يستخرجون شحم الجثث ليزيتوا بها الآلات، وينتزعون منها أظفارها ويخيطونها إلى بعضها ليصنعوا منها دروعاً. ولجأوا إلى حيلة جديدة فأخذوا يضعون في المنجنيقات أواني مُلئت بالثعابين التي يجيئهم بها الزنوج، ثم كانوا يقذفون بها قرطاجة فتتكسر الأواني على البلاط وتخرج منها الحيات تسعى في كل مكان، فامتلأت منها المدينة وأخذت تزحف بين الحيطان. وزاد البربر فألقوا جميع أنواع القاذورات وبراز الآدميين والجثث والفضلات المتعفنة، فعاد الطاعون فظهر، وأصبحت أسنان القرطاجيين تتساقط من أفواههم، وتعفنت لثاتهم واختفى لونها كما يحدث للجمال بعد سفر طويل.

ارتفعت آلات الحصار على المصاطب، ولو أنها لم تبلغ في كل مكان علو الأسوار، وظهر أمام الثلاثة والعشرين حصناً ثلاث وعشرون مصطبة عليها أبراج من خشب، فرفعوا هكذا جميع الآلات المكونة من دعامة خشب ضخمة تعلوها عارضة واسمها «تولينون»، كما ظهر في الوسط

برج الحصار الجبار الذي ابتكره الإغريقي «ديمتريوس بوليوست» واسمه (هليوپول) أي (فاتح المدن) وقد صنعه سبنديوس بشكل هرمي كمنارة الإسكندرية. وكان علوه مائة وثلاثين ذراعاً وعرضه ثلاثة وعشرين، وله عشرة طوابق يضيق كل منها عن الآخر كلّما ارتفع نحو القمة، وهومصفح بقشور نحاسية، وله أبواب كثيرة ملأى بالجنود، وعلى مصطبته العليا منجنيق للحجارة وآخران لرمي السهام والحراب.

وكان هاميلكار قد رفع صلباناً لمن تحدّثهم نفوسهم بالاستسلام، وضم النساء إلى فرق الجيش، وأخذ الجميع ينامون في الشوارع منتظرين مضطربين.

وفي صباح يوم، هو السابع من شهر نيسان، وقبل أن تشرق الشمس بقليل سمعوا صراخاً هائلاً خرج من جميع أفواه البربر في وقت واحد، تصحبه أصوات الأبواق ذات الأنابيب الرصاصية الرنانة، وأبواق القرون التي تعج عجيج الثيران، فصحا البربر جميعاً وأقبلوا يترامون على الأسوار، فبدت قواعدها غابة من الرماح والمزاريق والسيوف، وارتفعت هذه الغابة إلى الأسوار فتعلقت بها السلالم وبدت رؤوس البربر من فوهات المتاريس.

راحت الدعامات الخشبية الضخمة تصدم الأبواب وهي ترتكز إلى أذرع صف طويل من الرجال يدفعونها، وفي المواضع التي لم يكن فيها مصاطب كان المرتزقة، وفي سبيل هدم السور، يقبلون جماعات متراصة فيقرفص منهم رجال الصف الأول ويلوي رجال الصف الثاني عراقيبهم، ويقف عليهم تباعاً وتدريجاً غيرهم حتى يرتفع الصف فيجيء الآخرون واقفين، وفي مكان آخر يتقدم أطول الرجال قامات ويتأخر أقصرهم حتى آخر الصف، وكلهم يشدون تروسهم على خوذهم بأذرعتهم اليسرى ويضمونها إلى بعضها عند أطرافها، حتى ليظنهم الناظر ضفادع كبيرة، وهكذا كانت القذائف تنزلق عن هذه الكتلة المائلة المنحرفة.

كان القرطاجيون يرمونهم بأرحاء المطاحن والمدقات والدقاميق

والطشوت والبراميل والأسرّة، وبكل ذي وزن قتّال، وآخرون يتربصون عند الفتحات ومعهم شباك صيادين، فإذا وصل البربري حاطته الشبكة فأخذ يضطرب كالسمكة. وأخذوا يهدمون المتاريس بأيديهم فتتساقط أجزاء الحيطان مثيرة للغبار، ومنجنيقات السطوح تتضارب بالحجارة فتصطدم ببعضها وتتحطم فتصب على المهاجمين سيلاً من الشظايا ينهل عليهم كالأمطار. وأصبح الجمعان بعد وقت قليل سلسلة ضخمة حلقاتها الأجسام البشرية فضاقت بها مصاطب السطوح، ولارتخاء هذه السلسلة عند طرفيها أخذت تلف على نفسها دون انقطاع، والرجال يضم بعضهم بعضاً وهم منبطحون على الأرض كالمصارعين، والنساء المنحنيات على المتاريس يولولن فيجذبهن جاذب كمن يراقصهن، فيبدو بياض خواصرهن يلمع بين أيدي زنوج يغمدون فيها الخناجر، وبرزت جثث شدّها الزحام في وسطه فلم تسقط، وسندتها أكتاف رفاقها فسارت تمشي بضع دقائق وهي منتصبة وعيونها جامدة محدقة، وجثث أخرى نفذت بأصداغها حربات صغيرة فبدت تتمايل برؤوسها كما تتمايل الدببة، وهناك أفواه فُتحت لترسل صراخاً فهمدت فظلت فاغرة، وأيد بترت فانتثرت.

والحق أنّ ذلك اليوم كان مشهوداً ظل يتحدث بأهواله أولئك الذين نجوا من الموت.

كل ذلك والسهام تنهل من قمم أبراج الخشب وأبراج الحجر، وآلة «التولينون» تمد حبالها وسلالها بسرعة وترمي القرطاجيين ببلاط القبور، لأن البربر كانوا قد انتهكوا حرمة قبور المواطنين، وكان يحدث أن تنقطع الحبال لثقل ما تحمل السلال، فيتساقط الرجال جميعاً من الجو إلى الأرض وهم يرفعون أذرعتهم.

كما وجّه قدماء مشاة الإغريق جميع قواهم، منذ الصباح حتى الظهيرة، إلى موقع «ثونيا» لكي يتمكنوا من دخول المرفإ وتدمير الأسطول، فأشعل هاميلكار النار في قش رطب مبلل فتصاعد منه الدخان الكثيف فأعماهم

عن النظر، فتحولوا يسرة فزادوا من حدة التحام الصفوف في ناحية مالكا، وتوصلت شراذم من الرجال الأقوياء الأشداء المنتخبين إلى خلع ثلاثة أبواب فصدتهم عنها حواجز عالية وراءها مصنوعة من الخشب المليء بالمسامير، وخلعوا باباً رابعاً سهُل عليهم خلعه، فارتموا يجرون منه إلى الداخل، وإذا بهم يسقطون في حفرة طمرت فيها الفخاخ. وتمكن أوتاريت ورجاله من هدم السور في الزاوية القبلية الشرقية لأن شقوقه كانت مرممة باللبنات والأرض وراءها تمتد صعداً فاعتلوا فيها خفافاً، ولكنهم وجدوا في أعلاها سوراً مبنيّاً بالحجارة وجذوع أشجار ضخمة مكدّسة هنا وهناك، كما لو كانت الأرض رقعة من الشطرنج، وكان ذلك من اختراع الغوليين واقتباس القائد الزعيم، فظن الغوليون أنهم في مدينة من مدنهم، وهاجموا بضعف فردوا إلى الوراء. وأصبحت المسافة الممتدة من شارع خامون إلى سوق الأعشاب، بما في ذلك الطريق، في حيازة البربر، وأخذ السمنيون يجهزون بحرابهم على الجرحى المحتضرين وعيونهم تتطلع إلى ما تحتهم حيث الأنقاض يتصاعد منها الدخان، وإلى بعيد، حيث لا يزال القتال على أشده. وحملة المقاليع لا يزالون يرمون القذائف وهم في المؤخرة منتشرون، ولكن زنبركات المقاليع تحطمت لكثرة الاستعمال، فأخذوا يرمون الحصى بأيديهم كما يفعل الرعاة، أو يلقون كريات الرصاص مدفوعة بمسكات السياط. وزركساس ينتقل من مكان إلى آخر، وشعره الأسود الطويل مرسل على كتفيه وهو يدفع الحماسة إلى نفوس الباليار، وعلى وركيه كنانتان لا تنفك يده اليسرى من الامتداد إليهما ويده اليمنى تدور بمقلاعه كعجلة مركبة سباق.

امتنع ماتو في البداية عن الاشتراك في القتال بنفسه ليتفرغ إلى قيادة جميع جيوش البربر، فكان يظهر مرة بعد مرة على امتداد الخليج مع المرتزقة، أو بجانب المستنقعات مع النوميديين، أو على شاطئ البحيرة بين الزنوج، أو في أقصى السهل وهو يدفع إلى الأمام صفوف الجنود السائرة تباعاً ودون قصد نحو الأسوار. وأخذ يقترب من ساحة القتال شيئاً

فشيئاً، فقفز قلبه لرائحة الدم ومنظر المذبحة وأصوات الأبواق، فعاد إلى خيمته وخلع درعه ولبس جلد الأسد إيثاراً منه له لملاءمته للقتال، فغطى شدقا الأسد الوجه وكست الأنياب طرفيه، وتصلبت على الصدر القائمتان الأماميتان، وامتدت المخالب إلى القائمتين الخلفيتين حتى ما تحت ركبتيه، واحتفظ بمنطقته وقد شك فيها فأساً ذات حدين، وارتمى يدخل من فجوة السور مندفعاً اندفاع السيل ممسكاً بسيفه الكبير بكلتا يديه، ومشى مشية مشذب يقطع أغصان الصفصاف، ويجتهد بأن يقطع منها أكبر عدد لينال أكبر أجر. فأخذ يحصد القرطاجيين حوله وأمامه، فإذا حاولوا الإمساك به من جانبيه قلبهم بمقبض سيفه، وإذا واجهوه نفذ فيهم حده، وإذا حاولوا الهرب لقيهم به، ووثب اثنان معاً على ظهره، فارتد القهقرى واستند إلى جدار فسحقهما سحقاً، وكان سيفه يعلو ويهبط، فتكسر على زاوية حائط، فتناول فأسه الثقيلة وأخذ يشق البطون من أمامه وخلفه كأن القرطاجيين قطيع من الغنم، فتراجعوا من أمامه، ووصل وحده إلى منطقة الحصون الثانية في أسفل الأكروپول. وكانت المواد الملقاة من الأعلى تزحم الدرج وترتفع حتى قمة السور، فوقف ماتو بين الأنقاض ومال برأسه لينادي رفاقه، فأبصر قنابر خوذهم مشتتة بين الجموع وهم غائصون وعلى وشك الهلاك فارتد نحوهم، فأخذت تيجان الريش الحمر تتجمع فأدركهم وأحاطوا به، وإذا بحشد من الجند كبير يخرج من الشوارع المتقابلة فيمسكونه من فخذيه ويحملونه ويمشون به حتى خارج الحصن إلى مكان مصطبة عالية.

عند ذلك أصدر ماتو أمراً وإذا بجميع التروس قد وضعت فوق الخوذ فقفز فوقها ليتعلق بشيء يمكنه من دخول قرطاجة، وأخذ يجري وهو لا يزال رافعاً فأسه فوق التروس الشبيهة بأمواج من النحاس، كأنه إله من آلهة البحر وقف على أمواج عاتية يحرك خطافه المثلث الشوكات.

فجأة ظهر رجل بثوب أبيض يمشي جيئة وإياباً على حافة السور، رابط الجأش لا يبالي بالموت الذي يحدق به، وهو يجيل عينيه من وقت إلى

آخر ليتبيّن بين الجموع شخصاً ما. ومر ماتو تحته فإذا بعينيه تقدحان شرراً وبوجهه الشاحب ينقبض ثم يرفع يديه نحو ماتو ويوجه الشتائم بصوت صارخ.

لم تصل الشتائم إلى أذني ماتو، ولكنه أحس بنظرات قاسية حادة تجتاز قلبه فتخرج من فمه زئيراً، فرمى نحوه بفأسه الطويلة، ورأى أناساً يرتمون على شاهبريم ولكنه لم يعد يراه، فسقط على ظهره وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ.

سُمعت إذ ذاك فرقعة هائلة تقترب وتختلط بنغم أصوات جشاء تغني بإيقاع، تلك فرقعة البرج الجبار وقد تحرك يحيط به حشد من الجند يجره كل منهم بكلتا يديه بالحبال، أو يدفعه بالكتف، لأن المنحدر كان يتجه صعداً من السهل إلى ما فوق على أرض شديدة الانحدار تجعل من العسير جر أمثال هذه الآلات ذات الوزن الثقيل الهائل، ولو أن لها ثمانية دواليب ملبسة بالحديد. ويتقدم البرج ببطء كجبل يرتفع فوق جبل، ثم يخرج من قاعدته كبش ضخم وتنفتح أبوابه الثلاثة التي تواجه المدينة، فيبدو في داخلها جنود مدرعون، فمنهم رجال يتسلقون السلمين المجتازين لجنباته أو ينحدرون منهما، وبعضهم ينتظر أن تنشب كلاليب الأبواب بالأسوار لكي يشرعوا بالهجوم، وفي أعلى السطح الأول أخذت كبات الأكباش تدور ومجر المنجنيق الكبير ينخفض.

في الوقت ذاته وقف هاميلكار على سطح معبد مالكاريت لأنه قدّر أن البرج الجبار سيُهاجم هذه الناحية من الأسوار لمتانتها ولخلوها من الحراس، وكان عبيده يملأون بماء القرب شبه حوض أقامه بين حيطان من الآجرّ، والماء يجري على مصطبة السور، وهاميلكار لا يعير ذلك اهتماماً في الظاهر، ولكنه لما رأى البرج الجبار على بعد ثلاثين خطوة أمر بأن تمتد ألواح خشب من سطح منزل إلى آخر فوق الشوارع، ومن الآبار حتى الأسوار. وأخذ الناس الواقفون بالصف يناول بعضهم الجرات والأباريق المليئة بالماء فيفرغونها بلا انقطاع، والقرطاجيون يتذمرون من

إضاعة الماء سدى مع شدة حاجتهم إليه، وكان البرج يهدم الأسوار بكبشه، وإذا بينبوع ماء يتفجر من بين الحجارة المتقلقلة، فأخذت كتلة النحاس المشيدة ذات الطوابق الأربعة تتأرجح كالسفينة لأن الماء المنحدر من المصطبة كان قد بل الأرض وتغلغل فيها، فانهارت الطريق وغاصت دواليب البرج في الوحل، فبدا رأس سبنديوس من الطابق الأعلى وهو ينفخ بملء رئتيه بصفارة من عاج، وتقدمت الآلة نحواً من عشر خطوات كأن تشنجات عصبية تدفعها، ولكنها عادت فتوقفت ومالت ميلاً مخيفاً على أحد جوانبها، وذلك لأن الأرض تحتها ازدادت ابتلالاً وزاد الوحل التصاقاً بالدواليب. ومال المنجنيق ميلاً شديداً حتى حافة السطح، وزاد في ميله ثقل ما يحمله، فسقط وهشم تحته الطوابق السفلى فهوى من هم واقفون على الأبواب من الجنود، أو تعلقوا بأطراف الدعامات الخشبية الطويلة المتراصة، فزاد هذا الثقل من ميل البرج الجبار الذي تفككت أجزاؤه وأخذت مواضع التحامها تقعقع.هبَّ الجند الآخرون لنجدة الأولين، وتجمّعوا صفوفاً متراصة، فنزل القرطاجيون عن الأسوار في مؤخرتهم وقتلوا منهم الخلق الكثير، ولكن المركبات المليئة بالحراب أقبلت وأخذت تدور حول هذا الحشد الملتحم، وثبت القرطاجيون على الأسوار، وأظلم الليل فبدأ البربر ينسحبون.

لم تعد العين ترى بعد ذلك في السهل إلاّ تحركات سود كتجمعات النمل، من الخليج، إلى المستنقع الأبيض، إلى البحيرة التي سالت فيها الدماء فبدت من بعيد كقميص أرجواني.

تكدّست الجثث على المصطبة حتى ليخيل للناظر أنها قد بنيت بالأجسام البشرية، وفي الوسط وقف البرج الجبار يتساقط منه الفينة بعد الفينة أجزاء كبيرة كحجارة أهرام تتداعى. وتبدو على الأسوار آثار مجاري جداول الرصاص، وهنا وهناك برج خشب حطم فهو يحترق، والبيوت بادية الرسوم كدرجات مدرج خرب، والدخان يتصاعد وهو يرسل شراراً يتصل بالسماء السوداء.

أجهد العطش القرطاجيين فهجموا على الآبار وحطموا أبوابها، فبدا قليل من وحل الماء في أعماقها فحاروا فيما يصنعون، والبربر لا عداد لهم وسيستأنفون الهجوم بعد أن يأخذوا قسطاً من الراحة.

تشاور السكان فيما بينهم طوال الليل، وقد تجمعوا أسراباً أسراباً في الشوارع، فقال قوم نخلي المدينة من النساء والمرضى والشيوخ، واقترح آخرون هجرها والالتجاء إلى إحدى المستعمرات البعيدة، ولكن السفن كانت تعوزهم، وهكذا أقبل الصباح ولم يستقر رأيهم على شيء. ولم يقع قتال في هذا اليوم لأنهم كلهم كانوا متعبين، فاستغرقوا في النوم كأنهم جثث لا أرواح فيها.

فكروا كثيراً فإذا هم يفطنون إلى أن السبب في وقوع الكارثة هو أنهم لم يرسلوا إلى فينيقيا التقدمة الواجبة لمالكاريت بعل صور، فاستولى عليهم الرعب الشديد وأيقنوا أن الآلهة، لغضبها على الجمهورية، ستتابع انتقامها منها.

كانوا يعتبرون الآلهة أسياداً قساة تلينهم الضراعات، ويقبلون الرشوة، وكل هؤلاء الآلهة ضعاف أمام «مولوخ القاسي» الذي يملك حياة الناس وحتى لحومهم، ولذلك وتهدئة لغضبه كانوا يقدمون له قطعاً من هذه اللحوم البشرية، وكانوا يكوون الأولاد بالنار في جباههم أو نقر رقابهم بذبالات من صوف، وهذا العمل يرضي البعول ويدر المال على الكهنة الذين كانوا يوصون الآباء باللجوء إليه لسهولته.

لكن الكارثة الآن نازلة بالجمهورية نفسها، ولا بد لجر الغُنْم من غُرْم، والتبادل يكون على أساس حاجة الضعيف وطلب القوي، ومهما بلغ الألم من شدة لا يستكثر على الإله مولوخ لأن تلذذه يتم بأقسى الآلام وأشنعها، وهم الآن بيده وتحت رحمته، فيجب إذاً أن تشبع لذته وتنقع غلته، وقد دلت الوقائع والسوابق على أن هذه هي الطريقة المثلى لرد الكارثة ودفع النازلة، ثم هم يعتقدون أن تضحية الضحية بالحرق تطهّر قرطاجة، فاستهوت هذه الفكرة قسوة الشعب وضراوته، ولا سيما أن الضحايا

يجب أن يُختاروا من الأسر الكبيرة ذات الجاه والغنى.

اجتمع القدماء وطال اجتماعهم، وكان هنون، وهو مستلق بالقرب من الباب، مختفياً تحت أخمال الطنافس الطويلة العالية، ولما سألهم حبر مولوخ إذا كانوا يرضون بتسليم أولادهم للتضحية بهم ارتفع صوته من ظلال مجلسه يرن كصوت جنية في أعماق كهف وقال: «كم أنا آسف ألاّ يكون لي ولد فأضحي من دمي» قال هذا وهو يجحظ بعينيه هاميلكار الجالس أمامه في الناحية الأخرى من القاعة. وسببت نظرات هنون اضطراباً لهاميلكار بلغ من شدته أن غض طرفه. ووافق المجتمعون كلهم على الاقتراح بحني رؤوسهم واضطر هو عملاً بالطقوس الدينية أن يجيب صراحة فقال: «نعم، ليكن ذلك».

هكذا قرر القدماء التضحية بأولادهم، وكتب القرار بكنايات تقليدية لا بصراحة، لأن التنفيذ في بعض الأحيان أسهل من ترديد عبارات تقريره.

انتشر النبأ حالاً في قرطاجة، فعلا النواح والعويل، وسمعت صيحات النساء في كل مكان، وأزواجهن يحاولون تعزيتهن وينتقدون سلوكهن.

لم تمض ثلاث ساعات على النبإ حتى شاع نبأ آخر أدعى إلى الدهشة، فإن القائد الزعيم وجد ينابيع ماء في أسفل مرتفعات الشاطئ، فهرع الناس إلى المكان فوجدوا الماء يخرج من ثلاث حفر في الرمل، فانبطح بعضهم على بطونهم يعبون. ولم يدر هاميلكار ما الذي دعاه إلى البحث عن الماء، أهو إلهام من الآلهة، أم تذكّر حديث قديم لوالده الذي كان يرجح وجود ماء تحت تلك الرمال؟ والواقع أنه لم يكد يغادر اجتماع مجلس القدماء حتى سار توّاً إلى الشاطئ وأمر عبيده بالحفر طلباً للمياه.

في الصباح الباكر أخذ يوزع على أبناء الشعب الملابس والأحذية وما كان متوفراً لديه من القمح والحبوب، وفتح أبواب قصره للجماهير وأدخلهم إلى المطابخ والمخازن والغرف مستثنياً منها مخدع سلامبو، كما أنه أعلن للملإ أن هناك ستة آلاف جندي غولي قادمون إلى قرطاجة، وأن ملك مكدونيا قد وعد أيضاً بإرسال الجنود.

لكن ينابيع الماء بدأت تنضب منذ اليوم الثاني، وجفت في مساء الثالث، فرأوا وجوب تنفيذ قرار مجلس القدماء، وشرع كهنة مولوخ يأخذون الأهبة لذلك، فأوفدوا إلى المنازل خدم المعبد يطوفون بثيابهم السود طلباً للذكور، وكان نفر قليل من القرطاجيين يغادرون بيوتهم متعلّلين بقضاء حاجة أو بشراء حلوى، فيستولي خدم المعبد على أولادهم في غيابهم، على أن الكثيرين كانوا يدفعون لهم بأبنائهم راضين لشدة ما كانوا عليه من غباء، فكان الصبية يقادون إلى معبد تانيت لتتولى الكاهنات تغذيتهم وتسليتهم حتى يوم المحرقة.

قدموا على حين غرة إلى قصر هاميلكار فوجدوه في الحدائق فقالوا له:

- «يا باركا! نحن قادمون للأمر الذي تعلمه.. لطلب ابنك!».

ثم إنهم أضافوا فقالوا إن أناساً رأوه في مساء يوم من الشهر القمري المنصرم في وسط مابال ومعه شيخ يقوده، فكاد يختنق بادئ ذي بدء، ولكنه عرف أن الإنكار لا يجديه نفعاً، فأظهر القبول وأدخل خدم البعل إلى محل وأشار إلى عبيد له فأقبلوا يراقبون المحل والجوار.

دخل هاميلكار إلى غرفة سلامبو يائساً مذعوراً وأمسك بـ«هانيبال» بيد والتقط ذيل ثوب فربط به يديه ورجليه ووضع في فمه كمامة وخبأه تحت جلود البقر ودلّى عليه غطاء واسعاً ليخفيه. ثم أخذ يذرع المخدع جيئة وذهاباً وهو حيران يرفع بيديه إلى الهواء ويدور على نفسه ويعض على شفتيه لاهثاً، وإنسانا عينيه جامدان كما لو أنه قارب أن يموت.. وأخيراً صفق بيديه فأقبل رئيس العبيد جيدنيم فقال له:

«أصغ إلي! اذهب وجئني بولد من أبناء العبيد ذكر يتراوح عمره بين الثامنة والتاسعة، أسود الشعر مسنم الجبين! هيّا به إليّ! أسرع!».

لم يعتم جيدنيم أن عاد ومعه ولد مسكين هزيل الجسم متورمه، وجلده مغبر بلون الأطمار القذرة المعلقة على خاصرتيه وهو يغض الطرف، ورأسه بين كتفيه، ويداه تفركان عينيه المتجمع عليهما الذباب.

تساءل هاميلكار كيف يمكن أن يلتبس أمر هذا الغلام مع هانيبال؟

ولكن الوقت كان يمر سريعاً وليس لديه متسع ليختار غيره. ونظر إلى جيدنيم وفي نفسه شهوة لخنقه وصاح به: «اغرب عني» فسارع رئيس العبيذ بالانصراف.

إذاً، لقد نزلت به البلية التي كان يخشى وقوعها منذ بعيد! وأخذ يفكر في المهرب والمخرج، بجهد لا يماثله جهد.

وإذا بأبدالونيم ينبئه من وراء الباب بأن خدم مولوخ ينتظرونه، وقد عيل صبرهم.

كتم هاميلكار زفرة كزفرة من يُكوى بالنار المتأجّجة، وأخذ يذرع الغرفة من جديد كمن اختل عقله، ثم ارتمى على حافة السرير ومرفقاه على ركبتيه وأخذ يشد على صدغيه بقبضتي يديه. وكان لا يزال في حوض البِرفير المعد لوضوء سلامبو قدر من الماء الصافي، وعلى الرغم من أنفته وكبريائه أخذ هاميلكار الولد وغطسه في الحوض، وكنخاس يتاجر بالعبيد، أقبل يغسله وينتزع الأقذار عن جسمه بمقشط ويفركه بالتراب الأحمر، ثم تناول من رفوف الحائط قطعتي أرجوان مربعتين ووضع إحداهما على صدره والأخرى على ظهره، وربطهما الواحدة إلى الأخرى من الأمام بمشبكين من الماس، وصب عطراً على رأسه وقلده قلادة من ذهب وفضة في عنقه، وألبسه خفين كعباهما محلّيان باللؤلؤ أمام سلامبو، ولكنه كان يضرب الأرض بقدميه لخجله وثورة نفسه، وسلامبو تساعده في عمله، وهي ممتقعة اللون مثله، والولد يبتسم معجباً ببهاء تلك الأشياء، بل يصفق بيديه وقد عادت إليه جرأته.

أمسكه هاميلكار بذراعه وخرج به وهو يشده إليه كأنه يخشى أن يفلت منه، والولد يبكي قليلاً من ألم الشد وهو يجري بالقرب منه.

عند بلوغه سجن العبيد، وبالقرب من نخلة، سمع صوتاً حزيناً يتوسل إليه قائلاً: «سيدي! آه يا سيدي» فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى رجلاً بادي الدمامة والقذارة، من جماعة البؤساء الطفيليين الذين يعيشون في داره، فسأله الزعيم: «ما الذي تريده؟».

فأجاب الرجل وهو يرتعد «أنا أبوه».

تابع هاميلكار سيره والرجل يتبعه والظهر محني، والعرقوبان مرتخيان، والرأس ممدود إلى الأمام، والوجه مشنج بهمّ وقلق لا يوصفان، والزفرات التي يكتمها تكاد تخنقه وهو متلهف لأن يصيح طالباً «الرحمة». وأخيراً دفعته الجرأة فلمس ذراع القائد لمساً خفيفاً وسأل: «هل ستسلمه؟» ولم يعد يقوى على إتمام سؤاله. ووقف هاميلكار دهشاً من هذا المشهد.

لم يكن ليدور في خلده - والهوة بينهما سحيقة - أنه يمكن أن يكون بينه وبين رجل كهذا صلة جامعة، بل لقد بدا له أن التفكير بهذا وحده هو اعتداء على امتيازاته، فرد على الرجل بنظرة أكثر برودة وأشد ثقلاً من فأس الجلّاد، فأغمي على العبد وسقط على الحضيض بين رجليه، فمر هاميلكار من فوق جسده وتابع السير. وكان الثلاثة المرتدون السواد ينتظرونه في القاعة الكبيرة إلى جانب القرص الحجري. وما إن رآهم حتى مزق ثيابه وارتمى يتمرغ على البلاط وهو يصيح: «آه! يا حبيبي هانيبال المسكين! أيا ولدي وعزائي! ورجائي وحياتي!اقتلوني أنا أيضاً! خذوني معه! يا للمصاب! يا للكارثة!». وكان يمزق وجهه بأظفاره ويقتلع شعره ويولول كالنوائح في المآتم. وعاد يصيح: «كفاني! خذوه! خذوه! ما أقسى آلامي! اغربوا عني! اقتلوني كما تقتلونه!». وكان خدم مولوخ يتعجبون من رقة قلب هاميلكار العظيم، حتى أن قلوبهم أوشك أن يتسرب إليها الحنان.

سمع فجأة وقع أقدام حافية وحشرجة متتابعة شبيهة بتنفّس حيوان ضارٍ يعدو، وعلى عتبة باب السجن الثالث، وعلى الدرج العاجي ظهر رجل شاحب اللون هائل المنظر مبسوط الذراعين يصيح: «ولدي! ولدي!» فوثب هاميلكار بأسرع من البرق على العبد وغطى فمه بيديه وهو يقول:

- «هذا هو الشيخ الذي رباه، وقد اعتاد أن يدعوه باسم «ولدي»، سيطيش عقله لهذا المصاب! كفى!». ودفع بكفيه الكهان الثلاثة والولد وخرج معهم وأقفل الباب وراءه بعنف. وظل هاميلكار منصتاً بأذنه بعض

الدقائق خشية أن يرى الكهان يعودون، ثم فكر بأن يوقع بالعبد ليضمن سكوته، ولكنه خاف أن يغضب الآلهة فينتقمون من ابنه، فغير فكره وأمر طناش بأن تحمل للعبد خير ما في المطبخ من مأكولات، فحملت إليه ربع جدي وفولاً ولحوماً محفوظة، ولمّا كان لم يذق القوت منذ زمن فقد أقبل على الطعام يزدرده، والدموع تتساقط من عينيه على صفحتي خديه.

عاد هاميلكار إلى مخدع سلامبو ففك رباط هانيبال، فعضه الولد الحانق في يده فأدماها، فدفعه عنه برفق. وأحبت سلامبو أن تهدئ ثائرته فأخذت تخيفه بـ«لاما» وهو غول من غيلان القيروان فقال لها الصبي: «أين هو؟ ليأت». وقالا له إن قطاع الطريق سيجيئون ليضعوه في السجن فقال: «فليأتوا وأنا أتكفل بقتلهم».

اضطر والده إلى أن يفضي إليه بحقيقة الأمر، فثارت ثائرته على والده لزعمه أن بإمكانه، وهو الحاكم المطلق، أن يلاشي الشعب كله، وأخيراً أنهك التعب والجهد قواه فاستسلم إلى نعاس مضطرب وأخذ يتكلم في نومه، وظهره مستند إلى وسادة قرمزية، ورأسه إلى الوراء، وذراعه الصغيرة، المنحاة عن جسمه، مرفوعة مستقيمة كأنه في موقف الآمر.

عندما أظلم الليل حمله هاميلكار برفق ونزل به بدون مشعل على سلالم السجن، ماراً من المحل التجاري، فأخذ قفة من عنب وإبريقاً من ماء صالح للشرب، ولم يستيقظ الصبي إلاّ أمام تمثال «أليتس» في قبو الحجارة الكريمة، وهو يفتر ابتساماً على ذراع والده، بين لألاء الحجارة التي كانت تحيط به.

اطمأنَّ هاميلكار على ولده موقناً أن لا أحد يستطيع الاهتداء إلى مقره، فالمكان لا يمكن اكتشافه، وهو يتصل بالبحر بسرداب لا يعرفه غيره. فتنفس حينئذ الصعداء ووضع الصبي على موطئ بالقرب من مجنات الذهب. والآن ما من أحد يراه أو هو مضطر إلى التقيّد بنظام أو عرف! فسكن وملك العزاء نفسه، وكمثل أم تعود فترى بكرها المفقود بعد غيبة طويلة ارتمى هاميلكار على ابنه يضمه إلى صدره وهو يبكي ويضحك في

وقت معاً، ويناديه بأعذب الأسماء ويغمره بقبلاته. وأرعبت هانيبال الصغير هذه القبلات، فلزم الصمت.

عاد هاميلكار وهو يكتم وقع خطواته ويتحسس الحيطان حوله، فوصل إلى القاعة الكبيرة حيث كان ضوء الهلال يتسلل من شقوق القبة فأبصر العبد، وقد أكل فشبع، نائماً في وسطها على الرخام، فنظر إليه فخالجته عاطفة من شفقة، فدفع بطرف حذائه بساطاً وضعه تحت رأسه ثم رفع رأسه إلى الأفق، وتأمل تانيت وهلالها الضئيل يلمع في السماء، فأحس بأنه أقوى من البعول وأن نفسه ملأى بازدرائهم.

كانت الاستعدادات في ذلك الوقت لتقديم القرابين قد بدأت.

*

هدموا في معبد مولوخ جزءاً من جدار ليجرّوا منه الإله النحاسي دون أن يمشوا على رماد المذبح. ولمّا أشرقت الشمس جرّه الكهنة إلى ميدان خامون فسار يمشي القهقهرى على زحافات، ومنكباه يتجاوزان علو الأسوار، وكان القرطاجيون إذا لمحوه من بعيد ركنوا إلى الفرار، لأنه ليس بجائز شرعاً أن ينظر إليه ناظر إلاّ في ساعة إطلاقه لثورة غضبه.

كانت قد انتشرت في الشوارع روائح العطور، وفتحت جميع المعابد أبوابها بوقت معاً، وخرج منها مظلات أقداس محمولة على عربات، أو مرفوعة على محفات يحملها الأحبار، وربات العرش تتمايل على أركانها، والأشعة تنتشر من ذراها المسنونة المنتهية بكرات بلورية أو الذهب أو الفضة أو النحاس.

تلك كانت البعول الكنعانية، الشخصيات المزدوجة للبعل الأسمى تفد اليوم نحو أصلها لتظهر تواضعها أمام قدرته وتتلاشى أمام بهائه. فراية مالكاريت «المصنوعة من الأرجوان الناعم» تظلّل شعلة من الوقود، وعلى راية خامون الملوثة بلون الياقوت ذكر من العاج وسط دائرة من الحجارة الكريمة، وبين سجف راية أشمون الزرقاء كالأثير حية نائمة تكوّن بذنبها دائرة، والإلهة «باتوك» المحمولة على أذرعة كهانها تبدو كأنها أطفال

كبار ملفوفة بالأقمطة تتدلى أعقابها حتى الأرض.

تلا ذلك الموكب مختلف أشكال الألوهية من الدرجات الدنيا: فبعل «سمين» إله الفضاءات السماوية، وبعل «بعور» إله الجبال المقدسة، وبعل «زبوب» إله الفساد. ومشت بعدها بعول البلاد المجانسة «إيرابال ليبيا» و«أدرا ملخ» الكلدانيين و«كيجون» سورية، ثم الإله «رستو» بوجه عذراء، يزحف على زعانف، وجثة «تموز» مسجاة في تابوت بين المشاعل والشعور. وتوصّلاً إلى إرغام ملوك الجو بعبودية الشمس، ومنعاً لمضادة تأثيراتهم لتأثيرها، رفعوا على أسنة حرابهم كواكب من معدن مختلفة التلوين، منها «نسيبو» السوداء جنية زحل، والقبيح الشكل «رهاب» الذي هو برج التمساح، وحجارة «الأبادير» النيازك الساقطة من القمر تدار في مقاليع من خيوط الفضة، وأرغفة الخبز بشكل فروج النساء يحملها في سلال كهنة «سيريس». وبدا غيرهم يحملون تمائمهم وأنصابهم أو أوثاناً لهم أصبحت منسية، حتى أنهم نزعوا من المراكب رموزها السحرية، وكأن قرطاجة اليوم قد حصرت تفكيرها وشعورها بالعذاب والخراب.

كان يقف أمام كل مظلة من تلك المظالّ رجل يحمل على رأسه آنية يحترق فيها البخور، والغيوم تتجمع هنا وهناك في السماء، وبين البخار الكثيف المتصاعد تبدو الطنافس والجواهر المدلاة وزركشة الأروقة المقدسة. كل هؤلاء يتقدمون ببطء لنقل ما يحملون، ودواليب المركبات تعلق بالشوارع فيغتنم المتعبّدون هذه الفرصة السانحة لكي يمسوا البعول بأثوابهم ليدخروها كأشياء مقدسة.

تابع التمثال النحاسي مولوخ سيره نحو ميدان خامون، وجاء الأغنياء، الممسكون الصولجانات ذات المقابض القرمزية، من أقصى حي ميجارا، واحتشد القدماء وعلى رؤوسهم التيجان في كنيسدو، وأقبل رجال المال وحكام الأقاليم والجنود والملاحون، وعمال الجنازات العديدون يحملون شارات وظائفهم أو أدوات صناعاتهم ومهنهم، يتجهون نحو المظال النازلة من مرتفعات الأكروبول محوطه بهيئة الأحبار.

وتكريماً لمولوخ الإله تحلّوا بأنفس حلاهم، فحجارة الماس تتلألأ على أثواب سود، والخواتم الواسعة تتساقط من أصابعهم، وفي أيديهم الهزيلة، ولم يكن من شيء أدعى إلى انقباض النفس من هذا الحشد الصامت الذي كانت فيه الأقراط تلاطم وجوهاً شاحبة، وتيجان الذهب تنعقد على جباه منقبضة من يأس طاغ قتال.

أخيراً بلغ مولوخ وسط الميدان تماماً، فأقام الأحبار حوله حظيرة ذات سياج، ليحولوا دون تدفّق الجماهير عليه، وجلسوا تحت قدميه، واحتفظ كهنة خامون بأثواب من الصوف صفر فاقعة اللون، تحت عمد الرواق، وعليهم أردية الكتان، وبأعناقهم القلائد وعلى رؤوسهم القلانس المقرنة، واحتلوا درج الأكروپول، وكهنة مالكاريت بقمصانهم البنفسجية وقفوا جهة الغرب، ووقف كهنة أبادير جهة الشرق وهم مكتسون بأثواب ضيقة من نسيج بلاد «فيرجيا»، وصفوا إلى الجنوب السحرة والرقاة المغطين الأجسام بالوِشام، والمصوتين بأثوابهم المرقعة، وكذلك خدمة «باتوك» و«الأيدونيم» الذين يقرأون الغيب بوضعهم لعظم ميت في أفواههم، وأما «كهنة سيريس» اللابسون الفساتين الزرق، فقد حرصوا على أن يقفوا في شارع «ساتب» وهم يرتلون بصوت منخفض نشيداً باللغة الميجارية العامية.

كان يسرع إلى المكان من وقت إلى آخر أرتال من الرجال عراة وأذرعتهم مبسوطة يستند الواحد منهم إلى كتف الآخر، فيخرجون من أعماق صدورهم زمجرة بحّاء مدوّية وحدقات عيونهم شاخصة للصنم الضخم، تلمع به الغبار، وأجسامهم تتمايل معاً بعد فترات منتظمة مدفوعين بحركة واحدة، وكانوا هائجين حتى أن خدمة الهيكل، محافظة على النظام، اضطروهم بضرب العصيّ إلى أن ينطرحوا على بطونهم، ووجوههم إلى الأرض.

فجأة إذا برجل في جلباب أبيض يخرج من أقصى الميدان ويشق الجموع ببطء، هو كاهن «تانيت» الأكبر شاهبريم، فارتفعت أصوات

الهزء والسخرية من كل جانب، لأن احتفال اليوم كان للذكور دون الإناث، والأفكار متجهة كلها إليه، حتى أنهم نسوا «تانيت» نفسها ولم يفطنوا إلى غياب كهنتها وراياتها. وزاد في سخط الجماهير أن رأوا شاهبريم يدفع باب الحظيرة المخصص لدخول مقدمي الضحايا، وإقدامه على مثل هذا يعتبر في اعتقاد كهنة مولوخ إثماً وإهانة لإلههم، فأخذوا يسخرون منه ويحاولون منعه من الدخول، فحدثت مشادة بين رجال يعلفون بلحوم الذبائح ويغطون كالملوك بالأرجوان ويعقدون على رؤوسهم التيجان المثلثة الطبقات وبين خصي هزيل الجسم شاحب اللون منهوك القوى لكثرة ما يمارسه من ضروب التقشف، وكانت سخريتهم تهز لحاهم السود المدلاة على صدورهم، وشاهبريم صامت يتقدم خطوة خطوة حتى وصل إلى ما تحت قدمي الصنم فلمسه من الجهتين وهو يباعد بين يديه، وتلك صيغة علنية من طقوس العبادة.

فعل شاهبريم فعلته هذه لأن ربته «تانيت» كانت تعذبه منذ زمن طويل فبلغ به اليأس حده، أو لأنه لم يجد فيها الإله الذي يتمشى مع تفكيره، فقرر بعد لأي أن يستبدل منها هذا الإله. فصعق الشعب لهذا الجحود والكفر، وأبدى تذمراً عميقاً، وأحس بانقطاع آخر رباط يربط النفوس بآلهة ذوي حلم وسعة صدر.

لكن شاهبريم كان لا يستطيع الاشتراك بطقوس عبادة البعل بسبب فقده رجولته، فأخرجه الرجال ذوو الأردية الأرجوانية من الحظيرة، فلمّا صار خارجها أخذ يدور تباعاً حول كل هيئة من هيئات العبادة المختلفة، فأصبح هكذا لا إله له، ثم توارى بين الجموع الذين كانوا يبتعدون عنه عند مروره.

واشتعلت نار من أعواد الصبار والند والأرز والغار بين قدمي الصنم، فغاصت أطراف أجنحته في اللهب، وأخذت الأدهان التي طُلي بها تسيل كالعرق على أعضائه النحاسية. وحول البلاطة المدوّرة التي يشد عليها بقدميه، وقف الصبية الضحايا بشكل حلقة ثابتة وعليهم البراقع السود،

ومد الإله أذرعه المتناهية الطول حتى الصبية كأنها تريد أن تمسك بهذا التاج لتحمله إلى السماء.

تزاحمت جموع الأغنياء والقدماء والنساء والحشود وراء الكهنة وعلى سطوح البيوت، ووقفت الكواكب الكبيرة المصبغة عن الدوران، ووضعت المظال على الأرض، وارتفع دخان المباخر عمودياً وكأن أشجاراً ضخمة تعرض فروعها المزرقة في وسط الجو.

كما أُغمي على الكثيرين، وأصبح الناس جامدين لاحراك بهم، أو مأخوذين لشدة حماستهم. وجثم على الصدور غمّ ثقيل، وانقطعت أصوات الهتاف صوتاً بعد صوت، وأخذ شعب قرطاجة ينوء تحت شهوة رعبه لاهثاً مترقّباً.

وبعد لأيٍ مد كاهن مولوخ الأكبر يده اليسرى تحت براقع الصبية، وجمع من شعور نواصيهم خصلة ألقى بها على اللهب، فارتفعت أصوات ذوي الأردية الحمر بالنشيد المقدس: «لك الإكرام والإجلال أيتها الشمس! ملكة المنطقتين، الخالقة التي تحبل نفسها وتلد! أيها الأب والأم معاً! الوالد والولد، الإله والإلهة». وضاعت أصواتهم بين أصوات الآلات الموسيقية التي انفجرت تخرج دقاتها وزمجرتها بوقت معاً لتكتم صرخات الضحايا: فالقوانين ذات الأوتار الثمانية، والقفازات ذات العشرة، وغيرها من ذوات الاثني عشر وتراً، تصرّ وتصفر وتدوي، والقرب الكبيرة المثبتة فيها الأنانيب تخرج دوياً حادّاً! والدفوف المضروب عليها بشدة ترن وتتجاوب تحت ضربات صم سريعة مطردة، وتسمع أصوات الجلاجل متصاعدة كتصفيق أجنحة الطيور رغم شدة ارتفاع صفير الأبواق.

عندئذ فتح خدمة المذبح، بصنارة طويلة، الرفوف السبعة المتدرجة على جسم البعل، وأدخلوا في الأول دقيقاً، وفي الثاني يمامتين، وفي الثالث قرداً، وفي الرابع كبشاً، وفي الخامس نعجة، ولمّا لم يكن لديهم ثيران ألقوا في السادس جلود بقر مدبوغة كانت مودعة في بيت القدس،

وظل الرف السابع مفتوح الفوهة خالياً.

وقبل الشروع في رفع المحرقات، كان لا بد من اختبار ذراعي الإله: فهناك سلاسل رفيعة تمتد من أصابعه لتتصل بظهره وتتدلى من ورائه، حيث يشد بها رجال فترتفع يداه المفتوحتان حتى مرفقيه، ثم تنضمان حتى تصلا إلى بطنه. فأسفرت التجربة عن حركات مضبوطة. وكانت النيران تشتعل فيسمع لها أزيز، وأحبار مولوخ يقبلون ويدبرون في تنقلهم على البلاطة الكبيرة وهم يتفرسون في الجماهير.

كان لا بد من تضحية يتطوع بها متطوع، فتكون مثلاً يحتذيه غيره من الناس، فلم يتقدم أحد، وظلت الممرات السبعة التي تؤدي إلى الحواجز خالية، فأخرج الكهنة من أحزمتهم مخارز أخذوا يمزقون بها وجوههم ليشجعوا الناس على الاقتداء بهم، وأدخلوا إلى الحظيرة المتعبدين المستلقين في الخارج على ظهورهم وألقوا بين أيديهم رزمة مليئة بمختلف قطع الحديد ليختار كل منهم ما يحلو له لتعذيب نفسه، فأخذوا يدخلون السياخ بين ثديّهم أو يشقون خدودهم، أو يضعون أكاليل الشوك على رؤوسهم، ثم ربطوا بعضهم إلى بعض بأذرعتهم، وأحدقوا بالصبية فتكونت منهم حلقة ثانية تضيق مرة وتتسع أخرى، وبدأوا يرتطمون على حرف الحظيرة ويرتجعون عنه مداومة، جاذبين إليهم الجماهير تحت تأثير ما تحدثه هذه الحركات المشبعة بالدم والصراخ من بحران وإغماء.

لم يطل الوقت حتى أخذ بعض الناس يدخلون إلى آخر الممرات فيرمون وسط اللهب لآلئ وآنية ذهبية وأكواباً ومصابيح وما يقتنون. وازدادت النذور وتضاعفت شيئاً فشيئاً، وأخيراً تقدم رجل وهو لا يكاد يقوى على الوقوف، متقع اللون ذو وجه شوّهه الرعب، فدفع بولد، وإذا به في يد الصنم كتلة سوداء غاصت في الفوهة المظلمة، فانحنى الكهنة وهم بجانب البلاطة الكبيرة وصخبوا بنشيد جديد يشيدون فيه بأفراح الموت وبالبعث الأزلي.

كان الصبية يرتفعون على الذراع الحديدية ببطء، ولمّا كان الدخان

بارتفاعه يدور كالدردار، فقد كان يُخيل للرائي من بعيد أنهم يختفون وراء الغيم، ولم يكن أحد منهم يقوى على الحركة لأنهم موثقون من أيديهم، وكانت أرجلهم والبرقع القاتم يعيقهم عن الرؤية ويحول دون التعرف إليهم.

أمّا هاميلكار فكان يرتدي رداءه الأحمر ككهنة مولوخ، ويقف قريباً من البعل على أطراف أصابع قدميه، فلمّا دفعوا بالصبي الرابع عشر صدرت عنه انتفاضة رعب تنبه إليها الجمهور، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وصلب يديه وأخذ ينظر إلى الأرض. ومن جهة التمثال الثانية يقف الحبر الأكبر جامداً مثله وهو محني الرأس المثقل بتاج أحشوري يتأمل بصفحة الذهب المعلقة على صدره المغطاة بالحجارة الرمزية التي ينعكس عليها اللهب فتشع بألوان قوس القزح، وهو أصفر اللون مشرد الفكر. وهاميلكار يطأطئ الرأس، وكلاهما جدّ قريب من المحرقة، حتى أن ذيول ردائيهما ترتفع من وقت إلى آخر فتلمس جانباً منها.

أخذ ذراع الصنم النحاسي يسرع في عمله دون توقف، وكلّما وضعوا عليه صبيّاً كلما مدّ كهنة مولوخ أذرعتهم فوق رأسه ليحملوه آثام الشعب وهم يصيحون: «ليس هؤلاء ببشر بل هم بقر»، والجماهير حولهم تردد: «بقر! بقر!»، والمتعبدون يصرخون «كل أيها المولى»، وكهنة «بروسبرين» المدفوعون بعامل الرعب المدركون لحاجة قرطاجة، يرددون الألفاظ الدينية المصطلح عليها فيتمتمون: «اسكب المطر! أولد». ولا يكاد الصبيّ يبلغ حافة الفوهة حتى تتلقفه، فيتبخر كنقطة من ماء على صفيحة محمية، ويتصاعد دخان أبيض ممتزج باللون الأحمر القاني.

غير أنَّ شهية الإله مولوخ لم تخف، بل كان يريد أن يطعم أيضاً، فنزولاً على إرادته ولإعطائه المزيد، وضعوهم جماعة على يديه ووضعوا فوقهم سلسلة حديد ضخمة لتمسك بهم. وأراد المتعبّدون أن يعدوهم في أول الأمر ليعرفوا إذا كان عددهم يوافق أيام السنة الشمسية، ولكنهم أضافوا آخرين إلى الأولين فصعب عليهم تمييز العدد بين الذراعين السريعتين

المرعبتين، ودام هذا طويلاً وإلى ما لا حد له وحتى المساء. ولحظوا أن لون الأجزاء الداخلية قد ازداد قتاماً لأن اللحم لا يزال يحترق، بل إن بعضهم زعم أنه تعرف إلى شعور وأعضاء بل أجسام كاملة.

مضى النهار، وتجمّعت غيوم فوق مولوخ، وأصبحت المحرقة الآن بلا لهب تكوّن أهراماً من الجمر تعلو حتى ركبتيه، والصنم أحمر وبكامل أجزائه كجبار مغطى بالدماء يخيل إلى من رآه، ورأسه منقلب إلى الوراء، أنه سكران ينوء تحت عبء سورته. وكلما زادت سرعة الكهنة كلما زادت حماسة الشعب. وقل عدد الضحايا الباقين، فطلب البعض استبقاءهم أحياء وطلب آخرون المزيد، وكان يخيل أن الجدران المحملة بالناس آخذة بالانهيار تحت صراخ الرعب والتلذذ الروحي. ثم وفد بعض المؤمنين إلى الممرات وجرّوا أولادهم وهم معلّقون بثيابهم والآباء يضربونهم ليتركوا الثياب كي يتمكنوا من تسليمهم إلى الرجال الحمر. وكان الموسيقيون يتوقفون أحياناً عن ضرب الآلات لشدة تعبهم، فيسمع عويل الأمهات وبقبقة الشحم على الجمر. وأخذ شرّاب عصير حشيشة الدجاج يدبون على الأربع ويدورون حول الصنم وهم يزمجرون كالنمور: «الأيدونيم» يرجمون للناس بالغيب، والمتعبّدون يغنون بشفاه مشقوقة، وقد حطموا الحواجز الحديدية، وطالبوا كلهم بنصيبهم في التضحية، وأخذ الآباء الذين فقدوا أولاداً منذ زمن بعيد يرمون إلى النار بصورهم ولعبهم وعظامهم المحفوظة، وانقض الذين كانوا يحملون السكاكين على غيرهم، وتذابح الناس، وجمع خدم الإله الرماد المتساقط على حافة البلاطة، وأخذوا يذرونه في الهواء بالمذاري، حتى تنتثر الضحية على المدينة وتتصل بأرجاء الكواكب.

والواقع أن هذه الجلبة وتلك الأنوار الوهاجة جذبت البربر حتى أسفل الأسوار فاعتلوا بقايا البرج الجبار ليتمكنوا من تدقيق النظر في ما يحدث، فرأوا ما رأوه وأفواههم فاغرة تقززاً واشمئزازاً.

*

14
نهاية البربر

اشتد تكاثف الغيوم قبل أن يأوي القرطاجيون إلى بيوتهم، وأحس الذين كانوا يرفعون رؤوسهم نحو الصنم بقطرات ماء كبيرة تتساقط على جباههم، وانهمر المطر، وظل ينهل غيثاً وسحّاً، والرعد يقصف: كان ذلك صوت مولوخ، فقد غلب تانيت فأخصبها بلقاحه، فهي الآن تفتح من السماء أثداءها الواسعة، وبدا للناس أنهم يلمحونها الفينة بعد الفينة في انقشاع من الغيم ساطع، وهي مستلقية على وسائد من غيم، ثم يعود الظلام فينطبق، فهي لا تزال متعبة يعاودها الوسن. ولمّا كان القرطاجيون يعتقدون أن الماء مولود من القمر فقد أخذوا يرتفعون بالصياح لكي يسهلوا عليه الولادة.

كان الماء يلاطم السطوح ويفيض منها فيكون بحيرات في الأحواش، وشلالات على السلالم، وسيولاً في أركان الشوارع، ينهمر ديماً دافئة ولمحات أمل عجلى، ويتدفق من زوايا المباني سيل منه مزبد، وعلى الجدران أسمطة بيض تبدو منشورة عليها، وأسطح المعابد المغسولة به تلمع لمعاناً أسود عند وميض البرق، وتنحدر المياه من مرتفعات الأكروپول، وهي تشق آلافاً من السبل، وانهارت بيوت على حين فجأة، وشوهدت عوارض من الجص وأثاث تحملها الجداول الجارية باندفاع على البلاط.

وضعوا لتجميع ماء المطر أباريق وجراراً ومنسوجات، ولكن المشاعل كانت تنطفئ، فأخذوا من قبس نيران محرقة البعل، وأخذ القرطاجيون يقلبون رقابهم إلى الوراء ويفتحون أفواههم ليشربوا المطر، ووقف آخرون على حواف برك موحلة يغطسون فيها أذرعتهم حتى الآباط ويكثرون من الشرب حتى يتقيأوا الماء كأنهم الجواميس.

وانتشرت رطوبة الجو فأخذوا يستنشقون الهواء الرطب وهم يمرنون

أعضاء أجسامهم، وامتلأت نفوسهم بأمل لا حد له بتأثير من نشوة هذه السعادة، ونسوا جميع مصائبهم. وأحسّوا بأن الوطن عاد فولد مرة ثانية.

وانبعثت فيهم رغبة بأن يصبوا جام هيجانهم وحنقهم على آخرين لعدم استطاعتهم صبّه على بعضهم، فإن ما قدّموه من ضحايا يجب ألا يضيع سدى، وهم وإن لم يشعروا بتبكيت ضمائرهم فقد اندفعوا كلهم بثورة جنون شاملة كأولئك الذين يتواطأون على ارتكاب جرائم لا تعوض.

استقبل البربر من جهتهم الزوبعة في خيامهم غير المقفولة قفلاً محكماً، ومع أنهم كانوا لا يزالون مبللين بالمطر، فقد أسرعوا منذ الصباح يبحثون عن ذخائرهم وأسلحتهم الضائعة أو التالفة وهم غارقون في الوحل.

انطلق هاميلكار من تلقاء نفسه لمقابلة هنون ليوليه ـ بما له من سلطة ـ قيادة الجيش، فتردد قليلاً لما كان ينازعه من عاطفة الحقد وشهوة الحكم، ولكنه قَبِل بذلك رغم حقده.

وكان هاميلكار أخرج من المرفإ سفينة مسلحة بمنجنيق في كل جنب من جنباتها، فأرساها في الخليج أمام الطوف، وأنزل إلى البحر على مراكب أقوى الجنود وأشدهم مراساً، فهو إذاً يركن إلى الفرار. ثم اتجه إلى الشمال واختفى وراء الضباب. لكن بعد ثلاثة أيام قدم على البربر رجال من الشاطئ الليبي صاخبين فأنبأوهم بأن هاميلكار قد دخل بلادهم وجمع أقواتاً وانتشر جيشه في كل مكان.

اشتد حنق البربر كأنهم يحملون موجدة عليه لفراره منهم، والذين كانوا متأففين لطول الحصار، ولا سيما الغوليون، لم يترددوا بالتخلي عن الأسوار واللحاق به. وأصر سبنديوس على إصلاح برج الحصار الجبار، ووضع ماتو خطة لا مثيل لها للتقدّم من خيمته إلى ميجارا، وآلى على نفسه إلاّ أن ينفّذها، ولم يرد أحد من رجالهما أن يتحرك من مكانه، ولكن الآخرين الذين يقودهم أوتاريت رحلوا تاركين حصار القسم الغربي من الأسوار. وكان الجمود مخيّماً عليهم فلم يفكروا باستبدال الراحلين

بغيرهم في المواقع التي أخلوها.

كان نارهافاس يرقب حركاتهم من الجبال من بعيد، فاغتنم حلول الليل وفرّ بجنوده من جهة المستنقعات الداخلية وسلك طريق الشاطئ فدخل إلى قرطاجة دخول المنقذ على رأس ستة آلاف رجل يحملون بأرديتهم الدقيق، ومعهم أربعون فيلاً محملة علفاً ولحماً مقدّداً. فأحاط القرطاجيون بالفيلة وفرحوا بها أكثر من فرحهم بالنجدة غير المنتظرة، لأنهم كانوا يعدون هذه الحيوانات القوية مكرّسة لمولوخ ويرون في قدومها عربوناً لحنانه ودليلاً على مشاركته لهم في قتالهم.

تقبّل نارهافاس ترحيب القدماء وتحياتهم، ثم اتجه إلى قصر سلامبو، ولم يكن بعد قد رآها منذ الساعة التي قابلها فيها بخيمة هاميلكار يوم أحس بيدها النحيفة الباردة مربوطة إلى يده، لأن سلامبو رجعت بعد عقد الخطبة إلى قرطاجة، ولأنه شغل وقتاً ما عن حبها بمطامع أخرى. والآن، وقد استيقظ حبه يطمع بممارسة حقه بالزواج منها. وعبثاً حاولت سلامبو أن تقنع نفسها بأن مثل هذا الفتى يستطيع أن يصبح يوماً سيداً لها، فإنها وإن كانت تلتمس كل يوم من تانيت أن تمنّ عليها بموت ماتو، إلاّ أن موجدتها عليه قد خفت وأصبحت تحس إحساساً مبهماً بأن ما بدا منه نحوها هو من الدين، وهي ترى في شخص نارهافاس انعكاساً من ذلك الإكراه الذي وقع عليها، والذي لا تزال واقعة تحت تأثيره، ومهما يكن الأمر فهي تريد أن تختبره وتعرف المزيد عنه، ومقابلتها إياه الآن ستزيد من اضطرابها وارتباكها. فردّت معتذرة بأن الواجب يقضي عليها بأن لا تستقبله ولا تراه.

من جهة أخرى، فإن هاميلكار كان قد حظّر على رجاله بأن يسمحوا لابنته بمقابلة ملك النوميديين، لأنه بتأجيله منح هذه المكافأة له يستديم إخلاصه، فعاد أدراجه خوفاً من القائد الزعيم.

أبدى نارهافاس ترفّعاً مع المائة القدماء، فغيّر وبدّل في ما قرروه، وطالب بامتيازات لرجاله، وعهد إليهم بأكثر المناصب أهمية. ودهش

البربر لرؤيتهم النوميديين على أبراج الأسوار، وكانت دهشة القرطاجيين أشد حين رأوا سفينة قرطاجية قديمة تحمل إليهم أربعمائة أسير من رجالهم الذين كانوا أُسروا في حرب صقلية: ذلك أن هاميلكار كان قد أعاد سراً إلى المواطنين الرومانيين رجال بحريتهم الذين أُسروا قبل انتقاض المدينتين الصوريتين، فعاملته روما معاملة المثل وأعادت إليه أسراه، كما أنها رفضت ما عرضه عليها مرتزقة سردينيا لعقد تحالف معهم، كما أبت أن تعد سكان أوتيك من رعاياها.

كان لهذه المعاملة أثر في موقف «هيرون»» حاكم سرقسطة، فإنه رأى وجوب حفظ التوازن بالقوة بين روما وقرطاجة لكي يمكنه الاحتفاظ بأقاليمه، وأن مصلحته تقتضي سلامة الكنعانيين، فأظهر صداقته نحوهم بأن أرسل إليهم ألفاً ومائة ثور وثلاثة وخمسين «نوبلاً» من القمح النقي الخالص.

على أن هناك أسباباً أبلغ عمقاً وأبعد أثراً حفزت بالرومان وغيرهم إلى نصرة قرطاجة، فإنهم قدّروا أن انتصار البربر سيفضي إلى ثورات يقوم بها الوضعاء، من الجندي إلى غاسل القصاع، ممّا يعم شره كل حكومة وكل بيت.

في هذه الأثناء كان هاميلكار يتنقل في الأقاليم الشرقية فيهزم الغوليين، ويصبح البربر أنفسهم شبه محصورين، ثم ينهك قواتهم ويطاردها، فيقترب منهم ثم يبتعد مرة بعد مرة حتى فصلهم شيئاً فشيئاً عن معسكراتهم، فاضطر سبنديوس إلى اللحاق بهم، وتبعه ماتو بعد لأي، ولكنه لم يتجاوز تونس بل قبع وراء أسوارها لحكمة منه، ولم يلبث نارهافاس أن خرج بفيلته وجنوده من باب خامون استجابة لطلب هاميلكار، ولكنه لم يلتحم مع البربر بقتال لأنهم كانوا يهيمون في الأقاليم بحثاً عن القائد الزعيم.

تلقّى هاميلكار بعد ذلك نجدة من ثلاثة آلاف غولي، وجلب فيلة من القيروان وشكات سلاح من بروسيوم، فاستأنف القتال. ولم تكن عبقريته

يوماً بأشد خصوبة مما هي عليه اليوم، فقد جرّ البربر وراءه مدة خمسة أشهر قمرية، تحقيقاً لغرض يرمي إليه، في مكان يعرفه هو وحده.

حاول البربر بادئ ذي بدء أن يطوّقوه بفصائل صغيرة، فكانت يفلت دائماً من أيديهم، فلم يعودوا إلى التفرّق. وكان تعداد جيشهم نحواً من أربعين ألف جندي يتقهقر القرطاجيون أمامه كلما التقوا به فيطرب البربر لهذا التقهقر. وكان فرسان نارهافاس يناوشونهم ويقلقون راحتهم. ففي أثقل ساعات النهار، وهم يتقدّمون في السهول، والنعاس يغالبهم، والأسلحة تشل كواهلهم، يفاجأون برؤية خط عريض من مثار الغبار يرتفع في الأفق، وبخيل تقبل عدواً، وبمطر من الحراب ينهل عليهم من غيم مليء بحدقات العيون المتلألئة لا يلبث أن ينقشع عن النوميديين، وهم بأرديتهم البيض يطلقون الصيحات ويرفعون الأذرع، ويشدون بركبهم على أصائل جياد مغبرة، لا يلبثون أن يلووا أعناقها ويختفوا عن أعينهم، ولدى هؤلاء الفرسان على مسافات قريبة وعلى ظهور خيلهم مخزنات من الحراب يتناولونها ثم يعيدون الكرة. وهم أشد هولاً يعوون عواء الذئاب، ويسرعون في الفرار كالعقبان. والبربر السائرون في آخر الصفوف يتساقطون واحداً بعد واحد، وهكذا ينقضي النهار ويحل المساء فيتغلغلون في شِعاب الجبال.

سلك هاميلكار طرق الجبال، ولو أن في سلوكها خطراً على الفيلة، وأخذ يجتاز السلسلة الطويلة التي تمتد بين مرتفع «هارموم» وبين قمة جبل «زجوان»، وجنوده يعتقدون أن في ذلك تغطية لقلة عدد جيشه. وأوشك الشك الذي يساورهم أن ينال منهم أكثر مما تناله كل هزيمة، على أنهم لم يفقدوا شجاعتهم بل ظلوا سائرين وراءه.

وأخيراً، وفي مساء يوم، بين جبل الفضة وجبل الرصاص، وفي وسط جلاميد من الصخور، وعلى مدخل مضيق، فاجأ البربر فرقة من المشاة الخفاف، فلم يشكوا بأن الجيش كله يتقدّمها، لأنهم يسمعون وقع أقدام وأصوات وأبواق، وعجل القرطاجيون بالهرب دون تردّد سالكين المضيق

الذي كان يفضي إلى سهل شبيه الشكل بحديد الفأس، تحدق به أجواف صخرية عالية، فدخل البربر في المضيق ليطاردوا المشاة، وبدا أمامهم في أقصى المضيق ثيران تجري وحولها قرطاجيون يجرون ويضحكون، ولمحوا رجلاً مرتدياً رداء أحمر ظنوه الزعيم، فأخذوا يتنادون باسمه، ودفعهم نحوه دافع من فرح وحنق، وظل بعضهم واقفاً عند مدخل المضيق لكسلهم أو لحذرهم، ولكن كوكبة من الفرسان خرجت من غابة فدفعتهم وراء الآخرين بطعن الحراب وضرب السيوف، فأصبح البربر جميعاً داخل المضيق في السهل.

اضطربت هذه الكتلة البشرية قليلاً، ولمّا لم تجد مخرجاً وقفت وسط السهل. وعاد أقرب الجند من المدخل أدراجهم، ولكنهم وجدوا المدخل قد اختفى، فنادوا على المتقدمين يطلبون منهم متابعة المسير إلى الأمام، فتراصوا في أسفل الجبل حتى كاد بعضهم يسحق بعضاً، وأخذوا يتراشقون بالشتائم لعجزهم عن الاهتداء إلى مخرج. ذلك أنه لم يكد البربر يتوغّلون حتى أسرع رجال مختبئون بدحرجة الصخور يزيحونها من أماكنها بعوارض قوية، ولمّا كان المنحدر هاوياً فسرعان ما سدت هذه الصخور فوهة المضيق سدّاً محكماً لتراكمها.

كان طرف السهل الآخر ينتهي إلى ممر طويل تتخلّله شقوق تفضي إلى مجرى سيل يمتد صعداً حتى النجد الأعلى حيث كان الجيش القرطاجي، وفي هذا الممر، وعلى جوانب الجبل، وضعوا قبل ذلك سلالم، فاستطاع المشاة الخفاف وهم محتجبون في سيرهم عن عيون البربر بشعاب الجبل أن يصلوا إلى هذه السلالم ويتسلقوها، والذين توغلوا في مجرى السيل رفعوهم إلى النجد بالحبال، لأن الأرض كانت هناك رملية رخوة وشديدة الانحدار يستحيل تسلقها حتى زحفاً على الركب، ووصل البربر إثر المشاة، ولكن محراثاً ضخماً يعلو أربعين ذراعاً صنع خصيصاً هبط أمامهم من شاهق فسد الممر، كما لو أن حاجزاً قد سقط من السماء.

هكذا نجحت مكيدة القائد الزعيم لأن أحداً من المرتزقة لم يكن

يعرف ذلك الجبل وهم يسيرون في الطليعة، فجرّوا الآخرين إلى هذا المأزق، بينما كان الجيش القرطاجي يرسل من الأفق الأعلى صيحات اليأس. وقد كان من الممكن أن يخسر هاميلكار فرقة مشاته كلها، ولكن نصفهم فقط ظل في المضيق ولو دعت الحال لضحّى بكثير أكثر لنجاح خطته.

ظل البربر حتى الصباح يتزاحمون متراصّين في طرف السهل وهم يتحسسون جوانب الجبل بأيديهم، علهم يجدون مخرجاً، وطلع النهار فرأوا حولهم في كل مكان جداراً أبيض كأنه منحوت بالمنقار، فلا سبيل إلى النجاة ولا أمل! فإن مخرجي هذا المأزق كانا مقفلين بالصخور وسكة المحراث، فنظر بعضهم إلى بعض واجمين وانكمشوا على أنفسهم وأحسوا ببرد الجليد في كلاهم وبثقل في جفونهم، على أنهم وثبوا على الصخور فلم تتزحزح لضغط العليا منها على السفلى، فحاولوا التسلق عليها لبلوغ القمة فعجزوا لأنها كانت بشكل بطون منتفخة، وأحبوا أن يشقوا سبيلاً من الطرفين فتحطمت أدواتهم، وأشعلوا ناراً قوية من عمد خيامهم، ولم تكن النار لتقوى على حرق الجبل!

اتجهوا إلى النورج (سكّة الحرّاث) فوجدوه مليئاً بمسامير طويلة، غليظة كأعواد الرماح، حادة مسنونة كرؤوس حراب القنفذ ومضمومة كشعور الفرش، ولكنهم أصروا على الصعود عليه فغاص الأولون فيه حتى فقار ظهورهم، وعلا الآخرون فوقهم، ولكنهم سقطوا كلهم تاركين على فروعه المرعبة نثرات من اللحوم البشرية وخصلاً دامية من شعورهم.

ولما زال عنهم بعض اليأس أخذوا يفتقدون ما لديهم من المؤن، فالمرتزقة وقد فقدوا أمتعتهم، يملكون زاد يومين أو أقل، والآخرون لا زاد عندهم لأنهم كانوا ينتظرون وصول مؤن من قرى الجنوب.

وبدت لهم الأبقار السارحة التي تركها القرطاجيون فقتلوها طعناً برماحهم، وملأوا بطونهم، فأصبحت أفكارهم أقل ظلاماً. وفي الصباح الباكر ذبحوا البغال الأربعين وكشطوا الوبر عن جلودها وغلوا أحشاءها

ودقوا عظمها، وظلوا يعللون النفوس بقدوم جيش تونس لنصرتهم، لأنه لا بد قد عرف بما وقع لهم.

اشتد الجوع عليهم في اليوم الخامس فأكلوا حمائل السيوف وقطع الإسفنج المبطنة بها حوافي خوذهم من الداخل. هؤلاء الأربعون ألف رجل مزدحمون في ميدان يحدق به الجبل من كل صوب. واستقر بعضهم في جانب النورج أو عند أسفل الصخور، وغطّى الآخرون السهل، وأخذ الأقوياء يجتنب بعضهم بعضاً، وضعاف النفوس يلجأون إلى الشجعان مع علمهم بعجزهم عن إنقاذهم. وكانوا قد دفنوا جثث قتلى المشاة القرطاجيين فاختفت الحفر التي دفنوهم فيها.

تملّك البربر بعد ذلك الضنى والذبول، وانطرحوا على الأرض مستلقين وهم يصبون اللعنات على القرطاجيين وعلى هاميلكار حتى على ماتو، وإن لم يكن له شأن في مصابهم، لما خُيل إليهم من أنه لو اشترك معهم فيه لخفّت عليهم وطأته. وكانوا يشهقون بل إن بعضهم يبكون بصوت منخفض مثل صغار الصبية، ويهرعون إلى ضباطهم يلتمسون منهم شيئاً يخفف من آلامهم، فلا يردون عليهم جواباً، بل قد يأخذهم الغضب فيلتقطون حجارة ويرمونهم بها في وجوههم.

كان الكثير منهم يخبئون في نقرة من الأرض بعض الأقوات، كمثل ثمرات من التمر وقليل من الدقيق، فيتناولون منها في أثناء الليل وهم يغطون رؤوسهم بأرديتهم وسيوفهم مسلولة في أيديهم، وأشدهم يقظة وحذراً يأكل واقفاً وظهره مستند إلى الجبل.

وبدأوا يجأرون بالشكوى من ضباطهم ويهددون، وأوتاريت يخشى الظهور أمامهم، بل يغدو ويروح عشرين مرة في النهار نحو الصخور، مدفوعاً بعامل العناد الذي اشتهر به البربر، على أمل أن يرى تلك الصخور مزحزحة من أماكنها، وهو يؤرجح على كتفيه الجلود الثقيلة المغطاة بالغراء كدب خرج من كهفه في أوائل الربيع ليتحقق بعد سباته من ذوبان الثلوج.

كان سبنديوس قد اختبأ في شق من الشقوق وحوله الإغريق، وأذاع، لشدة خوفه، نبأ موته، وأصبحوا على هزال مخيف، وطفت على جلودهم بقع مزرقة، ومات منهم في مساء اليوم التاسع ثلاثة من «الأيبوريين»، وذعر رفاقهم فتركوا جثثهم حيث كانت بعد أن جردوها من الملابس، وظلت هذه الأجسام البيض العارية على الرمال تحت الشمس.

راح الجنود «الجرامنت» يحومون حولها، وكانوا رجالاً قد ألفوا العيش في الوحدة والعزلة، لا يحترمون إلهاً ولا يمارسون عبادة، وترددوا قليلاً ثم أشار أكبرهم سنّاً إلى جماعته، فانحنوا على الجثث يقطعون لحومها بمداهم، وجلسوا القرفصاء، وأخذوا يأكلون والآخرون ينظرون إليهم من بعيد، فعلت صيحات الاستهجان والاستفظاع، ولكن الكثيرين كانوا يحسدونهم في قرارة نفوسهم على جرأتهم.

عند منتصف الليل أقبل بعض هؤلاء وطلبوا منهم قطعاً صغيرة يتذوقونها، وتبعهم رجال أكثر جرأة فأصبحوا جمهوراً، فكان نفر منهم إذا أحس بطعم هذا اللحم البارد بين شفتيه ألقاه على الأرض، وآخرون يجدون فيه لذة فيزدردونه. وأخذ البعض يشجع البعض الآخر، فأصبح الجندي الذي يذهب لزيارة الجرامنت لا يعود، وكانوا يشوون قطع اللحم على الجمر وهي مشكوكة برؤوس سيوفهم ويملحونها بالتراب ويتخاطفون أكثرها جودة، ولما نفد لحم الجثث الثلاث أخذوا يبحثون عن غيرها.

تذكّروا أن لديهم أربعين أسيراً قرطاجيّاً أسروهم في المناوشة الأخيرة، فما عتم هؤلاء أن اختفت آثارهم. ولا بد لهم أن يظلوا أحياء، ونوع هذا الطعام قد اعتادته معدهم، فذبحوا حملة المياه وسياس الخيل وجميع خدم القرطاجيين، وأصبح لديهم كل يوم ذبيح جديد، وأكثر بعضهم من الأكل فعاد إليهم النشاط وزالت عنهم الكآبة.

نفدت بعد فترة مصادر هذه اللحوم، فاتجهت شهوتهم إلى الجرحى والمرضى، وقالوا لأنفسهم، ليحللوا فعلتهم: «هؤلاء كلهم لا أمل لهم

بالشفاء، فجدير بنا أن ننقذهم من عذابهم» وهكذا أصبحوا إذا رأوا رجلاً خائر القوى صاحوا لا أمل بشفاء هذا فهلم ننقذ بموته الآخرين. وتعجيلاً لذبح أمثال هؤلاء كانوا يلجأون إلى الحيل فيسرقون منهم قليلاً من الطعام الباقي لديهم ليزدادوا ضعفاً، أو يدوسونهم بأرجلهم وهم يتظاهرون بأنهم لم يتعمدوا ذلك، والمحتضرون يجتهدون بأن يمدوا أذرعتهم أو ينتصبوا واقفين أو يقهقهوا ضاحكين ليظهروا أنهم لا يزالون أقوياء، وكم من أناس أغمي عليهم فاستيقظوا للمس نصل مسنن ينشر عضواً من أعضائهم، وأفظع من هذا أنهم كانوا يقتلون عن ضراوة ومن غير ما حاجة إلى أن يشبعوا شهوة هيجانهم وضعفهم.

وأطبق على الجيش في اليوم الرابع عشر ضباب ثقيل دافئ، وذلك ما يحدث عادة في هذه الأقطار في أواخر الشتاء، فسبب هذا موت الكثيرين، وسرعان ما كان يطرأ على الجثث الفساد بعامل الرطوبة الساخنة التي تحتفظ بها جنبات الجبل، فالرذاذ المتساقط على الجثث كان يكسبها رخاوة فاستحال السهل إلى حمأة من النتانة، والبخار الأبيض ينتشر فوقه فيقرص الأنوف ويخترق الجلد ويهيج العيون. والبربر يتوهمون بأنهم يرون من خلال هذا البخار أنفاساً تتصاعد هي أرواح رفاقهم، فتقززوا من الحياة وأصبحوا يؤثرون الموت.

صفا الجو بعد يومين وعاد الجوع يعضهم بنابه، فهم يشعرون أحياناً أن هناك أيدياً تمزق أحشاءهم بالكلاليب، فيرتمون على الأرض متقلبين متشنجين، ويضعون في أفواههم حفنات من تراب ويعضون على أذرعتهم ويسترسلون في ضحك عصبي تشنّجي.

وأجهدهم العطش وزاد في تعذيبهم أكثر من الجوع، فليس لديهم قطرة ماء واحدة، لأن ماء القرب كان قد نضب منذ اليوم السابع، ولتخفيف حدته أخذوا يضعون على ألسنتهم الأصداف الحديدية المثبتة في أحزمتهم، وقبضات سيوفهم العاجية وحديد حرابهم. وحوذيّو القوافل الأقدمون يشدون بطونهم بالحبال، وغيرهم يمتص الحصى أو يشرب

البول المبرد في الخوذ.

كانوا لا يزالون ينتظرون قدوم جيش تونس، وطول وقت قدومه دليل على قربه، و«ماتو» الشجاع المقدام لا ينساهم فهو قادم غداً. وجاءت الغداة ولم يجئ ماتو.

رفعوا في البدء الصلوات والنذور، ورقوا الرقى، فأصبحوا الآن لا يكنون للآلهة سوى البغضاء وأصبحوا لا يفكرون بهم لينتقموا منهم.

كان أول الهالكين ذوو الطباع الحادة. وقوة الاحتمال عند الإفريقيين كانت أشد منها عند الغوليين، وزركساس بين الباليار متمدد على طول جسمه، وشعره فوق ذراعه وهو ساكن بلا حراك. ووجد سبنديوس عشبة ذات أوراق عريضة، حلوة العصير غزيرته، فأخذ يتغذى بها ويوهم الجند أنها سامة ليستأثر بها وحده.

اشتدّ بهم الضعف فلم يقووا على صيد الغربان الحائمة بالحجارة. وكان يحدث أحياناً أن كاسراً من عقبان الطير ينقض على جثة فيطيل في تمزيقها فيزحف نحوه رجل وحربته بين أسنانه ثم يستند إلى إحدى يديه ويسدد الرمية ويقذفه بالحربة، فينتفض الطائر ذو الريش الأبيض قليلاً لصوت الحربة ويتوقف عن النقر ويجيل بنظرة حواليه وهو هادئ، كعلجوم واقف على صخر في البحر، ثم يعود إلى تغطيس منسره الأصفر البشع في الأحشاء، ويسقط الرجل على الحضيض منكباً على بطنه. وتوصل بعضهم إلى اكتشاف حيات وضباب، ولكن الذي كان يبعث فيهم الحياة هو حب الحياة، وكانوا يعلقون نفوسهم على هذا وحده، ويتعلقون بالوجود بمجهود من إرادة يديمون بذله.

كان يجلس أشد الرجال صبراً على المكاره الواحد إلى جانب الآخر في حلقات في وسط السهل، هنا وهناك بين الأموات، وهم ملتحفون بأرديتهم مستسلمون إلى غمهم، والذين ولدوا في المدن يتذكرون الشوارع الصاخبة المدوية والحانات والمسارح والحمامات ودكاكين الحلاقين، حيث كانوا ينصتون إلى الأقاصيص. ويستعيد غيرهم إلى

أذهانهم مناظر الحقول عند غياب الشمس عندما تتماوج السنابل الصفر، وتعود ضخام الثيران تتسلق الآكام، وعلى رقابها سكك المحاريث، ويحلم ذوو الأسفار بالآبار، والصيادون بغاباتهم، وقدماء الجند بالمعارك. وفي استرخائهم المخدر هذا كانت أفكارهم تصطدم بثورة الأحلام ووضوحها، وتضفي عليهم على حين فجأة تخيلات وهمية فيسيرون مع الأوهام باحثين في الجبل عن مخرج ثم يهمون بالخروج منه، وآخرون يتصوّرون أنهم مسافرون بحراً في يوم عاصف وقد عهد إليهم بتسيير السفينة، أو يرتدون رعباً إلى الوراء لرؤيتهم كتائب قرطاجة بين الغيوم، وغيرهم يتصورون أنهم في وليمة فيأخذون بالغناء.

والواقع أن كثيرين منهم أصيبوا بلوثة غريبة فأخذوا يرددون الكلمات نفسها، أو يبدون مكررين الحركات ذاتها، وكانوا إذا رفعوا رؤوسهم ونظر بعضهم إلى بعض تخنقهم الزفرات لرؤيتهم ما حلّ بوجوههم من التلف، وآخرون لم يعودوا يحسون بالآلام يزجون الوقت بتعداد الأخطار التي أفلتوا منها.

وأيقنوا بالموت المخيف العاجل، فقد كثر ما حاولوه عبثاً لفتح مخرج ينفذون منه، وهم لا يعرفون السبيل إلى التماس شروط الغالب حتى ولا أين هو هاميلكار.

كانت الريح تهب في جهة مجرى السيل فتسفي عليهم الرمال من فوق النورج كشلالات ودون انقطاع فتغطي أرديتهم وشعورهم، كما لو أن الأرض علت فوقهم لتدفنهم تحتها. وكل شيء جامد لا يتحرك، والجبل الأبدي يبدو لهم كل صباح أشد علوّاً من ذي قبل، وتمر فوقهم أحياناً أسراب من الطيور مبسوطة الأجنحة في كبد السماء الزرقاء وفي حرية الأجواء فيغمضون عيونهم حتى لا يروها.

كان الواحد منهم يحس طنيناً في أذنيه وتسودّ أظفاره ويسري البرد إلى صدره فينام على جنبه ثم يتمطى دون أنين.

وقد بلغ عدد الموتى في اليوم التاسع عشر ألفي آسيوي وألفاً

وخمسمائة من أبناء جزر الأرخبيل وثمانية آلاف ليبي، كما مات جميع صغار السن من المرتزقة، وقبائل كثيرة من الرحّل، وتعداد ذلك جميعه عشرون ألف جندي أي ما يعادل نصف الجيش.

فكّر أوتاريت بالانتحار إذ لم يبق له إلاّ خمسون رجلاً من الغوليين، وإذا به يلمح شيئاً على قمة الجبل ظنه رجلاً، ولعلوّ القمة كان يبدو قزماً، ورأى على ذراعه اليمنى ترساً على شكل زهرة الحندقوق فصرخ قائلاً: قرطاجي! فانتصب الجنود كلهم واقفين في السهل أمام الصخور وأمام النورج، والرجل يمشي على شفير الهاوية والبربر ينظرون إليه من الأسفل.

التقط سبنديوس رأس ثور وأخذ حزامين لف كلاًّ منهما على شكل تاج وعلقهما على قرني الثور، ثم رفع الرأس على سنان رمح. وتلك دلالة على نواياهم السلمية. واختفى القرطاجي وظلوا ينتظرون.

أخيراً، وعند المساء، سقطت حمالة سيف من قمة الجبل كأنها حجر، وكانت مصنوعة من الجلد الأحمر موشاة مزركشة وعليها ثلاث نجوم من الماس مختومة في الوسط بشارة المجلس الكبير وهي: «جواد تحت نخلة» كان ذلك جواب هاميلكار وسمة الأمان الذي يرسله إليهم.

وما هو الذي كانوا يخشونه؟ فإن كل تغيير يطرأ على حالتهم الراهنة تكون به نهاية مصائبهم؟! فهزتهم نشوة الفرح وأخذوا يتعانقون، وقبلوا ما عرضه عليهم سبنديوس أن يكون وفد المفاوضين مؤلفاً منه ومن أوتاريت وزركساس ومن زنجي وأربعة إيطاليين وإسبارطيين، ولكنهم لم يهتدوا إلى سبيل يوصلهم إلى القرطاجيين. وإذا بقرقعة تدوي من جهة الصخور، وإذا بالصخر الأعلى يتحرك ثم يهوي، لأنه إذا كان لا يمكن زحزحة هذه الصخور من جهة البربر لتراكمها في محل ضيق، فقد كان ذلك ممكناً من الجهة الأخرى بأن تدفع دفعاً شديداً فتتهاوى. وهكذا فعل القرطاجيون فأصبحت هذه الصخور مندفعة إلى الأمام في السهل كأنها درج سلم طويل متداع، ومع هذا لم يستطع البربر أن يتسلقوا عليها، فمدوا لهم سلماً فتهافتوا عليه، ولكن رمية من حجارة المنجنيق أوقفتهم ولم يسمح

بالصعود إلاّ للعشرة المفاوضين، فساروا بين فرسان الكليناباار وهم يستندون على أكفال الخيل لئلا يسقطوا لشدة إعيائهم.

طلع الصباح وقد حل التفكير محل الفرح، وأصبحوا قلقين لما كانوا يتوقعونه من قسوة شروط هاميلكار، فسكن سبنديوس قلقهم بقوله «أنا الذي سيتكلم»، وأخذ يفخر بأنه يعرف ما سيقوله من الكلام المعسول لينقذ الجيش. وتبيّنوا وهم سائرون أن وراء كل عوسجة حارساً يترصد، فإذا مروا أمامهم سجدوا لحمالة السيف التي يضعها سبنديوس على كتفه.

حين وصلوا إلى معسكر القرطاجيين احتشد الجنود حولهم، وتعالت الهمسات والضحكات، ثم فتح باب خيمة وظهر هاميلكار جالساً في أقصاها على موطئ بالقرب من منضدة وطيئة، عليها حسام مسلول، وحوله ضباط يحيطون به.

عندما لمح هؤلاء الرجال بدت منه حركة ارتداد إلى الوراء، ثم مال نحوهم يتفحصهم: فحدقات عيونهم متمددة إلى أبعد حد، وما حول أعينهم هالات سود كبيرة تمتد حتى أطراف آذانهم، وأنوفهم المزرقة ناتئة بين خدودهم المجوفة التي شققتها الغضون، وجلود أجسامهم أوسع مما يجب لاحتواء عضلاتهم، وهي مغطاة بتراب بلون ألواح الحجر الأسود المزرق، وشفاههم لاصقة بأسنانهم الصفر، ومنهم تتصاعد رائحة كريهة حتى كأنهم قبور متفتحة أو أضرحة حية.

في وسط الخيمة، وفوق حصيرة معدة لجلوس الضباط، صحن كوسى يتصاعد منه البخار، فعلقت به عيون البربر وهم يرتجفون والدمع يترقرق بين جفونهم، ولكنهم تمالكوا أنفسهم.

مال هاميلكار برأسه فتحدث إلى أحد الضباط، وإذا بهم يرتمون على الصحن منبطحين على بطونهم، ووجوههم تتلوث بالدهن، وأصوات البلغ تمتزج بزفرات الفرح التي كانوا يصعدونها. وتركوهم يلتهمون ما في الصحن، مدفوعين بعامل من دهشة لا بعاطفة من شفقة، حتى إذا انتهوا وقفوا، فأمر هاميلكار حامل الحمالة بإشارة منه أن يتكلم، وكان سبنديوس

خائفاً، وأخذ يتلعثم وهاميلكار يدير في أصبعه خاتمه الذهبي الكبير الذي ختم به وبخاتم قرطاجة حمالة السيف، فتركه يسقط من أصبعه على الأرض، فأسرع سبنديوس بالتقاطه لتغلب طبع العبد عليه أمام سيده، فانتفض رفاقه استنكاراً لضعفه.

رفع الإغريقي صوته وأخذ يعدد جرائم هنون لمعرفته بالعداء المستحكم بينهما، ويجتهد في أن يثير في قلبه الشفقة بتفصيل المصائب التي نزلت بهم وبتذكيره بإخلاصهم له، وأسهب في الكلام مسرعاً مخادعاً، بل ومحتدّاً حتى لم يعد يتميز ما يقول لاندفاعه مع حرارة فكره. وأجاب هاميلكار بأنه يقبل اعتذارهم، فاستنتجوا من كلامه أن الصلح واقع وأنه سيكون صلحاً نهائيّاً. ولكنه تشدد بطلب تسليمه عشرة منهم عزّلاً من السلاح، مجردين من لباسهم الحربي يختارهم هو.

لم يكونوا يتوقعون أن يبلغ به الحلم هذا المبلغ، فصاح سبنديوس «بل عشرين أيها السيد إذا كانت تلك إرادتك».

أجاب هاميلكار بلين «بل يكفيني عشرة فقط».

أخرجوهم من الخيمة كي يتشاوروا فيما بينهم، فلما أصبحوا منفردين احتج أوتاريت على تضحية الرفاق، وقال زركساس لسبنديوس: «لِم لم تقتله فقد كان سيفه هناك قريباً منك؟».

صاح سبنديوس: «أقتله! هو. هو» وكرّر هذه الكلمات مراراً كما لو كان ذلك مستحيلاً، وكأن هاميلكار خالد لا يموت.

اشتدت عليهم دواعي الإعياء فارتموا على الأرض مستلقين على ظهورهم حيارى لا يدرون ما يصنعون، وسبنديوس يلح عليهم بالقبول، فقبلوا بعد جهد، وعادوا إلى الخيمة.

وضع هاميلكار يده في يد البربر العشرة واحداً بعد واحد، وهو يشد على أباهمهم، ثم فرك يده على ثوبه لأن لمس جلودهم اللزجة أحسه بخشونة ورخاوة وسبّب لكفه نملاً تقزّز منه. ثم قال لهم:

- «أنتم كلكم رؤساء البربر، أليس كذلك؟ وقد أقسمتم باسمهم وبالنيابة عنهم».

فأجَابوا «نعم».

- «وقسمكم صادر بدون إكراه ومن أعماق نفوسكم وبنية تنفيذ ما تعهّدتم به».

أكدوا له بأنهم سيعودون إلى رفاقهم لينفذوا ما تعهدوا به، فقال لهم:

- «بناء على هذا الاتفاق الذي عقد بيني، أنا باركا، وبينكم أنتم، مندوبي المرتزقة المفوضين، قد اخترتكم أنتم، وها إني أحتفظ بكم».

سقط سبنديوس على الأرض مغمى عليه، وتراجع الآخرون عنه منضمين إلى بعضهم وكأنهم قد خذلوه، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة أو يرسل شكوى.

استبطأ البربر رفاقهم، ولمّا رأوا أنهم لم يعودوا رموهم بالخيانة، وقالوا لا شك بأن المندوبين قد انضموا إلى الزعيم. وانتظروهم مدة يومين، وفي صباح اليوم الثالث عقدوا العزم على الرحيل، فجمعوا الحبال والرماح والنبال واتخذوا من هذه درجاً ربطوه بأطمار من قماش، فأمكنهم أن يتسلقوا الصخور تاركين وراءهم نحواً من ثلاثة آلاف من الضعفاء ومشوا لينضموا إلى جيش تونس.

وفي أعلى المضيق مرج نمت فيه هنا وهناك شجيرات، فارتموا عليها يأكلون طلعها وبراعمها، ثم مروا بحقل مزروع فولاً فمحوا نباتاته كما لو أن سحابة من جراد قد مرّت به، وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى نجد ارتفع على جنباته نطاق من تلال خضر، فأبصروا بين تموجات هذه التلال باقات بلون الفضة متباعد بعضها عن بعض، ولمحوا لمحاً، وقد بهرت السحب عيونهم تحت هذه الباقات، كتلاً سوداً كثيفة تحملها ما عتمت حتى وقفت كأنها تتفتح وإذا بها رماح في أبراج على ظهور فيلة مسلحة تسليحاً مخيفاً.

بدا كأنَّ الحراب المثبتة في صدور الفيلة ومثاقب أنيابها والمصفحات النحاسية لخواصرها والخناجر المشكوكة في أغطية ركبها لم تكن كافية للتقتيل، فركبوا في أطراف خراطيمها أساور من جلد أثبتت فيها سواطير

عريضة، وأخذت هذه الفيلة تتقدم من أقصى السهل في صفين متقابلين.

نزل بالبربر رعب لا سبيل إلى وصفه، ولم يحاولوا الهرب لأنهم أصبحوا مطوقين وسط هذه الكتلة من الرجال، فأخذت مهاميز صدورها تجزئهم، وأسنة أنيابها كسكك المحاريث تحرثهم، ومناجل خراطيمها تقطعهم وتمزقهم وتحصدهم، وأبراجها المليئة بشعل النار تبدو كبراكين تمشي، ولا ترى العين إلاّ كومة واسعة يبدو اللحم فيها نقطاً، وقطع النحاس صفائح غبراً، والدماء بركاً حمراً، وتمر الفيلة وسط هذه الكومة فتحفر فيها أثلاماً سوداً. وكان أشدها حنقاً نوميدي على رأسه تاج من ريش يقذف بحرابه بسرعة مخيفة، وهو يرسل صفيراً حاداً طويلاً بين الفينة والفينة، وهذه الحيوانات الضخمة المطيعة كالكلاب تميل نحوه بعين في أثناء تلك الملحمة.

راحت حلقتها تضيق شيئاً فشيئاً، والبربر المستضعفون لا يبدون مقاومة، ووصلت الفيلة إلى وسط السهل وضاق عليها المجال، فازدحمت حتى اضطرت إلى رفع قائمتيها الأماميتين وتلاحمت أنيابها، وأقبل نارهافاس يهدّئها ثم لوى عنان جواده فعادت الفيلة تخب نحو التلال.

احتمت فصيلتان من الإغريق في ثنية إلى اليمين وألقتا سلاحهما، وجثا رجالهما على ركبهم متجهين بعيونهم إلى خيام القرطاجيين رافعين أذرعتهم مسلمين طالبين العفو، فأوثقوهم بأيديهم وأرجلهم وطرحوهم على الأرض الواحد بجنب الآخر، وردّوا عليهم الفيلة، فأخذت الصدور تقعقع كصناديق الخشب التي تحطم، وكل قائمة من قوائم الفيلة كانت تسحق جنديين، وإذا غاصت قوائمها في الأجسام بحركة من أوراكها بدت كأنها تعرج، وظلت تسحق الأجساد حتى انتهت.

عاد مستوى السهل كما كان، لا حركة فيه، وأقبل الليل وهاميلكار ينعم برؤية مشهد انتقامه، وإذا به ينتفض. ذلك أنه أبصر، كما أبصر غيره على مسافة ستمائة قدم منه، على اليسار وعلى تل، رجالاً من البربر لا يزالون

أحياء. كانوا نحواً من أربعمائة من الأشداء من مرتزقة الأوترسك والليبيين والإسبرطيين لجأوا منذ البدء إلى المرتفعات ووقفوا عليها حتى الساعة مترددين، فلمّا رأوا المذبحة التي أوقعها القرطاجيون برفاقهم صمموا على شق طريق لهم في قلب جيشهم، وها هم الآن بدأوا ينحدرون بصفوف متراصة وبشكل مدهش ومرعب.

عندئذ أرسل إليهم القائد الزعيم رسولاً يقول لهم إنه يقبل تسليمهم دون أن يشترط عليهم شروطاً لإعجابه ببسالتهم، وإنه يمكنهم أن يقتربوا من مكان حدده لهم حيث يجدون أقواتاً، فهرع البربر إلى ذلك المكان وصرفوا الليل وهم يأكلون. فسرت بين القرطاجيين شائعات يؤاخذون بها الزعيم لمحاباته للمرتزقة. فهل استجاب الزعيم لداع من بغضاء دفينة تأصّلت في نفوس القرطاجيين؟ أم أحب أن يتفنن في الغدر؟ فإنه أقبل في الغداة على المرتزقة وهو عاري الرأس أعزل، ومعه حرس من فرسان الكليناباريس وقال لهم إن لديه كثيراً من الرجال ولا يعرف كيف يوفّر لهم الأقوات، ولذلك فهو لا ينوي أن يستبقيهم، ولكنه مع ذلك بحاجة إلى الجند ولا يدري كيف ينتقي الأشداء، فلذلك يأمرهم بأن يتقاتلوا فيما بينهم حتى الموت، ومن خرج منهم سالماً من هذا الصراع فسيلحقه بحرسه الخاص، والموت على هذه الصورة لا يفرق عن الموت بشكل آخر، ثم نحّى جنده لأن أعلامهم كانت تخفي الفيلة، وأشار بيده إلى الألف والمائتين والاثنين والتسعين فيلاً التي جاء بها نارهافاس المصطفة إلى اليمين بخط مستقيم، والتي كانت خراطيمها تحمل حديداً عريضاً، فتشبه أذرعة جبابرة يرفعون فوق رؤوسهم فؤوساً.

نظر البربر بعضهم إلى بعض واجمين، وما كان الموت يخيفهم بل هذا الخيار الذي فرض عليهم، فإن عيشهم معاً أوجد بينهم صداقات عميقة! فالمعسكر عند أكثرهم يعوضهم عن الوطن، وعيشهم دون أسرة يصرف إلى صديق حاجتهم إلى الحنان، وهم ينامون جنباً إلى جنب تحت رداء واحد وعلى ضياء الكواكب وفي خلال تطوافهم الدائم في البلاد، أفاقين

سفاحين، نشأت بينهم علاقات خليعة منحرفة تقوم عندهم مقام الزواج، فالقوي يدافع عن الضعيف في ميدان القتال ويعاونه على اجتياز الوهاد، ويمسح عن جبينه عرق الحميات ويسرق له الأقوات، والضعيف لقيط التقط على قارعة طريق ثم أصبح جندياً مرتزقاً، فهو يدفع ثمن إخلاص صديقه شديد عناية وتسامح زوجة.

عند ذلك تبادلوا قلائدهم وأقراطهم، وهي تلك الهدايا التي تهادوها بالأمس، بعد نجاة من خطر داهم أو في ساعات نشوة سكر، وكلهم طلب أن يُقتل وأبى أن يَقتل، هذا فتى يقول لرجل أشيب: «لا. لا. أنت أشد مني! وستنتقم لنا فاقتلني» ويجيب الآخر: «لم يبق لي كثير من السنين أعيشها فاضرب في القلب ولا تفكر!» والأشقاء يرمقون بعضهم، والأكف تشد الأكف، والعاشق يودع معشوقه الوداع الأبدي، وهو واقف يبكي ورأسه على كتفه، ثم إنهم خلعوا دروعهم كي تسرع الحراب في النفاذ إلى صدورهم، فبدت عليها آثار الطعنات التي أصيبوا بها في سبيل قرطاجة، وكأن تلك الجراح نقوش تاريخية حفرت على عمد. ووقفوا كالمصارعين على أربعة صفوف متساوية، وبدأوا يشتبكون برخاوة، بل إن رجالاً منهم عصبوا أعينهم فبدت سيوفهم تلعب في الهواء برفق كأنها عصي عميان، فصاح القرطاجيون صياح السخرية ورموهم بالجبن، فامتلأوا حماسة، ولم يلبث القتال أن أصبح عامّاً، مريعاً حامي الوطيس.

وكم من مرّة كفّ فيها المتبارزان عن القتال والدم يتدفق منهما، فارتميا الواحد على الآخر يتعانقان ثم سقطا معاً. ولم يتراجع أحد منهم؛ بل كانوا يرتمون على النصال المسلولة وكلهم في بحران هياج، حتى إن القرطاجيين الواقفين بعيداً اعتراهم الخوف.

أخيراً توقفوا عن القتال وصدورهم تصعّد أصواتاً جشاء، وحدقاتهم، بين شعورهم الطويلة، تتدلى كما لو كانوا خارجين من حمام أرجوان. وكثيرون منهم كانوا يدورون حول أنفسهم كأنهم نمور جرحت في جباهها، وآخرون يقفون جامدين بلا حراك وهم يحدقون النظر في جثة

مطروحة عند أقدامهم، ثم يأخذون بتمزيق وجوههم بأظفارهم، ويمسكون بسيوفهم بكلتا اليدين فيغمدونها في بطونهم.

لم يبق منهم إلاّ ستون رجلاً، فاستسقوا! فصاحوا بهم أن ألقوا أسلحتكم، فألقوها، وجاؤوهم بالماء، وبينما هم يشربون ووجوههم في الآنية، انقض عليهم من الوراء ستون قرطاجيّاً فقتلوهم طعناً بالسكاكين.

وقد فعل هاميلكار فعلته هذه ليرضي شهوة جنوده ويجتذبهم بهذه الخيانة إلى التعلق بشخصه.

إذاً، لقد انتهت الحرب لأن ماتو لن يقف في وجهه، وذلك ما كان يظنه.

وأمر جيشه بعد ذلك بالرحيل دون تأجيل.

وفد كشافة الجيش عليه ينبئونه بأنهم رأوا قوافل ذخيرة ومؤن تسير متجهة إلى جبل الرصاص، فلم يأبه لهذا النبإ، لأن الرحل أصبحوا لا خطر لهم بعد هلاك جيش المرتزقة، وأهم ما يهمّه الآن أن يستولي على تونس. فجدّ السير في الزحف عليها.

وأرسل نارهافاس إلى قرطاجة ليحمل إليها بشرى انتصاره، وكان ملك النوميديين فخوراً بنجاحه فأسرع إلى لقاء سلامبو.

*

قابلته سلامبو في خميلتها في ظل شجرة جميز، بين وسائد جلدية، وبالقرب منها جاريتها طناش، وقد ألقت على وجهها قناعاً أبيض يغطي فمها وجبينها فلا يظهر منها إلاّ عيناها. ولكن شفتيها كانتا تلمعان من خلال النسيج الشفاف لمعان جواهر أصابعها، لأن يديها كانتا أيضاً محجبتين ولم تبد منهما حركة طيلة حديثهما. فنقل إليها نارهافاس بشرى انهزام البربر، فشكرته داعية له للخدمات التي أداها لوالدها، ثم أخذ يقص عليها بالتفصيل أنباء الحملة.

جلسا في الخميلة وبيض الحمائم فوقهما وحولهما يهدلن على النخيل، وطيور أخرى تدرج على العشب، فمن دراريج مطوقة إلى سمان

«طرتسيس» إلى غرغر قرطاجي، والحديقة التي بعد عهدها بالحرث ضاعفت في خضرتها فعلا الحنظل على خيار الشنبر، ونبت الصقلاب بين حقول الورود، وكونت النباتات المختلفة شبكات أو مهوداً. وأشعة الشمس الضاربة على أوراق الشجر بخط منحرف طبعت على الأرض، كما تطبع في الغابات، ظل تلك الأوراق، والحيوانات الداجنة، وقد أصبحت آبدة، تسارع في الفرار لأقل حركة، ورب غزال يبدو وهو يجر بأظلافه الصغيرة ريش طاووس منثور، وضوضاء المدينة البعيدة يضل بين هدير الأمواج، والسماء زرقاء وما على البحر من شراع.

لم يعد نارهافاس يتكلم وسلامبو لا تجيبه، بل تنظر ملياً إليه. كانت ترتدي ثوباً كتانيّاً، مرسوم عليه أزهار، وذيوله من ذهب، ويمسك سهمان من فضة فرع رأسها المجدل من مهوى أذنيها، وهو مستند بيده اليمنى على عود رمحه القصير المزدان بحلقات ذهبية وفضية وبخصل من شعر.

مرّت بخاطرها خطرات من الأفكار المبهمة وهي تنظر إليه، فهذا الفتى العذب الصوت، البادية قامته كقامات النساء، يبهر عينيها برشاقة جسمه، ويبدو لها كأنه شقيقة كبرى بعث به البعول ليتولى حمايتها، وعاودتها ذكرى ماتو فلم تتمالك أن تسأل عن حاله ومآله.

أجاب نارهافاس بأن القرطاجيين يزحفون على تونس للاستيلاء عليها، وكلما زاد في بيان إمكانيات نصرهم وضعف قوات ماتو كلما بدا عليها فرح مبعثه أمل، وكانت شفتاها ترتجفان وصدرها يلهث.ولمّا وعد بأن يقتله بيده صاحت قائلة: «أجل اقتله! يجب أن يُقتل».

ردّ عليها النوميدي بأن قتله هو غاية ما يتمناه، لأنه سيصبح زوجاً لها بعد نهاية الحرب.

ارتعدت سلامبو وطأطأت برأسها.

واصل نارهافاس حديثه بتشبيه شوقه إليها بشوق الأزهار الذابلة إلى المطر، وبشوق السراة التائهين إلى طلوع النهار، وقال لها إنها أجمل من القمر، وألطف من نسيم الصباح وطلعة الضيف، وأنه سيحمل إليها من

بلاد الزنوج أشياء لا وجود لها في قرطاجة، وسيفرش لها بيت الزوجية بالذهب.

مالت الشمس إلى المغيب، ونفحات الطيب تتصاعد، وطال نظرهما الواحد إلى الآخر، وعينا سلامبو تبدوان من وراء براقعها الطويلة ككوكبين بارزين من فرجة غيم في السماء. وانصرف نارهافاس قبل غروب الشمس.

شعر القدماء بلذة الخلاص من قلق عند مغادرته المدينة، لأن الشعب كان أكثر حفاوة به وهتافاً له منه في المرة الأولى، وقالوا بأنفسهم إذا حقق هاميلكار ونارهافاس النصر على البربر وحدهما فلا يعود باستطاعتهم - أي القدماء - أن يقفوا بوجهيهما، فعقدوا العزيمة - في سبيل إضعاف هاميلكار باركا – على أن يشركوا في إنقاذ الجمهورية ذلك الرجل الذي يحبونه: «الزعيم هنون».

زحف هنون بجيشه على الأقاليم الغربية ليحقق الأخذ بثأره في تلك البقاع التي شهدت عار الهزيمة يلحق به، ولكن السكان ومعهم البربر كانوا قد ماتوا أو اختبأوا أو لاذوا بالفرار. فصرف غضبه إلى الريف وأخذ يحرق أنقاض الأنقاض، فلم يترك شجرة ولا ساق عشبة، وراح ينزل أنواع التعذيب بالنساء والأطفال، ويدفع بالنساء إلى جنده ليغتصبوهن قبل ذبحهن، ويختار هو أجملهن فيضعهن في محفته. وكان مرضه الشنيع يملأ نفسه بالشهوة القوية الجامحة فيشبعها بلهفة الرجل اليائس البائس.

وعلى قمم الآكام كم من خيام سود كانت تبدو وقد أخذت تتقوّض كما لو أن ريحاً هوجاء هبّت عليها، وكم من أقراص عريضة ذات أطراف لماعة، هي عجلات مركبات، غاصت في الأودية!

تلك كانت خيام الرحل ومركباتهم أخذت تهيم في البرية بعد رفع الحصار عن قرطاجة وهي تتحين الفرص للانضمام إلى البربر إذا ما هم أحرزوا نصراً، ولكنهم بعد أن يئسوا، أو بعد أن أمضهم الجوع، هرعوا إلى سلوك طرقات بلادهم واختفوا عن الأنظار.

لم يشعر هاميلكار قط بشعور حسد لانتصارات هنون، وكان يريد أن

يعجل نهاية الحرب، فأمر هنون بأن يتحول إلى تونس بجيشه، فعجل الوصول إليها في الموعد المضروب ولا سيما أنه كان يحب وطنه تونس.

كان المدافعون عن هذه المدينة هم سكانها الأصليين، واثنا عشر ألفاً من المرتزقة وآكلو الأشياء النجسة التي كانت قرطاجة تجتذبهم إليها كما تجتذب ماتو، لما كانوا يتطلعون إليه من الملذات العديدة التي تنتظرهم وراء أسوارها العالية. واجتمعت أحقادهم فشدت عزائمهم وأخذوا يعدون العدة للحصار، فاستعملوا القرب ليصنعوا خوذاً من جلودها، وقطعوا النخل في الحدائق ليصنعوا رماحاً، وحفروا الكثير من الآبار، وتوفيراً للأقوات أقبلوا على صيد الأسماك من البحيرة وكلها مغذى بالجثث والأقذار، وكانت حصون تونس ضعيفة، وقد تركت كلها مهدّمة لحسد قرطاجة لها، حتى كان من الممكن هدم أسوارها بدفعة من كتف دافع، فأمر ماتو بسد ثغراتها بحجارة البيوت، لأنه كان يعلم أن المعركة المقبلة آخر سهم في كنانته، وهو وإن لم يكن له كبير أمل بالنصر إلاّ أنه كان يعتقد بأن الحظ انقلب.

أبصر القرطاجيون عند اقترابهم من تونس برجل على الحصن يتجاوز بعلو موقفه جميع المتاريس، وكانت الأسهم الطائرة حواليه لا تخيفه كما لو أنها سرب من السنونو الطائر، ومن المعجز أنه لم يصب بسهم واحد.

نزل هاميلكار بجيشه في الجهة الشرقية وإلى يمينه جيش نارهافاس يحتل سهل راديس وهنون شاطئ البحيرة، واتفقوا ثلاثتهم على أن يحتفظ كل منهم بمركزه لكي يهاجموا الحصن كلهم دفعة واحدة.

أحب هاميلكار أن يرى المرتزقة قبل كل شيء أنه ينزل بهم من العقوبات ما ينزل بالعبيد الأرقاء، فأمر بصلب العشرة المفوّضين الواحد بعد الآخر على أكمة تقع أمام المدينة، ولمّا رأى المحاصَرون هذا المشهد تركوا الأسوار.

ظنّ ماتو أن باستطاعته أن ينسلّ بين الأسوار وبين خيام جيش نارهافاس بسرعة خاطفة قبل أن يتمكن النوميديون من الخروج من خيامهم، فيتأتى

له بهذا بأن يضرب المشاة القرطاجيين من مؤخرتهم فيحصرهم بين فرقته وبين المحصورين داخل المدينة، فارتمى خارجاً مع قدماء المحاربين، فلمحه نارهافاس وأسرع فاجتاز شاطئ البحيرة ونبّه هنون ليسرع إلى نجدة هاميلكار. فهل كان يعتقد أن هاميلكار أضعف من أن يتلقى صدمة المرتزقة؟ أم هل كان عمله هذا خيانة أم غباء؟ لم يدر أحد حتى اليوم السر في ذلك.

لم يتردد هنون في الإسراع إلى نجدة هاميلكار ليكسر من أنفته ويذله، فأمر بالنفخ في الأبواق، وكرّ جيشه على البربر فارتدوا عليهم وأخذوا يجندلونهم على الثرى ويدوسونهم بأقدامهم فردوهم إلى الوراء، وطاردوهم حتى خيمة هنون، فوجدوه في وسط ثلاثين قرطاجياً من أشهر رجالات القدماء، فبدت عليه الدهشة لجرأتهم، وأخذ ينادي ضباطه، والبربر مقبلون عليه مهددين وقبضات أيديهم تحت حنجرته وهم منهالون عليه بأقبح الشتائم، ووراءهم حشود من رفاقهم يتزاحمون للوصول إليه حتى كادت الأيدي الممسكة به تفلت وهو يحاول أن يهمس بآذانهم «سأعطيكم ما تطلبونه! أنا غني! أنقذوني» وهم يجرونه رغم ثقله ويدفعون أمامهم القدماء، فزاد رعبه وأخذ يردد: «لقد هزمتموني فأنا أسيركم، وها أنذا على استعداد لدفع الفدية! اسمعوا يا أصدقائي..!» وحملوه على أكتافهم وهم يشدون على خاصرتيه وهو يقول ويكرر: «ما الذي تعملونه بي؟ ما الذي تريدونه وإني كما ترون لا أعاندكم؟ لقد كنت دائماً طيباً معكم!».

كان منصوباً على الباب صليب ضخم، والبربر يصيحون: «هنا. هنا».

وعلا صوته أصواتهم وهو يصيح ويستحلفهم باسم آلهتهم أن يقودوه أمام «الشاليشيم»، أي القائد العام، لأن لديه ما يقوله له، مما به سلامتهم جميعاً.

فتوقفوا، ورأى بعضهم من الحكمة أن يستدعوا ماتو، فذهبوا في طلبه.

سقط هنون على العشب، ورأى حوله صلباناً أخرى فضاعف ذلك في

عذابه، وأخذ يقنع نفسه بأن ليس هناك إلاّ صليب واحد بل ليس من صليب قط.

أوقفوه، وقال له ماتو: تكلم!

عرض عليه هنون أن يسلمه هاميلكار وأن يسيرا بعد ذلك معاً إلى قرطاجة ويناديا باسميهما ملكين.

ابتعد ماتو وهو يشير إلى رجاله بأن يتعجلوا، وكان يعتقد في قرارة نفسه أن ما عرض عليه ليس إلاّ خدعة لكسب الوقت. ولكنه كان مخطئاً فيما اعتقده، لأن هنون كان قد بلغ من يأسه حداً لا يقدر معه قيمة لشيء، فضلاً عن أنه يكره هاميلكار كرهاً بلغ في شدته أنه كان جديراً بتسليمه للبربر مع جيشه لو بدا له شعاع أمل في النجاة من مصيره.

كان الثلاثون القدماء يحسون بألم النزع وهم ملقون على الأرض بجانب صلبانهم، وبدأت الحبال تشدهم من تحت آباطهم، فأيقن الزعيم إذ ذاك بالموت فأجهش بالبكاء.

نزعوا عنه ما بقي عليه من الملابس، فبدت للناظرين دمامة جسمه، فالقروح تغطي هذه الكتلة اللحمية التي لا اسم لها، وشحم رجليه يخفي عن عينيه رؤية أظفار قدميه، ومن أصابعه تتناثر قطع مخضرة، والدموع التي كانت تجري جداول بين درنات خديه تكسو وجهه بشيء بالغ حد الكآبة المخيفة، لأنها كانت تحتل مكاناً أكبر مما يتسع له وجه بشري، وعصبة رأسه الملكية، وقد انحلّت حتى نصفها، تتمرغ مع شعوره البيض على الأرض.

وجدوا أن ليس لديهم حبال تبلغ من المتانة حداً يمكنهم معه أن يرفعوه إلى أعلى الصليب، فسمّروه عليه قبل رفعه على الطريقة القرطاجية. وأيقظ الألم كبرياءه فأخذ يقذفهم بالشتائم ويرغي ويزبد ويتلوّى والزبد يخرج من فمه، كمسخ من المسوخ البحرية يذبح على الشاطئ، ويتنبأ لهم بأنهم سيموتون كلهم من ميتة أشنع من ميتته وأنه سيؤخذ بثأره.

والحق أنه كان يؤخذ حقاً بثأره، فإن مفوضي المرتزقة العشرة كانوا في

هذه الساعة في حشرجة النزع في الناحية الأخرى من المدينة، حيث كان يرتفع لهب النار وعمد الدخان.

أغمي على البعض منهم ثم أيقظتهم برودة الهواء، وظلت ذقونهم على صدورهم، ولكن أجسادهم هوت قليلاً رغم مسامير أيديهم التي دقت في مواضع تعلو رؤوسهم، والدم يتساقط من جراحهم نقطاً كبيرة وببطء كما تتساقط من أغصان الأشجار الثمار الناضجة، وقرطاجة والخليج والجبال والسهول تبدو لهم كأنها تلف وتدور كدولاب ضخم، والغبار يرتفع أحياناً كغيم فيغطيهم في دورانه، ونار العطش تحرقهم وألسنتهم تتلوى في أفواههم، ويحسون على أجسادهم بتصبب عرق بارد يسيل سيل نفوسهم الراحلة.

رغم ذلك كانوا يتوهّمون أنهم يرون من بعد سحيق شوارع وجنوداً تسير للقتال، وتأرجحات سيوف، ويصل لغب المعركة مبهماً إلى أسماعهم كما يصل هدير الموج إلى آذان غرقى يموتون بين صواري السفينة.

أمّا المتحدّرون من أصل إيطالي، وهم أقوى بنية، فكانوا لا يزالون يصرخون، واللاسيديميون صامتون يطبقون أجفانهم، وزركساس الذي كان بالأمس معتزاً بشدته، مائل كأنه قصبة، والأيتوبي إلى جانبه قلب رأسه بحيث يتدلى إلى الوراء فوق ذراع الصليب، وأوتاريت جامد الحركة يدير حدقتي عينيه في محجريهما، وشعره الطويل، وقد علق بين شقي الخشب، مستقر مستقيم على جبينه، والحشرجات التي يصعدها أولى بأن تسمى زمجرات غضب لا حشرجات. وأمّا سبنديوس فقد أوتي اليوم شجاعة غريبة، فهو يحتقر الحياة لثقته بتحرر عاجل أبدي، وهو ينتظر الموت دون ألم ودون مبالاة.

كانوا على ما بهم من ضنى يرتعدون للمسة خفيفة لريش طائر يمس أفواههم، فهناك أجنحة كبيرة تتذبذب ظلالاً حولهم، وأصوات نعيب ترتفع في الجو. ولمّا كان صليب سبنديوس أعلى الصلبان فقد كان أول ما

انقضت عليه أولى العقبان، فمال عند ذاك برأسه نحو أوتاريت وقال له بجهد، وعلى شفتيه ابتسامة لا يمكن وصفها:

- «أتتذكر الأسود على طريق سيكا؟».

فأجابه أوتاريت وهو يلفظ أنفاسه:

- «لقد كانت بمثابة أخوة لنا!».

في هذه الأثناء كان هاميلكار قد خرق الأسوار ووصل إلى القلعة. وتهب الريح شديدة فتجلو الدخان وينكشف الأفق حتى أسوار قرطاجة وحتى ليخيل إليه أنه يرى أناساً يتطلعون من إفريز معبد أشمون، ولمح وهو يجيل عينيه إلى الشمال ثلاثين صليباً ضخاماً على شاطئ البحيرة، ذلك أن البربر، للمبالغة في الإرهاب، صنعوا تلك الصلبان من صواري خيامهم بعد أن ربطوا أطرافها، فبدت جثث القدماء الثلاثين كأنها في كبد السماء، وظهر على صدورهم شبه فراش أبيض هو ريش السهام التي رموهم بها وهم مسمّرون على صلبانهم.

كانت تلمع في ذروة أعلى الصلبان ارتفاعاً شريطة عريضة من الذهب، وهي تتدلى على كتف فقدت ذراعها من هذه الجهة، وأكثر هاميلكار من التحديق حتى تبيّن أن المعلق على الصليب هو هنون، لأن عظامه المنخورة كالإسفنج لم تحتمل الأحزمة الحديدية، فتناثرت أعضاء من جسمه وتساقطت ولم يبق منه على الصليب سوى رمم ضئيلة شبيهة ببقايا الحيوانات المعلقة على أبواب الصيادين.

لم يستطع هاميلكار أن يلم بشيء ممّا حدث هناك، لأن المدينة كانت تحجب عن نظره كل ما وراءها من بعيد، والضباط الذين عجلهم الواحد تلو الآخر إلى القائدين لم يعودوا، وإذا بالهاربين يقبلون فينقلون إليه نبأ الهزيمة، فوقف الجيش القرطاجي في مكانه، وصعقوا لهذه الكارثة التي نزلت بهم ساعة انتصارهم، حتى أنهم لم يعودوا يستمعون أوامر هاميلكار. وانتهز ماتو الفرصة فأخذ يوقع ضرباته بالنوميديين، فبعد أن تضعضع معسكر «هنون» ارتد عليهم بجيشه وخرجت الفيلة، فأسرع

البربر إلى الأسوار وجاؤوا منها بشعل النار وتقدموا في السهل يلوحون باللهب أمامها، فذعرت ونفرت إلى الخليج فارتمت فيه وارتطم بعضها ببعض فرزحت تحت أعباء أدرعها وغرقت، وكرّ عليهم نارهافاس بفرسانه فانبطوا كلهم على الأرض، حتى إذا صارت الخيل على بعد ثلاث خطوات ارتموا على بطونهم يشقونها بخناجرهم، وكان نصف الجيش النوميدي قد هلك حين أقبل باركا.

كان المرتزقة قد أنهكوا قواهم فلم يستطيعوا الثبات أمام الجيش القرطاجي، فارتدوا بنظام حتى جبل المياه الساخنة، ودعت الفطنة هاميلكار إلى الاحتراز من مطاردتهم فاتجه إلى مصب نهر ماكار.

لقد أصبحت تونس في يده ولكنها غدت كومة من الأنقاض المحترقة، وامتد الدمار من ثغرات الأسوار حتى وسط السهل، وفي أقصى المكان، وبين شواطئ الخليج، كانت الريح تدفع جثث الفيلة فتتلاطم مكدسة كأنها مجموعة جزر من صخور سود تطفو على وجه المياه.

كان نارهافاس في سبيل كسب هذه الحرب قد ترك غاباته قفراً من الفيلة، فصاد صغارها وكبارها وذكورها وإناثها، فضعفت بهذه الخسارة قوته الحربية ولم تعد تقوم لها قائمة، وشعب قرطاجة الذي شهد من بعيد هلاكها تملكه اليأس والحسرة، فأخذ الرجال يعولون في الشوارع وينادونها بأسمائها كما لو كانوا ينادون أصدقاء لهم أدركتهم المنية، فهم يصيحون مثلاً: آه! يا من لا يغلب!: آه يا نصر! آه أيتها الصاعقة! يا جد السنونو!.

وقد بلغ من شدة حزنهم أنهم لم يتحدثوا في يومهم الأول إلاّ بحديث هؤلاء المواطنين الراحلين، ولكنهم في الغداة رأوا خيام المرتزقة منصوبة على جبل المياه الساخنة، فبلغ بهم اليأس مبلغه، حتى أن الكثير منهم، ولا سيما النساء، ألقوا بأنفسهم من أعالي مرتفعات الأكروبول.

وما من أحد أدرك نوايا هاميلكار: فهو يعيش وحيداً في خيمته مع صبي صغير لا يجلس أحد معهما لطعام أو شراب، حتى ولا نارهافاس الذي

أصبح مع ذلك محط عناية الزعيم منذ هزيمة هنون. ولكن نارهافاس كانت تساوره الظنون لأن له مصلحة بأن يصبح ابناً له.

صمت هاميلكار يخفي وراءه مناورات لبقة وخدعاً ومكائد شتى، لقد أغوى رؤساء القرى واستمالهم إليه فأصبح المرتزقة يطردون ويردون عن كل مكان ويطاردون كالوحوش الضارية، فإذا مرّوا بغابة اشتعلت حولهم النيران، وإذا شربوا من بئر فالماء مسموم، وإذا أووا إلى كهف سدت فوهته بالحجارة وهم نائمون، وعامة الشعب التي حالفتهم بالأمس تطاردهم اليوم، وكان البربر يرون دائماً أسلحة القرطاجيين في أيدي مطارديهم.

وما لبثت أن ظهرت القوباء (الحزاز) في وجوه الكثيرين منهم، فاعتقدوا بأن هذا المرض قد اتصل بهم من ملامستهم لهنون، كما اعتقد آخرون بأنه مسبب من أكلهم لسمك سلامبو، وهذا الاعتقاد لم يحرك بهم عاطفة ندامة، بل بالعكس زادهم تصميماً على اقتراف آثام أفظع، وعلى انتهاك حرمة المقدسات ليذلوا الآلهة القرطاجية إذلالاً آلم وأشد، لأنهم يتوقون إلى محو ذكرهم وإبادتهم لو أمكنهم ذلك.

ظلوا على هذا الحال ثلاثة أشهر يجرون أنفسهم جرّاً على طول الشاطئ الشرقي ثم على جبل السلام وحتى أول رمال الصحراء وهم يبحثون عن ملجإ مهما كان شكله.

وظلت أوتيك وهيبوزريت وحدهما مواليتين لهم، ولكن هاميلكار كان يطوقهما. واتجهوا بعد ذلك جهة الشمال هائمين على وجوههم لا يعرفون معالم الطرق، فاضطربت أفكارهم لشدة ما حل بهم من بؤس، ولم تعد تخالجهم إلاّ عاطفة يأس تنمو يوماً بعد يوم، وأخيراً وجدوا أنفسهم في مضايق كوبيس وأمام قرطاجة مرة ثانية.

توالت عند ذاك المناوشات وتساوت نتائج الاشتباكات، ولم يقف الحظ إلى جانب دون جانب، وبلغ الإعياء من الجيشين حده حتى تاق كل منهما إلى معركة بدلاً من هذه المناوشات على شرط أن تكون معركة نهائية حاسمة.

أراد ماتو أن يحمل بنفسه هذا الاقتراح إلى الزعيم القائد، ولكن ليبيّاً من جنده عرض أن يقوم عنه بحمل الرسالة، واعتقدوا كلهم بأنه لن يعود، ولكنه رجع في مساء اليوم ذاته. لقد قبل هاميلكار اقتراح البربر وحدد لهم الغداة موعداً للقتال، عند شروق الشمس وفي سهل راديس.

ودعا الفضول المرتزقة لسؤال الرسول عما قاله الزعيم فأجاب:

- «لمّا رآني لا أزال منتصباً أمامه بعد أداء الرسالة سألني: «ما الذي تنتظره؟»».

قلت: «أن أُقتل» فقال: «لا! انصرف! سيكون ذلك غداً مع الآخرين».

أدهش هذا الحلم البربر وأخاف بعضهم، وأسف ماتو لعدم قتل الرسول.

*

كان لا يزال باقياً لديه ثلاثة آلاف إغريقي، وألف ومائتان وخمسة عشر كامباني، ومائتا أيبيري، وأربعمائة أوترسكي، وخمسمائة سمنيت، وأربعون غولياً، وشرذمة من «النافور»، وهم قطاع طرق رحّل عثر عليهم في مناطق البلح، وتعداد ذلك كله سبعة آلاف ومائتان وتسعة عشر جندياً، ولكن لم يكن لديه أية كتيبة كاملة. وكانوا قد سدوا ثقوب دروعهم بأمشاط من أكتاف الحيوانات، واستبدلوا أحذيتهم النحاسية بنعال من خرق ممزقة، وصفائح النحاس أو الحديد تثقل ملابسهم، وزرود حديدهم تتدلى كالأطمار حول أجسامهم، وندوب جراحهم تبدو كخيوط الأرجوان بين شعور أذرعتهم أو على وجوههم، وذكرى القتلى من رفاقهم تمر بخواطرهم فتملأ نفوسهم عزماً وشدة، وهم يشعرون شعوراً خفيّاً بأنهم عباد إله مستقر في قلوب المظلومين والمضطهدين وأحبار الانتقام العالمي، ويزيد غضبهم سعيراً شعورهم بألم ظلم فادح حاق بهم، ولا سيما عند رؤيتهم قرطاجة بادية في الأفق، فأقسموا فيما بينهم على أن يقاتل الواحد منهم في سبيل الآخر حتى الموت.

قتلوا البهائم المعدة للنقل وأكلوا ما أمكنهم أن يأكلوا ليزدادوا قوة، ثم

ناموا وصلّى بعضهم مولين وجوههم شطر أبراج في السماء شتى.

وأقبل القرطاجيون إلى السهل قبلهم، ففركوا بالزيت أطراف مجناتهم لتزل عنها السهام بسهولة، وقص المشاة نواصي شعورهم الطويلة حيطة منهم، ورمى هاميلكار ما تحويه القصاع منذ الساعة الخامسة لعلمه بأنه ليس من مصلحة الجندي أن يقاتل وهو ممتلئ البطن. وكان تعداد جيشه أربعة عشر ألف رجل، أي ضعف عدد البربر، ومع ذلك كان يشعر بقلق لم يشعر به قط من قبل، لأن انكساره يؤدي إلى فناء الجمهورية وإلى موته مصلوباً، وأمّا إذا انتصر فسيخترق جبال «البيرينيس» وبلاد الغول وجبال الألب ويصل إلى إيطاليا فتصبح أمبراطورية آل بركا أبدية. ولقد استيقظ من نومه أكثر من عشرين مرة في ليلته هذه ليتفقد ويراقب بنفسه كل شيء، حتى أتفه الأمور، وأما القرطاجيون فقد كانوا موغري الصدر حنقاً لطول ما نالهم من خوف.

كان نارهافاس يشك في إخلاص جنده ويخشى على كل حال أن يتغلب عليهم البربر، فاستولى عليه وهن غريب، وأخذ يكثر من شراب أكواب الماء.

لكنَّ رجلاً لا يعرفه دخل إلى خيمته ووضع على الأرض تاجاً من جوهر الملح مزداناً برسوم كهنوتية قدسية مرسومة بالكبريت وبخطوط معينة من العاج. وقد جرت العادة أن ترسل الخطيبة إلى خطيبها تاج الزواج قبل وقوعه، وفي ذلك دليل الحب وشيء من الدعوة إلى لقاء الحبيب.

أمّا سلامبو فلم تكن تشعر بعاطفة حنان نحو نارهافاس، لأن ذكرى ماتو كانت تسبب لها ضنكاً وضيق صدر، ويخيل إليها أن موت هذا الرجل يريح بالها ويطلق فكرها كما يداوي الملسوع نهشات الأفاعي بأن يسحقها فوق جرحه. وملك النوميديين طوع أمرها، وهو يرقب حلول يوم عرسه بنفود الصبر، وهذا اليوم سيكون غداة الانتصار، وإنما أرسلت إليه سلامبو هذه الهدية لتثير شجاعته.. وهكذا تلاشت آلام نارهافاس النفسية،

وزال قلقه، ولم يعد يتجه تفكيره إلاّ إلى السعادة التي سيحوزها بامتلاكه لامرأة بالغة حد الجمال.

بدت لماتو الرؤيا نفسها، ولكنه عجل باطّراحها وتحوّل حبه المكبوت إلى رفاق السلاح، رفاقه، فهو يحبهم أعمق حب كحبه لأجزاء جسده وذرات بعضه، فأحس بسمو في فكره وبقوة في ذراعيه، وبدا له بوضوح كل ما كان متوجباً عليه أن يعمله وينفذه. وإذا كان صدره يصعّد التنهدات من وقت إلى وقت فلأنه كان يفكر بسبنديوس.

صفّ البربر ستة صفوف متساوية، ووضع «الأوترسك» في القلب وعقدهم بسلسلة من البرونز، وأوقف العمال في المؤخرة، ووزع على الجانبين رجال النافور الراكبين على جمال محلوقة الوبر ومغطاة بريش النعام.

كما صفّ هاميلكار جنده بنظام شبيه بنظام البربر، وفي خارج صفوف المشاة وقريباً من المشاة الخفاف وضع فرسان «الكليناباكر»، وصف غير بعيد عنهم «النوميديين». ولمّا طلع النهار كان هؤلاء وأولئك مصطفين وجهاً لوجه حسب الترتيب المذكور، وتردّد الجيشان قليلاً ثم تحرّكا.

تقدّم البربر متباطئين لئلا ينالهم التعب وهم يضربون الأرض بأقدامهم، وقلب القرطاجيين يكوّن خطّاً معوجّاً مقبقباً. ووقع اصطدام هائل كاصطدام أسطولين يتلامسان، وانكشف الصف الأول للبربر سريعاً، فأخذ عمال النقل المختبئون وراءه يرمون بالقذائف والسهام والحراب، ولكن خط القرطاجيين المقبقب أخذ يتفلطح شيئاً فشيئاً حتى أصبح مستقيماً ثم منحرفاً، فتقاربت إذ ذاك فصيلتا المشاة الخفاف بخطين متقابلين كطرفي بركار ينقفلان، وكانت ضربات البربر موجهة إلى الكتيبة بإصرار فولجوا في الفجوة، وأوشكوا أن يحيق بهم الهلاك فأوقفهم ماتو عن التغلغل. وبينما كان جناحا القرطاجيين يواليان التقدم، أخرج الصفوف الثلاثة الداخلية خارج مواقفها الأصلية ومدها على جناحيه، فبدا جيشه ثلاث مرات أطول صفّاً مما كان عليه.

لكن البربر المصطفين في أقصى الجناحين ظهر ضعفهم، ولا سيما الذين كانوا على الجناح الأيسر، لنفاد السهام من كناناتهم، ولأن مشاة القرطاجيين الخفاف وصلوا إليهم فشقوا صفوفهم شقاً خطيراً، فسحبهم ماتو إلى الوراء. وكان في الأيمن «الكنبانيون» المسلحون بالفؤوس، فشد بجناحه هذا على ميسرة القرطاجيين، بينما كان القلب يهاجم والطرف الآخر من جيشه يصمد للمشاة الخفاف.

وعند ذاك قسم هاميلكار فرسانه إلى كوكبات يتخللها مشاة مسلحون بالأسلحة الثقيلة، وأطلقهم على البربر.

كانت هذه الكتل بشكل كرز صنوبر جبهتها خيل، وجنباتها الواسعة مجموعة من رماح، فاستحال على البربر أن يصمدوا لها، لأن المشاة الإغريق وحدهم كانوا مسلحين بأسلحة من نحاس، ولم تكن أسلحة الآخرين إلاّ سواطير مرفوعة على أعواد، ومناجل مسلوبة من المزارع، أو حراباً مصنوعة من إطارات العجلات، فكانت هذه الأسلحة الليّنة تلتوي لدى الضرب، وبينما هم يحاولون تقويمها تحت أعقابهم ينقض عليهم القرطاجيون من اليمين واليسار فيفتكون بهم فتكاً ذريعاً، بينما رجال «الأوترسك» المربوطون بسلسلتهم لا يتزحزحون، والذين قتلوا منهم لا يسقطون، فيكوّنون من جثثهم حاجزاً، وهذا الخط الكثيف من البرونز ينفرج حيناً وينضم متجمّعاً حيناً، مرناً كالحية ثابتاً كالجدار، والبربر يحتمون وراءه ليعيدوا تنظيم وحداتهم ويستريحوا لحظة، ثم يعودوا للقتال وبأيديهم بقايا أسلحتهم. وأصبح الكثيرون منهم بغير سلاح، فكانوا يثبون على القرطاجيين فيعضونهم بوجوههم كما تعض الكلاب. ودفعت الكبرياء الغوليين فخلعوا خوذهم وكشفوا من بعيد عن أجسامهم الكبيرة الناصعة البياض، وأخذوا يوسعون جراحهم بأيديهم لإرهاب أعدائهم، وفي وسط الفصائل القرطاجية لم تعد تسمع أصوات المنادين الناقلين أوامر القائد، فأخذت الرايات المرفوعة فوق مثار الغبار تردد إشاراتهم،

وكل من المحاربين يسير مدفوعاً بتذبذبات الكتلة الكبيرة المحدقة به.

أمر هاميلكار «النوميديين» بالكرّ على العدو، ولكن «النافور» أسرعوا لمواجهتهم. كانوا يلبسون جلابيب سوداً فضفاضة وقد رفعوا في أعلى جماجمهم خصلاً من الشعور أشبه بالشراريب، وبأيديهم تروس من جلد وحيد القرن، وسيوفهم بلا مقابض تمسك بها حبال، وجمالهم المنثور عليها الريش تخرج أصواتاً جشاء، يضربون بنصالهم فتصيب أهدافها تماماً، ثم يردونها وقد قطعت عضواً. والحيوانات المحنقة الهائجة تعدو ما بين الفصائل، وبعضها، وقد كسرت قائمة له، يسير بقفزات صغيرة كالنعام الجريح.

عاد مشاة القرطاجيين جميعاً فكروا على البربر فشطروهم، وفرقهم تدور وهي بعيدة عن بعضها، وأسلحة القرطاجيين اللامعة تطوقهم كتيجان من ذهب، وفي الوسط تموجات كتموج النمل، والشمس فوقهم تصب على رؤوس الحراب أشعة بيضاء تتطاير في الجو. وظلت صفوف متتابعة من جثث «الكلينابار» مطروحة في السهل، والمرتزقة ينزعون عنها أسلحتها فيتقلّدونها ويعودون إلى القتال، ولكم خدع القرطاجيون فولجوا بين صفوفهم، وكأنهم أصيبوا بالخيبة فيقفون لا يتحركون، ثم يهجمون جماعات وهم يسمعون هتافات النصر من بعيد وكأنها تدفع بهم أمامها دفع العاصفة بقايا السفينة الغارقة.

أدرك اليأس هاميلكار، فكل شيء صائر إلى الهلاك بفضل عبقرية ماتو وشجاعة البربر التي لا تكلّ، وإذا بأصوات الدفوف تعلو إلى الأفق، وبجماعات تتدفق من شيوخ ومرضى وصبية ونساء، فاضت آلام نفوسهم واشتد قلقهم، فاندفعوا من قرطاجة مقبلين، وأحبوا أن يحتموا بشيء له هوله وخطره فمروا في طريقهم على قصر هاميلكار، وساقوا أمامهم الفيل الوحيد الذي كان كل ما تملكه الجمهورية اليوم، وهو الفيل المقطوع الخرطوم.

خُيِّل حينئذ إلى القرطاجيين بأن الوطن قد هجر أسواره وجاء يأمرهم بأن يموتوا في سبيله، فتضاعفت ثورة حنقهم وحماستهم، ومشى «النوميديون» في الطليعة يجرون الآخرين.

كان البربر في وسط السهل قد استندوا بظهورهم إلى تل، ولم يعد لهم أمل بالانتصار حتى ولا بالحياة، ولكنهم كانوا خيرة رجالهم وأكثرهم إقداماً وأصلبهم عوداً.

أخذ شعب قرطاجة يرميهم بالسفافيد ومقاشط الشحم والمطارق، فكان أولئك الذين ارتعد منهم فرقاً قناصل الرومان يموتون بضربات العصي التي كانت تقذفها النساء عليهم! وهكذا فإن العامة من شعب قرطاجة كانت تلاشي المرتزقة، فاحتموا بقمة التل وأخذت حلقتهم تضيق وتنكمش كلما فتحت فيها نقرة، وحاولوا النزول مرتين فردتهم صدمات القرطاجيين وهم متجمعون بلا نظام يبسطون أيديهم ويمدون رماحهم بين أرجل رفاقهم باحثين أمامهم عن أجسام البربر، وربما تزحلقوا على الدماء، والجثث تتدحرج من أعلى لانحدار منحنى الأرض، وهي تغطي حتى البطن ذلك الفيل الذي كان يحاول تسلق الأكمة متلذذاً ببسط جثته فوق القتلى، وخرطومه المبتور العريض الطرف يرتفع بشكل علقة ضخمة.

توقّفوا جميعاً والقرطاجيون يصرفون بأسنانهم ويتطلعون إلى التل الذي لجأ إليه البربر.

وأخيراً اندفعوا هاجمين، فعاد الاشتباك، وكثيراً ما كان المرتزقة يتركونهم يقتربون وهم يتظاهرون بالاستسلام، حتى إذا اقترب القرطاجيون منهم أرسلوا صيحات الاستهزاء وقتلوا أنفسهم بضربة واحدة، وكلما تساقط القتلى كلما علا رفاقهم فوق جثثهم، ليدافعوا عن أنفسهم، وارتفعت الجثث بشكل هرم أخذ يزداد علوّاً.

لم يطل الوقت حتى أصبحوا خمسين، ثم عشرين، فثلاثة، فاثنين فقط:

رجل من السمنيين يحمل فأساً وماتو الذي كان سيفه لا يزال في يده.

كان السمنيت مقعياً على عرقوبيه وبيده فأسه، يدفعها يمنة ويسرة، محذراً ماتو من الضربات التي كانت توجه إليه صائحاً به: «أيها السيد! من هنا! من هناك! انحنِ!» وكان هذا الأخير قد عُرّى من غطائي كتفيه وخوذته ودرعه ومن ثيابه، وأصبح لونه أشد صفرة من لون الموتى، وشعر رأسه منتصب، وعلى طرفي فمه طبقات من زبد، وحسامه السريع في دورانه يرسم هالة حوله، وأُصيب السيف بضربة حجر فكسر مقبضه، وقتل «السمنيت» وتجمع القرطاجيون حوله حتى لامسوه، فرفع نحو السماء يديه الخاليتين وأغمض عينيه ثم فتح ذراعيه كرجل يلقي بنفسه إلى البحر من علٍ، وارتمى بين الرماح فكانت تتنحى من أمامه، وهجم على القرطاجيين مرة بعد مرة فتراجعوا وهم يحولون عنه سلاحهم، وعثرت رجله بسيف فانحنى ليلتقطه فأحس برباط يوثق يديه وركبتيه.

كان ذاك نارهافاس الذي كان يتتبع خطاه منذ حين وبيده شبكة عريضة من الشباك التي تصاد بها الوحوش الضارية، فاغتنم فرصة انحنائه إلى الأرض فغطاه بها.

ربطوه إلى ظهر الفيل وأطرافه الأربعة على شكل صليب، وواكبه الذين سلموا من الجراح وأسرعوا به وهم يضجون ويصيحون إلى قرطاجة.

كانت بشرى الانتصار قد وصلت إليها منذ الساعة الثالثة ليلاً، والساعة المائية الموضوعة بمعبد خامون آذنت بالخامسة عند وصولهم إلى «مالكا» وهناك فتح ماتو عينيه.

كانت المشاعل والمصابيح تملأ البيوت ضياء، حتى بدت المدينة شعلة من لهب، والضوضاء الصاخب يصل إلى أذنيه وهو ملقى على ظهره ينظر إلى النجوم.

وأقفل عليه باب واكتنفته الظلمات.

في الصباح الباكر لفظ روحه آخر رجل من البربر ظل حيّاً في مضيق

الفأس، ففي اليوم الذي رحل فيه رفاقهم مر بهم رجال من قبائل «زوايس» فدحرجوا الحجارة عن مدخل المضيق وجادوا عليهم بالأقوات بعض الوقت وظلوا ينتظرون قدوم ماتو، ولم يريدوا أن يغادروا مكانهم في الجبل إمّا لما بهم من ضنى وإما للعناد الذي يستولي عادة على المرضى فيحبب إليهم البقاء في المكان الذي هم به قابعون. ونفد الزاد ورحل رجال «زوايس»، وكان القرطاجيون يعلمون أن عددهم لا يزيد على الثلاثمائة، وأن لا داعي إذاً لإرسال جنود ليفتكوا بهم، لأن الوحوش الضارية، ولا سيما الأسود، قد ازداد عددها منذ ثلاث سنوات الحرب، ونارهافاس قام بمطاردة تلك الوحوش حتى تجمعت ثم ربط الأمعاز على أبعاد متفاوتة باتجاه مضيق الفأس وساق الضواري باتجاهها، ووصل إلى المضيق الرجل الذي أوفده القدماء ليرى ما بقي فيه من رجال البربر.

على مدى السهل ترقد الأسود والجثث، وتختلط الملابس بشكات السلاح، وكل جثة قد جردت من وجه أو من ذراع، وقليل منها ما ظل سليماً، وبعضها بدا مجفّفاً. والجماجم التي استحالت إلى تراب لا تزال تملأ الخوذ، والأرجل التي عرّيت من اللحم تخرج من طماقاتها، والهياكل العظمية لا تزال محتفظة بأرديتها، والعظام التي جلتها الشمس تبدو نقطاً لماعة بين الرمال.

كانت الأسود رابضة على صدورها إلى الحضيض وقوائمها ممدودة وهي تغض جفونها اتقاء وهج النهار الذي زادته حدة انعكاسات حرارة الصخور البيض، وأسود أخرى أقعت على أعجازها وأخذت تحدق فيما أمامها، أو انكمشت في لبداتها مختفية حتى أنصافها، ونامت مستديرة على خطمها كالكرات، وجميعها ظاهرة بمظهر المشبع لنهمه المتعب المتبرم، وكلها ثابت جامد كالجبل أو كالأموات، وأخذ الليل يرخي سدوله وبدت شرائط حمر ترقش السماء في جهة الغرب.

وفي مرتفع من هذه المرتفعات التي يحدودب بها السهل وقف شيء

أكثر غموضاً من الشبح، فتحرك أسد من الأسود وأخذ يمشي مرسلاً بشكله المخيف ظلاً أسود إلى خلفية السماء المصبوغة بالأرجوان. و لمّا اقترب من الرجل قلبه على ظهره بضربة واحدة من مخلبه ثم ربض عليه بعرض بطنه، وأخذ ينتزع أحشاءه بطرف أنيابه، ثم فتح شدقيه على سعتهما وأخذ يرسل، لمدة بضع دقائق، زئيراً طويلاً تجاوبت في الجبل أصداؤه ثم ضاع في الخلاء الموحش.

فجأة إذا بالحصى تتدحرج من الأعلى وبوقع قوائم مسرعة يسمع، ومن جهة النورج عند مدخل المضيق أفواه مفتوحة وآذان مستقيمة وحدقات ضارية تلمع، كانت تلك بنات آوى مقبلة لتأكل فضلات الأسود.

فيما القرطاجي الذي كان يشهد جميع هذا عاد أدراجه إلى قرطاجة.

*

15

نهاية ماتو

راحت قرطاجة ترقص فرحاً وفرحها كان عميقاً شاملاً لا حد له. كانوا قد سدوا الثغرات التي أحدثها البربر وأعادوا طلاء تماثيل الآلهة. وأغصان الآس تملأ الشوارع، وفي زوايا مفارق الطرق يرتفع دخان البخور، والجماهير المحتشدة على السطوح تبدو بملابسها المرقشة كباقات من أزهار تزدهر في الهواء، وصراخ الأصوات المتواصل تعلوه صيحات حملة المياه يرشون بها البلاط، وعبيد هاميلكار يقدمون باسمه الشعير المحمص وقطع اللحم النيء، والناس يتبادلون التحيات أو يتعانقون وهم يبكون. لقد فُتحت المدن الصورية وتمزق شمل الرحل وأبيد البربر. واختفى الأكروبول تحت مختلف الألوان، وصفت السفن المثلثة خارج المرفإ وهي تتلألأ كأنها سد من الماس، وعم النظام كل مرفق، وبدأت حياة جديدة، وانتشرت السعادة الوافية، وكان كل ذلك في يوم زفاف سلامبو إلى نارهافاس ملك النوميديين.

وعلى شرفة معبد خامون تراكمت حليّ ضخمة على ثلاث مناضد سيجلس إليها الكهنة والقدماء والأغنياء، فضلاً عن منضدة رابعة في مكان أعلى لهاميلكار ونارهافاس وسلامبو، لأن سلامبو إذ استرجعت الحجاب وأنقذت الوطن استحقت أن يجعل الشعب يوم زفافها يوم فرح وطني، وأبناء هذا الشعب وقوف في الميدان ينتظرون ظهورها.

لكن هناك شهوة أشد إلحاحاً تستنفد صبرهم، هي موت ماتو الموعودون برؤيته في هذه الحفلة: وعدوهم في أول الأمر بأن يسلخوا جلده وهو حي، وأن يسيلوا الرصاص في أحشائه، وأن يميتوه جوعاً، وأن يربطوه إلى شجرة ويضعوا وراءه قرداً يتولى ضربه بحجر على رأسه لأنه هتك حرمة تانيت وقردة تانيت تنتقم لها. واقترح آخرون بأن يسيروا به على جمل بعد أن يضعوا في أجزاء من جسمه فتائل مشتعلة من كتان

مغموسة بالزيت، فيطربهم هكذا أن يروا حيواناً ضخماً بينهم في الشوارع، وعلى غاربه هذا الرجل وهو يتلوى من الألم تحت النار كشمعدان تتلاعب به الريح.

لكن تُرى مَن هو المواطن الذي سيتولى تعذيبه، ولم يحرمون غيره من المواطنين، فهم يشتهون نوعاً من التعذيب تشترك فيه المدينة كلها، وأن تجتمع جميع الأيدي وجميع الأسلحة والأشياء القرطاجية حتى بلاط الشوارع وأمواج الخليج لتمزقه وتسحقه وتلاشيه. وعلى ذلك قرر القدماء أن يخرج من سجنه إلى ميدان خامون دون حراس ويداه مشدودتان إلى ظهره، ومنعوا من ضربه على قلبه ليطيلوا حياته، ومن سمل عينيه ليتمكن حتى النهاية من رؤية أصناف تعذيبه، كما حذروا الناس أن يقذفوه بأي شيء أو أن يضربوه بأكثر من ثلاثة من أصابعهم في الضربة الواحدة.

وعلى الرغم من علمهم بأنه لن يظهر لهم إلاّ في آخر النهار، فقد شبُّه لهم أنهم يلمحونه، فهرعوا جماعات نحو الأكروپول ثم رجعوا وهم يتذمرون. ولزم أناس الوقوف في مكان واحد منذ العشية، وهم يتنادون عن بعد، ويستعرضون أظفارهم التي تركوها بدون تقليم ليغرسوها في جسمه، وآخرون يذهبون ويجيئون مضطربين صفر الوجوه كما لو أنهم ينتظرون تنفيذ الحكم بهم.

وإذا بمراوح الريش العالية تبدو وراء «مابال» مرتفعة فوق الرؤوس. كانت تلك سلامبو تخرج من قصرها، فتنفّس الناس تنفس الارتياح. ولكن الموكب طال وصوله لتقدّمه خطوة فخطوة.

مر في الطليعة كهنة باتوك فأشمون فمالكاريت، وتلاهم الآخرون بالشارات نفسها والأعلام والنظام كمثل يوم تقدمة المحرقات، وكان كهنة مولوخ مطأطئي الرؤوس والجماهير تتنحى عنهم عند مرورهم بدافع من تبكيت الضمير، ولكن كهنة «ربتنا» كانوا يتقدّمون بخطى المعجب بنفسه، وأعوادهم في أيديهم ووراءهم الكاهنات بفساتين شفاشة صفر وسود، وهنّ يقلّدن تغريد الطيور، ويتلوين كالأفاعي أو يبرمن برماً من

أصوات الشبّابات ليقلّدن رقصات الكواكب، وملابسهن الرقيقة تنشر في الشوارع هبات من النكهات الرخوة. ويصفق الشعب عند مرورهن لنساء «الكديشيم» ذوات الحواجب المزججة المصبغة اللائي يرمزن عن أخنات الآلهة، وقد كن، وهنّ معطرات ولابسات مثلهن، يشبههن رغم أثدائهن المفلطحة وأردافهن الضيقة.

ولا بِدع فإن مبدأ الأنثوية كان يسود في هذا اليوم كل شيء ويخلط بين كل شيء، لأن روح شهوة سرية كانت منتشرة في الهواء المثقل، وقد بدأوا يشعلون المصابيح في أقصى الغابات المقدسة، فلا بد إذاً من قيام حفل فسق كبير في هذا الليل، لأن هناك ثلاثة مراكب جلبت من صقلية عدداً من المحظيات كما جاء بعضهن من الصحراء.

كانت كلّما وصلت طائفة اصطفت في دور المعبد على الأروقة الخارجية وعلى السلالم المزدوجة التي ترتفع مستندة إلى الجدران حتى تتلاقى عند أعلاها. وبدت صفوف من الفساتين البيض بين الأعمدة، وامتلأ المكان بالتماثيل البشرية الجامدة كالتماثيل الحجرية.

وأقبل أساطين المالية وحكام الأقاليم وجميع الأغنياء. وارتفع الضوضاء من أسفل. ومن الشوارع المجاورة خرجت الحشود، وخدمة المعبد يدفعونهم إلى الوراء بضرب العصيّ ليحولوا بينهم وبين القدماء، وعلى محفة تعلوها مظلة من أرجوان، لاحت للناظرين سلامبو متوّجة بتاج ذهبي.

وارتفعت عندذاك الأصوات وتعالت ضربات الصنوج ودقات الجلاجل أكثر من ذي قبل، وضربت الدفوف وتغلغلت مظلة الأرجوان الكبيرة واختفت في المعبد المربع الضخم.

عادت المظلة فظهرت في الطابق الأول وتحتها تتقدم سلامبو ببطء حتى اجتازت الشرفة لتجلس في أقصاها على عرش منحوت بشكل درع السلحفاة، ووضعوا تحت قدميها موطئاً من عاج ذي ثلاث درجات، على طرفي الأولى منها غلامان زنجيان جاثيان، فكانت تسند إلى رأسيهما

ذراعيها المثقلتين بالخواتم من وقت إلى وقت. ومن الكعبين إلى الردفين يشدها خط من حلقات ضيقة هي تقليد لقشور السمك، ولكنها تلمع كالعاج، كما يشد قامتها نطاق أزرق أبرز نهديها فبرزا من خلال تجويفين كأنهما هلالان، وغطى حلمتيهما أقراط من الياقوت الجمري مدلاة، وصُفف فرع رأسها بريش طاووس علقت فيه حجارة كريمة بشكل نجوم، وتدلى وراءها رداء أبيض شبيه بالثلج، وكانت جالسة منتصبة القامة وبالشكل الذي تفرضه الطقوس الدينية، ومرفقاها ملقيان على جسمها، وركبتاها مضمومتان، ويطوق معصميهما حلقات من الماس.

جلس أبوها وخطيبها على مقعدين دون مقعدها، يلبس نارهافاس «سيماراً» أصفر اللون، وقد عقد على رأسه تاجاً من جوهر الملح مرصعاً بالجواهر نفرت من تحته خصلتا شعر مجدلتان على شكل قرني آمون، وعلى هاميلكار حلة بنفسجية طرزت عليها بالذهب غصون عنب مورقة، وهو لا يزال يتقلّد سيفه.

وفي المساحة المتروكة بين المناضد رقدت حية آمون بين بقع من الزيت وردية رخوة، وقد عضت ذنبها فاستحال إلى دائرة سوداء، في وسطها عمود من نحاس يحمل بيضة من بلور سطعت عليها الشمس فعكست أشعتها فيما حولها.

اصطف وراء سلامبو كهنة تانيت بأثوابهم الكتانية، وإلى يمينها القدماء يشكلون مع تيجانهم خـ طًا طويلاً من الذهب، وأمامهم في الجهة الثانية الأغنياء بصولجاناتهم الزمردية يشكلون خطاً طويلاً أخضر، وفي أقصى المكان اصطف كهنة مولوخ بأرديتهم الحمر كأنهم جدار من أرجوان، والطوائف الأخرى تحتل الشرفات السفلى، والجماهير تملأ الشوارع، ولربما تسلقوا السطوح ليصلوا صفوفاً صفوفاً إلى أعلى الأكروبول.

فأما وقد وقف الشعب تحت قدميها، وامتدّ الفلك فوق رأسها، وانبسط حواليها البحر المتناهي باتساعه، والخليج والجبال ومنظر الأقاليم البعيدة، فإن سلامبو المشرقة قد امتزجت بتانيت بل أصبحت عبقرية

قرطاجة وروحها المتجسّدة.

كانت الوليمة ستستمر طوال الليل، والمصابيح ذات الفروع الكثيرة أثبتت على قواعدها كأنها أشجار على تلك الأبسطة الصوفية المصبغة التي كانت تغطي المناضد الوطيئة؛ وازدحمت قوارير الفضة والذهب وأباريق الزجاج الخضر والملاعق من حراشف الأسماك، وأرغفة الخبز الصغيرة المدورة ترتمي في أنواع من الصحون ذات الحفاف اللؤلؤية، وعناقيد العنب وأوراقها معها ملفوفة كالشماريخ المعلقة على دوالٍ من عاج، وكتل الثلج تذوب على صواني الأبنوس، والليمون والرمان والكوسى والبطيخ ترتفع شبه تلال على آنية الفضة، وخنازير برية مفتوحة الفناطيس تلعق غبار مسحوق الأفاويه، وأرانب برية مغطاة بالوبر تبدو كأنها تقفز بين الأزهار، ولحوم مختلفة تملأ الأصداف، وللحلويات صورة رمزية، وجلاجل في الصحاف إذا نزعت طارت منها الحمائم البيض.

أمّا العبيد فهم مشمرون عن أكمامهم يروحون ويجيئون على أطراف الأصابع، ومن وقت إلى وقت تضرب الأعواد نغماً، أو ترتفع أصوات جوقة بالغناء، وضوضاء الشعب يستمر استمرار هدير البحر، ويطفو بغموض حول المأدبة كأنه يهزها بأنغام أكثر طولاً. وتذكّر بعضهم مأدبة المرتزقة.

استسلم المدعوون إلى أحلام السعادة، وبدأت الشمس تهبط والهلال يصعد في الجهة الأخرى من السماء.

وكأن هاتفاً أهاب بسلامبو فمالت برأسها، ورآها الشعب فتتبع مرمى نظرها.

ففي قمة الأكروپول انفتح باب السجن المظلم المنحوت في الصخر في أسفل المعبد، وعلى عتبة هذه الظلمة وقف رجل، خرج من سجنه محنيّ الظهر وعليه ملامح الوحوش المذعورة الضارية التي يطلق سراحها على حين فجأة، وكان النور يبهر عينيه فظل حيناً جامداً لا يتحرك. وعرفه جميع الناس، فأخذوا يكتمون أنفاسهم، فجسم هذه الضحية ذو صفة

خاصة لديهم، موسوم بلألاء يكاد يكون دينيّاً. فأخذوا يتتبعون لسيره، ولا سيما النساء منهم، فهن متلهفات لرؤية قاتل أبنائهن وأزواجهن، ومن قرارة أنفسهن يخرج فضول مرذول هو اشتهاؤهن معرفته معرفة كاملة، ولكنها شهوة ممزوجة بتبكيت الضمير تتحول إلى اشتداد لكرههن إياه.

أخيراً تقدم إلى الأمام فزال أثر صدمة المفاجأة، وارتفعت أذرع لا عداد لها فاختفى خلفها.

كان لسلّم الأكروپول عشرون درجة تدرّك عليها كما لو كان يتخبط وسط سيل متدفق من جبل. ولمحوه يطفر ثلاث مرات ثم يسقط في أسفل الدركات على عقبيه، وكتفاه تدميان وصدره يلهث بانتفاضات واسعة، وهو يبذل مجهود الجبابرة ليقطع وثاقه حتى بدت ذراعاه المصلبتان على كليتيه العاريتين منتفختين كقطع من حيات مقطعة. ومن المكان الذي كان فيه بدت أمامه شوارع عديدة في كل منها سلاسل من البرونز ذات ثلاثة صفوف مثبتة في سور الإلهة «باتوك» تمتد من أول الشارع إلى آخره بخطين متقابلين، والجماهير متراصة على الجدران، وفي الوسط خدم القدماء يمشون جيئة وذهاباً وبأيديهم سياط من جلد مرفوعة.

ودفعه أحدهم إلى الأمام بضربة قوية، فأخذ ماتو يمشي وهم يمدون أذرعتهم من فوق السلاسل ويصرخون شاكين مما تركوا له من سعة في طريقه، وهو يمشي والأيدي تتحسسه والأظفار تخدشه وتمزقه، فإذا بلغ نهاية شارع بدا غيره، وكثيراً ما كان يرتمي نحوهم لينهشهم بأسنانه فيتنحون مسرعين والسلاسل تمسك به فيستغرق الحشد بالضحك.

ونتش صبيّ أذنه، وشقت فتاة خده برأس مغزل كانت تخبئه في كمها، وانتزعوا بملء قبضاتهم خصلاً من شعره ونتفاً من لحمه، وأخذ غيرهم يدمغون وجهه بإسفنج ممتص للأقذار محمول على عصيّ، وتدفق سيل من الدماء من الجانب الأيمن لحنجرته، فبدأت حشرجة الموت تأخذه. فهذا الرجل، آخر البربر، كان يمثل جميع البربر، وكل الجيش، فهم يثأرون منه لهزائمهم ورعبهم وخزيهم وعارهم، وسعار الشعب يزداد شدة إذا أشبع.

وأخذت سلاسل الشوارع المبالغ في شدها تلتوي لاندفاعهم وهم عليها لا يحسون لشدة توترهم بضربات العبيد الذين يحاولون ردّهم إلى الوراء. وكثيرون صعدوا فوق نتوءات البيوت، وسدت الرؤوس فتحات الجدران. والأذى الذي ما كان يمكنهم أن يلحقوه بأيديهم قذفوه به بعوائهم: كانت تلك شتائم مقذعة مفحشة قاسية قذرة مليئة بالتعريض والتلميح وباللعنات، وكأنهم رأوا أن ما حل به اليوم من ألم حاضر ليس فيه الكفاية فأخذوا يبشرونه بعذاب آلم وأوجع في الأبدية.

كان هذا العواء يملأ قرطاجة ويستمر استمراراً يدل على الحمق والغباوة. وكثيراً ما كانوا يرددون جميعاً، لمدة دقائق، مقاطع كلمة أو نبرة صوت جشاء عميقة شديدة تتجاوب أصداؤها على الجدران فتهزها من قواعدها حتى ذراها. وكان يخيل إلى ماتو أن جانبي الشارع يتحركان نحوه ليخطفاه من الأرض ويرفعاه كذراعين لا حدّ لطولهما فيخنقاه في الهواء.

وتذكر أنه قد أحس بالأمس شيئاً مثيلاً، فالشعب هو هو على السطوح، ونظراته لم تختلف ولا تبدّل غضبه، ولكنه كان يوم ذاك يمشي حراً فيتنحون عن طريقه لأن إلهاً كان يغطيه. وأخذت هذه الذكرى تتبلور أمام عينيه شيئاً فشيئاً فتحمل إليه غمّاً مدمّراً. وتمر أمامه ظلال، وتدور المدينة في رأسه، وتسيل الدماء من جرح في فخذه، فأحس بقرب الموت، والتوى عرقوباه وهوى إلى الحضيض على البلاط.

أسرع رجل إلى رواق الأعمدة في معبد مالكاريت وتناول من موقده قضيب حديد حُمّي بالجمر حتى احمر، ومده من خلال السلسلة الأولى وشد به على جرحه العميق، فتصاعد الدخان من اللحم المكويّ، وكتم صراخه هتاف السخرية والتشفي الذي ارتفع من الشعب. وانتصب ماتو واقفاً.

سقط مرة ثانية على بعد ست خطوات، وتوالى سقوطه ثالثة ورابعة. فكان يوقفه في كل مرة شكل من التعذيب جديد: رشوا عليه من أنابيب

نقطاً من الزيت المغلي، ونثروا تحت قدميه العاريتين شظايا من الزجاج المكسّر، واستمرماتو يسير حتى وصل إلى زاوية شارع «ساتب»، فاستند إلى الحائط تحت سقيفة حانوت وتوقف عن السير، فجلده العبيد بسياط من جلد جاموس البحر جلداً مبرحاً دام طويلاً حتى تبللت أثوابهم بالعرق، وهو فاقد الإحساس، وإذا به يتحفز ويأخذ في الجري بلا هدى ويخرج من شفتيه صريفاً كصريف من يقشعر من البرد، واجتاز شارع «بوديس» فشارع «سوبو» فوق الأعشاب، ووصل أخيراً إلى ميدان خامون، فأصبح الآن مملوكاً للكهنة، وكان العبيد قد نحوا جماهير الشعب فاتسع المجال.

نظر ماتو إلى ما حوله فوقعت عيناه على سلامبو.

كانت قد انتصبت واقفة منذ الخطوة الأولى التي خطاها، وكلّما اقترب كلّما تقدمت هي شيئاً فشيئاً، ودون إرادة منها نحو حافة الشرفة، وبعد قليل انمحت أمامها جميع الأشياء الخارجية فلم تعد ترى إلاّ ماتو. لقد خيم الصمت على نفسها، وتلك وهدة من هذه الوهدات يختفي فيها العالم بأسره تحت ضغط فكر متسلط أو ذكرى أو نظرة. فهذا الرجل السائر نحوها كان يجتذبها.

لم يبق له من مظهر الإنسان إلاّ عيناه، فهو شكل من الأشكال طويل أحمر كل الحمرة، يتدلى وثاقه المقطوع على طول فخذيه، ولا يمكن التمييز بين هذه الحبال وبين أطراف عضلات قبضتي يديه المجردتين من اللحم كل التجرد، وفمه لا يزال فاغراً، ومن محجريه يخرج لهبان كأنهما يرتفعان حتى شعر رأسه، وهذا البائس اليائس دائب في مشيه.

وصل إلى أسفل الشرفة تماماً وسلامبو منحنية على الإفريز، وبؤبؤا عينيه يتأملان بها، فانفجر من وجدانه ذكر ما قاساه من العذاب في سبيلها، وعلى الرغم من أنه كان يلفظ أنفاسه، رأته كما كان في خيمته جاثياً أمامها محيطاً قامتها بذراعيه متمتماً كلمات عذبة. لقد كانت عطشى للإحساس بعذوبة تلك الكلمات ولسماعها مرة ثانية، ولم تكن تريد أن يموت. وفي

هذه اللحظة انتفض ماتو انتفاضة شديدة فأوشكت أن تصرخ، وهوى منطرحاً على ظهره وفارقته الحركة إلى الأبد.

أوشك أن يغمى عليها، فحملها إلى عرشها الكهنة المتهافتون حولها، وهم يهنئونها لأن كل هذا عمل يديها. وكانت الجماهير كلها تصفق وتضرب الأرض بأقدامها هاتفة باسمها.

انقض رجل على الجثة ولم يكن ملتحياً ولكنه كان يلقي على كتفه رداء كهنة مولوخ، وفي منطقته مدية من المدى التي يستخدمونها لسلخ جلود اللحوم المقدسة، وفي طرف مقبضها شبه ملعقة كبيرة من الذهب، فشق صدر ماتو بضربة واحدة وانتزع منه قلبه ووضعه على الملعقة. ورفع شاهبريم ذراعه وقدم القلب تقدمة للشمس.

كانت الشمس تنحدر وراء الأمواج، وأشعتها تضرب كأسهم طويلة قلب ماتو الأحمر كل الحمرة، ويغوص الكوكب في البحر بنسبة تلاشي خفقات القلب، ويختفي مع الخفقة الأخيرة.

ومن الخليج إلى المستنقع، ومن البرزخ إلى المنارة، وفي جميع الشوارع، وعلى أسطح المنازل والمعابد، ارتفعت عند ذاك صرخة واحدة تخفت حيناً ثم تعود فتدوي فتهتز منها المباني. كانت قرطاجة كلها تهتز بتشنّجات فرح عامر وأمل غير محدود.

أخذت نارهافاس نشوة الكبرياء فلفّ ذراعه اليسرى حول قامة سلامبو إشعاراً بامتلاكه إياها، وأخذ بيمناه كأساً من الذهب وشرب نخب قرطاجة.

وقفت سلامبو كما وقف نارهافاس وبيدها كأس لتشرب هي أيضاً، لكنها هوت على عرشها ورأسها إلى الوراء فوق المسند شاحبة اللون كل الشحوب متصلبة وشفتاها منفتحتان، وفرع رأسها المرخي يتدلى على الأرض.

وهكذا ماتت سلامبو ابنة هاميلكار لأنها لمست وشاح تانيت المقدّس!.

*

سلامبو

رائعة فلوبير الملحمية

كان بودلير متأثراً بالعظمة الملحميّة لـ «سلامبو»، ويدّعي غوته أنه من الواجب مطالعة هذا العمل كقصيدة ملحمية وليس كرواية. وقد تكلّم فلوبير نفسه بعد إتمام «مدام بوفاري» عن هواجسه الملحميّة، فقد استهوته الملحمة كصنف ولون، وما انفكّت تعمل على إستمالته.

كانت أمنيته الكبيرة أن يقرأ إلياذة هوميروس الأصلية، وتتجلى المواقف التقليدية للملحمة في «سلامبو»: إحصاءات وتنقّلات هائلة للجيوش، أو لأمة بأجمعها، مآثر عسكرية، صداقات حماسية. أعمال فردية تندرج في عمل جماعي شامل، دسائس ومكائد، وكل حركة تُمسي مأثرة.

وإلى جانب هذا كلّه تبرز «سلامبو» ابنة هاميلكار، كاهنة معبد تانيت، لتفيض على عتمة المعارك نور بهائها المقدس، المحاط بجلال أبيها، ولتسقط في نهاية الرواية جرّاء حب كتمته في قلبها لعدو قرطاجة زعيم البربر.

في «سلامبو» يتجلّى مبدأ الموت في أنشودة سلامبو التي تصف رأس ماسيسبال المقطوع، المعلق في مقدمة السفينة، والذي تحنّطه حركة الماء والشمس وتجعله أكثر صلابة من الذهب – تصوير وتحنيط خيالي – وكأنّنا بفلوبير يبحث عن جمع مستحيل بين الواقع والمصير، بين الحاضر والمستقبل.

علي مولا

ISBN 978-9953-542-16-4

9 789953 542164

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع